

الأجوبة الوافية في رد شبهات الوهابية

المجلد الأول

تأليف: مؤسسة الكوثر للمعارف الإسلامية

لجنة التحقيق: الشيخ قيصر التميمي، الشيخ علي حمود العبادي، الشيخ شاكِر عطية الساعدي

تصحيح: الشيخ عبد السادة الساعدي والشيخ أمير كاظم حسون

مراجعة وتقويم: السيد حاتم البخاتي والسيد ميثم الخطيب

الناشر: دهكده جهاني آل محمد ﷺ

الطبعة الأولى: / ١٤٢٨ هجري قمري

التنضيد والإخراج الفني: مؤسسة الكوثر للمعارف الإسلامية / محسن الجابري

الطبع: أميران . قم المقدسة

سعر دوره: ٩٠٠٠ تومان

العدد: ٢٠٠٠

شابك: ٩٧٨ . ٩٦٤ . ٩٤٣٨٨ . ٧ . ٤

جميع حقوق الطبع والترجمة محفوظة للمؤسسة الكوثر للمعارف الإسلامية

هاتف: ٠٠٩٨ . ٢٥١ . ٧٧٣٠٩٤٤

سایت: www.Annalat.org

العنوان: قم / الشارع سمية / زقاق ١٨ / رقم الدار ١٥

مقدمة الكتاب

الحوار والمناظرة من الفنون العريقة وذات الجذور المتأصلة في التاريخ ، وقد يصعب على الباحث . بحسب ما يجوزته من التراث . أن يعطي صورة واضحة عن انطلاقة هذا الفن وبداياته . ولكن القرآن الكريم أطلعنا على حوار جرى بين الله تعالى وبين ملائكته ، حينما أراد أن يخلق الإنسان ويجعله خليفة في الأرض ، وذلك في قوله تعالى : (**وَإِذْ قَالَ رَبِّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ**) ^(١) ، فالله تعالى قد فسح المجال أمام الملائكة للإدلاء برأيهم في خلافة الإنسان ، وقد افترضوا أن خليفة الله عز وجل لا يمكن أن يكون مفسدا ولا سفاكا للدماء ، فأقرهم الله تعالى على ذلك ولم ييطل حجَّتْهم ، إلا أنه أجابهم من جهة أخرى ، وهي أنهم لم يطلعوا على الحقيقة كاملة ، وأن هناك أهدافاً وغايات سامية تترتب على خلافة الإنسان في الأرض قد خفيت عليهم ، ولا يحق لهم أن يدخلوا الحوار والمناظرة إلا عن علم واطلاع ، وقد أذعنوا بذلك عندما قالوا : (**سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ**) ^(٢) .

(١) البقرة : ٣٠ .

(٢) البقرة : ٣١ .

ونفهم من ذلك أن الحوار من الأبواب التي فتحها الله تعالى أمام كل مفكر عاقل قادر على إدراك الحقائق والاطلاع على مجريات الأحداث ؛ ومن هذا المنطلق أيضا نجد أن الله تعالى قد أعطى إبليس حرية الرأي وإبداء الملاحظات في المسألة ذاتها ، مع سابق علمه تعالى ببطلان حجته ، وقد حكى لنا القرآن الكريم حوارا ومناظرة استدلالية قد دارت . في ذلك الحين . بين الله تعالى وبين إبليس عندما أمر الله تعالى الملائكة بالسجود لآدم عليه السلام : (فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ * قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ * لَمَّا أَكُنْ لَأَسْجُدَ لِشَيْءٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ * قَالَ فَاصْخَبْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ) (١) .

هذه الحرية في الحوار وإبداء الرأي تعطينا صورة واضحة عن أهمية هذا المبدأ الذي تقوم عليه ركائز العلاقة بين الله تعالى وبين مخلوقاته .

ثم إننا عندما نتابع سيرة الأنبياء الذين بعثهم الله تعالى لهداية الخلق ، نجدها قائمة على التمسك بمبدأ الحوار والحرص على إيصال الرأي الآخر إلى الطرف المخالف ، من قبيل ما جرى بين إبراهيم عليه السلام وبين النمرود ، قال تعالى : (لَمَّا تَبَرَ إِلَى اللَّهِ جَاغَ إِبْرَاهِيمُ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ فَلَمَّا رَأَى أَنَّهُ يُخَيَّبُ وَيُخَيِّبُ قَالَ أَنَا أُخَيِّبُ وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ أَنَّ كَفَرَ وَلَهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمُ الظَّالِمِينَ) (٢) .

وهذا ما أمر الله تعالى به نبيه الأكرم محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، كما في قوله تعالى : (ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ

(١) الحجر : ٣٠ - ٣٤ .

(٢) البقرة : ٢٥٨ .

أَعْلَمَ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ) (١) .

إذن فالنتيجة التي نخلص إليها : أن الحوار ومبدأ المناظرة مقيدٌ ديني وإلهي قبل أن يكون من مقدّسات البشر .

ولكن المؤسف هو أنّ بعض القنوات الفضائية قد أساءت إلى هذا المقدّس الديني والبشري ، عندما استضافت للحوار أشخاصاً لا يؤمنون به ، بل يرفعون شعار التكفير والقتل والإرهاب بوجه كل من يخالفهم الرأي .

وقناة المستقلّة الفضائية . سيّئة الصيت . من تلك القنوات التي كانت ولا زالت تستدعي للحوار المتعجرفين من أتباع الفرقة الوهابيّة الضالّة ، من أمثال عثمان الخميس والدمشقية والبلوشي ، وغيرهم من التكفيريين ، الذين ما فتئوا يكفّرون المسلمين بكافة طوائفهم ، مستندين في ذلك إلى حجج واهية أملتها عليهم نفوسهم الضعيفة .

وبهذا أصبحت قناة المستقلّة الفضائية من القنوات المشبوهة ؛ إذ ابتعدت عن عنوانها الذي تسمّت به ، محاولة . بواسطة أولئك الضالّين . أن تزرع الحقد والكراهية في نفوس المسلمين ، وهدفها من وراء ذلك إثارة النعرات الطائفية ، وإحداث الفرقة بين أبناء أمتنا الإسلاميّة الواحدة ، مع أنّ المسلمين في وقتنا الحاضر بأمرس الحاجة إلى التماسك والوحدة ، ورصّ الصفوف ؛ للوقوف أمام التحدّيات التي يواجهونها .

(١) النحل : ١٢٥ .

ومن منطلق الشعور بالمسؤولية كانت مؤسّسة الكوثر للمعارف الإسلامية تتابع ما يجري على تلك القناة عن كتب وحرص شديدين ، وكانت تسعى جادّة أيضاً لدراسة هذه الظاهرة الخطيرة والهدامة ، وقد ساهمت في ذلك الحين للعمل على إزاحة الشبهات التي قد تستحدثها أبواق الضلال في نفوس المسلمين .

ولكي تكون هذه المؤسسة المباركة فاعلة في هذا الميدان ، ومؤثّرة في أداء ما تشعر به من المسؤولية تجاه ما يجري في العالم الإسلامي ؛ بادرت . من خلال قسم البحوث والدراسات . إلى دراسة أهم الشبهات العقائدية التي أثارها التكفيريون من الفرقة الضالة ، ثم تصدّت وبكل جدارة للإجابة عن هذه الشبهات بأجوبة محكمة ورصينة ، كشفت القناع عن زيف ما يزعمه المبطلون .

وقد استجاب لإنجاز هذه المبادرة الطيبة كل من : فضيلة الشيخ علي حمود الشطري العبادي ، وفضيلة الشيخ قيصر التميمي ، وفضيلة الشيخ شاكر عطية الساعدي ، فجزاهم الله عن الإسلام خيراً ، وجعل عملهم هذا خالصاً لوجهه الكريم ، ونافعاً في يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم .

وحاولوا في أجوبتهم هذه جاهدين أن يتعدوا عن لغة السب والتكفير والتجاوز على آراء وعقيدة المذاهب الإسلامية الأخرى ، ومعتمدين في كل ذلك على الأدلة الواضحة والبراهين الساطعة ، مستنيرين بهدي الكتاب الكريم والسنة النبوية المباركة ، التي وردت في الكتب المعتمدة عند أبناء الطائفة السنيّة .

منهج البحث

لقد التزمنا في الإجابة عن الشبهات في فصول هذا الكتاب منهجاً واضحاً يستند إلى الأساليب العلمية والمعتمدة في مجال البحث والتحقيق ، ويمكن تلخيص تلك الأساليب بالنقاط التالية :

١ . اعتماد التحليل والوصف في عرض الأجوبة ، ثم الحكم عليها من خلال نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية المباركة .

٢ . اعتماد المصادر الحديثية والروائية المعتمدة والمعتبرة عند علماء الطائفة السنية .

٣ . اعتماد الكتب الرجالية والدرائية في تصحيح طرق الروايات والأحاديث الواردة عن النبي الأكرم ﷺ ، والاستناد في توثيق أو تضعيف الرواة على أصح المباني المعتمدة لدى كبار علماء الطائفة السنية .

٤ . اعتماد أقوال علماء الطائفة السنية من خلال الرجوع إلى أهم المصادر والكتب المعتمدة .

٥ . الابتعاد عن لغة السب والتكفير والتجاوز على آراء وعقيدة المذاهب الإسلامية الأخرى ، معتمدين في ذلك كله على الأدلة الواضحة والبراهين الساطعة في سبيل الوصول إلى الحقيقة ، بعيداً عن التعصب المذهبي والجدال بالباطل .

خطة البحث

جاء البحث على النحو التالي :

تقسيم البحث إلى جزئين ، وكل جزء يتضمن على عدة فصول .

وقد تضمن الجزء الأول الفصول التالية :

الفصل الأول : وقد تناول الإجابة عن شبهة عدم الجعل الإلهي للإمامة .

أما الفصل الثاني : فقد اختصت الإجابة فيه عن الشبهة القائلة بأن حديث الأئني عشر فكرة يهودية .

وأما الفصل الثالث : فقد تضمن الإجابة عن الشبهات الواردة حول الإمام المهدي عليه السلام ، والفائدة من وجوده وغيبته عليه السلام .

وأما الفصل الرابع : فأجبت فيه عن شبهة استبعاد عصيان الصحابة لما أوصى به الرسول صلى الله عليه وآله وسلم .

أما الفصل الخامس : فقد اعتني بالإجابة عن الشبهة القائلة بوجود النص على خلافة أبي بكر .

وأما الفصل السادس : فقد خصصناه للإجابة عن شبهة الغلو في مسألة إمامة أهل البيت عليهم السلام .

أما الجزء الثاني فتضمن الفصول التالية :

الفصل الأول : وقد كرر للإجابة عن الشبهة القائلة بأن الشعائر الحسينية بدعة .

أما الفصل الثاني : فتضمن الإجابة عن الشبهة القائلة بأن التوسل بأهل البيت عليهم السلام شرك .

وأما الفصل الثالث : فهو يجيب عن شبهة عدم مشروعية اللعن في القرآن الكريم والسنة الشريفة .

أَمَّا الفصل الرابع : فقد تصدّى للإجابة عن شبهة تحريف القرآن المنسوبة إلى الشيعة .

وأَمَّا الفصل الخامس : فقد أجاب عن شبهة عدم مشروعية التقيّة .

وأَمَّا الفصل السادس : فقد اعتني بالإجابة عن شبهة عدم مشروعية الزواج المؤقت (المتعة) .

ولا يفوتنا أن نتعلّم بالشكر الجزيل لكل مَن ساهم في إنجاز هذا الكتاب ، لا سيّما الأخ السيد

حاتم الموسوي ، والشيخ فلاح عبد الحسن الدوخي ، لما بذلاه من جهد ومتابعة .

وأخيرا نرجو الله تعالى أن نكون قد وفقنا فيما قصدناه من الدفاع عن العقيدة والحرص على وحدة

الأمة الإسلامية ، والله من وراء القصد .

لجنة التأليف في قسم الدراسات والبحوث

مؤسسة الكوثر للمعارف الإسلامية

٢٥ / ذي القعدة / ١٤٢٨ هـ

الفصل الأوّ: هل الإمامة جعل إلهي؟

- ١ . شبهات حول الإمامة
هل الإمامة جعل إلهي ؟
الإمامة في القرآن
- ٢ . شبهات حوله آية الولاية
- ١ . آية الولاية لا تختص بعلي عليه السلام .
- ٢ . آية الولاية لا تعني الأولى بالتصريح
- ٣ . آية الولاية لا تشمل بقيّة الأئمّة
- ٤ . كيف يستدل الشيعة بشأن النزول ؟
- ٥ . المعروف أن عليًا فقير فكيف يتصدق ؟
- ٣ . آية البلاغة تدل على أن النبي ﷺ لم يبلغ سابقا
- ٤ . لا وجود لاسم علي في القرآن
- ٥ . آية التطهير لا تختص بأئمّة الشيعة

الفصل الأول : هل الإمامة جعل إلهي ؟

الشبهة :

إنّ الإمامة غير مجعولة من الله تعالى ؛ لأنّها لو كانت كذلك فإمّا أن يكون المراد منها الحكومة أو الهداية ، مع أنّنا نعلم أنّ الأئمة لم يحكموا ، إلّا الإمام علي والحسن ، وإن كانت الإمامة هي إمامة هداية فأين آثارهم وأقوالهم ؟

الجواب :

ينبغي لكل إنسان أن يؤسّس عقيدته على قواعد معرفية صحيحة ؛ لأن العامل على غير بصيرة كالسائر على غير الطريق ، لا يزيده سرعة السير إلّا بعداً^(١) .

وكما قال الله عز وجل : (**إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَلَعْمَلِ الصَّالِحِ يَرْفَعُهُ**) (٢) .

وعلى ضوء ذلك يجب علينا أن نعي ونتفهّم بيانات القرآن الكريم جيداً ، الذي هو تبيان لكل شيء ، قال تعالى : (**وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ هُدًى نُّهُجًا وَبُشْرًا لِلْمُسْلِمِينَ**) (٣) .

ومن أبرز المفاهيم التي أولاها القرآن الكريم عناية خاصة ، هي مسألة الإمامة ، وقد طفحت النصوص القرآنية بذكرها والتأكيد عليها ، والمهمة ذاتها تنهض بها النصوص النبوية الشريفة .

فالقول بأنّ الإمامة لا ذكر لها في القرآن ، أو أنّها لا فائدة منها ، أو لا

(١) انظر : أصول الكافي ، محمد بن يعقوب الكليني : ج ١ ص ٤٣ .

(٢) فاطر : ١٠ .

(٣) النحل : ٨٩ .

معنى لها ، أو غير ذلك ، لا يستبطن إلاّ الجهل بالقرآن الكريم .
وقبل الدخول في البحث . الذي نستهدف فيه إعطاء لمحة تصوّية عامة عن الإمامة في القرآن الكريم .
نبدأ بتقديم نقطة منهجية تساهم في إيضاح المطلوب ، ضمن العناوين التالية :

الإمامة جعل وعهد إلهي :

عندما نقف على نصّ قرآني واحد يلتقي في الدلالة على المطلوب مع عدّة نصوص قرآنية أخرى ،
وهو قاله تعالى : (مَذَّابْنِي إِبْرَاهِيمَ رَبِّهِ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّتْهُنَّ قَالَ إِنْ جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي
قَالَ لَا يَبَالُ عَهْدُكَ الظَّالِمِينَ)^(١) ، نجد أنّه يكشف وبكل وضوح عن كون الإمامة عهداً وجعلاً
واصطفاء واختياراً من الله تعالى لذلك الإنسان الذي يرى الله عز وجل فيه القابلية والاستعداد لتسنّمه
هذا المنصب الإلهي .

من ذلك يتضح أن الرؤية القرآنية للإمام الهادي أن يكون بجعل وعهد من الله تعالى : (إِنْ
جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَبَالُ عَهْدُكَ الظَّالِمِينَ)^(٢) ، وقوله تعالى : (وَجَعَلْنَاهُمْ
أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ)^(٣) ، وقوله تعالى : (وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ
بِأَمْرِنَا هَؤُلَاءِ إِلَيْهِمْ فَعَلِ الْخَيْرَاتِ)^(٤) ، وقوله تعالى : (هَجَعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا)^(٥) ، وقوله تعالى :

(١) البقرة : ١٢٤ .

(٢) البقرة : ١٢٤ .

(٣) السجدة : ٢٤ .

(٤) الأنبياء : ٧٣ .

(٥) الفرقان : ٧٤ .

(وَنَجْعَلُهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلُهم الْوَرِثِينَ) (١) .

الإمامة غير النبوة :

وكذلك تكشف الآية المباركة (إني جاعلك) عن أنّ الإمامة غير النبوة ، ومما يؤكّد هذا المعنى :
أولاً : أن نبي الله إبراهيم عليه السلام مُنِحَ هذا المقام بعد تعرّضه لسلسلة من الابتلاءات والاختبارات ،
وكان ذلك في أواخر عمره الشريف ؛ لأنّه طلبها لذريّته ، وهو لا يتناسب إلّا مع حصول الذريّة له ،
وتجاوزه مرحلة الشباب والفتوة ، خصوصاً وأنّه عليه السلام لم يُبرزق الذريّة إلّا بعد فترة مديدة من الزمن تجاوز
فيها تلك المرحلة ، في حين أنّه عليه السلام عندما أعلن دعوته كان شاباً يافعاً ، كما هو مفاد قوله تعالى : (
قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَدْعُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ) (٢) .

ثانياً : إن اسم الفاعل في الآية المباركة . (جاعل) لا يعمل في المفعول (إماماً) إلّا إذا كان بمعنى
الحال أو الاستقبال ، ولا يعمل في الماضي ، وحيث إنّ النبوة كانت ثابتة مسبقاً لإبراهيم عليه السلام ، فلا بد
أن يكون إعطاء الإمامة لإبراهيم عليه السلام في الحال أو الاستقبال ، أي بعد نبوّته (٣) .
وبالتأمّل في حصيلة ما ذكرناه يحصل الاطمئنان بأن منصب الإمامة أُعطي لإبراهيم بعد أن كان
رسولاً نبياً ، ولم يكن إماماً .

(١) القصص : ٥ .

(٢) الأنبياء : ٦٠ .

(٣) شرح الرضي على الكافية ، رضي الدين الأسترابادي : ج ٣ ص ٤١٥ .

أهميّة الإمامة واستمرارها :

إنّ الإمامة والهداية الإلهية استمرار وامتداد لمهام الرسالات السماوية ، المتمثلة بذكر تفاصيلها وبيان مبهماتهما ومحكماتها ومتشابهاتها وتفعيلها في الأمة وغير ذلك ؛ وذلك لأنّ عمر الرسول عادة يكون أقصر من عمر الرسالة ، ومن هنا فقد تستمر الرسالة من خلال الأنبياء التابعين للرسول من أولي العزم ، أو من خلال الأئمّة والأوصياء عندما تنقطع النبوة ويرتفع الوحي ، كما في الرسالة الخاتمة ، فلا بد من بقاء الهداية واستمرارها ، قال تعالى : (وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)^(١) ؛ وذلك هو مفاد آيات البلاغ والولاية وحديث الثقلين وحديث الاثني عشر وحديث لا تخلو الأرض من حجة وغيرها ، فيكون الإمام هو الهادي للأمة بعد الرسول ﷺ ، ولا تقتصر إمامته على عصر دون آخر ، وإمّا هي دائمة مستمرة ، وهذا ما يمليه عليه موقعه من الدين الإسلامي ، وكونه هادياً للأمة يجعل رتبتي دائمة ، لا أنّه أمر مؤقت يتعلّق بمقطع خاص من الزمان والمكان ، وإمّا هو سُنّة إلهية ثابتة ، وحجة لله في الأرض ، قال تعالى : (وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ)^(٢) .

قال الألوسي في تفسيره : (ولم تزل تلك الخلافة في الإنسان الكامل إلى قيام الساعة وساعة القيام ، بل متى فارق هذا الإنسان العالم مات العالم ؛ لأنّه الروح الذي به قوامه ، فهو العماد المعنوي للسماء ، والدار الدنيا جارية من جوارح جسد العالم الذي الإنسان روحه ، ولما كان هذا الاسم الجامع قابل الحضرتين بذاته ؛ صحّت له الخلافة وتدير العالم ، والله

(١) الزخرف : ٢٨ .

(٢) الرعد : ٧ .

سبحانه الفَعَال لما يريد ولا فاعل على الحقيقة سواء^(١) ، ويلتقي هذا المعنى مع قوله تعالى : (وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ)^(٢) ، وقوله تعالى : (وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا)^(٣) ، ويؤكد ذلك أيضاً ما ذكره السيوطي في تفسيره ، قال : (إِمَّا أَنْتَ مُنْذِرٌ) ، أخرج ابن مردويه عن برزة الأسلمي ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (إِمَّا أَنْتَ مُنْذِرٌ) ، ووضع يده على صدر نفسه ، ثم وضعها على صدر علي عليه السلام ويقول : (وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ)^(٤) ، وفي موضع آخر عن ابن جرير وابن مردويه و... أنه قال : (وضع رسول الله ﷺ يده على صدره ، فقال : أنا المنذر ، وأوماً بيده إلى منكب علي عليه السلام فقال : أنت الهادي يا علي ، بك يهتدي المهتدون من بعدي)^(٥) ، وأخرج الحاكم في المستدرك : (عن علي : (إِمَّا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ) ، قال علي : رسول الله المنذر ، وأنا الهادي ، ثم قال الحاكم : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه)^(٦) .

إذن تبين من جميع ما تقدّم ضرورة وجود الإمام الهادي في كل زمان ، وهذا ما أجمع عليه المسلمون

كافة إلا أنهم اختلفوا في أن الإمام

(١) روح المعاني ، الألوسي : ج ١ ص ٢٢٠ . ٢٢١ .

(٢) السجدة : ٢٤ .

(٣) الأنبياء : ٧٣ .

(٤) الدر المنثور ، جلال الدين السيوطي : ج ٤ ص ٦٠٨ ؛ وكذا ما في شواهد التنزيل ، الحاكم الحسكاني : ج ١ ص ٣٨٦ ؛ وجامع البيان ، محمد بن جرير الطبري : ج ١٣ ص ١٤٢ ؛ وقال الشوكاني في فتح القدير : ج ٣ ص ٧٠ ، (وصحّحه ابن مردويه وابن عساكر عن علي بن أبي طالب) .

(٥) الدر المنثور ، جلال الدين السيوطي : ج ٤ ص ٦٠٨ .

(٦) لاحظ : جامع البيان ، محمد بن جرير الطبري : ج ١٣ ص ١٤٢ ؛ الدر المنثور ، جلال الدين السيوطي : ج ٤ ص ٦٠٨ ؛ المستدرك على الصحيحين ، الحاكم النيسابوري : ج ٣ ص ١٣٠ .

الذي يخلف الرسول ﷺ ، هل هو يجعل ونص إلهي أم لا ؟ وقد صرح بذلك ابن حجر المكي في (صواعقه) ، حيث قال : (اعلم أيضا أن الصحابة (رضوان الله عليهم) اجمعوا على أن نصب الإمام بعد انقراض زمن النبوة واجب ... واختلافهم في التعيين لا يقدح في الإجماع المذكور)^(١) .

عصمة الإمام

كذلك كشفت الآية المباركة : (لَا يَبَالُ عَنْكَ الظَّالِمِينَ)^(٢) النقاب عن قاعدة أساسية وسنة إلهية محكمة ، وهي أنّ العهد والجعل لا ينال الظالمين ، ومن الواضح أنّ إطلاق (الظالمين) شامل لكل ظلم ، سواء كان على الغير أم على النفس ، وشامل أيضاً لكل معصية صغيرة أو كبيرة ارتكبتها الإنسان في بعض مراحل حياته ، ومن أظهر مصاديق الظلم هو الشرك بالله تعالى وعبادة غيره ، قال عز وجل : (إِنَّ الشَّيْءَ الظُّلُمَ الْعَظِيمَ)^(٣) ، فإذا انطبق عليه عنوان الظلم يكون غير صالح لهذا المقام الإلهي ؛ وبذلك اتضح أن الإمام . بعد كون إمامته مجعولة من الله عز وجل . لابد أنّ يكون معصوماً ، وهذا الشرط . وهو العصمة . قد أكدته آية التطهير ، وحديث الثقلين وغيرهما ، حيث دلّت على عصمة الأئمة الاثني عشر عليهم السلام بعد الرسول الأكرم ﷺ .

(١) الصواعق المحرقة ، ابن حجر الهيتمي : ص ١٥ .

(٢) البقرة : ١٢٤ .

(٣) لقمان : ١٣ .

دور الإمام في الأمة :

وانطلاقاً من تسالم المسلمين على أن رسول الله ﷺ كان يشغل جميع مناصب القيادة والإمامة من الحكومة السياسية ، والمرجعية الدينية والفكرية والقضائية والإجرائية وغيرها ، فالولاية الثابتة لرسول ﷺ شاملة لجميع تلك المناصب ، وهو أولى بالمؤمنين من أنفسهم ، والذي ينهض بأعباء هذه المهمة بعد الرسول ﷺ ، هم أهل بيته ﺍﻟﻤﻮﺍﻟﻴﺪ ، الذين نصبهم ﷺ ، وجعلهم هداة من بعده ، وأمر المسلمين بالتمسك بهديهم ، كما نصّ على ذلك حديث الغدير ، الذي جاء فيه قول الرسول الأكرم ﷺ : (من كنت مولاه فهذا علي مولاه ، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه)^(١) ، وكذا ما جاء في حديث الثقلين ، عن رسول الله ﷺ قال : (أنا تارك فيكم الثقلين : أولاهما كتاب الله فيه الهدى والنور ، فاخذوا بكتاب الله واستمسكوا به ، وأهل بيتي ، أذكركم الله في أهل بيتي)^(٢) ، ليكملوا مسيرته ﷺ وترشيد

-
- (١) مسند أحمد بن حنبل : ج ١ ص ٨٤ ، ص ١١٨ ، ص ١١٩ ، ص ١٥٢ ، ج ٤ ص ٢٨١ ، ص ٣٧٠ ، ص ٣٧٢ ، ج ٥ ص ٣٤٧ ، ص ٣٦٦ ، ص ٣٧٠ ؛ سنن ابن ماجه : ج ١ ص ٤٣ ؛ سنن الترمذي : ج ٥ ص ٢٩٧ ؛ المستدرک ، الحاكم النيسابوري : ج ٣ ص ١٠٩-١١٦ ، ص ١٣٤ ، ص ٣٧١ ، ص ٥٣٣ ؛ مجمع الزوائد ، نور الدين الهيثمي : ج ٧ ص ١٧ ، ج ٩ ص ١٠٤ ؛ وقال فيه : (عن سعيد بن وهب ... راوه أحمد ورجاله رجال الصحيح) ؛ فتح الباري : ج ٧ ص ٦١ ؛ وقال فيه : (فقد أخرجه الترمذي والنسائي وهو كثير الطرق جداً ، وقد استوعبها ابن عقدة في كتاب مفرد ، وكثير من أسانيدھا صحاح وحسان) ؛ صحيح ابن حبان : ج ١٥ ص ٣٧٦ وما بعد ، وغيرها من المصادر الكثيرة جداً ، فراجع .
- (٢) صحيح مسلم : ج ٤ ص ١٨٧٣ ح ٢٤٠٨ ؛ مجمع الزوائد ، الهيثمي : ج ١ ص ١٧٠ ، قال الهيثمي : رواه الطبري في الكبير ورجاله ثقات ؛ ج ٩ ص ١٦٢-١٦٣ ؛ الصواعق المحرقة ، ابن حجر الهيتمي : ص ٣٤١-٣٤٢ ، وقال : (وفي رواية صحيحة : كأني قد دعيت ...) ، تفسير ابن كثير : ج ٤ ص ١٢٢ ، قال فيه : (وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال في خطبته بغدير خم (الحديث) ؛ صحيح الترمذي ، الألباني : ج ٣ ص ٥٤٣ ح ٣٧٨٨ ، قال : (صحيح) ؛ وصححه أيضاً في صحيح الجامع الصغير : ج ١ ص ٨٤٢ ، ح ٢٤٥٧ ؛ والمصادر في ذلك كثيرة جداً ، وبطرق تبلغ حد التواتر ؛ فراجع .

الأمة الإسلامية من بعده ، وهدايتها وقيادتها في جميع المجالات ، كما كان ذلك لرسول الله ﷺ ؛ لأن هذا هو ما تقتضيه عصمتهم ﷺ ، ومع وجود المعصوم لا يحق لغيره التقدم ؛ فإنّ العقل والفطرة السليمة تأبى تقديم من يجوز فيه الخطأ على من لا يخطأ أبداً وهو المعصوم .

وكيف يجوز أن يقدم أحد على إنسان طاعته طاعة الله ، ومعصيته معصية الله ، قال رسول الله ﷺ : (مَنْ أَطَاعَنِي فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ عَصَى اللَّهَ ، وَمَنْ أَطَاعَ عَلِيًّا فَقَدْ أَطَاعَنِي وَمَنْ عَصَى عَلِيًّا فَقَدْ عَصَانِي) ، قال الحاكم النيسابوري في المستدرک : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ^(١) .

وعلى هذا الأساس تكون هداية الإمام المعصوم ﷺ شاملة لكل المناصب القيادية التي ترتبط بهداية الناس ، من المرجعية الدينية والفكرية والاجتماعية والسياسية والقضائية ، ولا ينحصر دور الإمام في الحكومة السياسية فقط ، وهذه نقطة مهمّة كانت وما زالت محل التباس في الوعي الإسلامي عند أهل السنة ؛ ظناً منهم أن الشيعة تقول بانحصار دور الإمام في الحكم السياسي فحسب ، فإذا لم يكن حاكماً لم يكن إماماً ، مع أنّ الأمر ليس كذلك ، بل الإمامة قيادة وهداية للأمة في كل مجالات الحياة وعلى جميع الأصعدة ، فأهل البيت ﷺ الذين ثبتت عصمتهم وشفاعة علمهم هم الأجدر والأحق في تسنّم تلك المناصب ؛ ولذلك نصّب الرسول الأكرم ﷺ عليّاً ﷺ من بعده للإمامة بكافة أبعادها . ومن ذلك كلّ يتضح أن إقصاء أهل البيت ﷺ عن موقعهم ، وهو القيادة والحكومة السياسية . التي تعتبر أحد أبعاد الإمامة . لا يعني زوال إمامتهم التي ثبتت بجعل إلهي وتنصيب نبوي ، بل على الأمة تقديمهم واتباعهم والإقتداء بهم .

(١) المستدرک ، الحاكم النيسابوري : ج ٣ ص ١٢١ ، ص ١٢٨ ؛ تاريخ مدينة دمشق : ج ٤٢ ص ٣٠٧ .

ومن هنا نعلم أن الإمامة من المسائل الأساسية في الإسلام وذات مناصب متعددة ، ولكن مع ذلك قد يعتدى على بعض تلك المناصب فيقع التجاوز على حق الإمام المعصوم ، كما في الجانب الحكومي والجانب العلمي والقضائي في الأمة ، وذلك باستحداث مرجعيات حكومية مزيفة في قبال مرجعية المعصوم الإلهية الحقّة ، وقد تحوّل بسبب ذلك نظام القيادة والخلافة في الإسلام إلى قشور لا لباب فيها ، لا سيّما في العصر الأموي ، الذي أصبح الحكم الإسلامي فيه ملكاً عضوضاً لا يحمل من الإسلام إلا اسمه ، ولكن هذا لا يعني سقوط ذلك الحق وإيقاف مسيرة الهداية ، التي تسير بقيادة أهل البيت عليه السلام ، كما هو الحال في الأنبياء عليهم السلام ، فهم هداة للبشرية جمعاء ، وإعراض أكثر الناس عنهم لا يسقطهم عن كونهم هداة للبشرية ، فالإمامة هداية في كل تلك الجوانب ، والإمام يهدي من أراد الهداية والرشاد ، وأمّا الإعراض عن الاستهداء بالإمام المعصوم عليه السلام فلا يعني ذلك إسقاط الإمام عن إمامته وهدايته ، ولا يخفى دور أهل البيت عليهم السلام في هداية الأمة والمحافظة على رسالة الإسلام ، فضلاً عمّا خلّفوه من تراث ثر في مختلف العلوم رغم قساوة الظروف وشدّتها عليهم عليه السلام .

وهذا التراث الشيعي زاخر بأحاديثهم وأقوالهم الشاملة لجميع مجالات الحياة المختلفة ، وهذا ما لا يكاد يخفى أيضاً على كبار أعلام أهل السنّة ، الذين استفادوا من هذا التراث ، وقد ورد في حق أئمّة أهل البيت شهادات كثيرة من قبل أهل السنّة تكشف وتبين فضلهم وعلو منزلتهم وصلاحيّتهم للخلافة والإمامة ، وكذا تبين دورهم المحوري والفاعل في الأمة ، نكتفي بذكر بعضها :

أقوال علماء السنّة في حق أهل البيت عليه السلام

الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام

إن الروايات في فضل الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام وفضائله في الإسلام كثيرة جداً ، تجاوزت حدّ الإحصاء ، وقد ألفت الكتب وسطّرت الروايات في ذلك ، وقد قال أحمد بن حنبل : (ما جاء لأحد من أصحاب رسول الله ﷺ من الفضائل ما جاء لعلي عليه السلام)^(١) ، وقال ابن حجر في صواعقه : (وهي كثيرة عظيمة شهيرة حتى قال أحمد ما جاء لأحد من الفضائل ما جاء لعلي ، وقال إسماعيل القاضي والنسائي وأبو علي النيسابوري لم يرد في حق أحد من الصحابة في الأسانيد الحسان أكثر ما جاء في علي)^(٢) ، ولا يخفى دور الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام في الإسلام في زمن رسول الله ﷺ وبعده .

الإمام الحسن والإمام الحسين عليهما السلام

لا يخفى فضل الإمام الحسن والإمام الحسين عليهما السلام ودورهما في

(١) المستدرك على الصحيحين ، الحاكم النيسابوري : ج ٣ ص ١٠٧ .

(٢) الصواعق المحرقة ، ابن حجر الهيتمي : ص ١٨٦ .

الإسلام ، ودفاعهما عن شريعة جدّهما ﷺ ، وما قاما به من إصلاح في الأمة الإسلامية ، ووقوفهما سداً منيعاً أمام كل المحاولات التي تستهدف النيل من الرسالة الإسلامية ؛ لما يحملانه من خصائص ، ومميّزات ، وقد تواترت الروايات في علو شأنهما وسمو مقامهما ، كل ذلك جعل لهما الدور الفاعل في التأثير البالغ في المسلمين ، سواء على الصعيد الفكري أم الاجتماعي أم غيرهما ، كل ذلك في زمن أصبحت الحياة الإسلامية فيه مسرحاً للخلافات ، والجرائم والآثام ، وأصبحت فيه الحكومة ملكاً عضوضاً يتوارثه بنو أمية فيما بينهم بالقهر والغلبة ، وقد انبرى الإمام الحسن والإمام الحسين عليهما السلام في ذلك الحين لمعالجة الواقع المرير ، وقد جاء في مجامع أحاديث السنّة أنّ رسول الله ﷺ قال في حق ابنه الحسن عليهما السلام : (إن ابني هذا سيّد ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين)^(١) ، وقال ﷺ في حق ابنه الحسين عليهما السلام : (حسين مّي وأنا منه أحبّ الله من أحبّه ، الحسن والحسين سبطان من الأسباط)^(٢) .

ولذا قام الإمام الحسين عليهما السلام ثائراً على الظلم آمراً بالمعروف ، ناهياً عن المنكر ، مضحياً بنفسه وأهل بيته في سبيل إعلاء كلمة الحق ، طالباً

(١) صحيح البخاري : ج ٢ ص ١٧٩ ح ٢٧٠٤ ؛ الصواعق المحرقة ، ابن حجر الهيتمي : ص ٢٩١ ، وغيرها من المصادر الكثيرة جدا من الفريقين .

(٢) التاريخ الكبير ، البخاري : ج ٨ ص ٤١٥ ح ٣٥٣٦ ؛ البداية والنهاية ، ابن كثير : ج ٨ ص ٢٢٤ ؛ المعجم الكبير ، الطبراني : ج ٣ ص ٣٢ ح ٢٥٨٦ ، ج ٢٢ ص ٢٧٤ ؛ الجامع الصغير ، السيوطي : ج ١ ص ٥٧٥ ح ٣٧٢٧ ؛ فيض القدير في شرح الجامع الصغير ، المناوي : ج ٣ ص ٥١٣ ؛ وفي صحيح الجامع الصغير ، الألباني : ج ١ ص ٦٠١-٦٠٢ ح ٣١٤٦ ، قال عن الحديث بآته ، (حسن) ، وغيرها من المصادر الكثيرة .

الإصلاح في أمة جده ﷺ عندما لاحظ الممارسات البعيدة عن روح الدين والأخلاق من قبل الحكومة آنذاك ، حينما اتخذت الإسلام ستاراً لتغطية جرائمها وممارساتها المتهتكة ؛ ولذا قال عليه السلام عندما خرج متوجّهاً إلى الكوفة : (إنّي لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا مفسداً ولا ظالماً وإنما خرجت أطلب الإصلاح في أمة جدي محمد ﷺ ، أريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر)^(١) .

وقد قال الذهبي في مدحهما وبيان موقعهما القيادي في الأمة عليه السلام : (فمولانا الإمام علي من الخلفاء الراشدين ، وابناه الحسن والحسين : فسبطا رسول الله ﷺ وسيّدا شباب أهل الجنة ، لو استخلفا لكانا أهلاً لذلك)^(٢) .

ولا نطيل الحديث في ذلك بعد أن ثبت أنّهما عليهما السلام إمامان قاما أو قعدا^(٣) .

الإمام زين العابدين عليه السلام :

قال في حقّه محمد بن إدريس الشافعي : (هو أفقه أهل المدينة)^(٤) .
وقال محمد بن أحمد الذهبي (ت ٧٤٨) : (... كان له جلالة عجيبة ، وحق له والله ذلك ، فقد كان أهلاً للإمامة العظمى لشرفه ، وسؤدده وعلمه وتألّه وكمال عقله)^(٥) . وقال أيضاً : (وزين العابدين : كبير القدر ، من سادة

(١) مقتل الحسين : الخوارزمي : ص ٢٧٣ ؛ الفتوح ، ابن أعثم الكوفي : ج ٥ ص ٣٤ .

(٢) سير أعلام النبلاء ، الذهبي : ج ١٣ ص ١٢٠ .

(٣) شرح إحقاق الحق ، السيد المرعشي : ج ١٩ ص ٢١٦ ؛ نقلاً عن أهل البيت ، الأستاذ توفيق أبو علم : ص ١٩٥ ، طبعة مطبعة السعادة . القاهرة .

(٤) نقله الجاحظ في رسائله : ص ١٠٦ .

(٥) سير أعلام النبلاء ، الذهبي : ج ٤ ص ٣٩٨ .

العلماء العاملين يصلح للإمامة (١) .

وقال ابن حجر العسقلاني : (علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام الهاشمي زين العابدين ، ثقة ، ثبت ، عابد ، فقيه ، فاضل ، مشهور ، قال ابن عيينة عن الزهري : ما رأيت قرشياً أفضل منه) (٢) .

وقال ابن حجر في الصواعق : (وأخرج أبو نعيم والسلفي لما حج هشام بن عبد الملك في حياة أبيه أو الوليد لم يمكنه أن يصل للحجر من الزحام ، فنُصب له منبر إلى جانب زمزم ، وجلس ينظر إلى الناس ، وحوله جماعة من أعيان أهل الشام ، فبينما هو كذلك إذ أقبل زين العابدين ، فلما انتهى إلى الحجر تنحّى له الناس حتى استلم ، فقال أهل الشام لهشام ، من هذا ؟ قال : لا أعرفه ؛ مخافة أن يرغب أهل الشام في زين العابدين ، فقال الفرزدق : أنا أعرفه ، ثم أنشد :

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته	والبيت يعرفه والحل والحرم
هذا ابن خير عباد الله كلهم	هذا التقى النقي الطاهر العلم
إذا رأيته قریش قال قائلها	إلى مكارم هذا ينتهي الكرم
ينمي إلى ذروة الغز التي قصرت	عن نيلها عرب الإسلام والعجم

(١) سير أعلام النبلاء ، الذهبي : ج ١٣ ص ١٢٠ .

(٢) تقريب التهذيب ، ابن حجر : ج ١ ص ٦٩٢ .

وكذا من أبيات تلك القصيدة :

هذا ابن فاطمة إن كنت جاهله
فليس قولك من هذا بضائره
ثم قال :

من معشر حبّهم دين وبغضهم
كفرٌ وقرهم منجى ومعتصم
لا يستطيع جواد بعد غايتهم
ولا يدانيهم قوم وإن كرموا
فلما سمع هشام غضب ، وحبس الفرزدق بعسفان (١) .

الإمام الباقر عليه السلام :

قال في حقّه أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ : (وهو سيّد فقهاء الحجاز ، ومنه ومن ابنه جعفر
تعلّم الناس الفقه ، وهو الملقّب بالباقر ، باقر العلم ، لقّب به رسول الله ﷺ ولم يخلق بعد ، وبشّر به
ووعده جابر بن عبد

(١) الصواعق المحرقة ، ابن حجر الهيتمي : ص ٣٠٣ - ٣٠٤ .

الله برؤيته ، وقال : ستراه طفلاً ، فإذا رأيته فبلغه عني السلام ، فعاش جابر حتى رآه ، وقال له ما وصّى (١) .

وقال الحافظ أبو نعيم الأصفهاني في حلية الأولياء وطبقات الأصفياء : (ومنهم الحاضر الذّاكر الخاشع الصابر أبو جعفر محمد بن علي الباقر ، كان من سلالة النبوة ، وممن جمع حسب الدين والأبوة ، تكلم في العوارض والخطرات ، وسفح الدموع والعبرات ، ونهى عن المراء والخصومات) (٢) .
وقال سبط ابن الجوزي في تذكرة الخواص : (قال عطاء : ما رأيت العلماء عند أحد أصغر علماً منهم عند أبي جعفر ، لقد رأيت الحكم عنده كأنه مغلوب ، يعني بالحكم الحكم بن عيينة ، وكان عالماً نبيلاً جليلاً في زمانه) (٣) .

وقال النووي في تهذيب الأسماء واللغات : (سمّي بذلك ؛ لأنّه بقر العلم أي شقّه وعرف أصله وعرف خفيّه ... وهو تابعي جليل ، إمام بارع ، مجمع على جلالته ، معدود في فقهاء المدينة وأئمتهم) (٤) .

وقال ابن خلكان : (كان الباقر علماً ، سيّداً ، كبيراً ، وإمّا قيل له الباقر

(١) رسائل الجاحظ : ص ١٠٨ ؛ جمعها ونشرها حسن السندوي .

(٢) حلية الأولياء ، أبو فرج الأصفهاني : ج ٣ ص ١٨٠ ، وكذا بألفاظ مختلفة في البداية والنهاية ، ابن كثير : ج ٩ ص ٣٣٩ .

(٣) تذكرة الخواص ، الذهبي : ص ٣٠٢ .

(٤) تهذيب الأسماء واللغات : ج ١ ص ١٠٣ .

لأنّه تبقر في العلم (١).

وقال الذهبي في سير أعلام النبلاء : (أبو جعفر الباقر : سيّد ، إمام ، فقيه ، يصلح للخلافة) (٢) ، وفي هذا المضمون ما قاله صلاح الدين الصفدي (٣) .

وقال محمد بن المنكدر : (ما رأيت أحداً يفضّل على علي بن الحسين ، حتى رأيت ابنه محمداً ، أردت يوماً أن أعظه فوعظني) (٤) .

وقال ابن كثير في البداية والنهاية : (وهو تابعي جليل ، كبير القدر كثيراً ، أحد أعلام هذه الأمة ، علماً وعملاً ، وسيادة وشرفاً) (٥) .

وقال الهيثمي في صواعقه بعد أن ذكر علي بن الحسين عليه السلام ما نصّه : (وارثه منهم ، عبادة وعلماً وزهادة ، أبو جعفر محمد الباقر سمّي بذلك : من بقر الأرض ، أي شقّها ... فلذلك هو أظهر من مخبّات كنوز المعارف ، وحقائق الأحكام والحكم واللطائف ، ما لا يخفى إلّا على منطمس البصيرة ، أو فاسد الطويّة والسريّة ، ومن ثمّ قيل فيه : هو باقر العلم ، وجامعه ، وشاهر علمه ، ورافعه صفاء قلبه وزكّى علمه وعمله ، وطهرت نفسه ، وشرف خلقه وعمرت أوقاته بطاعة الله ، وله من الرسوم في مقامات العارفين ما تكل عنه ألسنة الواصفين ، وله كلمات كثيرة في السلوك والمعارف لا تحملها هذه العجالة ، وكفاه شرفاً أن ابن المديني روى عن جابر أنّه قال له وهو صغير : رسول الله ﷺ عليك ، فقل له وكيف

(١) وفيات الأعيان ، ابن خلكان : ج ٤ ص ٣٠ .

(٢) سير أعلام النبلاء ، الذهبي : ج ١٣ ص ١٢٠ .

(٣) الوافي بالوفيات ، صلاح الدين الصفدي : ج ٤ ص ١٠٤ .

(٤) نقلاً عن تهذيب التهذيب : ج ٩ ص ٣١٣ .

(٥) البداية والنهاية ، ابن كثير : ج ٩ ص ٣٣٨ .

ذاك ؟ قال : كنت جالساً عنده والحسين في حجره وهو يداعبه ، فقال : يا جابر ، يولد له مولود اسمه علي ، إذا كان يوم القيامة نادى منادٍ ليقم سيد العابدين فيقوم ولده ، ثم يولد له ولد اسمه محمد ، فإن أدركته يا جابر فأقرئه مني السلام ^(١) .

وقال أبو الحنبلي : (قال عبد الله بن عطاء : ما رأيت العلماء عند أحد أصغر منهم علماً عنده ، وله كلام نافع في الحكم والمواعظ) ^(٢) .

وقال محمد بن علي الصبان في إسعاف الراغبين : (وأما محمد الباقر عليه السلام فهو صاحب المعارف وأخو الدقائق واللطائف ، ظهرت كراماته وكثرت في السلوك إشاراته ، لقب بالباقر لأنه بقر العلم ، أي شقّه وعرف أصله وخفيّه) ^(٣) .

الإمام الصادق عليه السلام :

نقل عن أبي حنيفة أنه قال : (ما رأيت أحداً أفقه من جعفر بن محمد لما أقدمه المنصور الحيرة بعث إليّ ، فقال : يا أبا حنيفة ، إنّ الناس قد فتنوا بجعفر بن محمد فهبيّ له من مسائلك الصعاب ، قال : فهيات له أربعين مسألة ، ثم بعث إليّ أبو جعفر فأتيته بالحيرة ، فدخلت عليه وجعفر جالس عن يمينه ، فلما بصرت بهما دخلني لجعفر من الهيبة ما لم يدخل لأبي جعفر ، فسلمت وأذن لي ، فجلست ، ثم ألفت إلى جعفر ، فقال : يا أبا عبد

(١) الصواعق المحرقة ، ابن حجر الميمني : ص ٣٠٤ . ٣٠٥ .

(٢) شذرات الذهب في أخبار من ذهب : ج ١ ص ٢٦٠ .

(٣) إسعاف الراغبين : ص ٢٥٠ .

الله ، تعرف هذا ؟ قال : نعم ، هذا أبو حنيفة ، ثم أتبعها : قد أتانا ، ثم قال : يا أبا حنيفة ، هات من مسائلك نسأل أبا عبد الله ، وابتدأت أسأله ، وكان يقول في المسألة : أنتم تقولون فيها : كذا وكذا ، وأهل المدينة يقولون : كذا وكذا ، ونحن نقول : كذا وكذا ، فرمّا تابعنا ، ورمّا تابع أهل المدينة ، ورمّا خالفنا جميعاً ، حتى أتيت على أربعين مسألة ... ثم قال أبو حنيفة : أليس قد روينّا أن أعلم الناس أعلمهم باختلاف الناس (١) .

وقال في مختصر التحفة الاثني عشرية : (لو لا الستتان لهلك النعمان) (٢) ، يعني الستين اللتين نحل فيهما أبو حنيفة من بحر علم الإمام الصادق عليه السلام .
وقال الحافظ شمس الدين الجزري : (وثبت عندنا أنّ كلاً من الإمام مالك ، وأبي حنيفة (رحمهما الله تعالى) صحب الإمام أبا عبد الله جعفر بن محمد الصادق عليه السلام حتى قال أبو حنيفة : ما رأيت أفقه منه ، وقد دخلني منه من الهيبة ما لم يدخلني للمنصور) (٣) .

وقال الجاحظ بعد مدح عشرة من أهل البيت عليهم السلام ، ومن ضمنهم الإمام الصادق عليه السلام فقال : (ومن الذي يُعد من قريش ، أو من غيرهم ما يعدّه الطالبون عشرة في نسق ، كل واحد منهم عالم زاهد ناسك شجاع جواد طاهر زاك فمنهم خلفاء ... وهذا لم يتفق لبيت من بيوت العرب ولا بيوت العجم) (٤) .

(١) تهذيب الكمال ، المزي : ج ٥ ص ٧٩ ؛ نشر مؤسسة الرسالة .

(٢) نقلاً عن أسنى المطالب عمّا في مناقب سيدنا علي بن أبي طالب : ص ٥٥ .

(٣) المصدر نفسه : ص ٥٥ .

(٤) رسائل الجاحظ : ص ١٠٦ .

وقال الذهبي في ترجمة مطوّلة للإمام الصادق عليه السلام ، قال في آخرها : (مناقب جعفر كثيرة ، وكان يصلح للخلافة ، لسؤدده وفضله وعمله وشرفه (رضوان الله عليه))^(١) .

وقال أبو عبد الله سلمان الياضي في كتابه مرآة الجنان ، في أحداث سنة (٤٨ هـ) : (الإمام السيد الجليل سلالة النبيّ ومعدن الفتوى أبو عبد الله جعفر الصادق عليه السلام ، ودُفن بالقيع في قبر فيه أبوه محمد الباقر وجدّه زين العابدين وعم جده الحسن بن علي (رضوان الله عليهم أجمعين) ، وأكرم بذلك القبر وما جمع من الأشراف الكرام أولي المناقب ، وإنما لُقّب بالصادق لصدقه في مقالته ، وله كلام نفيس في علوم التوحيد وغيرها ، وقد ألّف تلميذه جابر بن حيان الصوفي كتاباً يشتمل على ألف ورقة يتضمّن رسائله ، وهي خمس مائة رسالة)^(٢) .

وقال ابن حجر العسقلاني : (جعفر بن محمد ... المعروف بالصادق ، صدوق ، فقيه ، إمام)^(٣) .

قال الملا أبو علي القاري في شرح الشفا : (جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب الهاشمي المدني المعروف بالصادق ... متفق على إمامته وجلالته وسيادته)^(٤) .

وقال محمد بن عبد الرؤوف المناوي القاهري في الكواكب الدرية :

(١) تاريخ الإسلام (حوادث ووفيات سنة ١٤١ - ١٦٠) ، الذهبي : ص ٩٣ .

(٢) مرآة الجنان وعبرة اليقظان : ج ١ ص ٢٣٨ .

(٣) تقريب التهذيب ، ابن حجر : ج ١ ص ١٦٣ .

(٤) شرح الشفا ، أبو علي القاري : ج ١ ص ٤٣ - ٤٤ .

(جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب ... إماما ... وله كرامات كبيرة ومكاشفات شهيرة منها أنه سُعي به عند المنصور ، فلما حجَّ أحضر الساعي ، وقال للساعي أتخلف ؟ قال : نعم ، فحلف ، فقال : جعفر المنصور حلفه بما رآه ، فقال : قل برئت من حول الله وقوته ، والتجأ إلى حولي وقوتي ، لقد فعل جعفر كذا وكذا ، فامتنع الرجل ، ثم حلف فمات مكانه ، ومنها أن بعض الطغاة قتل مولاه فلم يزل يصلِّي ، ثم دعا عليه عند السحر فسمعت الضجّة بموته ، ومنها أنه لما بلغه قول الحكم بن عباس الكلبي في عمّه زيد :

صَبَلْنَا لَكُمْ زَيْدًا عَلَى جَفْعٍ تَخْلَبُهُ وَلَمْ نَرِ مَهْدِيًّا عَلَى الْجَفْعِ يُصْبَلُ
قال اللهم سلط عليه كلباً من كلابك ، فافترسه الأسد)^(١) .

وقال ابن حجر الهيتمي في صواعقه : (ونقل الناس عنه من العلوم ما سارت به الركبان وانتشر صيته في جميع البلدان)^(٢) .

الإمام الكاظم عليه السلام :

قال في حقّه محمد بن إدريس المنذر ، أبو حاتم (ت ٢٧٧ هـ) : (ثقة صدوق إمام من أئمة المسلمين)^(٣) .

وقال الفخر الرازي في بيان معنى الكوثر : (والقول الثالث : الكوثر

(١) الكواكب الدرية : ص ٩٤ .

(٢) الصواعق ، ابن حجر الهيتمي : ص ٣٠٥ .

(٣) ذكره الذهبي في سير أعلام النبلاء : ج ٦ ص ٢٧٠ .

أولاده ... الأكابر من العلماء كالباقر والصادق والكاظم والرضا (عليهم السلام) (١) .

وقال ابن حجر الهيثمي قال : (موسى الكاظم : وهو وارثه [أي جعفر الصادق] علما ومعرفة وكمالاً وفضلاً ، سُمِّي الكاظم لكثرة تجاوزه وحلمه ، وكان معروفاً عند أهل العراق بباب قضاء الحوائج عند الله ، وكان أعبد أهل زمانه وأعلمهم وأسخاهم .

وسأله الرشيد كيف قلتم : إنا ذرية رسول الله ﷺ وأنتم أبناء علي ؟ فتلى : (وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ مَوْسَى وَبَلِّغْهُمْ إِلَى يَوْمِ الْوَعْدِ) (٢) ، [وعيسى] ليس له أب ، وأيضاً قال تعالى : (فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَعْبُدْ أَبْنَاءَنَا وَنَبْنِئْكُمْ وَنَسْأَلْنَا وَنَسْأَلْكُمْ وَنُفْسِنَا وَنُفْسَكُمْ ثُمَّ نَنْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ) (٣) ، ولم يدعُ النبي ﷺ عند مباہلته النصارى غير علي وفاطمة والحسن والحسين (رضي الله عنهم) ، فكان الحسن والحسين هما الأبناء (٤) .

وقال خير الدين الزركلي (ت ١٣٩٦) : (كان من سادات بني هاشم ، ومن أعبد أهل زمانه ، وأحد كبار العلماء الأجواد) (٥) .

(١) التفسير الكبير ، الفخر الرازي : ج ١٦ ص ١٢٥ .

(٢) الأنعام : ٨٤ . ٨٥ .

(٣) آل عمران : ٦١ .

(٤) الصواعق المحرقة ، ابن حجر الهيثمي : ص ٣٠٧ . ٣٠٨ .

(٥) الأعلام ، خير الدين الزركلي : ج ٧ ص ٣٢١ .

الإمام الرضا عليه السلام :

قال في حقه ابن حبان (ت ٣٥٤ هـ) : (وهو علي بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب أبو الحسن ، من سادات أهل البيت وعقلائهم ووجهة الهاشميين ونبلائهم ... وقبره بسناباذ خارج النوفان مشهور يزار بجانب قبر الرشيد ، قد زرته مراراً كثيرة ، وما حلت بي شدة في وقت مقامي بطوس فزرت قبر علي بن موسى الرضا (صلوات الله على جده وعليه) ودعوت الله إزالتها عني إلا أستجيب لي وزالت عني تلك الشدة ، وهذا شيء جرت به (صلى الله عليه وسلم) عليه وعليهم أجمعين) (١) .

وقال الذهبي (ت ٧٤٨ هـ) في سير أعلام النبلاء : (علي الرضا الإمام السيد ، أبو الحسن ، علي الرضا بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي بن الحسين ، الهاشمي العلوي المدني ... وكان من العلم والدين والسؤدد بمكان ، يقال : أفتى وهو شاب في أيام مالك ... وقد كان علي الرضا كبير الشأن أهلاً للخلافة) (٢) .

وقال أيضاً : (علي بن موسى الرضا كبير الشأن ، له علم وبيان ، ووقع في النفوس ، صيره المأمون ولي عهده لجلالته) (٣) .

وقال الحاكم النيسابوري في تاريخه : (كان يفتي في مسجد رسول

(١) الثقات ، الألباني : ج ٨ ص ٤٥٦ . ٤٥٧ .

(٢) سير أعلام النبلاء ، الذهبي : ج ٩ ص ٣٨٧ . ٣٩٢ .

(٣) المصدر نفسه : ج ١٣ ص ١٢١ .

الله ﷺ ، وهو ابن نيف وعشرين سنة (١) .

الإمام الجواد عليه السلام :

قال في حقه محمد بن طلحة الشافعي : (... عُرف بأبي جعفر الثاني ، وهو وإن كان صغير السن ، فهو كبير القدر رفيع الذكر) (٢) .

وقال ابن الجوزي : (كان على منهاج أبيه في العلم والتقوى والزهد والجود) (٣) .

وقال ابن تيمية : (كان من أعيان بني هاشم معروف بالسخاء والسؤدد ، ولهذا سُمِّي الجواد) (٤) .

وقال الذهبي : (كان من سروات آل بيت النبي ﷺ) (٥) ، وقد أشار إلى فضله وشرفه صلاح الدين الصفدي في مرآة الجنان (٦) .

وقال الذهبي أيضا : (محمد الجواد من سادة قومه) (٧) .

وقال ابن الصباغ المالكي : (وإن كان صغير السن ، فهو كبير القدر رفيع الذكر ، القائم بالإمامة بعد علي بن موسى الرضا) (٨) .

(١) نقل قوله ابن حجر في تهذيب التهذيب : ج ٧ ص ٣٣٩ .

(٢) مطالب السؤول في مناقب الرسول ، كمال الدين الشافعي : ج ٢ ص ١٤٠ .

(٣) تذكرة الخواص ، السبط ابن الجوزي : ص ٣٢١ .

(٤) منهاج السنة ، ابن تيمية : ج ٤ ص ٦٨ .

(٥) تاريخ الإسلام : (حوادث ووفيات سنة ٢١١ - ٢٢٠) ، الذهبي : ص ٣٥٨ .

(٦) مرآة الجنان ، عبد الله بن أسعد المكي : ج ٢ ص ٦٠ - ٦١ .

(٧) سير أعلام النبلاء ، الذهبي : ج ١٣ ص ١٢١ .

(٨) الفصول المهمة في معرفة أحوال الأئمة ، ابن الصباغ المالكي : ص ٢٥٣ .

وقال يوسف بن إسماعيل النبهاني (ت ١٣٥٠ هـ) : (محمد الجواد بن علي رضا أحد أكابر الأئمة ومصاييح الأمة من سادات أهل البيت ... توفي وله من العمر (٢٥) سنة وشهر رضي الله عليه وعن آبائه الطيبين الطاهرين وأعقابهم أجمعين ونفعنا ببركتهم آمين) ^(١) .

وقال محمود بن وهيب : (وهو الوارث لأبيه علماً وفضلاً ، وأجلّ أخوته قدراً وكمالاً) ^(٢) .

وقال السيد محمد عبد الغفار الهاشمي الأفغاني : (خاف الملك المعتصم على ذهاب ملكه إلى الإمام محمد الجواد عليه السلام إذ كان له قدر عظيم علماً وعملاً) ^(٣) .

الإمام الهادي عليه السلام :

قال في حقه شمس الدين الذهبي في (العبر) : (وفيها . أي سنة ٢٥٤ هجرية . توفي أبو الحسن علي بن الجواد محمد ابن رضا علي بن الكاظم موسى ... العلوي الحسيني المعروف بالهادي ، توفي بسمراء وله أربعون سنة ، وكان فقيهاً إماماً متعبداً) ^(٤) . وفي مجال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر نجده عليه السلام يستثمر الفرص لإبداء النصيحة ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ... حيث قال

-
- (١) جامع كرامات الأولياء : ج ١ : ص ١٦٨ . ١٦٩ .
- (٢) أئمتنا : محمد علي دخیل : ج ٢ ص ٢٠٦ .
- (٣) شرح إحقاق الحق ، السيد المرعشي النجفي : ج ١٢ ص ٤١٧ ، نقلاً عن كتاب أئمة الهدى : ص ١٣٥ . ط ١ القاهرة .
- (٤) العبر في أخبار من غير : ج ١ ص ٢٢٨ ؛ وكذا مرآة الجنان وعبرة اليقظان : ج ٢ ص ١١٩ .

ابن خلكان في وفيات الأعيان : (... وهو أحد الأئمة الاثني عشر عند الإمامية ، كان قد سُعي به إلى المتوكل ، وقيل : إنّ في منزله سلاحاً وكتباً وغيرها من شيعته ، وأوهموه أنّه يطلب الأمر لنفسه ، فوجّه إليه بعدّة من الأتراك ليلاً ، فهجموا عليه في منزله على غفلة ، فوجدوه وحده في بيت مغلق ، وعليه مدرعة من شعر ... يترنّم بآيات من القرآن في الوعد والوعيد ، ليس بينه وبين الأرض بساط إلا الرمل والحصى ، فأخذ على الصورة التي وجد عليها ، وحمل إلى المتوكل في خوف الليل ، فمُثل بين يديه ، والمتوكل يستعمل الشراب وفي يده كأس ، فلمّا رآه أعضمه وأجلسه إلى جنبه ، ولم يكن في منزله شيء ممّا قيل عنه ... فناوله المتوكل الكأس الذي كان بيده ، فقال : اعفني ، ما خامر لحمي ودمي قط ، فاعفني منه ، فأعفاه وقال : أنشدني شعراً استحسنه ، فقال : إنّّي لقليل الرواية للشعر ، قال : لا بد أن تنشدني ، فأنشده :

باتوا على قلل الأجدال تحرسهم	غلب الرجال فما أغنتهم القلل
واسئّزلوا بعد عز من معاقلهم	فأودعوا حفراً يا بئس ما نزلوا
ناداهم صارخ من بعد ما قبّروا	أين الأسيرة والتيجان والحلل
أين الوجوه التي كانت منعمة	من دونها تُضرب الأستار والكلل

فأفصح القبر عنهم حين ساء لهم تلك الوجوه عليها الدود يقتتل
 قد طالما أكلوا دهرًا وما شربوا فأصبحوا بعد طول الأكل قد أكلوا^(١)
 وبنفس هذا المضمون قال ابن الوردي في كتابه أخبار من غير^(٢) ، وكذا أبو صلاح الصفدي^(٣) .
 وقال ابن الصباغ المالكي في الفصول المهمة : (قال بعض أهل العلم : فضل أبي الحسن علي بن
 محمد الهادي قد ضرب على الحرة بابه ، ومدّ على نجوم السماء أطنابه فما تعدّ منقبة إلاّ وإليه نخلتها ،
 ولا تذكر كريمة إلاّ وله فضيلتها ، ولا تورّد محمّدة إلاّ وله تفضلها وجملتها ... فكانت نفسه مهذبّة
 وأخلاقه مستعذبة وسيرته عادلة وخلاله فاضلة ... جرى على الوقار والسكون والطمأنينة والعفة والنزاهة
 ، والحمول في النباهة على وتيرة نبوية وشنشنة علوية ونفس زكية وهمّة عليّة ...)^(٤) .
 وقال ابن حجر الهيتمي في الصواعق المحرقة : (توفي [الجواد] ... وعمره خمس وعشرون سنة ...
 عن ذكرين وبنّتين أجلّهم علي العسكري ... وكان وارث أبيه علما وسخاء)^(٥) .

(١) وفيات الأعيان ، ابن خلكان : ج ٣ ص ٢٣٨ ؛ دار الكتب العلمية .

(٢) العبر في أخبار من غير : ج ١ ص ٣٦٤ .

(٣) الوافي بالوفيات ، الصفدي : ج ٢٢ ص ٧٣-٧٢ .

(٤) الفصول المهمة : ص ٢٧٠ .

(٥) الصواعق المحرقة ، ابن حجر الهيتمي : ص ٣١٢ .

وقال ابن العماد الحنبلي في شذرات الذهب : (... أبو الحسن ... المعروف بالهادي كان فقيها إماما متعبدا) ^(١) .

وقال الذهبي في سير أعلام النبلاء : (وكذا ولده الملقب بالهادي شريف جليل) ^(٢) .

الإمام العسكري عليه السلام :

قال في حقه محمد بن طلحة الشافعي : (اعلم أن المنقبة العليا والمزية الكبرى التي خصّه الله عز وجلّ بها ، وقلّده فريدها ، ومنحه تقليدها ، وجعلها صفة دائمة لا يبلي الدهر جديدها ، ولا تنسى الألسن تلاوتها وترديدها ، أنّ المهدي محمد من نسله المخلوق منه وولده المنتسب إليه ، وبضعته المنفصلة عنه) ^(٣) .

وقال ابن الجوزي : (... كان عالما ثقة) ^(٤) . وقال ابن الصباغ المالكي : (مناقب سيّدنا أبي محمد العسكري دالة على أنّه السري ابن السري ، فلا يشك في إمامته أحد ولا يمتري ... واحد زمانه من غير مدافع ، ويسبح وحده من غير منازع ، وسيد أهل عصره ، وإمام أهل دهره ، أقواله سديدة وأفعاله حميدة ... كاشف الحقائق بنظره الصائب ، ومظهر الدقائق بفكره الثاقب ، المحدث في سرّه بالأمر والخفيات ، الكريم

(١) شذرات الذهب ، عماد الحنبلي : ج ٢ ص ٢٧٢ .

(٢) سير أعلام النبلاء ، الذهبي : ج ١٣ ص ١٢١ .

(٣) مطالب السؤول في مناقب آل الرسول : ج ٢ ص ١٤٨ .

(٤) تذكرة الخواص : ص ٣٢٤ .

الأصل والنفس والذات ، تغمّده الله برحمته وأسكنه فسيح جنانه بمحمد ﷺ آمين (١) .
وقال العباس بن نور الدين المكي (ت ١١٨٠ هـ) : (أبو محمد الإمام الحسن العسكري : نسبه أشهر من القمر ليلة أربعة عشر يعرف هو وأبوه بالعسكري ، وأما فضائله فلا يحصرها السن) (٢) .
وعن الشريف علي بن الدكتور محمد عبد الله فكري الحسيني القاهري : (قال نسبه ... ولمّا ذاع خبر وفاته ارتجّت سُرّ مَنْ رأى وقامت صيحة واحدة ، وعطلت الأسواق ، وأغلقت الدكاكين ، وركب بنو هاشم والقوّاد والكتّاب والقضاة وسائر الناس إلى جنازته ، وكانت سُرّ مَنْ رأى يومئذ شبيهه بالقيامة) (٣) .

وقال الحضرمي الشافعي : (أبو محمد الحسن الخالص بن علي العسكري ، كان عظيم الشأن جليل المقدار ... ووقع له مع المعتمد لما حبسه كرامة ظاهرة مشهورة) (٤) .
وقد جمع مدحهم ﷺ الذهبي في عبارة جامعة حيث قال : (إنّ بني هاشم أفضل القرش ، وقريشاً أفضل العرب ، والعرب أفضل بني آدم ، كما صحّ عن النبي ﷺ قوله في الحديث الصحيح : إن الله اصطفى بني

-
- (١) الفصول المهمة : ص ٢٧٩ ؛ وقال بمضمونه نور الدين السمهودي في كتابه الإتحاف بحب الأشراف .
(٢) حياة الإمام العسكري ، القرشي : ص ٦٩ .
(٣) شرح إحقاق الحق : ج ٢٩ ص ٦٠ . ٦١ ، نقلاً عن أحسن القصص : ج ٤ ص ٣٠٤ .
(٤) قادتنا كيف نعرفهم ، السيد الميلاني : ج ٧ ص ١١٥ ، عن وسيلة المآل في عدّ مناقب الآل : ص ٤٢٦ .

إسماعيل ، واصطفي كنانة من بني إسماعيل ، واصطفي قريشاً من كنانة ، واصطفي بني هاشم من قريش (١) .
وقال الذهبي في ترجمته للإمام المهدي المنتظر ﷺ : (ومحمد هذا هو الذي يزعمون أنه الخلف
الحجة ، وأنه صاحب الزمان ، وأنه حي لا يموت ، حتى يخرج ، فيملا الأرض عدلاً وقسطاً كما ملئت
ظلمًا وجورًا .

فوددنا ذلك ، والله .

فمولانا الإمام علي : من الخلفاء الراشدين ، وابناه الحسن والحسين : فسبطا رسول الله ﷺ
وسيداً شباب أهل الجنة ، لو استخلفا لكانا أهلاً لذلك .

وزين العابدين : كبير القدر ، من سادة العلماء العاملين ، يصلح للإمامة .

وكذلك ابنه أبو جعفر الباقر : سيد ، إمام ، فقيه ، يصلح للخلافة .

وكذلك ولده جعفر الصادق : كبير الشأن ، من أئمة العلم ، كان أولى بالأمر من أبي جعفر
المنصور .

وكان ولده موسى : كبير القدر ، جيد العلم ، أولى بالخلافة من هارون .

وابنه علي بن موسى الرضا : كبير الشأن ، له علم وبيان ، ووقع في النفوس ، صيره المأمون ولي
عهده لجلالته .

وابنه محمد الجواد : من سادة قومه .

وكذا ولده الملقب بالهادي : شريف جليل .

وكذلك ابنه الحسن بن علي العسكري . رحمهم الله تعالى (٢) .

(١) رأس الحسين ، ابن تيمية : ص ٢٠٠ . ٢٠١ .

(٢) سير أعلام النبلاء ، الذهبي : ج ١٣ ص ١٢٠ . ١٢١ .

ومن جميع ما تقدّم يتضح . لمن له أذن واعية . بطلان المقولة القائلة بأنّ الإمامة لا فائدة منها ، وأنّ الأئمّة الاثني عشر من آل محمد (صلوات الله عليهم أجمعين) لم يمارسوا دورهم القيادي في الحكومة وهداية الأمة ؛ وذلك لقيام الأئمّة بمسؤوليتهم وأداء دورهم في حياة الأمة في الحفاظ على الرسالة ، وتحصينها ضد التبرّيّ والسقوط في الهاوية .

وإن إقصاءهم عن تسلّم الحكم لا يعني تخليّهم عن مسؤوليتهم في تحمّل أعباء الإمامة بما لها من أبعاد أخرى .

تراث زاخر

وأما قول المستشكل : أين هي أقوال أئمّة الاثني عشرية ؟

فنقول : ما عليك إلا بمراجعة يسيرة للتراث الشيعي حتى تجده زاخرا بروايات وتوصيات وتوجيهات أهل البيت عليهم السلام في كل المجالات ، ولم تقتصر الاستفادة منها على شيعتهم وأتباعهم فقط ، وإثما عمّت الفائدة لكل الطوائف الأخرى ، كما تقدّم .

الخلاصة

١ . لا ريب أنّ الإمامة جعل إلهي ، كما نصّ على ذلك القرآن الكريم في قوله تعالى : (**وَذُكِّرَ ابْنَتُكَ** **إِبْرَاهِيمَ رَبَّهُ بِكَلِمَاتٍ فَاتَمَمْنَهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدُكِ الظَّالِمِينَ**) (١) .

٢ . من خلال الآية السابقة يتضح أن منصب الإمامة غير منصب النبوة ؛ وذلك من خلال دعاء إبراهيم **عَلَيْهِ السَّلَامُ** الذي طلب هذا المنصب لذريته وهو في أواخر عمره الشريف ، مع أنّه كان نبياً في بداية حياته .

٣ . استمرار الإمامة في ذرية إبراهيم كما في قوله تعالى : (**وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ**) (٢) ، وقوله تعالى : (**وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ**) (٣) ، وممّن ذهب إلى هذا القول من أهل السنة القندوزي في ينابيع المودة (٤) .

وقد أكّد رسول الله ﷺ على أن الهادي من بعده هو علي **عَلَيْهِ السَّلَامُ** .

٤ . بمقتضى قوله تعالى (**لَا يَنَالُ عَهْدُكِ الظَّالِمِينَ**) (٥) ، يتضح أنّ الإمام المنصوب من قبل الله تعالى لا بد أن يكون معصوماً ؛ لأنّ الظالم لا ينال هذا العهد الإلهي ، ومن المعلوم أنّ المذنب والعاصي ولو مرة في حياته فهو ظالم لنفسه ، فلا يشملته العهد الإلهي .

٥ . إنّ منصب الإمامة شامل لكل المناصب القيادية التي ترتبط بمداية

(١) البقرة : ١٢٤ .

(٢) الزخرف : ٢٨ .

(٣) الرعد : ٧ .

(٤) ينابيع المودة ، القندوزي : ج ١ ص ٣٥٣ . ٣٥٤ ، ج ٢ ص ٢٤٨ . ٢٤٩ .

(٥) البقرة : ١٢٤ .

الناس من المرجعية الدينية والفكرية والاجتماعية والسياسية والقضائية ونحوها ، كما هو الحال في رسول الله ﷺ الذي شغل جميع المناصب القيادية ، وعلى هذا الضوء فليس من الصحيح اختزال دور الإمام في القيادة السياسية فحسب ، وهذه نقطة مهمة جداً في معرفة الإمام .

٦ . ممّا تقدم يتضح أن إقصاء أهل البيت عليهم السلام عن موقعهم وقيادتهم للجانب السياسي لا يعني تخليهم عن دور الإمامة ؛ لأنّ الإمامة لا يمكن أن تزول ؛ لكونها جعلاً إلهياً ، فهي ذات أدوار ومناصب متعددة في كل المجالات القيادية في الأمة ، كالجانب العلمي وجانب الهداية ونحوها ، وممّا يشهد لذلك ما خلفوه عليهم السلام من تراث ضخم جداً في مختلف العلوم على الرغم من شتّى وقساوة الظروف التي عاشوها .

٧ . وردت شهادات كثيرة جداً من أعلام السنّة في حق أهل البيت عليهم السلام تبين أفضليتهم وأعلميتهم بين الأمة ، وأنّ لهم دوراً كبيراً في هداية وتوعية الأمة .

الإمامة في القرآن

الشبهة :

عدم وجود الإمامة في القرآن الكريم دعا الشيعة إلى القول بتحريفه .

الجواب :

تمهيد :

إنَّ تهمّة التحريف التي حاول البعض مراراً وتكراراً إلصاقها بمذهب أهل البيت عليهم السلام ، تهمّة لا أساس لها من الصّحّة ؛ إذ إنّ من الحقائق الأساسية الثابتة عند الشيعة أنّها لا تقول بالتحريف ، وهذا ما نراه واضحاً وجليّاً عند مراجعة ما كتبه علماء الشيعة في هذا المجال .

وحاصله : إن القرآن الذي بين أيدينا اليوم هو القرآن ذاته الذي نزل على نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

وكيف يمكن أن يدّعي أحد من المسلمين التحريف وهو يتلو قوله تعالى : (**أَنزِلْنَاهُ بِطَلْسَمٍ مُّسْتَوٍ**) **يَدِّهِ وَلَا مِن خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّن حَكِيمٍ حَمِيدٍ**)^(١) .

وكيف يدّعي أحد من المسلمين التحريف وهو يقرأ ما تواتر عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم قوله : (**إِنِّي تَارِكٌ فِيكُمْ الثَّقَلَيْنِ كِتَابَ اللَّهِ وَعِترتي أهل بيتي** ، ما إن تمسّكنم بهما لن تضلّوا بعدي أبداً) ؟!! .

وكيف تقول الشيعة بالتحريف وقد أمرهم أمّتهم عليهم السلام بترك ما خالف

(١) فصلت : ٤٢ .

كتاب الله من الروايات ، كما ورد ذلك صحيحاً في كتبهم المعتمدة ، وعلى سبيل المثال ما ورد : (عن أيوب بن الحر قال : سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول : كل شيء مردود إلى الكتاب والسنة ، وكل حديث لا يوافق كتاب الله فهو زخرف) (١) .

فالحكم والفيصل في قبول رواية أو ردّها هو كتاب الله تعالى ؛ لحقائته وعصمته عن الخطأ والتحريف .

ولذا أطبق مشهور علماء الشيعة على أن القرآن جاءنا متواتراً عن رسول الله ﷺ منزّها عن كل نقص وتحريف .

فالسيد الخوئي مثلاً في تفسيره (البيان في تفسير القرآن) يقول : (ومّا ذكرناه : قد تبين للقارئ أن حديث تحريف القرآن حديث خرافة وخيال ، لا يقول به إلّا من ضعف عقله ، أو من لم يتأمل في أطرافه حق التأمل) (٢) .

هذه إطلاقة سريعة تمهّد لنا الدخول في البحث ، أمّا البحث المفصّل عن عدم تحريف القرآن الكريم فسيأتي في محله الخاص به (عندما نجيب عن شبهة تحريف القرآن) .

إذن رمي الشيعة بتهمة القول بتحريف القرآن ينبثق من أصحاب النفوس المريضة والمغرضة ، الذين لا يجدون غير الاتهامات والافتراءات ملجأً .

بعد هذا التمهيد المختصر نجيب بما يلي :

(١) وسائل الشيعة ، الحر العاملي : ج ٢٧ ت : ص ١١١ .

(٢) البيان في تفسير القرآن ، السيد الخوئي : ص ٢٥٩ .

أولاً : القرآن ينص على الإمامة

إن القرآن لم يفقد هدايته للإمامة لكي نلتجئ إلى القول بتحريفه ، بل القرآن يهدي إليها بالصرحة والنص . وقبل أن نطلعك على الآيات التي صرّحت بالإمامة ، لابد من التنبيه على مفهوم الإمام ، وما هو المراد منه في القرآن الكريم ؟ وإليك إيجازاً في ذلك :

وعرّ الإمام في اللغة : بالإنسان الذي يؤتم به ويقتدى بقوله أو فعله محققاً كان أو مبطلاً^(١) ، وبهذا المعنى جاء قوله تعالى : (وَمَنْ لَمْ يَعْزِ الْمُنْكَ نُنْكَ لَهُمْ مِنْ حَيْثُ وَتِي كِتَابَهُ يَمِينُهُ فَأُولَئِكَ يَقْبِضُ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا)^(٢) ، وقوله تعالى : (فَتَاتِلُوا أَيْمَةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ)^(٣) .
أما الإمام الحق في الإسلام فهو الهادي إلى سبيل الله بأمر منه عز وجل ، سواء كان إنساناً ، كما في قوله تعالى : (وَذِكْرُ ابْنِ إِسْرَافِيلَ أَنَّهُ نَادَىٰ فِي كُلِّ صَبَاحٍ مُبْكِرٍ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)^(٤) ، وقوله تعالى : (وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا)^(٥) .
أم كان كتاباً ، كما في قوله تعالى : (وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً)^(٦) .

(١) انظر : لسان العرب ، ابن منظور : ج ١٢ ص ٢٤ . ٢٥ .

(٢) الإسراء : ٧١ .

(٣) التوبة : ١٢ .

(٤) البقرة : ١٢٤ .

(٥) الأنبياء : ٧٣ .

(٦) هود : ١٧ .

ومن حصيلة هذه النصوص القرآنية يتضح أن من شروط الإمام الحق في القرآن الكريم ؛ إن كان كتاباً فلا بد أن يكون منزلاً من قبل الله تعالى على رسله لهداية الناس ، كما كان ذلك شأن كتاب خاتم الأنبياء محمد ﷺ ، ومن قبله كتاب موسى ﷺ ، وذلك أيضاً شأن سائر كتب الأنبياء ﷺ . وإن كان إنساناً فلا بد أن تكون إمامته مجعولة من قبل الله تبارك وتعالى ، كما في قوله تعالى : (**إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا**) ^(١) وقوله تعالى : (**وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا**) ^(٢) وكذلك لا بد أن يكون هذا الإنسان غير ظالم لنفسه ولا لغيره ، أي منزّه عن عصيان الله تعالى كما هو مقتضى قوله تعالى : (**لَا يَبَالُغُكَ الظَّالِمِينَ**) ^(٣) ، وإطلاق الظالمين شامل لكل ظلم سواء كان على الغير ، أو على النفس ، وكل معصية صغيرة أو كبيرة تُعد ظلماً ، لا يصلح مرتكبه لهذا المقام الشامخ ، ومن أبرز مصاديق الظلم هو الشرك بالله وعبادة غيره حيث قال تعالى : (**لِالشِّرْكِ لُظْمٌ عَظِيمٌ**) ^(٤) .

وبذلك يتضح أن الإمام في الاصطلاح القرآني هو :

الإنسان المعصوم من الذنوب والمجوعول من قبل الله تعالى لهداية الناس .

الكتاب المنزل من قبل الله تعالى على رسله لهداية الناس .

هذا إيجاز ، وتفصيله قد ذكر في الجواب عن الشبهة السابقة ؛ فراجع .

(١) البقرة : ١٢٤ .

(٢) الأنبياء : ٧٣ .

(٣) البقرة : ١٢٤ .

(٤) لقمان : ١٣ .

وإذا اتضح ذلك ، نذكر لك جدولة سريعة على سبيل الاختصار لبعض الآيات القرآنية التي هدت وأرشدت إلى الإمام والإمامة ، وصرّحت بهما ، والتي ترسم وتحدد معالم أطروحة الإمامة في القرآن الكريم :

قوله تعالى : (**وَدَّ ابْنُ إِبْرَاهِيمَ رَبَّهُ بِكَلِمَاتِ فَاتَمَّتْهُمْ قَالَ إني جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَبَالُ عِندِي الظَّالِمِينَ**) ^(١) ، ومن الواضح من لحن الآية وسياقها أنّ الله تعالى جعل إبراهيم إماماً في أواخر عمره الشريف ، بعد أن كان نبياً ورسولاً وخليلاً ، فكيف يقال إنّ القرآن لا يهدي إلى الإمامة ؟!! .

قوله تعالى : (**وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ**) ^(٢) ، فإنّ هذه الآية تدل على أن الإمامة جعل وتنصيب من قبل الله تعالى .

٣ . قوله تعالى : (**وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا هُوَ خَيْرٌ لِّهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ**) ^(٣) .
٤ . قوله تعالى : (**وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْهَادِينَ**) ^(٤) .

٥ . قوله تعالى : (**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَطِيعُوا الرَّسُولَ هُوَ لِي الْأَمْرُ**) ^(٥) ، وهذه الآية تشرح مفهوم الإمامة وتشعبه إشباعاً رائعاً ، حيث قرنت طاعة أولي الأمر بطاعة الله تعالى ، ممّا يكشف عن أن هذه الولاية

(١) البقرة : ١٢٤ .

(٢) السجدة : ٢٤ .

(٣) الأنبياء : ٧٣ .

(٤) القصص : ٥ .

(٥) النساء : ٥٩ .

متفرعة عن ولاية الله وولاية الرسول ﷺ ، وهي شاهد على أنّ الولاية والإمامة ، وقيادة الناس ليس من صلاحيتهم ولا بتنصيبهم ؛ لأن ما هو لازم عليهم المتابعة والانقياد في ذلك وحسب ، وعلى هذا الأساس نقول أيضا : كيف أن القرآن لا يهدي إلى الإمامة ؟!! .

٦ . قوله تعالى : (**إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ**) ^(١) ، وتحتشد في هذه الآية الكريمة دلالات كثيرة لإثبات الإمامة ، وبشكل خاص إمامة علي بن أبي طالب عليه السلام ، وهذا ما نجده واضحا عندما نرجع إلى مصادر الفريقين في هذا المجال ، وملاحظة الروايات الواردة في شأن نزول الآية المباركة ^(٢) .

٧ . قوله تعالى : (**لَا يَجْعَلُ لَّيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ سَأَلْتَهُ بِحُلٍّ قَبْلِ الْأَمْرِ وَلَئِنْ أَمَرَ لَفُتْنَا بِحُلٍّ قَبْلِ الْأَمْرِ وَلَئِنْ أَمَرَ لَفُتْنَا بِحُلٍّ قَبْلِ الْأَمْرِ**) ^(٣) ، حيث تكشف هذه الآية بشكل صريح وواضح النقاب عن أهمية وجود الإمام بعد الرسول ﷺ ، وإن عدم وجود الإمام بعد الرسول ﷺ يساوق انتفاء الرسالة (**لَا يَجْعَلُ لَّيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ سَأَلْتَهُ بِحُلٍّ قَبْلِ الْأَمْرِ وَلَئِنْ أَمَرَ لَفُتْنَا بِحُلٍّ قَبْلِ الْأَمْرِ**) ^(٣) ، فلو لا الإمامة يغدو كل شيء وكأنه لم يكن ، أي لا يبقى نسيج متماسك للإسلام ، بل يهوي ويتمزق ، وأروع ما يرشدنا

(١) المائدة : ٥٥ .

(٢) انظر : الدر المنثور ، السيوطي : ج ٣ ص ١٠٥ . ١٠٦ ؛ تفسير المنار ، محمد رشيد رضا : ج ٦ ص ٤٦٣ ؛ تنزيل الآيات : ص ٥٤ ؛ التهذيب في التفسير : ج ٣ ص ١٠٦ ؛ توضيح الدلائل : ص ١٥٨ ؛ موجّ القربى : ص ٥٥ ؛ ينابيع الموحّ : ج ١ ص ١٢٠ ، ص ٣٤٧ . ٣٤٨ ، الفصول المهمة : ص ١١٧ . ١١٨ ؛ تفسير الثعلبي : ج ٤ : ص ٨٠ . ٨١ ؛ أسباب النزول ، الواحدي : ص ١٥٣ ؛ أرجح المطالب : ص ٦٧ ، ص ٢٠٣ ؛ مناقب المغازلي : ص ١٨ ؛ تفسير القرطبي : ج ٢ ص ٧٣ . ٧٤ ، وغيرها من المصادر .

(٣) المائدة : ٦٧ .

إلى اهتمام القرآن بالإمامة هو التعبير الذي ورد في الآية المباركة بإكمال الدين ورسالة الله تعالى ، ورضاه عز وجل بالإسلام دينا بعد تنصيب الرسول ﷺ لعلي عليه السلام خلفاً وإماماً بعده ، حيث قال تعالى :
(اَلْيَوْمَ اكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَتَمَّمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَصَيَّيْتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا) (١) .
فهذه لمحة عامة تكشف عن اهتمام القرآن بالإمامة ، فهل بعد هذا كله يمكن أن يقال : إن القرآن الكريم لا يهدي إلى الإمامة ؟!! .

ثانيا : السنة النبوية تنص على الإمامة

إن القرآن الكريم أمرنا وبكل صراحة أن نأخذ بما يأمرنا به رسوله الأكرم ﷺ ، قال عز وجل :
(وَمِمَّا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمِمَّا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ...) (٢) ؛ وذلك لأن النبي الأعظم ﷺ لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى ، وعلى هذا الأساس فإن هناك الكثير من النصوص الواردة عن الرسول ﷺ التي نلمس منها عمق اهتمامه بالإمامة والخلافة من بعده ، وقد طفحت بها كتب الفريقين ، كحديث الغدير والثقلين وحديث المنزلة والدار ، وغيرها من الأحاديث الكثيرة المتواترة من طرق الفريقين ؛ فراجع .

(١) المائدة : ٣ .

(٢) الحشر : ٧ .

الخلاصة

أولاً : إن شبهة القول بتحريف القرآن لا أساس لها من الصحة عند مشهور الطائفة الشيعية الإمامية ، وسيوافيك الكلام عنها مفصلاً مشفوعاً بالأدلة القطعية عند الجواب عنها في محله .

ثانياً : تبين مما تقدّم أنّ القرآن الكريم يهدي بصراحة للإمامة ، وبيان معالمها ، ويحدّد أطروحتها بشكل واضح لا غبار عليه .

ثالثاً : إنّ السنّة النبوية قد هدى إليها القرآن وأمر بوجوب التمسك بها ، وهي بدورها تهدي أيضاً إلى الإمامة بنحو صريح ومفصّل ومتواتر .

آية الولاية لا تختص بعلي عليه السلام

الشبهة :

إن قوله تعالى : (إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِكَافُونَ)^(١) ، لا تدل على ولاية وإمامة علي بن أبي طالب عليه السلام ؛ لأن الآية جاءت بصيغة الجمع (الذين) مع أن أقل الجمع ثلاثة ، فكيف تدعي الشيعة أن المراد من الآية هو علي عليه السلام ؟

الجواب :

أولا : كثرة استعمال الجمع وإرادة المفرد في القرآن

إن استعمال لفظ الجمع وإرادة الواحد المفرد ورد في القرآن الكريم في موارد متعددة : منها قوله تعالى : (الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ)^(٢) ، ذكر المفسرون أن المراد به في الآية شخص واحد ، وهو نعيم بن مسعود الأشجعي^(٣) ، قال النسفي في تفسيره : (هو جمع أريد به الواحد ...)^(٤) . وقال القرطبي في تفسيره : (واللفظ عام ومعناه خاص كقوله : (لَمْ يَحْشِبُوا أَنَّ النَّاسَ) يعني محمدا ﷺ ...)^(٥) ، وقوله تعالى : (يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَعْلَى)^(٦) ، وقد صح أن القائل به هو

(١) المائدة : ٥٥ .

(٢) آل عمران : ١٧٣ .

(٣) انظر : تفسير القرطبي : ج ٤ ص ٢٧٩ ؛ تفسير الجلالين ، السيوطي : ص ٩١ .

(٤) تفسير النسفي ، النسفي : ج ١ ص ١٩٢ .

(٥) تفسير القرطبي : ج ٤ ص ٢٧٩ .

(٦) المنافقون : ٨ .

عبد الله ابن أبي بن سلول ^(١) ، وهكذا جاء في آية المباهلة ، قوله تعالى : (فَبَلَّغْ نَبَأَ ابْنَيْكَ وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنَفْسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهَلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ) ^(٢) ، حيث جاء لفظ (أنفسنا) بصيغة الجمع مع أنَّ المراد به واحد ، وهو علي بن أبي طالب عليه السلام ، وكذا (نساءنا) جاء بلفظ الجمع مع أنَّ المراد منه امرأة واحدة ، وهي فاطمة الزهراء عليها السلام ، وكذا (أبناءنا) مع أنَّهما اثنان ، وهما الحسن والحسين عليهما السلام ^(٣) ، وكذا قوله تعالى : (لَمَّا دَخَلَ الْمَلَأُ أَنْ لَوْ أَنَّ لِلَّهِ فَتْرَةٌ مِثْلُ نَحْبِ بْنِ أَغْيَافٍ) ^(٤) ، فقد ذكر الحسن : (أنَّ قائل هذه المقالة هو يحيى بن أخطب ، وقال عكرمة والسدي ومقاتل ومحمد بن إسحاق : هو فنحاص بن عازوراء) ^(٥) ، وقوله تعالى : (وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ يَتَوَلَّوْنَ أَوْ يَوْمَئِذٍ لِّلَّذِينَ يَرَوْكُمْ كُفْرًا) ^(٦) ، نزلت في رجل من المنافقين : (إما في الجلاس بن سويد ، أو في نبتل بن الحرث ، أو عتاب بن قشير) ^(٧) ، وقوله تعالى : (وَالَّذِينَ يَبْتِغُونَ الْكِتَابَ بِمَا مَلَكَتْ يَمَانُكُم فَكَاتِبَتُهُمْ بِأَعْلَمُكُمْ فِيهِمْ خَيْرٌ) ^(٨) ، نزلت في صبيح مولى حويطب بن عبد العزى ^(٩) ، وغيرها من

(١) جامع البيان : الطبري : ج ٢٨ ص ١٣٨ ح ٢٦٤٦٣ ؛ تفسير القرطبي : ج ٨ ص ٢٠٦ ؛ وغيرها من كتب التفسير الأخرى الكثيرة .

(٢) آل عمران : ٦١ .

(٣) صحيح مسلم : ج ٤ ص ١٨٧١ ح ٢٤٠٤ ؛ تفسير الطبري : ج ٣ ص ٤١٠ . ٤٠٤ ؛ تفسير الكشاف ، الزنجشري : ج ١ ، ٣٦٨ . ٣٧٠ ؛ تفسير القرطبي : ج ٤ ص ١٠٤ ؛ سنن الترمذي : ج ٥ ص ٣٠١ . ٣٠٢ ؛ ح ٣٨٠٨ ؛ أحكام القرآن ، للخصاص : ج ٢ ص ١١٥ ؛ فرائد السمطين : ج ١ ص ٣٧٧ ؛ ب ٦٩ ؛ ح ٣٠٧ ؛ الإصابة ، ابن حجر العسقلاني : ج ٢ ص ٥٠٩ ؛ وغيرها من كتب الفريقين .

(٤) آل عمران : ١٨١ .

(٥) انظر تفسير القرطبي : ج ٤ ص ٢٩٤ .

(٦) التوبة : آية ٦١ .

(٧) انظر تفسير القرطبي : ج ٨ ص ١٩٢ ؛ تفسير الخازن : ج ٢ ص ٢٥٣ ؛ الإصابة : ج ٣ ص ٥٤٩ .

(٨) النور : ٣٣ .

(٩) انظر تفسير القرطبي : ج ١٢ ص ٢٤٤ ؛ أسد الغابة ، ابن الأثير : ج ٣ ص ١١ ؛ الإصابة تمييز الصحابة ، ابن حجر : ج ٢ ص ١٧٦ . [ورد هذا الهامش في الكتاب المطبوع في الصفحة التالية ورقمه في متن هذه الصفحة فأدرجناه هنا تلافيا لهذا الخطأ الفني] . [الشبكة] .

الاستعمالات القرآنية الكثيرة في ذلك ، وعلى هذا الأساس لا مجال للإشكال والاعتراض على التعبير عن الواحد بلفظ الجمع .

ثانيا : استعمال الجمع وإرادة المفرد سائغ في لغة العرب

إن استعمال لفظ الجمع وإرادة الواحد استعمال سائغ في لغة العرب ، وليس استعمالاً مستهجناً ، لا سيما إذا كان الواحد معظماً ، كما في قوله تعالى : (**لَا بَنَ بْنَ نَبِيكَ لَمَّا كَرِهَ إِنَّا لَهُمْ بِافِظُونَ**) ^(١) ، وقوله تعالى : (**وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى**) ^(٢) .

ثالثا : الاعتراض المذكور يتنافى مع الروايات المتواترة

إن نفس الاعتراض على التعبير عن الواحد بلفظ الجمع ، يتضمن أن لا تكون الآية المباركة . آية الولاية . نازلة بحق علي بن أبي طالب عليه السلام بالخصوص ، وهذا تكذيب ورفض لما تضافر من الروايات من طرق الفريقين في كونها نزلت في حق علي عليه السلام ، فقد روى الثعلبي في تفسيره : (بينما عبد الله بن عباس جالس على شفير زمزم إذ أقبل رجل متعمم بالعمامة ، فجعل ابن عباس لا يقول : قال رسول الله ، إلا قال الرجل : قال رسول الله ؟ فقال ابن عباس : سألتك بالله من أنت ؟ قال : فكشف العمامة عن وجهه وقال : يا أيها الناس ، من عرفني فقد عرفني ومن لم يعرفني فأنا

(١) الحجر : ٩ .

(٢) السجدة : ١٣ .

جندب بن جنادة البصري ، أبو ذر الغفاري : سمعت رسول الله ﷺ بهاتين وإلا صمنا ، ورأيت بهاتين وإلا فعميتا ، يقول : علي قائد البررة ، وقاتل الكفرة ، منصور من نصره ، مخذول من خذله ، أما إنّي صلّيت مع رسول الله ﷺ يوماً من الأيام صلاة الظهر ، فدخل سائل في المسجد فلم يعطه أحد ، فرفع السائل يده إلى السماء وقال : اللهم اشهد ، إنّي سألت في مسجد رسول الله ، فلم يعطني أحد شيئاً ، وكان علي راکعاً فأومى إليه بخنصره اليمنى ، وكان يتختم فيها ، فأقبل السائل حتى أخذ الخاتم من خنصره ، وذلك بعين النبي ﷺ ، فلما فرغ النبي من الصلاة ، رفع رأسه إلى السماء وقال : (اللهم إنّ أخي موسى سألک ، فقال : (رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي * وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي * مَخْلُلْ عُقْبَتِي مِنْ لِسَانِي * يَفْقَهُوا قَوْلِي * مَجْعَلْ لِي وَرِيراً مِنْ أَهْلِي * هَارُونَ أَخِي * اشْدُدْ بِهِ زَيْجِي *) ^(١) الآية .

فأنزلت عليه قرآنا ناطقا : (سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا) ^(٢) اللهم وأنا محمدا نبيك وصفيك ، اللهم فاشرح لي صدري ويسر لي أمري واجعل لي وزيراً من أهلي علياً أشدد به ظهري) .

قال أبو ذر : فو الله ما استتم رسول الله الكلمة حتى أنزل عليه جبرئيل من عند الله ، فقال : يا محمد ، اقرأ ، فقال : وما أقرأ ؟ قال : اقرأ : (إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ كَاغُوثُونَ) ^(٣) ، ^(٤) .

وفي الدر المنثور أخرج عن الطبري في الأوسط وابن مردويه عن

(١) طه : ٣١ . ٢٥ .

(٢) القصص : ٣٥ .

(٣) المائدة : ٥٥ .

(٤) تفسير الثعلبي : ج ٤ ص ٨٠ - ٨١ .

عمار بن ياسر قال : (وقف بعلي سائل وهو راکع في صلاة تطوّع ، فنزع خاتمه فأعطاه السائل ، فأتى رسول الله ﷺ فأعلمه ذلك فنزلت على النبي ﷺ هذه الآية : (**إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِرَكْعَتَيْنِ**) ، فقرأ رسول الله ﷺ على أصحابه ، ثم قال : **مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلِيَ مَوْلَاهُ ، اللَّهُمَّ وَالِ مَنْ وَاوَاهُ ، وَعَادَ مَنْ عَادَاهُ**) ^(١) .

وأخرج أيضا عن ابن مردويه عن علي بن أبي طالب ؓ قال : (نزلت هذه الآية على رسول الله ﷺ في بيته (**إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ...**) إلى آخر الآية ، فخرج رسول الله ﷺ ، فدخل المسجد ، جاء والناس يصلّون بين راکع وساجد وقائم يصلّي ، فإذا سائل فقال : يا سائل ، هل أعطاك أحد شيئا ؟ قال : لا ، إلّا ذاك الراكع . لعلي بن أبي طالب . أعطاني خاتمه .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن عساكر عن سلمة بن كهيل ، قال : تصدّق علي بخاتمه وهو راکع ، فنزلت : (**إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ**) ، وأخرج ابن جرير عن مجاهد في قوله : (**إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ**) الآية نزلت في علي بن أبي طالب ، تصدّق وهو راکع . وأخرج ابن جرير عن السدي وعتبة بن حكيم مثله .

وأخرج ابن مردويه من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس قال : إذ نزلت هذه الآية على رسول الله ﷺ (**إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِرَكْعَتَيْنِ**) ، ونودي بالصلاة صلاة الظهر ، وخرج رسول الله ﷺ فقال : أعطاك أحد شيئا ؟ قال نعم ، قال : من ؟

(١) الدر المنثور ، السيوطي : ج ٣ ص ١٠٥ .

قال : ذاك الرجل القائم ، قال : على أي حال أعطاكه ؟ قال : وهو رافع . قال : وذلك علي بن أبي طالب ، فكبر رسول الله ﷺ عند ذلك وهو يقول : (وَمَنْ يَتَّبِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْعَالِيُونَ) .

وأخرج الطبراني وابن مردويه وأبو نعيم عن أبي رافع قال : دخلت على رسول الله ﷺ وهو نائم يوحى إليه ... فاستيقظ النبي ﷺ وهو يقول : (إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِكَفْعُونَ) الحمد لله الذي أتمّ لعلي نعمه ، وهياً لعلي بفضل الله إياه ^(١) .
وأخرج هذه الأحاديث أيضا آخرون ^(٢) .

-
- (١) الدر المنثور ، السيوطي : ج ٣ ص ١٠٥ وما بعد .
(٢) أخرج بعض تلك الروايات الطبري في تفسيره : ص ٣٨٩ . ٣٩٠ من طريق ابن عباس وعتبة بن حكيم ومجاهد . وهكذا أخرجها الإسكافي في كتابه المعيار والموازنة : ص ٢٢٨ .
والزمخشري في الكشاف : ج ١ ص ٦٤٩ ، ولم يضعف الحافظ ابن حجر العسقلاني هذه الروايات في حاشيته على الكشاف مع أنه ضعف غيرها .
والواحدي في أسباب النزول : ص ١٣٣ من طريقين ؛ والرازي في تفسيره : مج ٢ ج ١٢ ص ٢٨ عن عطاء عن عبد الله بن سلام وابن عباس وأبي ذر ؛ وابن الصباغ المالكي في الفصول المهمة : ص ١١٧ . ١١٨ .
وسبط ابن الجوزي في التذكرة : ص ٢٤ . ٢٥ ؛ والخوارزمي في مناقبه : ص ٢٦٤ . ٢٦٥ بطريقين ؛ والقاضي عضد الدين الإيجي في المواقف ج ٣ ص ٦١٤ ؛ وفي الذخائر ص ١٠٢ من طريق الواقدي وابن الجوزي .
وابن كثير في تفسيره ج ٢ ص ٧٤ بطريق عن أمير المؤمنين عليه السلام ، ومن طريق ابن أبي حاتم عن سلمة بن كهيل عن ابن جرير الطبري بإسناده عن مجاهد والسدي ، وعن الحافظ عبد الرزاق بإسناده عن ابن عباس وبطريق الحافظ ابن مردويه بالإسناد عن سفيان الثوري عن ابن عباس ، ومن طريق الكلبي عن ابن عباس .
وحديث ابن سعيد الأشج الذي ذكره ابن كثير رواه كلهم ثقات ، فالحديث صحيح على المباني الرجالية . =

= وأخرجه ابن كثير أيضا في البداية والنهاية : ج ٧ ص ٣٩٤ . ٣٩٥ عن الطبراني بإسناده عن أمير المؤمنين ومن طريق ابن عساكر عن سلمة بن كهيل ؛ والصواعق ، ابن حجر : ص ٦٣ ؛ وأحكام القرآن ، للخصاص : ج ٢ ص ٥٥٨ وقد ذكرها في باب العمل اليسير في الصلاة ، وقال : (وقوله تعالى : (وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ) يدل على أن صدقة التطوع تسمى زكاة ؛ لأن علياً تصحّد بخاتمه تطوعاً) ، فأرسل ذلك إرسال المسلمات ؛ والآلوسي في روح المعاني : ج ٦ ص ١٦٧ وقال : (وغالب الأخباريين على أنّها نزلت في علي عليه السلام ، وقال في : ج ٦ ص ١٨٦ : (والآية عند معظم المحدثين نزلت في علي كرم الله وجهه) ؛ والحاكم النيسابوري في معرفة علوم الحديث : ص ١٠٢ ؛ والقرطبي في تفسيره : ج ٦ ص ٢٢١ ؛ والحاكم الحسكاني في شواهد التنزيل : ج ١ ص ٢٣٥ . ٢٣٦ ؛ والزرندي الحنفي في نظم درر السمطين : ص ٨٨ ؛ والسيوطي في كتابه لباب النقول في أسباب النزول ص ٨١ ، وقال بعد نقل عدة كثيرة من الروايات : (فهذه شواهد يقوّ بعضها بعضاً) ؛ وفي فتح القدير : ج ٢ ص ٥٣ قال المناوي : (أخرج الخطيب في المتفق والمفترق عن ابن عباس) .

ولحسن بن ثابت أشعار في ذلك منها قوله :

فأننت الذي أعطيت إذ كنت راكعاً	فدتك نفوس القوم يا خير راكع
بخاتمك الميمون يا خير سيّد	ويا خير شار ثم يا خير بايع
فأنزل فيك الله خير ولاية	فبينهما في محكمات الشرائع

ذكرها الخوارزمي في المناقب : ص ٣٩٦ ؛ وسبط ابن الجوزي في تذكّره : ص ٢٥ ؛ ونظم درر السمطين ، الزرندي الحنفي : ص ٨٨ .

رابعاً : الاعتراض غريب لهم يعهد من الصحابة ولا من التابعين

بعد أن ثبت أن الآية نزلت في علي بن أبي طالب عليه السلام ، فإنّ الكثير من الناقلين لهذه الأخبار هم من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم والتابعين المتصلين بهم زماناً ، وهؤلاء من العرب ، ولم تفسد لغتهم ، ولم تختلط بغيرها من اللغات بحيث أصبحوا لا يميّزون بين الصحيح والسقيم من الاستعمالات اللغوية ، ولو كان هذا الاستعمال لا تبيحه اللغة ، ولا يعهده أهلها ولم تقبله طباعهم لكانوا أحق بالاعتراض عليه ، ولم يؤثر ولم ينقل عن أحد منهم ذلك .

خامساً : جواب الزمخشري

إنّ هذا التساؤل مطروح قديماً ، وقد ردّه مفسّرو أهل السنّة كالزمخشري ، حيث يقول في معرض جوابه عنه : (فإن قلت : كيف صح أن يكون لعلي عليه السلام واللفظ لفظ جماعة ؟ قلت : جيء به على لفظ الجمع وإن كان السبب فيه رجلاً واحداً ؛ ليرغب الناس في مثل فعله فينالوا مثل ثوابه ، ولينبّه على أنّ سجيّة المؤمنين يجب أن تكون على هذه الغاية من الحرص على البرّ والإحسان وتفقد الفقراء ، حتى إن لزمهم أمر لا يقبل التأخير وهم في الصلاة لم يؤخّروه إلى الفراغ منها)^(١) .

(١) الكشف ، الزمخشري : ج ١ ص ٦٤٩ .

الخلاصة

- ١ - إن استعمال لفظ الجمع وإرادة الواحد استعمال سائغ في القرآن في موارد كثيرة .
- ٢ - استعمال لفظ الجمع وإرادة الواحد استعمال سائغ في لغة العرب ، لا سيما إذا كان الواحد معظماً ، كما في قوله تعالى : (تَجِبْ مِنْ رَبِّكَ لَكَرَّهَ إِلَّا لَهُ) ، وقوله تعالى : (وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هَبْهَا) .
- ٣ - إن الاعتراض على تعبير الآية بلفظ الجمع وإرادة الواحد ، يعني إنكاراً لما تسالمت وأجمعت عليه الأمة من نزول الآية بحق علي عليه السلام .
- ٤ - إن الناقلين للأخبار الواردة في نزول الآية في حق علي عليه السلام هم من الصحابة والتابعين والمتصلين بهم ، وهؤلاء من العرب الفصحاء ، فلو كان هذا الاستعمال غير سائغ في اللغة لاعترضوا عليه ، مع أنه لم ينقل عن أحد منهم ذلك .
- ٥ - أجاب الزمخشري عن هذا السؤال بأن هذا الاستعمال لأجل ترغيب الناس في مثل هذا الفعل من البر والإحسان والحرص عليه والمصارعة إليه ، وعدم تأخيره بحيث إنّ الصلاة أيضاً لا تحول دون فعل الخير إن لزم أمر لا يقبل التأخير .

آية الولاية لا تعني الأولى بالتصريف

الشبهة :

إن كلمة المولى في قوله تعالى : (إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ يُكُونُونَ)^(١) لا تعني الأولى بالتصريف ، فلا تدلّ على الإمامة ؟

الجواب :

في مقام الإجابة على ذلك ، ولإثبات أنّ معنى الولي هو الأولى بالتصريف ، لدينا مديات واسعة للاستدلال وعلى كل المستويات ، سواء على المستوى اللغوي أم على مستوى الاستدلال القرآني أم الروائي .

الاستدلال على المستوى اللغوي :

عند التدبر فيما ذكره اللغويون من المعاني المتعددة لكلمة المولى ؛ يتجلى لنا أن هذا اللفظ ليس له إلا معنى واحد فقط ، وهو الأولى بالشيء ، وتختلف هذه الأولوية بحسب الاستعمال في كل مورد من موارده ، كذلك كلمة الولي لها معنى واحد فقط ، وهو الأولى ، وهذا المعنى الواحد جامع لكل المعاني الأخرى ، من الناصر والمحِب و ... ، ولم يطلق لفظ المولى على شيء منها إلا بمناسبة لهذا المعنى ، فالعبد مثلاً أولى بالانقياد لمولاه من غيره ، والجار أولى بالقيام بحقوق الجوار من البُعداء ، وهكذا .

(١) المائدة : ٥٥ .

وهذه النظرية اختارها ابن البطريق (ت ٥٣٣ . ٦٠٠ هـ) ^(١) ، ووافقه عليها غيره .
 وإذا ثبت أنَّ معنى المولى هو الأولى بالشيء ، يكون ذلك هو المراد من آية الولاية ؛ لأنَّه المعنى
 الوجداني والأصل للفظ الولي ، وتختلف الموارد بحسبها ، فيكون مفاد آية الولاية مفاد قوله تعالى : (**النَّبِيِّ أَوَّلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ**) ^(٢) ، الأولى بالتصريف ، ويشهد لذلك ما نقله ابن منظور في لسان
 العرب ، عن ابن الأثير قوله : (وكأن الولاية تشعر بالتدبير والقدرة والفعل ، وما لم يجتمع ذلك فيها لم
 ينطلق عليه اسم الوالي) ^(٣) ، وقريب من هذا المعنى ما ذكره بعض اللغويين في معاجمهم اللغوية .

الاستدلال على المستوى القرآني :

إن الآية المباركة : (**إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا**) تضمنت دلالات وافرة لإثبات المطلوب
 ، ومراعاة للاختصار نكتفي بالإشارة المفهومة لبعض منها :

١ - إنَّ صيغة التعبير في الآية الشريفة جعلت الولاية بمعنى واحد ، حيث قال : (**إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَ...**
الَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُتِيمُونَ الصَّالِحَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ
وَهُمْ رَكُوعُونَ) لكان الأنسب في التعبير أن تفرد بالذكر ولاية أخرى للمؤمنين ؛ لكي تحول

(١) عمدة عيون الأخبار ، ابن البطريق : ص ١١٤ . ١١٥ .

(٢) الأحزاب : ٦ .

(٣) لسان العرب : ابن منظور : ج ١٥ ص ٤٠٧ ؛ النهاية في غريب الحديث ، ابن الأثير : ج ٥ ص ٢٢٧ .

دون وقوع الالتباس ، نظير قوله تعالى : (لَنْ نَذُورَ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ) ^(١) ، فكرر لفظ الإيمان في الموضعين ؛ بسبب تكرار معنى الإيمان وتغايره فيهما .

إذن لابد أن تكون الولاية في الآية المباركة بمعنى واحد في جميع الموارد التي ذكرت فيها ، وهي الأصالة لله تعالى ، وبالتبع لرسوله ﷺ وللذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راکعون .

وولاية الله تعالى في الآية المباركة ولاية عامة وشاملة لولاية التصرف ، والتدبير ، والنصرة وغيرها ، قال تعالى حكاية عن نبيه يوسف عليه السلام : (أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ) ^(٢) ، وقال عز وجل : (فَمِمَّا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ) ^(٣) ، وغيرها من الآيات الدالة على ذلك .

٢ . إن الولاية التي هي بالأصل لله عز وجل جعلها لنبيه ﷺ بالتبع ، فلرسول الله ﷺ الولاية العامة على الأمة ، من الحكم فيهم ، والقضاء في جميع شؤونهم ، وعلى الأمة التسليم والطاعة المطلقة بلا ضيق أو حرج ، كما في قوله تعالى : (أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ) ^(٤) ، وقوله تعالى : (وَمِمَّا كَانُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِلاَّ قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا) ^(٥) .
خصوصا وإننا لا نجد القرآن يعد النبي ناصرا للمؤمنين ولا في آية واحدة .

(١) التوبة : ٦١ .

(٢) يوسف : ١٠١ .

(٣) الشورى : ٤٤ .

(٤) النساء : ٥٩ .

(٥) الأحزاب : ٣٦ .

وهذا المعنى من الولاية الثابتة لله تعالى ورسوله ، غُطفت عليه ولاية : (الذين آمنوا ...) ، وهذا يعني أنّ الولاية في الجميع واحدة ؛ لوحدة السياق وهي ثابتة لله عزّ وجلّ بالأصالة ، ولرسوله وللذين آمنوا بالتبع والتفضّل والامتنان .

إذن الولاية الثابتة في الآية لعليّ عليه السلام هي ولاية التصرف ، وإنّ معنى الولي في الآية تعني الأولى بالتصرف ، ومّا يؤكّد ذلك مجيء لفظ (وليكم) مفرداً ونسب إلى الجميع بمعنى واحد ، والوجه الذي ذكره المفسّرون لذلك هو أنّ الولاية ذات معنى واحد ، لله تعالى أصالة ولغيره بالتبع .

الاستدلال على المستوى الروائي :

هناك عتقٌ من القرائن والشواهد الروائية لإثبات المطلوب :

أولاً : لو كانت الولاية الثابتة لعلي بن أبي طالب عليه السلام بمعنى النصرة ، لما وجد فيها مزيد عناية ومزيّة وممدح لعلي عليه السلام ؛ لأنّها موجودة بين جميع المؤمنين : (**لَمُؤْمِنُونَ** **وَلَمُؤْمِنَاتٌ** **بَعْضُهُمْ** **أَوْلِيَاءُ** **بَعْضٍ**)^(١) ، وعلي عليه السلام كان متصفاً بهذه المحبة والنصرة للمؤمنين منذ أن رضع ثدي الإيمان مع صنوه المصطفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ .

ولكن لو أمعنا النظر في الروايات الواردة عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ عقيب

(١) التوبة : ٧١ .

نزل آية الولاية ، لوجدنا أنها تثبت موثقة ومنقبة عظيمة لعلي عليه السلام ، ففي الرواية أنّ الرسول ﷺ قال بعد نزول الآية : (الحمد لله الذي أتمّ لعلي نعمه ، وهياً لعلي بفضل الله إياه)^(١) .

وقوله ﷺ بعد نزول الآية أيضاً : (من كنت مولاه فعلي مولاه ، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه)^(٢) ، إذاً في الآية الكريمة مزيد عناية تفتقر عن تولي المؤمنين بعضهم لبعض ، وليس تلك المزية العظيمة إلا ولاية التصرّف والإمرة .

ثانياً : إن الولاية التي خصّها رسول الله ﷺ لعلي عليه السلام يوم غدیر خم ، هي ولاية تدبير وتصرف ؛ لأنّها نفس ولاية النبي ﷺ ، وهذا ما نلمسه من كيفية إعلان الولاية من قبله ﷺ ، حيث قال : (ألسنت أولى بكم من أنفسكم ...) ، وهذه الولاية . التي هي ولاية تصرف . هي نفسها الولاية التي تثبتها الآية الشريفة : (إنما وليكم ...) لعلي عليه السلام .

من هنا نجد أن النبي ﷺ عقب . بعد نزول آية الولاية في حق علي عليه السلام . بقوله : (من كنت مولاه فعلي مولاه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه) ،

(١) الدر المنثور ، السيوطي : ج ٣ ص ١٠٦ .

(٢) مسند أحمد : ج ١ ص ٨٤ ، ص ١١٨ ، ص ١١٩ ، ص ١٥٢ ، ص ٣٣١ ، ج ٤ ص ٢٨١ ، ص ٣٧٠ ، ص ٣٧٢ ، ج ٥ ص ٣٤٧ ، ص ٣٦٦ ، ص ٣٧٠ ، سنن ابن ماجه : ج ١ ، ص ٤٣ ح ١١٦ ؛ الترمذي : ج ٥ ص ٢٩٧ ؛ المستدرک ، الحاكم النيسابوري : ج ٣ ص ١٠٩ . ١١٦ ، ص ١٣٤ ، ص ٣٧١ ، ص ٥٣٣ ؛ مجمع الزوائد ، الهيثمي : ج ٧ ص ١٧ ، ج ٩ ص ١٠٤ . ص ١٠٨ ص ١٦٤ ؛ وقال فيه : (عن سعيد بن وهب ... رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح) ؛ فتح الباري : ج ٧ ص ٦١ ؛ وقال فيه : (فقد أخرجه الترمذي والنسائي وهو كثير الطرق جداً ، وقد استوعبها ابن عقدة في كتاب مفرد ، وكثير من أسانيدھا صحاح وحسان) ؛ صحيح ابن حبان : ج ١٥ ص ٣٧٦ وما بعد ، وغير ذلك من المصادر الكثيرة جداً ؛ فراجع .

وهذا يكشف عن كون الولاية ولاية تصرّف ، لا سيّما إذا أخذنا بنظر الاعتبار ذلك الحشد المتنوع من الروايات الذي يؤكّد على علي بن أبي طالب عليه السلام ، ويقرن طاعته بطاعة الله ورسوله ، كل ذلك يكشف عن أن ولايته عليه السلام هي ولاية التصرف ، وأنّه الأولى بالتصرف ؛ لذا قال رسول الله ﷺ في حق علي عليه السلام : (مَنْ أطاعني فقد أطاع الله ، وَمَنْ عصاني فقد عصى الله ، وَمَنْ أطاعك فقد أطاعني ، وَمَنْ عصاك فقد عصاني) ، قال الحاكم : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه (١) .

وعنه عليه السلام قال : (مَنْ يريد أن يحيا حياتي ويموت موتي ويسكن جنّة الخلد التي وعدني ربّي ؛ فليتول علي بن أبي طالب فإنّه لن يخرجكم من هدى ولن يدخلكم في ضلالة) ، قال الحاكم أيضاً : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه (٢) .

وعن عبد الرحمن بن عثمان قال : سمعت جابر بن عبد الله يقول : سمعت رسول الله ﷺ وهو أخذ بضبع علي بن أبي طالب ، وهو يقول : (هذا أمير البرّة ، قاتل الفجرة ، منصور مَنْ نصره مخدول مَنْ خذله ، ثم مدّ بها صوته) ، قال الحاكم : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه (٣) .

وغيرها الكثير من الروايات التي تشاركها بالمضمون ذاته .

ثالثاً : إن رسول الله ﷺ طلب من الله تعالى أن يشد عضده بأخيه

(١) المستدرک علی الصحیحین ، الحاكم النيسابوري : ج ٣ ص ١٢٨ ، تاريخ مدينة دمشق : ابن عساكر : ٤٢ : ص ٣٠٧ .

(٢) المستدرک علی الصحیحین ، الحاكم النيسابوري : ج ٣ ص ١٢٨ . ١٢٩ .

(٣) المستدرک علی الصحیحین ، الحاكم النيسابوري : ج ٣ ص ١٢٩ .

علي عليه السلام ، كما شدَّ الله تعالى عضد موسى عليه السلام بأخيه هارون عليه السلام ، فنزلت الآية : (**إِنَّمَا وَلِيُّكُم** ...) بشرى لرسول الله ﷺ ، بجعل علي عليه السلام ولياً وخليفة من بعده ، وهذا يدل على أنَّ الولاية لعلي عليه السلام لم تكن مجرد نصرة ومحبة ، بل كانت ولاية أولوية بالأمر بعد رسول الله ﷺ ، كما هو الحال في هارون عليه السلام ، باعتبار أولويته بالأمر والإمرة بعد موسى عليه السلام ، عندما خلفه في قومه .

رابعا : احتجاج أمير المؤمنين عليه السلام على أولويته بالأمر بعد رسول الله ﷺ بآية الولاية ، حيث قال عليه السلام مخاطبا لجمع من الصحابة في مسجد رسول الله ﷺ : (أنشدكم الله : أتعلمون حيث نزلت : (**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَطِيعُوا الرَّسُولَ وَطِيعُوا الْأَمْرَ مِنْكُمْ**) ، وحيث نزلت : (**إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ يُكِبُونَ**) ، وحيث نزلت : (**لَمْ يَخْزَ مِنْ دُنِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً**) ، قال الناس : يا رسول الله : أخاصبة في بعض المؤمنين ، أم عامة لجميعهم ؟ فأمر الله عز وجل نبيه ﷺ أن يعلمهم ولادة أمرهم ، وأن يفسر لهم من الولاية ما فسر لهم من صلاتهم ، وزكاتهم ، وحجهم ، فنصني للناس بغدير خم ^(١) . وهذا يكشف عن كون المراد بالآية هو الأولى .

وبذلك يتحصّل أنَّ معنى الولي هو الأولى بالتصرف ، وأنَّ الآية بصدد جعل الولاية لعلي عليه السلام بعد الرسول ﷺ .

(١) المناقب ، ابن المغازلي الشافعي : ص ٢٢٢ ، فرائد السمطين : ج ١ ص ٣١٢ ، ينابيع المودة للقندوزي : ج ١ ص ٣٤٦ ، شواهد التنزيل ، الحسكاني : ج ٢ ص ٢٩٥ ، فرائد السمطين : ج ١ ص ٣١٢ .

كيف تستدل الشيعة بشأن النزول ؟

الشبهة :

الشيعة يستدلون بشأن نزول آية الولاية على الإمامة ؟

الجواب :

بعد أن أطبقت الأمة وأجمع المحدثون والمفسرون على نزول الآية المباركة في الإمام علي عليه السلام مع صراحة الآية في إثبات الولاية ، ومباركة النبي صلى الله عليه وآله للإمام علي عليه السلام بقوله : (الحمد لله الذي أتم لعلي النعمة) ، لا يبقى أي مجال لمثل هذه التشكيكات والشبهات ، سواء كان الاستدلال بالآية استدلالاً مباشراً ، أم كان عن طريق شأن النزول ، الذي هو عبارة عن الأحاديث المتواترة والصحيحة والصريحة عن رسول الله صلى الله عليه وآله التي أمرنا الله تعالى بالتمسك بها بقوله : (وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا)^(١) ، وعليه فلا ينبغي التهاون والتقليل من شأن هذه الأحاديث القطعية ، كما يظهر ذلك من كلام صاحب الشبهة .

ويمكن أن نحقق استيعاباً جيداً لمسألة ولاية علي بن أبي طالب عليه السلام ؛ وذلك من خلال الآيات القرآنية والنصوص النبوية التي تعرضت لبيان هذا المعنى ، فضلاً عما أشاعته آية الولاية من مناخ سائد حيال هذه المسألة ، من تقديم التهاني والتبريكات من قبل الصحابة إلى علي عليه السلام الصحابة وإنشاد الشعر والمديح بهذه المناسبة العظيمة ، وهذا يكفي لسد كل منافذ الريب والتشكيك ، ومعالجة ما يطراً على الأذهان من التباسات .

(١) الحشر : ٧ .

الخلاصة

لا مجال لمثل هذه التشكيكات ، بعد أن أجمعت الأمة على نزول الآية في شأن علي عليه السلام ، وسواء كان الاستدلال بالآية ذاتها أم من طريق شأن النزول الثابت قطعاً كونه بخصوص علي عليه السلام فهو يثبت المطلوب ، ولا معنى للإصغاء لمثل هذه الأوهام .

المعروف أن علياً فقير فكيف يتصدق ؟

الشبهة :

إن علياً كان فقيراً فكيف يتصدق ؟ بالخاتم إيتاء الزكاة ؟

الجواب :

ما أكثر المدّعيات التي تُرفع من دون أي دليل ولا برهان يدعمها ، ومن أغرب المدّعيات التي تُثار للتشكيك في صحّة نزول آية الولاية في الإمام علي عليه السلام هذا الإشكال الأنف الذكر ، إلا أننا توخّياً لدرء مثل هذه التشكيكات التي تطرأ على بعض الأذهان نقول :

أولاً : إنّ لفظ الزكاة لغةً شامل لكل إنفاق لوجه الله تعالى ، ونلمس هذا المعنى في عدّة من الآيات المباركة ، وكقوله تعالى : (**هُوَ صَانِي بِالصَّلَاةِ مَزَكَّاةً مَا دُمْتَ حَيًّا**) ^(١) ، وكذا ما قاله القرآن بحق إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليه السلام : (**هُوَ حَيِّنَا إِلَيْهِمْ فَعَلَ الْخَيْرَاتِ مَرَقَّامَ الصَّبَاةِ مَرَبَّاءَ الزَّكَاةِ**) ^(٢) ، وغيرها من الآيات التي تشاركها في المضمون ، ومن المعلوم أنّه ليس في شرائعهم عليه السلام الزكاة المالية المصطلحة في الإسلام .

(١) مريم : ٣١ .

(٢) الأنبياء : ٧٣ .

ومن هنا فقد استعمل القرآن لفظ الزكاة في الآية الشريفة بمعناها اللغوي الشامل لكل إنفاق لوجه الله تعالى أي الزكاة المستحبة (زكاة تطوع) ؛ ولذا نرى أن الجصاص . في أحكام القرآن . فهم أن المراد بالزكاة في الآية ، هي زكاة التطوع ، حيث قال : (قوله تعالى : (وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ يُكِبُّونَ) ، يدلّ على أنّ صدقة التطوع تسمّى زكاة ؛ لأنّ عليّاً تصدّق بخاتمه تطوعاً ، وهو نظير قوله تعالى : (وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْغِفُونَ) ^(١) .

ثانيا : لو فرضنا أنّ المراد من الزكاة في الآية هي الزكاة الواجبة ، فليس من الغريب أن يمتلك الإمام علي عليه السلام نصاب من مال الزكاة وهو مقدار (٢٠٠ درهم) ، ومن ملك ذلك لا يعدّ غنياً ، ولا يُطلق عليه اسم الغني شرعاً .

ثالثاً : بعد أن ثبت نزول الآية في الإمام علي عليه السلام بإجماع الأمة واتفاق المفسرين والمحدثين ، ولم ينكر أحد على الإمام علي عليه السلام تصدّقه بالخاتم ، وإنّما الكل فهم المزيّة والكرامة له عليه السلام لا يبقى أي مجال للإنكار والتشكيك .

ومن هنا نلاحظ أن الرسول الأكرم ﷺ بادر المباركة للإمام علي عليه السلام عقيب نزول الآية الكريمة ، وقام الشعراء بإنشاء القصائد الطافحة بالمديح والثناء على الإمام علي عليه السلام ، كل ذلك نتيجة طبيعية للمناخ الذي أشاعته الآية في أوساط المسلمين ، من إثبات الولاية للإمام علي عليه السلام ، فإذا ثبت نزول الآية في الإمام علي عليه السلام بالدلائل والبيّنات القاطعة لا معنى للاستنكار والتشكيك ، خصوصاً وأنّ رسول الله ﷺ حمد الله على هذه النعمة التي أتمّها لعلي عليه السلام ، وبارك الصحابة بأقوالهم وأشعارهم للإمام علي عليه السلام تلك المنقبة .

(١) أحكام القرآن ، الجصاص : ج ٢ ص ٥٥٨ .

الخلاصة

- ١ - إن لفظ الزكاة شامل لكل إنفاق لوجه الله تعالى واستعملها القرآن بذلك .
- ٢ . لو سلمنا أنّ لفظ الزكاة في الآية استعمل في الزكاة الواجبة التي هي أقلّ نصابها ٢٠٠ درهم ، فإنّ من يملك هذا المبلغ لا يُعد غنيّاً شرعاً .
- ٣ - قام الإجماع على نزول آية الولاية في حق الإمام علي عليه السلام ، ولم ينكر أحد آنذاك ما استنكره صاحب الشبهة ، بل أنشد الشعر والمدائح والثناء على الإمام علي عليه السلام ، مع مباركة الصحابة .

آية البلاغ تدل على أنه ﷺ لم يبلغ سابقاً

الشبهة :

إنّ استدلال الشيعة بآية البلاغ على الإمامة يبطل كل الاستدلالات السابقة التي يستدلّون بها ؛ لأنّ آية البلاغ مدنية ، فتدل على أنه ﷺ لم يبلغ سابقاً .

الجواب :

أولاً : لا بد أن نفهم كيفية تعاطي الرسول الأكرم ﷺ مع المفاهيم والمبادئ الإسلامية المهمة التي تمثّل الأساس في منظومة الدين الإسلامي ، والتي ينبغي التأكيد عليها من قبله ﷺ أكثر من غيرها ، ومن جملة المفاهيم الأساسية هي الإمامة ، حيث نلمس غاية الانسجام ومنتهى الملائمة بين جميع البيانات السابقة لإثبات الإمامة والتنصيب عليها ، فكل تلك المواقف والبيانات كانت تتناسب مع خطورة وأهمية مبدأ كمبدأ الإمامة والولاية بعد رسول الله ﷺ ، فلا بد من تأسيسه وتشديد أركانه وجعله وعياً إسلامياً عاماً ، وآية البلاغ جاءت ضمن ذلك السياق وتلك الخلفية ، فهي نزلت في ذلك الظرف لتحمل في طياتها العديد من الأمور المهمة التي تتعلّق بحقيقة الإمامة ، منها :

١ . أُنْهَا جَاءَتْ لِتَصْرَحَ بِقَضِيَّةٍ مُهِمَّةٍ جَدًّا ، وَهِيَ أَنَّ تَرْكَ تَنْصِيبِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِلْوَلَايَةِ مَسَاوِقٌ لَتَرْكَ تَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ بِأَكْمَلِهَا ، وَهَذَا مَا يَتَحَلَّى وَاضِحًا عِنْدَ التَّأَمُّلِ فِي الْآيَةِ : (لِيَ ۖ تَفْعَلَ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ ۖ لَئِنْ يَعْصِيكَ مِنَ النَّاسِ ...) ^(١) ، وَعَلَى ضَوْءِ ذَلِكَ تَعْرِفُ السَّرَّ فِي نَزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ الْمُبَارَكَةِ فِي أَوَاخِرِ حَيَاةِ الرَّسُولِ الْأَكْرَمِ ﷺ ، حَيْثُ تَكْشِفُ عَنْ أَهْمِيَّةِ الْإِمَامَةِ وَالْوَلَايَةِ فِي الْمُنَظُومَةِ الدِّينِيَّةِ ، وَمِنْ هَذَا الْمُنْطَلَقِ يَظْهَرُ لَكَ سَبَبُ ذَلِكَ الْحَشْدِ الْمُنْتَوِعِ مِنَ النُّصُوصِ الْقُرْآنِيَّةِ وَالرَّوَايَةِ الَّتِي تُؤَكِّدُ عَلَى ضَرُورَةِ وَأَهْمِيَّةِ مَوْقِعِ الْإِمَامَةِ فِي الْإِسْلَامِ بِأَجْمَعِهِ ؛ ذَلِكَ لِكَيْ يَنْطَلِقَ الْإِسْلَامُ فِي قِيَادَةِ جَدِيدَةٍ تَكُونُ فِي جَمِيعِ مَجَالَاتِهَا وَأَفَاقِهَا امْتِدَادًا لِلْقِيَادَةِ النَّبَوِيَّةِ ، لِتَبْقَى الْمَسِيرَةُ مُسْتَمِرَّةً وَالرِّسَالَةُ مُحْفُوظَةً .

وَمِمَّا يُؤَكِّدُ أَهْمِيَّةَ الْإِمَامَةِ وَالْوَلَايَةِ هُوَ مَا نَحْدُهُ وَاضِحًا فِي أَقْوَالِ الرَّسُولِ الْأَكْرَمِ ﷺ بَعْدَ تَبْلِيغِ مَقَامِ الْوَلَايَةِ وَتَعْيِينَ الْوَلِيِّ لِلنَّاسِ ، حَيْثُ قَالَ ﷺ : (فَلْيَبْلَغِ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ) ^(٢) ، فَإِنَّ اهْتِمَامَهُ ﷺ الشَّدِيدَ فِي إِيْصَالِ خُطَابِهِ الشَّرِيفِ إِلَى جَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ يَكْشِفُ عَنْ خَطَرَةِ الْأَمْرِ ، وَأَنَّهُ مِمَّا تَتَوَقَّفُ عَلَيْهِ دِمُومَةُ الْإِسْلَامِ .

بِالإِضَافَةِ إِلَى مَا يَكْتَنِفُ الْآيَةَ الْمُبَارَكَةَ مِنَ الْقِرَائِنِ الْحَالِيَةِ الْكَثِيرَةِ وَالْوَاضِحَةِ الدَّالَّةِ عَلَى أَهْمِيَّةِ هَذَا الْأَمْرِ ، وَتَأْثِيرِهِ الْمُبَاشِرِ عَلَى مَسِيرَةِ الْإِسْلَامِ ، كَنَزُولِهِ ﷺ فِي حَرِّ الْمَجِيرِ وَالسَّمَاءِ صَافِيَةٍ ، وَالْمُسْلِمُونَ وَاقِفُونَ عَلَى الْحَصْبَاءِ وَالرَّمْضَاءِ الَّتِي كَادَتْ تَتَوَقَّدُ مِنْ حَرَارَةِ الشَّمْسِ ، حَتَّى أَنَّهُ نَقَلَ الرِّوَاةَ مِنْ حَقَّازِ الْحَدِيثِ وَأَثَمَةِ التَّارِيخِ أَنَّهُ لَشِدَّةِ الْحَرِّ وَضَعَ بَعْضُ النَّاسِ ثَوْبَهُ عَلَى رَأْسِهِ ، وَبَعْضُهُمْ اسْتَظَلَّ بِمَرْكَبِهِ ، وَبَعْضُهُمْ اسْتَظَلَّ بِالصَّخُورِ ، وَنَحْوِ ذَلِكَ .

(١) الْمَائِدَةُ : ٦٧ .

(٢) كَمَا جَاءَ ذَلِكَ فِي أَكْثَرِ الْمَصَادِرِ الرَّوَايَةِ وَالتَّفْسِيرِيَّةِ الَّتِي نَقَلْتُ حَدِيثَ الْغَدِيرِ ، وَقَدْ ذَكَرَ ابْنُ حَجَرٍ أَنَّهُ (قَدْ بَلَغَتْ التَّوَاتُرُ) ، لِسَانِ الْمِيزَانِ ، ابْنُ حَجَرٍ الْعَسْقَلَانِيُّ : ج ١ ص ٣ .

وكذلك أمره ﷺ بـرجوع من تقدّم ، وتقدّم من تأخّر .

مضافاً إلى حضور ذلك الجمع الغفير من الصحابة والمسلمين الذين حضروا لأداء مناسك الحج من سائر أطراف البلاد الإسلامية ، وغير ذلك من الأمور التي تدل على خطورة الأمر وأهميته .

٢ . إن آية البلاغ التي بلّغها الرسول الأكرم ﷺ في أواخر حياته ، جاءت تحمل في طياتها الإشارة إلى قضية مهمة جداً في الدين الإسلامي ، وهي تحديد معالم أطروحة الإمامة في الإسلام ، مؤكّدة على أنّ الإمامة شاملة لكل الأبعاد القيادية السياسية منها والحكومية والمرجعية وغيرها ، وأنّ منصب الخلافة والحكومة يمثل أحد أبعاد الإمامة ، وهذا هو موضع النزاع مع أتباع مدرسة الخلفاء ، حيث إنهم يختزلون دور الإمام في الحاكمية فقط ، فإذا لم يستلم الحكومة لا يكون إماماً ، على خلاف معتقد الشيعة الإمامية الاثني عشرية ، التي تعتقد أنّ منصب الحاكمية يمثل أحد أبعاد الإمامة لا جميعها .

٣ . إن آية البلاغ جاء تبليغها بصيغة الإعلان الرسمي للولاية والإمامة والتتويج العام للإمام علي عليه السلام أمام المسلمين ، ويشهد لذلك كيفية التبليغ ، حيث جمع رسول الله ﷺ الناس وأمر أن يرد من تقدم منهم ومن تأخّر عنهم في ذلك المكان ، وجمعت له ﷺ أقتاب الإبل وارتقاها آخذاً بيد أخيه علي عليه السلام معمّماً له أمام الملاء صادعاً بإبلاغ الولاية ، ثم إنّه ﷺ طلب بنفسه البيعة من الناس لعلي عليه السلام ، وبادر الناس لبيعته عليه السلام وسلّموا عليه بإمرة

المؤمنين ، وهنأوا النبي ﷺ وعلياً عليه السلام ، وأول من تقدّم بالتهنئة والبخبخة ، أبو بكر ثم عمر بن الخطاب وعثمان ...^(١) ، وقد روى الطبري في كتابه الولاية بإسناده عن زيد بن أرقم أنّ النبي ﷺ قال : (قولوا أعطيناك على ذلك عهداً من أنفسنا ، وميثاقاً بآلسنتنا ، وصفقة بأيدينا ، نؤديه إلى أولادنا وأهلنا لا نبتغي بذلك بدلاً)^(٢) .

ثم استئذنان حسان بن ثابت من الرسول ﷺ لنظم أبيات في الواقعة تدل على أنّه لم يفهم من الحديث غير معنى الخلافة والولاية .

وكذلك يؤكّد كل ما قلناه احتجاج أمير المؤمنين علي عليه السلام بحديث الغدير في مواضع عديدة ، حيث كان يحتج على أولئك الذين تركوا وصيّة رسول الله ﷺ بقوله عليه السلام : (أنشدكم بالله أمنكم من نصبه رسول الله يوم غدير خُـم للولاية غيري ؟ قالوا : اللهم ، لا) ، وفي موضع آخر (قال : أنشدكم بالله هل فيكم أحد قال له رسول ﷺ من كنت مولاه ، فعلي مولاه ، اللهم وإل من والاه وعاد من عاداه ، وانصر من نصره ، ليبلغ الشاهد الغائب ، غيري ؟ قالوا : اللهم ، لا)^(٣) .

(١) مسند أحمد : ج ٤ ص ٢٨١ ؛ المعيار والموازنة ، الإسكافي : ص ٢١٢ ؛ المعجم الكبير ، الطبراني : ج ٥ ص ٢٠٣ ؛ فيض القدير شرح الجامع الصغير : ج ٦ ص ٢٨٢ ح ١٢٠ ؛ تذكرة الخواص ، ابن الجوزي : ص ٣٦ ؛ نظم درر السمطين : ص ١٠٩ ؛ كنز العمال ، المتقي الهندي : ج ١٣ ص ١٣٤ ؛ شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد : ج ٥ ص ٨ ؛ المصنف لابن أبي شيبة الكوفي : ج ٧ ص ٥٠٣ ؛ شواهد التنزيل : الحاكم الحسكاني : ج ١ ص ٢٠٠ ؛ ثمار القلوب : ص ٦٣٧ ؛ وغيرها .

(٢) كتاب الولاية : محمد بن جرير الطبري : ص ٢١٤-٢١٦ .

(٣) انظر : مسند أحمد : ج ١ ص ٨٤ ؛ ج ٤ ص ٣٧٠ ؛ ج ٥ ص ٣٧٠ ؛ مجمع الزوائد ، الهيثمي : ج ٩ ص ١٠٤ ، ص ١٠٧ ؛ المصنف ، أبي شيبة الكوفي : ج ٧ ص ٤٩٩ ؛ كتاب السنّة : عمرو بن أبي عاصم : ص ٥٩١ ، ص ٥٩٣ ؛ خصائص أمير المؤمنين ، النسائي : ص ٩٦ ؛ مسند أبي يعلى : ج ١ ص ٤٢٨ . ٤٢٩ ح ٥٦٧ ؛ ج ١١ ص ٣٠٧ ح ٦٤٢٣ ؛ المعجم الصغير : الطبراني : ج ١ ص ٦٤ . ٦٥ ؛ المعجم الأوسط : ج ٢ ص ٣٢٤ ؛ المعجم الكبير : ج ٥ ص ١٧١ ؛ كنز العمال ، المتقي الهندي : ج ١١ ص ٣٣٢ ؛ الصواعق المحرقة ، ابن حجر الهيتمي : ص ١٩٥ ؛ وغيرها .

٤ . لم يكتف الله تبارك وتعالى بكل البيانات السابقة من النبي الأكرم ﷺ حتى أنزل في ولاية علي عليه السلام تلك الآيات الكريمة تتلى على مر الأجيال بكرة وعشياً ؛ ليكون المسلمون على ذكر من هذه القضية في كل حين ، وليعرفوا رشدهم والمرجع الذي يجب عليهم أن يأخذوا عنه معالم دينهم ويتبعوه في قيادته .

٥ . لو اقتصر في تبليغ الإمامة على تلك البيانات الخاصة للرسول الأكرم ﷺ والمقتصرة على حضور بعض الصحابة ؛ لضاعت وأصبحت روايات ضعافاً ، ولما وصلت إلينا بشكل واضح ومتواتر كما جاءتنا آيات وروايات البلاغ ؛ وذلك بسبب منع تدوين حديث رسول الله ﷺ في عهد الخلفاء ، ولتولي بني أمية وأعداء أهل البيت عليه السلام تدوين الحديث فيما بعد .

الخلاصة

أولاً : إن تعاطي القرآن الكريم والرسول الأكرم ﷺ مع المفاهيم الأساسية في الإسلام . كالإمامة . يختلف عن غيرها من المفاهيم الأخرى ؛ ولذا نجد أن النبي ﷺ أكد عليها مراراً وشيّد أركانها ، مستثمراً كل مناسبة يمكن استثمارها في ذلك ، ومن هنا نلتمس أسباب كثرة البيانات والتصريحات المتكررة من الرسول الأكرم ﷺ ؛ وذلك لكي يكون الاهتمام والتبليغ متناسباً مع أهمية ذلك الأمر ؛ ولذا نرى الانسجام والملائمة بين التبليغات النبوية ، والآيات القرآنية الواردة في هذا الصدد ، وبالخصوص آية البلاغ التي جاءت ضمن الاهتمامات القرآنية بمسألة الإمامة ، وقد حملت آية البلاغ العديد من المعطيات المهمة في مسألة الإمامة ، منها:

١ . إن الآية المباركة جاءت لتبين أن ترك تنصيب الإمام علي عليه السلام للولاية مساوق لترك تبليغ الرسالة بأكملها ، كما هو واضح من قوله تعالى : (لَّا َ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ ...) ومما يؤكد أهمية هذا التبليغ للإمامة ملاحظة الظروف التي رافقت عملية التبليغ من شدة الحرّ ، وأمر الرسول ﷺ برجوع المتقدم ولحق المتأخّر ، والجمع الغفير الذي حضرها ، كل ذلك يدل على أهمية الأمر وخطورته .

٢ . إن تبليغ الرسول ﷺ للآية في أواخر حياته جاء مؤكّدا على بيان أطروحة الإمامة في الإسلام ، وأنها شاملة لكل الأبعاد القيادية السياسية والدينية والحقوقية والقضائية ، وأنّ منصب الخلافة والحكومة يمثل أحد أبعاد الإمامة ، وهذا هو محل النزاع بين السنة والشيعة ، حيث إنّ السنة يختزلون دور الإمام في الحاكمية فقط .

٣ . إن آية البلاغ جاءت بصيغة الإعلان الرسمي لولاية الإمام علي عليه السلام كما هو واضح من خلال عملية التنصيب وطريقته ومباركة الصحابة له بالولاية وإنشاء الشعر ونحوها ، وكذلك احتجاجه عليه السلام بحديث الغدير في مناسبات عديدة على أحقيّته عليه السلام في الخلافة .

ثانيا : إن الله تعالى لم يقتصر على أمر الرسول ﷺ بالتبليغ لولاية الإمام علي عليه السلام ، بل هنالك عدّة من الآيات جاءت مؤكّدة لتلك الولاية لتتلى بكرةً وعشياً على مرّ الأجيال ، وتكون شاهدة وحجّة عليهم .

ثالثا : لو اقتصر في تبليغ الولاية على البيانات الخاصة المقتصرة على حضور بعض الصحابة ، سوف يُعرّضها ذلك للضياع ، لا سيّما مع ملاحظة منع تدوين السنّة ، أو تكون من الأخبار الضعاف ، ولذا كان تبليغها في واقعة الغدير كفيلا بأن يجعلها تصل إلى حد التواتر وإجماع المسلمين ، الذي لا يمكن تجاوزه .

لا وجود لاسم علي في القرآن

الشبهة :

إن القرآن الكريم لم ينص على إمامة علي عليه السلام وإلا لذكر اسمه فيه .

تمهيد:

لكي تكون الإجابة واضحة لا بد من الالتفات إلى نقطتين أساسيتين ، هما :

الأولى : القرآن تبيان لكل شيء

لا ريب أن القرآن هو الكتاب المنزل لهداية الناس فيه تبيان كل شيء ، والسنة النبوية مفصلة ومبيّنة له ، قال تعالى : (وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ) ^(١) ، فأحدهما مكمل للآخر ، والإسلام كلّ ، من عقائد وأحكام وسائر علومه وأصوله موجود في القرآن الكريم ، أمّا شرحه وتفسيره وتجسيده ، فنجدّه في سنة النبي ﷺ من خلال حديثه وسيرته المباركة ؛ ولذا نجد أن الله تعالى قرن طاعته بطاعة رسوله ﷺ ، كما في قوله تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ هُوَ لِي الْأَمْرُ مِنْكُمْ) ^(٢) ، وقوله عزّ وجلّ : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا مِنْهُ مَنْ تَتَّبِعُوا تَتَّبِعُوا) ^(٣) ، وكذلك قرن معصية الرسول ﷺ بمعصيته تعالى ، حيث

(١) النحل : ٤٤ .

(٢) النساء : ٥٩ .

(٣) الأنفال : ٢٠ .

قال : (وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَلَا لَهَ بَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا) ^(١) ، وقوله تعالى : (فَلَا عَصْوَ لِقَبْلِ إِيَّايَ * بَا تَعْمَلُونَ) ^(٢) ، وقال تعالى أيضاً : (فَلَا وَبِكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا) ^(٣) ، وغيرها من الآيات الكريمة .

الثانية : يجب اتباع ما أمر به الله ورسوله ﷺ

إنَّ الله تعالى لم يجعل الخيرة للمؤمنين فيما يقضي الله ورسوله به ، كما في قوله تعالى : (وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْهِ خَيْرٌ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا) ^(٤) ، وبين الله تعالى أنَّ الرسول ﷺ حجة على الخلق في قوله وفعله ، وأنَّ الله جعله إماماً يقتدى به ، فقال تعالى : (وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا) ^(٥) ، وقال أيضاً : (وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ) ^(٦) ، وهذه مفردة مهمة جداً يجب الالتفات إليها جيداً .

وهناك روايات كثيرة متضافرة تؤكد وتحث على الأخذ بسنة الرسول ﷺ ، وتنهى عن الإعراض عن سنته ﷺ والاكتفاء بالقرآن وحده ، وكان ذلك رائجاً ومعرفاً في أقوال الصحابة وتعاملهم ، من ذلك ما ورد في صحيح البخاري عن علقمة ، عن عبد الله قال : (لعن الله الواشتمات

(١) الجن : ٢٣ .

(٢) الشعراء : ٢١٦ .

(٣) النساء : ٦٥ .

(٤) الأحزاب : ٣٦ .

(٥) الحشر : ٧ .

(٦) النجم : ٤-٣ .

الموتشومات والمتنمصات والمتفلجات للحسن ، المعيرات خلق الله ، فبلغ ذلك امرأة من بني أسد يقال لها : أم يعقوب ، فجاءت فقالت : إنه بلغني أنك لعنت كيت وكيت ، فقال : وما لي لا ألعن من لعن رسول الله ﷺ ومن هو في كتاب الله ، فقالت : لقد قرأت ما بين اللوحين فما وجدت فيه ما تقول ، قال : لكن كنت قرأته لقد وجدته ، أما قرأت : (وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا) (١) ؟ قالت : بلى ، قال : فإنه قد نهي عنه (٢) ، وكذا وردت هذه الرواية بنصها في صحيح مسلم (٣) .

ومن الروايات التي وردت عن رسول الله ﷺ في هذا المجال ، ما جاء في سنن أبي داود والترمذي وابن ماجه ، ومسنند أحمد عن أبي عبد الله بن أبي رافع عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال : (لا ألفين أحدكم متكئا على أريكته يأتيه الأمر من أمري ممّا أمرت به أو نهيت عنه فيقول : لا ندري ، ما وجدنا في كتاب الله اتبعناه) (٤) ، وفي مسند أحمد بلفظ (ما أجد هذا في كتاب الله) (٥) . ومنها ما ورد في مسند أحمد أيضاً ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : (لا أعرفن أحدا منكم أتاه عتي حديث وهو متكئ في أريكته ،

(١) الحشر : ٧ .

(٢) صحيح البخاري : ج ٣ ص ٢٨٤ ح ٤٨٨٦ .

(٣) صحيح مسلم : ج ٣ ص ١٦٧٨ ح ٢١٢٥ باب تحريم فعال الواصلة والمستوصلة .

(٤) انظر : سنن أبي داود السجستاني ، باب لزوم السنة : ج ٤ ص ٢٠٥ ح ٤٦٠٥ ؛ سنن الترمذي : ج ٤ ص ١٤٤ ح ٢٨٠١ ، كتاب العلم ؛ باب ما نهي عنه ؛ سنن ابن ماجه ، المقدمة : ج ١ ص ٦ . ٧ ، باب تعظيم حديث رسول الله ﷺ والتعليق على من عارضه .

(٥) مسند أحمد : ج ٦ ص ٨ .

فيقول : أتلوا علي به قرآنا (^(١)) ، وقال حسان بن ثابت ، كما في مقدّمة الدارمي : (كان جبريل ينزل على النبي ﷺ بالسنة كما ينزل عليه بالقرآن) (^(٢)) ، إلى غير ذلك من الروايات والأقوال ، وإنّما هذه نبذة عمّا ورد في الحث على الأخذ بسنة الرسول ﷺ والنهي عن مخالفته والتشديد على من يهمل السنة بحجة الاكتفاء بكتاب الله .

وعلى هذا الأساس يتضح أنّ جميع أحكام الإسلام موجودة في القرآن الكريم ، إلّا أنّه لا يمكن معرفة تفاصيلها والوقوف على حقائقها من دون الرجوع إلى سنة الرسول الأكرم ﷺ ، فإنّنا في إقامة الصلاة . مثلا . لا نعرف كيف نصلي من دون أن نأخذ من حديث الرسول ﷺ كيفيّتها وشروطها وعدد ركعاتها وسجوداتها وأذكارها ومبطلاتها ، وكذلك في الحج ، حيث لا يمكن أداء مناسكه من دون الرجوع إلى سنته ﷺ واستيضاح شروطه وواجباته ومواقيته وأشواط الطواف وصلاته ، وتفاصيل السعي والتقشير وسائر مناسك الحج الأخرى .

إذن لا بدّ من الرجوع إلى القرآن والسنة النبوية معاً لأخذ تعاليم الإسلام منهما ، أمّا من أراد الاكتفاء بالقرآن وحده دون السنة ، فأدنى ما نقول بحقه : أنّه جاهل بما ورد في القرآن نفسه ، الذي يدعو لإطاعة الرسول ﷺ (وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا) (^(٣)) ، وقد قال الألباني في هذا المجال : (فحذار أيّها المسلم أن تحاول فهم القرآن مستقلا

(١) مسند أحمد : ج ٢ ص ٣٦٧ ؛ سنن ابن ماجه ، المقدمة : ج ١ ص ٩ . ١٠٠ ح ٢١ ، باب تعظيم حديث رسول الله ﷺ والتعليق على من عارضه .

(٢) سنن الدارمي ، المقدمة : ج ١ ص ١٤٥ ، باب السنة قاضية على كتاب الله .

(٣) الحشر : ٧ .

عن السنّة ، فإنّك لن تستطيع ذلك ولو كنت في اللغة سيبويه زمانك (١) ، فمقولة حسينا كتاب الله مقولة مخالفة لصريح القرآن الكريم .

الجواب :

بعد تلك الإطلالة السريعة نقول لصاحب الشبهة بأن عدم ذكر اسم علي عليه السلام صريحاً في القرآن يرجع إلى الأسباب التالية :

أولاً : عدم ذكر الاسم لحكمة إلهية

إنّ عدم ذكر اسم علي في القرآن لعلّه لحكمة إلهية خفيت علينا ، إذ ما قيمة عقولنا كي تحيط بكل جوانب الحكم والمصالح الإلهية ، فكم من الأمور التي قد خفيت أو أُخفيت علينا مصالحها ، قال تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنَ أَشْيَاءٍ لَّهِ تُبَدُّ لَكُمْ تُسَوِّدُكُمْ) (٢) ، والاعتراض على حكم الله تعالى خلاف التسليم والخضوع لأمره عز وجل .

ثانياً : الرسول الأكرم نص على إمامة علي عليه السلام

إن رسول الله ﷺ قد نص على إمامة علي أمير المؤمنين عليه السلام باسمه الصريح كما في حديث الغدير المتواتر ، وحديث الدار ، وحديث المنزلة ، وغيرها في مواطن كثيرة جداً ، فإذا ثبت هذا بشكل قاطع عنه ﷺ وهو القرآن الناطق الذي لا ينطق عن الهوى ، وقد أقام الحجّة علينا بأن الإمام بعده علي عليه السلام ثبتت إمامته بلا ريب ، وإذا لم يذكر القرآن اسم علي

(١) صفة صلاة النبي ، الألباني : ص ١٧١ .

(٢) المائدة : ١٠١ .

فإن ذلك لا يضر ولا يؤثر في قيمة الحجّة التي أقامها الرسول ﷺ على الإمامة ؛ لأنّ تبليغه وبيانه وقوله ﷺ هو قول الله تعالى .

ومّا يؤكّد هذا الوجه ما أجاب به الإمام الصادق عليه السلام بسند معتبر صحيح عندنا ، حينما سأله أبو بصير عن السبب في عدم ذكر اسم علي عليه السلام صريحا ، عن أبي بصير حيث قال : (سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قوله تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَطِيعُوا الرَّسُولَ وَهُوَ لِي الْأَمْرُ مِنْكُمْ ...) ، فقال : نزلت في علي بن أبي طالب والحسن والحسين عليهما السلام ، فقلت له : إن الناس يقولون : فما له لم يسم عليا وأهل بيته عليهما السلام في كتاب الله عز وجل ؟ قال : فقال : فقولوا لهم : إن رسول الله ﷺ نزلت عليه الصلاة ولم يسم الله لهم ثلاثا ولا أربعاً حتى كان رسول الله ﷺ هو الذي فسّر ذلك لهم ...)^(١) .

ثالثا : ذكر الوصف أبلغ في التأثير من ذكر الاسم

من الواضح أنّ ذكر الوصف أوقع تأثيرا في تحديد المصداق من ذكر الاسم ؛ لذا ذكر علماء اللغة أنّ اسم العلم ليس أعرف المعارف ، بل الكثير منهم جعل اسم العلم أدنى درجة من أسماء المعرفة ، والسر في ذلك ، كما ينصّ عليه أهل اللغة والبلاغة ، أنّ اسم العلم قد يتوصّى منه معنى الصفة ، فإذا جاء اسم علي عليه السلام في القرآن فقد يحصل إيهام بأنّ المراد منه الصفة أي العالي ، وعلى هذا الأساس بيّن القرآن الكريم المصداق بشكل صريح ، وأنّ الولي هو المتصف بكونه يؤديّ الزكاة وهو راع (إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ مُكْعُونَ)^(٢) ،

(١) أصول الكافي ، الكليني : ج ١ ص ٢٨٦ . ٢٨٧ .

(٢) المائدة : ٥٥ .

الذي تواترت الروايات من طرق الشيعة والسنة على أن المراد به هو علي بن أبي طالب عليه السلام^(١).

رابعاً : ذكر علي في القرآن يدعو البعض لانتحال اسمه

لو فرضنا أن القرآن ذكر الاسم صريحاً فلا يعني حسم الخلاف في ذلك ، بل قد يكون ادعى للخلاف ؛ لأنه يكون وسيلة وداعية لاستعارة الأسماء والألقاب لذوي النفوس المريضة ، لكي يجعل الاسم منطبقاً عليه ، كما نلمس ذلك واضحاً من انتحال لقب أمير المؤمنين الخاص بعلي عليه السلام ، والذي هنأه به عمر بن الخطاب ، كما جاء ذلك في حديث الغدير الذي جاء متضافراً في كتب أهل السنة^(٢) ، حتى وصل الأمر بمعاوية ويزيد أن يلقبوا أنفسهم بهذا اللقب حتى صار تقليداً معمولاً به فسَمِّي كل من يتولى الحكم ولو ظلماً وعدواناً بـ (أمير المؤمنين) .

خامساً : لو ذكر اسم علي لحذفه المنافقون

لو فرضنا أن القرآن ذكر اسم علي عليه السلام صريحاً لبادر المنافقون لرفعه وحذفه من الكتاب الكريم فيقع التصرف والتحريف في القرآن الكريم ، وقد شاء الله سبحانه وتعالى أن يحفظ القرآن الكريم ، حيث قال : (إِنَّا نَحْنُ

(١) جامع البيان ، الطبري : ح ٦ ص ٣٨٩ . ٣٩٠ من طريق ابن عباس وعتبة بن حكيم ومجاهد ، الكشاف ، الزمخشري : ج ١ ص ٦٤٩ .

(٢) انظر : مسند أحمد : ج ٤ ص ٢٨١ ؛ المعجم الكبير : ج ٥ ص ٢٠٣ . ٢٠٤ ؛ فيض القدير شرح الجامع الصغير : ج ٦ ص ٢٨٢ ؛ ثمار القلوب : ص ٦٣٧ ح ١٠٦٨ ؛ المعيار والموازنة : ص ٢١٢ ؛ وما بعدها ؛ المصنف لأبي شيبه الكوفي : ج ٧ ص ٥٠٣ ؛ نظم درر السمطين : ص ١٠٩ ؛ كنز العمال ، المتقي الهندي : ج ١٣ ص ١٣٤ ؛ شواهد التنزيل ، الحاكم الحسكاني : ج ١ ص ٢٠٠ ؛ وغيرها .

زَيْنًا لَذِكْرِهِ إِنَّمَا هُمْ بَاقِظُونَ) ^(١) ، ولا شك أنّ الحكمة الإلهية شاءت حفظ القرآن الكريم من طريقه الطبيعية قدر الإمكان ، كما سوف يتضح ذلك عند الإجابة عن شبهة التحريف .

سادسا : ذكر الاسم لا يعني حسم النزاع

إن ذكر الاسم صريحا في القرآن لا يعني حسم الخلاف في ذلك من جهة أخرى ؛ لأننا نجد أن كثيرا من الأمور التي ذُكرت في القرآن بصراحة تامة وقع الخلاف فيها بعد ذلك ، كما في المتعة التي ورد ذكرها في القرآن بكل صراحة ، وذلك في قوله تعالى : (فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَلَهُنَّ أَجُورُهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنْبَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرْضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ لِلَّهِ كَبَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا) ^(٢) ، ومع ذلك نجد أنّ الخلاف والنزاع وقع فيها فيما بعد ، حيث ادّعى نسخها بقول عمر بن الخطاب .

سابعا : ذكر الاسم في القرآن داعية لاتهام الشيعة

لو افترضنا أن اسم علي عليه السلام ذُكر في القرآن ، فليس من البعيد أن يُقال إنّ ذلك من وضع الرافضة ، كما نجد هذا الافتراء واضحا في الروايات الصريحة الواردة في فضائل أهل البيت عليهم السلام ، ولا غرابة في ذلك على الذين ختم الله على قلوبهم ، فإنّ الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله صحَّ باسمه عليه السلام على مرأى ومسمع (١٢٠) ألف صحابي ، بشكل لا يشوبه ريب ، ومع ذلك بادر المنافقون إلى إنكاره ورفضه ، وزعم بعضهم أن ذلك من الموضوعات .

(١) الحجر : ٩ .

(٢) النساء : ٢٤ .

ثامنا : لا ينبغي التشكيك في إمامة علي عليه السلام

على ضوء ما سلف نود أن نلفت نظر المستشكل في إمامة علي عليه السلام بعدم ذكر اسمه في القرآن ، إلى أنه بعد قيام الحجج والبراهين والأدلة القاطعة على الإمامة لا ينبغي التشكيك والترديد وإثارة الشبهات في ذلك ، استناداً إلى شبهات واهية كهذه ، وأن لا نكون كقوم بني إسرائيل ، الذي أخذوا يطلبون من نبي الله موسى عليه السلام المزيد من الحجج بعد أن أظهر لهم الأدلة والبراهين على وجود الله تعالى ، حتى أنهم طلبوا من موسى أن يريهم الله تعالى جهرة ، حيث قالوا : (لَنْ نُؤْمِنَ بِكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرًا) (١) .

الخلاصة

في المقدمة ينبغي الالتفات إلى نقطتين أساسيتين :

الأولى : إن القرآن الكريم تبيان لكل شيء ، لكن ليس باستطاعة أحد معرفة واستخراج هذه المعارف منه ؛ لذا كانت السنة النبوية مبيّنة ومفصلة له ، ومن هنا قرن الله تعالى طاعته بطاعة رسوله ﷺ كما في قوله تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَطِيعُوا الرَّسُولَ هُوَ الْأَمْرُ مِنْكُمْ) (٢) ، وقوله عز وجل : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنَّهُ فَبِئْسَ تَسْمَعُونَ) (٣) ، إلى غير ذلك من الآيات .

الثانية : إن الله تعالى أمرنا بالأخذ بما بينه رسول الله ﷺ ، ولا يجوز الاعتراض على حكم الله أو أي قضاء قضاه الله ورسوله ﷺ .

(١) البقرة : ٥٥ .

(٢) النساء : ٥٩ .

(٣) الأنفال : ٢٠ .

وبعد هذا نقول : إن السبب في عدم ذكر اسم علي عليه السلام في القرآن يرجع إلى ما يلي : .
أولاً : إن الرسول الأكرم ﷺ قد نص على إمامة علي عليه السلام باسمه الصريح ، ولا فرق في الحجية بين القرآن وقول رسول الله ﷺ ، وقد تواتر ذلك عنه ﷺ في مواطن متعددة كما في حديث الغدير وحديث الدار والمنزلة ونحوها ، سيما أنّ القرآن الكريم لم ترد فيه كثير من الأحكام الأساسية في الإسلام كتفاصيل الصلاة والصيام ونحوها .

ثانياً : نقول : إن عدم ذكر اسم علي عليه السلام صريحاً في القرآن يعود لحكمة إلهية اقتضت ذلك ، وما أكثر الأشياء التي يفعلها الله تعالى ويأمر بها من دون إطلاعنا على حكمته في ذلك .
ثالثاً : إنّ ذكر الوصف أبلغ تأثيراً وتأكيذاً من ذكر الاسم ، كما هو معروف عند اللغويين ، وقد ذكر وصف الإمام علي عليه السلام في القرآن كما في قوله تعالى : (إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِكُفْرٍ)^(١) ، وقد تواترت الروايات بعدم انطباق هذه المواصفات إلا على علي عليه السلام .

رابعاً : لو فرض ذكر اسم علي عليه السلام في القرآن ؛ لبادر المنافقون لرفعه والتجاوز على القرآن الكريم ، فمن منطلق الحكمة الإلهية في الحفاظ على سلامة القرآن من التحريف لم يذكر اسمه عليه السلام فيه .
خامساً : لو افترضنا أن اسم علي عليه السلام ذكر في القرآن الكريم ؛ فإن ذلك لا يعني حسم الخلاف ، كما هو الحال في آية المتعة الصريحة في مشروعيتها ، والتي جُسِّدت وطُبِّقت تطبيقاً عملياً من قبل الصحابة ، إلا أنّ عمر جاء وألغى هذا الحكم القرآني وهدّد كل من يمارسه .

(١) المائدة : ٥٥ .

سادسا : لو فُرض وجود اسم علي عليه السلام في القرآن لقال البعض إنّه من وضع الرافضة .
سابعا : بعد أن قامت الحجج والبراهين على ولاية علي عليه السلام بشكل لا يشوبه ريب ، فلا معنى لمثل هذه المبررات الواهية التي لا أساس لها .

ثامنا : إن وجود اسم علي عليه السلام في القرآن سيكون داعيا لاستعارته وجعله منطبقا على بعض القيادات الحكومية ، كما هو الحال في كثير من الألقاب التي خصّها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعلي عليه السلام ، لكنّها نُسبت بعد ذلك إلى غيره ، كما هو الحال في لقب الصديق والفاروق وأمير المؤمنين .

آية التطهير لا تختص بأئمة الشيعة

الشبهة :

إن أهل البيت في آية التطهير تعني كل من يلتقي بالنبي في هاشم .

الجواب :

لقد شدّد القرآن الكريم والسنة النبوية ، على تعيين المراد من مفهوم أهل البيت عليهم السلام في موارد متعددة ، وحسبك ما ورد من الروايات الصحيحة التي تصرّح بأسمائهم على طريقة الحصر واحدا بعد الآخر ، وهم الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم وعلي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام .
ولعلنا لا نجانب الصواب إذا ما قلنا بأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان شديد الحرص على تشخيص وحصر أهل البيت عليهم السلام ؛ درءا للتشكيكات التي قد تثار من ذوي النفوس المريضة .
وبالتأمل في تفاصيل الواقعة نلمس اكتنازها الكثير من الدلائل الواضحة ، التي تثبت حصر أهل البيت في الآية المباركة بالخمسة أصحاب الكساء ، وإليك بعض تلك الشواهد والقرائن الصريحة :

تشخيص النبي ﷺ لأهل البيت بأسمائهم ، كما في رواية عبد الله بن جعفر ، حيث قال : (لما نظر رسول الله ﷺ إلى الرحمة هابطة قال : ادعوا لي ، ادعوا لي ، فقالت صفية : مَنْ يا رسول الله ؟ قال ﷺ : أهل بيتي : علياً وفاطمة والحسن والحسين ، فجاء بهم فألقى عليهم النبي كساءه ، ثم رفع يديه ، ثم قال : اللَّهُمَّ هَؤُلَاءِ آلِي فَصْلٍ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ ، وَأَنْزِلِ اللَّهُ عِزَّ وَجَلٍّ : (إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً) .

قال الحاكم : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، وقد صحّت الرواية على شرط الشيخين ، أنّه علّمهم الصلاة على أهل بيته كما علّمهم الصلاة على آله ^(١) .

ولا يخفى ما في كلمة : (اللَّهُمَّ هَؤُلَاءِ آلِي) من الدلالة على حصر أهل البيت في علي وفاطمة والحسن والحسين ﷺ ونفي ذلك العنوان عن غيرهم ، كما لا يخفى على كلّ من عرف أساليب العرب في الكلام .

٢ . * من أجل التأكيد على الحصر وتحديد أهل البيت ﷺ بأفراد معيّنين نلاحظ أن الرسول ﷺ يحصرهم تحت كساء واحد في مواقف متعددة وروايات متضافرة :

منها : ما جاء في رواية أبي سلمة ، حيث قال : فدعا حسناً وحسيناً ، وفاطمة ، فأجلسهم بين يديه ، ودعا علياً فأجلسه خلفه فتجلّل هو وهم بالكساء ، ثم قال : (هَؤُلَاءِ أَهْلُ بَيْتِي فَأُذْهِبْ عَنْهُمْ الرِّجْسَ وَطَهِّرْهُمْ تَطْهِيراً) ^(٢) .

(١) المستدرک علی الصحیحین ، الحاكم النيسابوري : ج ٣ ص ١٤٨ .

(٢) جامع البيان ، الطبري : ج ٢٢ ص ١٢ ؛ المعجم الكبير ، الطبراني : ج ٩ ص ٢٦ ؛ شواهد التنزيل ، الحاكم الحسكاني : ج ٢ ص ١١٩ ؛ تاريخ مدينة دمشق ، ابن عساكر : ج ١٣ ص ٢٠٣ .

* لا يوجد ١ . قبل هذا الرقم ، يبدو أنه سقط سهواً من إحدى الفقرات أعلاه .

ومنها : ما رواه ابن كثير في تفسيره قال : (حدثنا شداد بن عمار قال : دخلت على وائلة بن الأسقع وعنده قوم ، فذكروا علياً عليه السلام فشتموه ، فشتمته معهم ، فلما قاموا ، قال لي : شتمت هذا الرجل ؟ قلت : قد شتموه فشتمته معهم ، قال : ألا أخبرك بما رأيت من رسول الله صلى الله عليه وآله ؟ قلت : بلى ، قال : أتيت فاطمة (رضي الله عنها) أسألهما عن علي عليه السلام ، فقالت : توجه إلى رسول الله صلى الله عليه وآله ، فجلست أنتظره ، حتى جاء رسول الله صلى الله عليه وآله ومعه علي وحسن وحسين (رضي الله عنهم) ، أخذوا كل واحد منهما بيده حتى دخل ، فأدنى علياً وفاطمة رضي الله عنهما وأجلسهما بين يديه ، وأجلس حسناً وحسيناً رضي الله عنهما كل واحد منهما على فخذه ، ثم لفّ عليهم ثوبه أو قال كساءه ، ثم تلا صلى الله عليه وآله هذه الآية : (**إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً**) ، وقال : (**اللَّهُمَّ هَؤُلَاءِ أَهْلُ بَيْتِي وَأَهْلُ بَيْتِي أَحَقُّ**) ^(١) .

ومنها : ما أخرجه أحمد وغيره عن أم سلمة ، قالت : (فأخذ صلى الله عليه وآله فضل الكساء فغشاهم به ، ثم أخرج يده فألوى بها إلى السماء ، ثم قال : (**اللَّهُمَّ هَؤُلَاءِ أَهْلُ بَيْتِي وَخَاصَّتِي** ، فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا ، قالت . أم سلمة . : فأدخلت رأسي البيت ، فقلت : وأنا معكم يا رسول الله ؟ قال صلى الله عليه وآله : **إِنَّكَ إِلَى خَيْرٍ ، إِنَّكَ إِلَى خَيْرٍ**) ^(٢) .

ومنها : ما عن أم سلمة أيضاً ، قالت : (فلما رأهم مقبلين مد صلى الله عليه وآله عليه وآله وسلم) يده إلى كساء كان على المنامة ، فمدّه وبسطه ،

(١) تفسير ابن كثير : ج ٣ ص ٤٩٢ ، شواهد التنزيل ، الحاكم الحسكاني : ج ٢ ص ٦٧ .

(٢) مسند أحمد : ج ٦ ص ٢٩٢ ، تفسير ابن كثير : ج ٣ ص ٤٩٢ .

وأجلسهم عليه ، ثم أخذ بأطراف الكساء الأربعة بشماله فضمّه فوق رؤوسهم ، وأوماً بيده اليمنى إلى ربه ، فقال : (اللَّهُمَّ هَؤُلَاءِ أَهْلُ بَيْتِي فَأَذْهَبْ عَنْهُمْ الرِّجْسَ وَطَهِّرْهُمْ تَطْهِيراً) ^(١) .

ومنها : ما جاء كذلك عن أم سلمة ، قالت : فاجتمعوا حول النبي ﷺ على بساط فجلّهم نبي الله ﷺ بكساء كان عليه ، ثم قال : (هَؤُلَاءِ أَهْلُ بَيْتِي ، فَأَذْهَبْ عَنْهُمْ الرِّجْسَ وَطَهِّرْهُمْ تَطْهِيراً ، فنزلت هذه الآية حين اجتمعوا على البساط ، قالت : فقلت : يا رسول الله ، وأنا ؟ قالت : فو الله ما أنعم ، وقال : إِنَّكَ إِلَى خَيْرٍ) ^(٢) .

ومنها : ما جاء كذلك عن أم سلمة ، قالت : (بينما رسول الله ﷺ في بيتي يوماً إذ قالت الخادمة : إِنَّ فَاطِمَةَ وَعَلِيًّا بِالسَّدَّةِ ، قالت : فقال لي رسول الله ﷺ : (قومي فتسجّي عن أهل بيتي) ^(٣) .

ومنها : ما عن أم سلمة أيضاً ، قالت : (إن هذه الآية نزلت في بيتي (إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً) ، قالت : وأنا جالسة على باب البيت ، فقلت يا رسول الله : ألسنت من أهل البيت ؟ فقال ﷺ : (إِنَّكَ إِلَى خَيْرٍ ، أنت من أزواج النبي) ^(٤) .

ومنها : ما ورد عن عائشة ، قالت : (لقد رأيت رسول الله ﷺ دعى عليّاً وفاطمة وحسن وحسين رضي الله عنهم ، فألقى عليهم ثوباً فقال : (اللَّهُمَّ

(١) تفسير ابن كثير : ج ٣ ص ٤٩٢ . ٤٩٣ ، مسند أحمد : ج ٦ ص ٢٩٨ .

(٢) جامع البيان ، الطبري : ج ٢٢ ص ١٢ . ١٣ ، تفسير ابن كثير : ج ٣ ص ٤٩٣ .

(٣) تفسير ابن كثير : ج ٣ ص ٤٩٣ .

(٤) جامع البيان : ج ٢٢ ص ١١ ، تفسير ابن كثير : ج ٣ ص ٤٩٣ .

هؤلاء أهل بيتي فاذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا) ، قالت : فدنوت منهم ، فقلت يا رسول الله : وأنا من أهل بيتك ؟ فقال ﷺ : تنحني فإنك على خير ^(١) .

ومنها : ما عن سعد ، قال : قال رسول الله ﷺ : حين نزل عليه الوحي ، فأخذ علياً وابنيه وفاطمة رضي الله عنهم ، فأدخلهم تحت ثوبه ، ثم قال : (ربي هؤلاء أهلي وأهل بيتي) ^(٢) . وهذا الأسلوب العملي من أبلغ أساليب الحصر ، لسد كل منافذ الالتباس ، حيث تخطى الرسول ﷺ دلالات الكلام بحصرهم تحت كساء واحد ، ليكون أبلغ في الحصر وأقوى في الدلالة .

٣ . لقد صحَّ الرسول الأكرم ﷺ في نفس الآية التي هي محل البحث تصريحاً لا يبقى فيه مجال للشك والريب ، حيث قال ﷺ : (نزلت الآية في خمسة ، في ، وفي علي وفاطمة وحسن وحسين) ^(٣) .

ومن هنا نجد أن كل المذاهب الإسلامية أجمعت على كيفية واقعة الكساء ، وأنه ﷺ لما نزل عليه الوحي (بآية التطهير) ضمَّ الحسين وأباهما وأُمَّهُما إليه ، ثم غشاهم ونفسه بذلك الكساء تمييزاً لهم عن سائر الأبناء والأنفس والنساء ، ومن ثمَّ بلغ الأمة بالآية المباركة وهو على تلك الحال ،

(١) تفسير ابن كثير : ج ٣ ص ٤٩٤ .

(٢) تفسير ابن كثير : ج ٣ ص ٤٩٤ .

(٣) الدر المنثور ، السيوطي : ج ٦ ص ٦٠٤ ؛ خصائص الوحي المبين ، الحافظ ابن البطريق : ص ١٠٦ ؛ شواهد التنزيل ، الحاكم الحسكاني : ج ٢ ص ٤٠ ، ص ٤٥ ، ص ١٣٧ ؛ مجمع الزوائد ، الهيتمي : ج ٩ ص ١٦٧ ؛ ترجمة الإمام الحسن ، ابن عساكر : ص ٦٩ .

لكي يقطع الطريق عن كل من يطمع بمشاركتهم ، سواء كان من أزواجه أم من الصحابة أم غيرهم ، فقال ﷺ وهم في معزل عن الناس كافة ، قال تعالى : (إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا) ، فأزاح النبي ﷺ بحجبهم في كسائه كل ما يطرأ على الأذهان من ريب وشك .

٤ . وإمعاناً في التأكيد ولسد كل منافذ التشكيك والريب ، أخذ رسول الله ﷺ يتلو هذه الآية الكريمة كل يوم على باب بيت فاطمة الزهراء الذي فيه : علي والحسن وأُمهما عليهما السلام ، بمراءى ومسمع من المسلمين ، وهناك عدد وافر من الروايات التي تثبت ذلك :

منها : ما ورد عن أبي الحمراء قال : رابطة المدينة سبعة أشهر على عهد رسول الله ﷺ قال : رأيت رسول الله إذا طلع الفجر جاء إلى باب علي وفاطمة رضي الله عنهما ، فقال ﷺ : (الصلاة الصلاة) (إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا) ^(١) ، وفي بعض الروايات تسعة أشهر ، وفي بعضها الآخر ، قال نفع بن حارث : قلت : يا أبا الحمراء من كان في البيت ؟ قال : علي وفاطمة والحسن والحسين عليهما السلام ^(٢) .

ومنها : عن ابن عباس قال : (شهدنا رسول الله ﷺ تسعة أشهر ، يأتي كل يوم باب علي بن أبي طالب عند وقت كل صلاة فيقول : (السلام عليكم

(١) تاريخ مدينة دمشق ، ابن عساکر : ج ٤ ص ٢٩٠ ؛ تفسير ابن كثير : ج ٣ ص ٤٩٢ ؛ التاريخ ، البخاري : ج ٩ ص ٢٥ . ٢٦ . كني البخاري : ص ٢٥ . ٢٦ . أسد الغابة ، ابن الأثير : ج ٩ ص ٦٦ ؛ جامع البيان ، الطبري : ج ٢٢ ص ١٠ ؛ الدر المنثور : ج ٦ ص ٦٠٦ ؛ فتح القدير ، الشوكاني : ج ٤ ص ٢٨٠ ؛ شواهد التنزيل ، الحسكاني : ج ٢ ص ٧٤ . ٧٥ .

(٢) شواهد التنزيل ، الحاكم الحسكاني : ج ٢ ص ٧٤ ، نظم درر السمطين : ص ٢٣٩ .

ورحمة الله وبركاته أهل البيت ، (إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا) كل يوم خمس مرات (١) .

ومنها : ما ورد عن أبي بُرزة ، قال : (صَلَّيْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ سَبْعَةَ عَشَرَ شَهْرًا ، فَإِذَا خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ أَتَى بَابَ فَاطِمَةَ ؓ فَقَالَ : (السَّلَامُ عَلَيْكُمْ :) (إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا) كل يوم خمس مرات (٢) .

ومنها : ما رواه ابن كثير في تفسيره عن أنس بن مالك ، قال : (إِنْ رَسُولَ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ) كَانَ يَمُرُّ بِبَابِ فَاطِمَةَ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا) سِتَّةَ أَشْهُرٍ إِذَا خَرَجَ إِلَى صَلَاةِ الْفَجْرِ ، يَقُولُ (الصَّلَاةُ يَا أَهْلَ الْبَيْتِ (إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا) ، ثُمَّ قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ : وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ عَنْ عَبْدِ بْنِ حَمِيدٍ عَنْ عَفَانَ (٣) .

٥ . كذلك من القرائن التي تشهد على حصر أهل البيت بالنبي وعلي وفاطمة والحسين عليهما السلام ، دون غيرهم ، وجود الحشر الكبير من الروايات الدالة على أنَّ الرسول ﷺ حصرهم بالخمسة عليهم السلام في مواقف أخرى غير حادثة الكساء :

منها : ما ورد عن سعد بن أبي وقاص قال : لَمَّا نَزَلَتِ الْآيَةُ : (قُلْ تَعَالَوْا نَدْعُوا ...) دَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلِيًّا وَفَاطِمَةَ وَالْحَسَنَ وَالْحُسَيْنَ فَقَالَ : (اَللّٰهُمَّ هَؤُلَاءِ اَهْلِي) .

(١) الدر المنثور السيوطي : ج ٦ ص ٦٠٦ .

(٢) انظر مسند أحمد : ج ٣ ص ٢٥٩ ؛ شواهد التنزيل ، الحسكاني : ج ٢ ص ١٣٩ ؛ انظر مجمع الزوائد : ج ٩ ص ١٦٩ ؛ المستدرک ، الحاكم النيسابوري : ج ٣ ص ١٥٨ ، وقال : هذا حديث الصحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ؛ أسد الغابة ، ابن كثير : ج ٥ ص ٥٢١ ؛ مسند الطيالسي : ص ٢٧٤ ؛ وغيرها من المصادر .

(٣) تفسير ابن كثير : ج ٣ ص ٤٩٢ ؛ وكذا نقله مسند أحمد : ج ٣ ص ٢٥٩ ص ٢٨٥ .

ولذا نجد الواحدي يقول بالحرف الواحد إن الآية (آية التطهير) نزلت في خمسة : (النبي وعلي وفاطمة والحسن والحسين) ^(١) .

٦ . مما يدل أيضاً على عدم شمول آية التطهير لكل بني هاشم ، أن الآية جاءت بصدد إثبات العصمة للخمسة أصحاب الكساء عليهم السلام كما سيأتي ، ونحن لم نجد أحداً من بني هاشم ادعى العصمة لنفسه غير العترة الطاهرة ، ولم تثبت العصمة بالأدلة والبراهين القاطعة إلا لهم عليهم السلام دون غيرهم .

٧ . كذلك من الشواهد الدالة على الحصر ما ورد من الروايات الدالة على أن التمسك بأهل البيت عليهم السلام يكون عاصماً عن الضلال ، كما هو مفاد حديث الثقلين : (إني تارك ...) الذي ورد فيه لفظ أهل البيت ، فكيف يكون كل بني هاشم من أهل البيت الذين أمرنا الله بالافتداء بهم والتمسك بهم ؟ مع أن في بني هاشم من هو الجاهل والفساق ومن لا يصلح أن يتمسك به وبهديه ، بل منهم من نزلت في ذمّه وهلاكه سورة قرآنية ، كأبي لهب : (تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ * مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ * سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ * وَنُفِثَتْهُمُ إِلَىٰ حَمَالَةَ الْخَطْبِ * فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ) ^(٢) .

وعلى هذا الأساس يتضح أن العناية والاهتمام والتأكيد الذي أولاه

(١) أسباب النزول ، الواحدي : ص ٢٣٩ .

(٢) المسد : ٥٠١ .

الرسول ﷺ بإعلان أهل البيت عليه السلام بأسمائهم ، وحصرهم بهذه الأساليب المختلفة من البيان ، مقرونة بأساليب متنوعة من العمل والتصدّي المباشر بالفعل ، فيسمّيهم حيناً بأسمائهم ، ويميّزهم حيناً آخر ، فيقول : (هؤلاء أهل بيتي) أو (اللهم هؤلاء آلي) ، ويلقّهم حيناً ثالثاً بكساء واحد يجلّهم فيه جميعاً ، لدرجة أنّ أمّ المؤمنين زوجته ﷺ أم سلمة تمنّت ، بل طلبت منه أن تكون معهم ، إلّا أنّه ﷺ ردّها بلطف ورأفة ، قائلاً لها : إنّك على خير ، وكذا إعلانه بأسمائهم أمام الناس وأمام الملائكة واحداً واحداً ، والمواظبة على تكرار هذا الإعلان لسته أشهر أو سبعة أو ثمانية أو تسعة . على اختلاف الروايات . أمام بيت الزهراء عليها السلام في كل يوم خمس مرات في أوقات الصلاة وفي غيرها .

مع أن رسول الله ﷺ لا يفعل ذلك إلّا لحكمة وقصد ، كل ذلك يكشف عن أمر جليل و كبير له آثاره وأبعاده في تاريخ المسلمين وحياتهم ودينهم فيما بعد .

٨ . الملاحظة الجديدة بالذكر أيضاً أن الدليل الذي اعتمده القائل بدخول كل بني هاشم في أهل البيت عليه السلام كان معتمده رأياً لزيد بن أرقم ، ولم يكن ابن أرقم في صدد نقل رواية عن رسول الله ﷺ ، وإنّما هو بصدد ذكر رأيه وتحليله الخاص ، حيث أخرج أحمد في مسنده عن زيد ابن أرقم ، قال : (قام رسول الله ﷺ يوماً خطيباً فبينا بماء يُدعى خمّاً ، بين مكة والمدينة ، فحمد الله تعالى وأثنى عليه ، ووعظ وذكر ، ثم قال : أمّا بعد ، ألا يا أيّها الناس ، إنّما أنا بشر يوشك أن يأتيني رسول ربّي عز وجل فأجيب ،

وَأَنِّي تَارِكٌ فِيكُمْ ثَقَلَيْنِ ، أَوَّلُهُمَا كِتَابُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِيهِ الْهُدَى وَالنُّورُ ، فَخُذُوا بِكِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى وَاسْتَمْسِكُوا بِهِ ، فَحُثَّ عَلَى كِتَابِ اللَّهِ وَرَغَّبَ فِيهِ ، قَالَ : وَأَهْلُ بَيْتِي أَذْكُرُّكُمْ اللَّهُ فِي أَهْلِ بَيْتِي ، أَذْكُرُّكُمْ اللَّهُ فِي أَهْلِ بَيْتِي ، أَذْكُرُّكُمْ اللَّهُ فِي أَهْلِ بَيْتِي ، فَقَالَ لَهُ حَصِينٌ : وَمَنْ أَهْلُ بَيْتِهِ يَا زَيْدُ أَلَيْسَ نِسَاؤُهُ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ ؟ قَالَ : إِنْ نِسَاءَهُ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ ، وَلَكِنْ أَهْلُ بَيْتِهِ مَنْ حَرَّمَ الصَّدَقَةَ بَعْدَهُ ، قَالَ : وَمَنْ هُمْ ؟ قَالَ : هُمْ آلُ عَلِيٍّ وَآلُ عَقِيلٍ وَآلُ جَعْفَرٍ وَآلُ عَبَّاسٍ ، قَالَ : أَكُلُ هَؤُلَاءِ حَرَّمَ الصَّدَقَةَ ؟ قَالَ : نَعَمْ ^(١) .

وَمِنْ الْوَاضِحِ لَا يُمْكِنُ تَرْجِيحُ تَحْلِيلِ وَرَأْيِ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمٍ عَلَى تِلْكَ النُّصُوصِ الْمُتَضَافَةِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَمَا مَارَسَهُ ﷺ مِنْ أَسَالِيبَ مُخْتَلِفَةٍ لِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّ أَهْلَ الْبَيْتِ ﷺ هُمُ الْخَمْسَةُ أَصْحَابُ الْكِسَاءِ .

(١) مسند أحمد : ج ٤ ص ٣٦٧ .

الخلاصة

- ١ . إن الرسول ﷺ شخّص وحدّد أسماء أهل البيت في آية التطهير ، وهم علي وفاطمة والحسن والحسين عليهما السلام ، كما في رواية عبد الله بن جعفر المتقدمة ، ثم دعاؤه بـ (اللهم هؤلاء آلي) الذي لا تخفى دلالته على الحصر في أهل البيت عليهما السلام على كل من له أدنى معرفة بأساليب العرب في الكلام .
- ٢ . وجود عدد وافر من الروايات الصحيحة من طرق العامة تؤكّد على أن رسول الله ﷺ جمع عليًا وفاطمة والحسن والحسين تحت كساء واحد وقال : (هؤلاء أهل بيتي فاذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا) وهذا أسلوب عملي من أبلغ أساليب الحصر ، لسد كل المنافذ أمام المشكّكين ، بحيث تجاوز ﷺ دلالات الكلام بهذا العمل ليكون أوقع وأكد في الدلالة .
- ٣ . أجمعت المذاهب الإسلامية على كيفية الواقعة ، وكيف أخذ النبي ﷺ الكساء ولف به الحسين وأباهما وأمّهما ، ثم غشّاهم ونفسه بذلك تمييزاً لهم عن سائر الأبناء والأنفس والنساء ، وقد صحّ ﷺ تصريحاً لا يبقّى فيه مجال للشك والريب حين قال ﷺ : (نزلت الآية في خمسة : في وفي علي وحسن وحسين وفاطمة) .
- ٤ . تأكيداً وإمعاناً في حصر نزول آية التطهير في علي وفاطمة والحسن والحسين عليهما السلام أخذ النبي ﷺ يأتي في كل يوم وفي كل وقت صلاة وملتقى سبعة أو ثمانية أو تسعة أشهر حسب اختلاف الروايات إلى باب فاطمة عليها السلام ويتلو الآية (إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً) وهذا الأسلوب يعتبر خطّة إعلامية متقنة ، لتأكيد اختصاص آية التطهير بأهل البيت عليهما السلام .

٥ . من الشواهد الأخرى في المقام أيضاً أن آية التطهير جاءت بصدد إثبات العصمة لأهل البيت عليهم السلام الذين قامت الأدلة والبراهين على عصمتهم عليهم السلام ، وفي الوقت ذاته لم نجد أحداً سواء من بني هاشم أم من أزواج النبي صلى الله عليه وآله ممن ادعى العصمة لنفسه ، وهذا يُشكّل دليلاً قاطعاً على نزول آية التطهير في أهل البيت عليهم السلام .

٦ . ما جاء في جملة من الروايات التي أمرنا فيها رسول الله صلى الله عليه وآله بالتمسك بأهل البيت عليهم السلام ، كحديث الثقلين ونحوه ، فلو كان عنوان أهل البيت يشمل بني هاشم وأزواج النبي صلى الله عليه وآله ، فكيف يجوز التمسك بهم للنجاة والفوز في الدار الآخرة مع وجود بعض الفاسقين والكافرين من بني هاشم كأبي لهب وأمّاله .

٧ . إن دليل القائل بشمول آية التطهير لبني هاشم إنما هو رأي لزيد ابن أرقم وليس رواية يرويه عن الرسول صلى الله عليه وآله ، ورأي زيد بن أرقم ليس وحياً لكي يكون دليلاً على المقام .

الفصل الثاني: حديث الخلفاء الاثني عشر في كتب أهل السنة

مدخل

لقد احتلّت مسألة تولي الخلافة والقيادة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله مجالا واسعا وحيّزا كبيرا في الفكر والواقع الإسلامي ، حيث كشفت سقيفة بني ساعدة عن الطموحات الواسعة لجملة من صحابة رسول الله صلى الله عليه وآله في تولّي ذلك المنصب ، كما كشفت أيضاً عن طبيعة الصراع الشديد الذي تجاذب أطرافه المجتمعون من الصحابة آنذاك .

وانبثق عن ذلك الاجتماع قيادات لحكومة سياسية مفاجئة ، اعترض عليها زعماء الأنصار وأتباعهم ، كما غاب عنها كبار الصحابة من المهاجرين ، وفي مقدّمهم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام . واستطاعت تلك القيادات الحكومية بتدبير مسبق بينها أن تكسب الموقف ، وتخلق رأياً عاماً لصالحها ، وتجبر الرافضين على السكوت عن إعلان المعارضة لها .

وحيث إنّ النظرية السنية آمنت بمبدأ الإهمال ، وأنّ رسول الله ﷺ أهمل مسألة الخلافة ، ولم يضع مخططاً واضحاً لقيادة الأمة بعد وفاته ، كان من الطبيعي أن تكتسب الخلافة شرعيتها في الذهنية السنية ممّا انبثق عن السقيفة من حكومة .

وأما النظرية الشيعية في مسألة الخلافة ، فهي قائمة على مبدأ التخطيط الإلهي المسبق لقيادة الأمة بعد وفاة نبيّها ، ورفض فكرة الإهمال في مسألة مصيرية في حياة الأمة ، وهي الخلافة .

وإذا كانت النظرية الشيعية قائمة على فكرة التخطيط المسبق لمسألة *

وفي مقام الجواب عن هذا التساؤل نقول :

إن القرآن الكريم والسنة النبوية حافلان بالبيانات التفصيلية لرسم معالم الحكومة والخلافة الإلهية بعد النبي الأكرم ﷺ ، ولا نريد الخوض في كل ما ورد في هذا المجال ؛ لأنّ هذا يجرّنا إلى مبحث الإمامة ، ولكن نريد التوقّف قليلاً عند أحد جوانب السنة النبوية المباركة ، وهو ما تضمّنته من تأكيد على فكرة الاثني عشر خليفة الذين يقومون بالأمر بعد النبي ﷺ وتكون عزّة الإسلام باتّباعهم والتمسك بهم . وسنحاول في هذا الفصل استعراض أهم الروايات الشريفة التي تضمّنت مبدأ خلافة الاثني عشر خليفة من المصادر السنية المعتبرة ، والوقوف على أهم التفسيرات والتوجيهات التي أبدتها أعلام أهل السنة حول تلك الأحاديث مع تقييم تلك التفسيرات .

ومن ثمّ ننتقل إلى بيان التفسير الواقعي لتلك الأحاديث ، مدعوماً بالشواهد الواضحة والحقائق الناصعة .

* الكلام غير متصل مع ما بعده ، ربّما يوجد سقط في طباعة الكتاب . [الشبكة] .

حديث الخلفاء الاثني عشر في كتب أهل السنة

الشبهة المطروحة حول الحديث

حاول البعض أن يشكك في فكرة الاثني عشر خليفة قائلًا : إن فكرة الاثني عشر التي يدّعيها الشيعة الإمامية ، فكرة يهودية تعود إلى زعيم يهودي قديم ورد في كتاب دانيال ، وأنّ دعوى وجودها في صحيح البخاري ، كذب !! .

وإن حديث الخلفاء الاثني عشر الموجود في صحيح مسلم يتكلم عن أن الإسلام يبقى عزيزا منيعا في عهدهم ، وأنّ هؤلاء الأئمة تجتمع عليهم الأمة ، كما في سنن أبي داود ، وكل هذه الصفات لا تنطبق على أئمة الشيعة !! ^(١) .

وفي مقام الجواب عن هذه الشبهة نقول :

إنّ البعض قد يتنكر لمبادئه التي أسسها ، وصحّحها ، واعتمد عليها إذا وجدها تصبّ في مصلحة من يخالفه الرأي .

وهذا ما نلمسه عند صاحب الشبهة ، حيث أنكر حديث الاثني عشر خليفة الذي تثبته الصحاح المعتمدة ، التي اعتمد عليها وجعلها أصحّ الكتب بعد القرآن الكريم ؛ وذلك عندما وجدته يسجل رقماً إيجابياً في إثبات حقانية المذهب الشيعي .

ولا يخفى على القارئ ما في تكذيبه للحديث من إنكار لحقيقة مهمة يسيرا للكتب الحديثية المعتمدة عند أهل السنة ، لوجدناها مشحونة بالروايات الصحيحة والصريحة التي نصّت على الاثني عشر خليفة بعد رسول الله ﷺ ، بمواصفاتهم وخصوصياتهم .

(١) مقتبس من كلام عثمان الخميس على قناة المستقلة .

حديث الاثني عشر في كتب أهل السنة :

وإليك جملة من المصادر التي نقلت هذه الحقيقة ، المتسالم عليها عند أعلام السنة :

- ١ . أخرج البخاري وأحمد والبيهقي وغيرهم بسندهم ، عن جابر بن سمرة ، قال : (سمعت النبي ﷺ يقول : يكون اثنا عشر أميرا ، فقال كلمة لم أسمعها ، فقال أبي : إنه قال : كلهم من قريش)^(١)

قال البغوي : هذا حديث متفق على صحته^(٢) .

- ٢ . وأخرج مسلم عن جابر بن سمرة ، قال : (دخلت مع أبي علي النبي ﷺ فسمعتة يقول : إن هذا الأمر لا ينقضي حتى يمضي فيهم اثنا عشر خليفة ، قال : ثم تكلم بكلام خفي عليّ ، قال : فقلت لأبي ، ما قال ؟ قال : كلهم من قريش)^(٣) .

- ٣ . وأخرج مسلم أيضاً ، وأحمد . واللفظ للأول . عن جابر بن سمرة ، قال : (سمعت النبي ﷺ يقول : لا يزال أمر الناس ماضيا ما وليهم اثنا عشر رجلا ، ثم تكلم النبي ﷺ بكلمة خفيت عليّ ، فسألت أبي : ماذا قال رسول

(١) صحيح البخاري ، كتاب الأحكام : باب ٥١ ، ج ٤ ص ٣٧٥ ح ٧٢٢٢ . ٧٢٢٣ ؛ مسند أحمد ، ابن حنبل : ج ٥ ص ٨٧ ص ٩٠ ص ٩٦ ؛ دلائل النبوة ، البيهقي : ج ٦ ص ٥١٩ .

(٢) شرح السنة ، البغوي : ج ٧ ص ٤٢٢ ح ٤١٣٢ .

(٣) صحيح مسلم ، النيسابوري : ج ٣ ص ١٤٥٢ ؛ كتاب الإمارة ، باب الناس تبع لقريش والخلافة في قريش ؛ وقد نقل مسلم هذا الحديث بتسعة طرق .

الله ﷺ ؟ فقال : كلهم من قريش (١) .

٤ . وأخرج مسلم أيضا ، وأحمد ، والطيالسي ، وابن حبان ، والخطيب التبريزي ، وغيرهم ، عن جابر بن سمرة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (لا يزال الإسلام عزيزاً إلى اثني عشر خليفة ، ثم قال كلمة لم أفهمها ، فقلت لأبي : ما قال ؟ فقال : كلهم من قريش) (٢) .

٥ . وأخرج مسلم . واللفظ له . وأحمد ، وابن حبان ، عن جابر بن سمرة ، قال : انطلقت إلى رسول الله ﷺ ومعني أبي فسمعتة يقول : (لا يزال هذا الدين عزيزاً منيعاً إلى اثني عشر خليفة ، فقال كلمة صمّيتها الناس ، فقلت لأبي : ما قال ؟ قال : كلهم من قريش) (٣) .

٦ . وأخرج مسلم . واللفظ له أيضاً . وأحمد ، عن جابر بن سمرة قال : (سمعت رسول الله ﷺ يوم الجمعة ، عشية رجم الأسلمي يقول : لا يزال الدين قائماً حتى تقوم الساعة ، أو يكون عليكم اثنا عشر خليفة ، كلهم من قريش) (٤) .

-
- (١) المصدر السابق نفسه : وكذا مسند أحمد ، ابن حنبل : ج ٥ ص ٩٨ ص ١٠١ ؛ قال الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة ج ١ ق ٢ ص ٧١٩ : (وهذا إسناد صحيح على شرطهما) .
- (٢) صحيح مسلم ، النيسابوري : ج ٣ ص ١٤٥٣ ؛ كتاب الإمارة ، باب الناس تبع لقريش ؛ ومسند أحمد بن حنبل : ج ٥ ص ٩٠ ص ١٠٠ ؛ مسند أبي داود الطيالسي : ص ١٠٥ ص ١٨٠ ؛ مشكاة المصابيح ، الخطيب التبريزي : ج ٣ ص ١٦٨٧ ؛ وقال التبريزي : (متفق عليه) ؛ صحيح ابن حبان : ج ١٥ ص ٤٤ .
- (٣) صحيح مسلم ، النيسابوري : ج ٣ ص ١٤٥٣ ؛ كتاب الإمارة ؛ مسند أحمد ، ابن حنبل : ج ٥ ص ٩٨ ص ١٠١ ؛ وفي ص ٩٦ قال : (عزيزاً منيعاً ظاهراً على من ناواه ، ولا يضربه من فارقه أو خالفه) ؛ صحيح ابن حبان : ج ١٥ ص ٤٤ .
- (٤) صحيح مسلم ، النيسابوري : ج ٣ ص ١٤٥٣ ؛ كتاب الإمارة ؛ مسند أحمد ، ابن حنبل : ج ٥ ص ٨٨ ص ٨٩ ؛ سلسلة الأحاديث الصحيحة ، الألباني : ج ١ ق ٢ ص ٧٢٠ .

* الله ﷺ : يكون من بعدي اثنا عشر أميراً ، ثم تكلم بشيء لم أفهمه ، فسألت الذي يليني ، فقال : قال : كلهم من قريش ^(١) .

٨ . وأخرج أبو داود حديث الخلفاء الاثني عشر بطريقين صحيحين ^(٢) ، قال في أحدهما : (سمعت رسول الله ﷺ يقول : لا يزال هذا الدين عزيزاً إلى اثني عشر خليفة ، قال : فكبر الناس وضجوا ، ثم قال كلمة خفية ، قلت لأبي ، يا أبة ما قال ؟ قال : كلهم من قريش) ^(٣) .

٩ . وأخرج أحمد ، وأبو نعيم ، والبغوي عن جابر بن سمرة ، قال : (سمعت رسول الله ﷺ يقول : يكون بعدي اثنا عشر خليفة ، كلهم من قريش) ^(٤) .

١٠ . وأخرج أحمد بن حنبل في المسند . واللفظ له . والحاكم النيسابوري في المستدرک ، عن جابر بن سمرة ، قال : (سمعت رسول الله ﷺ يقول في حجة الوداع : لا يزال هذا الدين ظاهراً على من ناواه ، لا يضره مخالف ، ولا مفارق ، حتى يمضي من أمتي اثنا عشر أميراً كلهم ، ثم خفي من قول رسول الله ﷺ ... قال : يقول : كلهم من قريش) ^(٥) .

١١ . وأخرج أبو عوانة أيضاً في مسنده ، عن جابر بن سمرة ، قال : (قال رسول الله ﷺ : لا يزال هذا الأمر عزيزاً منيفاً لا يضره من ناواه حتى تقوم الساعة

* الحديث رقم ٧ لم يرد كاملاً في متن الكتاب . [الشبكة] .

(١) سنن الترمذي : ج ٣ ص ٣٤٠ ؛ قال الترمذي : (هذا حديث حسن صحيح) ؛ مسند أحمد ، ابن حنبل : ج ٥ ص ٩٢ ص ٩٤ ص ٩٩ ص ١٠٨ .

(٢) صحيحهما الألباني في صحيح سنن أبي داود : ج ٣ ص ١٩ ح ٤٢٨٠ .

(٣) سنن أبي داود : ج ٤ ص ٨٦ ؛ كتاب المهدي وفيه : (ثم لغط القوم وتكلموا) وفي نفس الصفحة (فجعل الناس يقومون ويقعدون) .

(٤) مسند أحمد ، ابن حنبل : ج ١٥ ص ٩٢ ؛ حلية الأولياء : ج ٤ ص ٣٣٣ ؛ شرح السنة ، البغوي : ج ٧ ص ٤٢٢ ح ٤١٣١ ؛ صحيح ابن حبان : ج ١٥ ص ٤٣ ؛ قال البغوي : (هذا حديث صحيح) .

(٥) مسند أحمد ، ابن حنبل : ج ٥ ص ٨٧ . ٨٨ ؛ المستدرک على الصحيحين : ج ٣ ص ٦١٨ .

إلى اثني عشر خليفة ، كلهم من قريش (١) .

١٢ . وأخرج ابن حجر والقسطلاني والخطيب البغدادي قول رسول الله ﷺ : (لا تهلك هذه الأمة حتى يكون فيها اثنا عشر خليفة ، كلهم يعمل بالهدى ودين الحق) (٢) .

١٣ . وأخرج أحمد ، والحاكم في المستدرک ، والهيثم في مجمع الزوائد عن الطبراني في المعجم الأوسط ، والكبير ، أن النبي ﷺ قال : (لا يزال أمر أمتي صالحا حتى يمضي اثنا عشر خليفة ...) (٣) .

١٤ . وأخرج أحمد في مسنده ، والهيثم في مجمع الزوائد ، وابن حجر في المطالب العالية ، والبوصيري في مختصر الإتحاف ، عن مسروق ، قال : (أما سألت النبي ﷺ كم يملك هذه الأمة من خليفة ؟ قال : ما سألتني عنها أحد منذ قدمت العراق قبلك [ثم] قال : نعم ولقد سألتها ، فقال : اثني عشر كعدة نقباء بني اسرائيل) (٤) .

(١) مسند أبي عوانة : ج ٤ ص ٣٦٩ ح ٦٩٧٦ .

(٢) فتح الباري : ج ١٣ ص ١٨٤ ؛ تاريخ بغداد : ج ٤ ص ٢٥٨ .

(٣) المستدرک على الصحيحين : ج ٣ ص ٦١٨ ؛ مسند أحمد ، ابن حنبل : ج ٥ ص ٩٧ ص ١٠٧ ؛ مجمع الزوائد : ج ٥ ص ١٩٠ ؛ قال الهيثمي : (رجال الطبراني رجال الصحيح) ، ورواه عن جابر في ص ١٩١ وقال : (رجاله ثقات) .

(٤) مختصر الإتحاف ، البوصيري : ج ٦ ص ٤٣٦ ح ٤٩٣٣ ؛ وكذا انظر مسند أحمد ، ابن حنبل ج ١ ص ٣٩٨ ؛ المستدرک ، ج ٤ ص ٥٠١ ؛ المطالب العالية : ج ٥ ص ٤٦ ؛ مجمع الزوائد : ج ٥ ص ١٩٠ ؛ وهذا حديث حسنه ابن حجر العسقلاني في فتح الباري : ج ١٣ ص ٨٣ ؛ وابن حجر الهيثمي في تطهير الجنان واللسان (ضمن الصواعق المحرقة) : ص ١٩ ، ونقله السيوطي في تاريخ الخلفاء : ص ١٥ .

* الأكرم ﷺ من طرق أهل البيت ﷺ حول الخلفاء الاثني عشر ، إلا أنّ ما تقدّم يكفي لإثبات المطلوب .

وعلى ضوء ما سلف يتضح أن حديث الاثني عشر خليفة حقيقة إسلامية صادرة عن الرسول الأكرم ﷺ ، مسلمة لا غبار عليها ، فلا مجال لما يقال من أنّها فكرة يهودية أخذها الشيعة من كتاب دانيال ! .

ولعلّ المستشكل لم يكن مطلعاً على الشخص الذي رجع إلى كتب اليهود وأخذ منها ، بعد عجزه عن تفسير حديث الاثني عشر ، كما نقل ذلك ابن حجر العسقلاني ، عن أبي الحسين ابن المنادي ، حيث قال : (قال أبو الحسين ابن المنادي ، في الجزء الذي جمعه في المهدي : (يحتمل في معنى حديث (يكون اثنا عشر خليفة) أن يكون هذا بعد المهدي ، الذي يخرج في آخر الزمان ، فقد وجدت في كتاب دانيال ، إذا مات المهدي ...)^(١) .

ومن هنا لا نجد مجالاً لإنكار هذه الروايات المتواترة ، ولذا التجأ العلماء من الفريقين إلى تفسيرها دون تكذيبها .

مَن هم الخلفاء الاثنا عشر ؟

بعد أن اتفق المسلمون على هذه الحقيقة التي كشف النقاب عنها رسول الله ﷺ ، وأنّ الخلفاء من بعده اثنا عشر خليفة ، نجد أنّ الكثير من محدّثي ومفسّري أهل السنّة واجهوا إشكالية صعبة في تعيين الخلفاء الاثني عشر ؛ لأنّهم من جهة إن أخذوا بظواهر النصوص . الواردة في الخلفاء الاثني عشر . فإنّ ذلك يتناقض ، ويتنافى مع ما تسالموا عليه في

* يوجد كلام قبل كلمة الأكرم ! [الشبكة] .

(١) نقلا عن فتح الباري: ج ١٣ ص ١٨٤ .

مسألة الخلافة لديهم ، ولما رُووه صحيحاً عن رسول الله ﷺ أنّ الخلافة من بعده ثلاثون عاماً ، ثم تكون ملكاً عضوضاً . من جهة أخرى إن رفض هذه النصوص لا تسمح به القويّ السندية التي تملكها ؛ وعلى هذا الأساس تباينت الآراء وتناقضت التفسيرات حول هذه الحقيقة وتضاربت التصريحات والردود بعضها مع البعض الآخر ، فتجدهم تارة يعبرون بـ (وقع لي فيه شيء) أو (قيل) أو (الذي يغلب على الظن) ، أو (والله أعلم بمراد نبيّه) ، وإكثارهم من قول (والله أعلم) بين الحين والآخر ، ممّا يكشف عن تحبّطهم ، وحيرتهم في تفسير حديث الخلفاء تفسيراً واقعياً صحيحاً ، وإليك أبرز تلك المحاولات التفسيرية :

محاولات أهل السنة في تفسير حديث الخلفاء

المحاولة الأولى : لابن العربي

قال : (فعددنا بعد رسول الله ﷺ اثني عشر أميراً فوجدنا أبا بكر وعمر وعثمان وعليّاً والحسن ومعاوية ويزيد ومعاوية بن يزيد ، ومروان وعبد الملك بن مروان والوليد بن عبد الملك وسليمان وعمر بن عبد العزيز ويزيد بن عبد الملك ومروان بن محمد بن مروان والسفاح ...) إلى أن قال : (وإذا عددناهم اثني عشر انتهى العدد بالصورة إلى سليمان ، وإذا عددناهم بالمعنى كان معنا منهم خمسة : الخلفاء الأربعة وعمر بن عبد العزيز ، ولم أعلم للحديث معنى !!)^(١) .

(١) شرح صحيح الترمذي ، ابن العربي : ج ٩ ص ٦٨ .

المحاولة الثانية : لابن المهلب

قال : (لم ألق أحداً يقطع في هذا الحديث . يعني بشيء معين . فقوم قالوا يكونون بتوالي إمرتهم ، وقوم قالوا يكونون في زمن واحد كلهم يدعي الإمارة ، قال : والذي يغلب على الظن أنه (عليه الصلاة والسلام) أخبر بأعاجيب تكون بعده من الفتن ، حتى يفترق الناس في وقت واحد على اثني عشر أميراً ، قال : ولو أراد غير هذا لقال يكون اثنا عشر أميراً يفعلون كذا ، فلمّا أعرأهم من الخبر عرفنا أنه أراد أنّهم يكونون في زمن واحد) ، وعلّق ابن حجر على ذلك بقوله : (وهو كلام مبن لم يقف على شيء من طرق الحديث غير الرواية التي وقعت في البخاري هكذا مختصرة)^(١) .

المحاولة الثالثة : للسيوطي

قال فيها : (فقد وجد من الثاني عشر خليفة : الخلفاء الأربعة ، والحسن ومعاوية وابن الزبير وعمر بن عبد العزيز ، هؤلاء ثمانية ، ويحتمل أن يضم إليهم المهدي من العباسيين ؛ لأنّه فيهم كعمر بن عبد العزيز في بني أمية ، وكذلك الطاهر لما أوتي من العدل ، وبقي الاثنان المنتظران أحدهما المهدي ؛ لأنّه من آل بيت محمد ﷺ)^(٢) .

وقد علّق عليه الأستاذ أبو رية بقوله : (ولم يبين المنتظر الثاني !! ورحم الله مَن قال في السيوطي : إنّه حاطب ليل)^(٣) .

(١) فتح الباري ، ابن حجر : ج ١٣ ص ١٨٢ .

(٢) تاريخ الخلفاء ، جلال الدين السيوطي : ص ١٦ .

(٣) أضواء على السّنة المحمّدية : ص ٢٣٥ .

المحاولة الرابعة : لأبي الحسين ابن المنادي

قال في الجزء الذي جمعه في المهدي : (يحتمل في معنى حديث : (يكون اثنا عشر خليفة) أن يكون هذا بعد المهدي الذي يخرج في آخر الزمان ، فقد وجدت في كتاب دانيال : إذا مات المهدي ملك بعده خمسة رجال من ولد السبط الأكبر ، ثم خمسة من ولد السبط الأصغر ، ثم يوصي آخرهم بالخلافة لرجل من ولد السبط الأكبر ، ثم يملك بعده ولده ، فيتم بذلك اثنا عشر ملكاً كل واحد منهم إمام مهدي ^(١) ، وقد ردّه ابن حجر بقوله : (والوجه الذي ذكره ابن المنادي ليس بواضح) ^(٢) .

المحاولة الخامسة : للقاضي عياض

قال النووي : (وقال القاضي عياض في جواب القول : إنه ولي أكثر من هذا العدد ؟ ، قال : وهذا اعتراض باطل ؛ لأنّه ﷺ لم يقل : لا يلي إلاّ اثنا عشر خليفة ، وإنما قال : يلي ، وقد ولي هذا العدد ، ولا يضر كونه وجد بعدهم غيرهم ... ، ويحتمل أوجهاً أخر ، والله أعلم بمراد نبيّه) ^(٣) .

المحاولة السادسة : لابن الجوزي

حيث قال في كشف المشكل : (قد أطلت البحث عن معنى هذا الحديث وتطلّبت مظانّه ، وسألت عنه فلم أقع على المقصود به ؛ لأنّ ألفاظه مختلفة ، ولا أشك أنّ التخليط فيها من الرواة ، ثم وقع لي فيه شيء ...) ^(٤) .

(١) نقلاً عن فتح الباري : ج ١٣ ص ١٨٤ .

(٢) فتح الباري : ج ١٣ ص ١٨٥ .

(٣) شرح صحيح مسلم ، النووي : ج ١٢ ص ٢٠١-٢٠٣ .

(٤) فتح الباري : ج ١٣ ص ١٨٣ .

* أمية قال : (وأول بني أمية يزيد بن معاوية ، وآخرهم مروان الحمار ، وعدّتهم ثلاثة عشر ، ولا يعدّ عثمان ومعاوية ، ولا ابن الزبير ؛ لكونهم صحابة ، فإذا أسقطنا منهم مروان بن الحكم . للاختلاف في صحبته ، أو لأنه كان متغلباً بعد أن اجتمع الناس على عبد الله بن الزبير . صحّت العدة)^(١) .
وقال ابن حجر في معرض تعليقه على كلام ابن الجوزي : (وأما محاولة ابن الجوزي ... ظاهر التكلف)^(٢) .

المحاولة السابعة : للبيهقي

قال فيها : (وقد وجد هذا العدد بالصفة المذكورة إلى وقت الوليد بن يزيد بن عبد الملك ، ثم وقع المرح والفتنة العظيمة ، ثم ظهر ملك العباسية ، وإثما يزيدون على العدد المذكور ، إذا تركت الصفة المذكورة فيه أو عد منهم من كان بعد المرح المذكور فيه)^(٣) .
ورده ابن كثير بقوله : (فهذا الذي سلكه البيهقي وقد وافقه عليه جماعة ، من أنّ المراد بالخلفاء الاثني عشر المذكورين في هذا الحديث هم المتتابعون إلى زمن الوليد بن يزيد بن عبد الملك الفاسق ، الذي قدّمنا الحديث فيه بالذم والوعيد فإنّه مسلك فيه نظر ... وعلى كل تقدير فهم اثنا عشر ، قبل عمر بن عبد العزيز ، فهذا الذي سلكه على هذا التقدير يدخل في الاثني عشر يزيد بن معاوية ، ويخرج منهم عمر بن عبد العزيز ، الذي أطبق الأئمة على شكره وعلى مدحه ، وعدّوه من

* يوجد كلام سابق ؛ لأنه كلام مبثور . [الشبكة] .

(١) فتح الباري ، ابن حجر : ج ١٣ ص ١٨٣ .

(٢) المصدر نفسه : ج ١٣ ص ١٨٥ .

(٣) نقله عن البيهقي ابن كثير في البداية والنهاية : ج ٦ ص ٢٧٩ .

الخلفاء الراشدين (١) .

وفي نهاية المطاف يتضح تعثر المحاولات التي تحركت في إنجاز هدفها ، وأنتجت تفسيرات تختزل في داخلها التكلّف والحيرة والارتباك .

التفسير الواقعي لحديث الاثني عشر

أمّا الشيعة الإمامية ، فلم يحتاجوا إلى مزيد بحث وعناء ، في تفسير أحاديث الخلفاء الاثني عشر ، وأنّهم العترة الطاهرة ، المتمثلة في أهل البيت عليهم السلام بشكل واضح ، لا سيّما بملاحظة الروايات التي وردت عن رسول الله صلى الله عليه وآله ، وما تضمّنته من روح استدلالية لا تقبل التردد في إثبات المطلوب . وقبل أن نلج في البحث ، لابد من تقديم نقطة منهجية تساهم في بناء إطار واضح ومحدد للموضوع وتحول دون الوقوع في الاشتباه .

وهي أنّنا يتوجّب علينا أن نلقي الضوء على تلك الروايات الواردة في الخلفاء الاثني عشر ؛ لنبصر ما تضمّنته تلك الروايات من خصائص ومواصفات ومميّزات للخلفاء الاثني عشر ، حيث نجد في بعضها التعبير بأن (عزّة الإسلام ونصرته تكون بهم) ، وأنّ (بقاء الدين إلى قيام الساعة بهم) ، وأنّ (وجودهم مستمر إلى آخر الدهر) ، وأنّ (قيام الدين إلى قيام الساعة بهم) ، وأنّهم (القيّمين على الدين) ، و (إذا هلكوا ماجت الأرض بأهلها) ، وأنّ (صلاح الأمة والناس بهم) ، وأنّهم (كلّهم يعمل بالهدى ودين الحق) ، وأنّهم (كلّهم من قريش) ، وأنّهم (لا يضرّهم خذلان ولا عداوة من عاداهم) ، وأنّهم (كعتق نعباء بني إسرائيل) ، والأهم من ذلك كلّ تحديدهم بعدد (اثني عشر) بلا زيادة أو نقصان .

(١) البداية والنهاية ، ابن كثير : ج ٦ ص ٢٧٩ . ٢٨٠ .

وبملاحظة هذه الامتيازات ، والخصوصيات ، التي يتصف بها الخلفاء الاثنا عشر ، لا يتردد أحد في صدقها ، وانطباقها على أئمة أهل البيت عليهم السلام .

ولكي تكون الإجابة واضحة لا تحتل اللبس ، والإيهام ، نشير إلى عدة قرائن وشواهد ، نلمس من خلالها جوهر وحقيقة الأحاديث ، وتفسيرها تفسيراً واقعياً ، وإليك جملة من تلك الشواهد والقرائن التي توجب القطع واليقين بأن المراد بالخلفاء الاثني عشر هم أهل البيت عليهم السلام :

جملة من الشواهد على المراد الواقعي

١ . إذا أنعمت النظر في بعض الخصائص والمميزات التي تضمنتها نصوص الاثني عشر خليفة ، من قيام الدين بهم ، وقيموميتهم على الدين فهم (اثنا عشر قيماً من قريش ، لا يضرمهم من خذلهم ، ولا عداوة من عاداهم) ^(١) ، (لا يزال الدين قائماً) ^(٢) ، وكوهم (أمان لأهل الأرض) ^(٣) ، (أمان لأمتي) ^(٤) ، (فإذا

-
- (١) المعجم الكبير ، الطبراني : ج ٢ ص ١٩٦ ، وفي ص ٢٥٦ نقل فيها عبارة (لا يضرمهم عداوة من عاداهم) ؛ المعجم الأوسط ، الطبراني : ج ٣ ص ٢٠١ ، نقل فيه عبارة (لا يضرمهم من خذلهم) ؛ مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ، الهيثمي : ج ٥ ص ١٩١ وذكر (أن رجاله ثقات) ونقل فيه عبارة (عداوة من عاداهم) ؛ الحد الفاصل ، الرامهرمي : ص ٤٩٤ .
- (٢) صحيح مسلم ، النيسابوري : ج ٣ ص ١٤٥٣ ؛ كتاب الإمارة ؛ مسند أحمد ، ابن حنبل : ج ٥ ص ٨٦ ص ٨٨ ص ٨٩ ؛ سلسلة الأحاديث الصحيحة ، الألباني : ج ٢ ص ٦٥٤ ح ٩٦٤ .
- (٣) المستدرک : ج ٣ ص ١٤٩ ؛ وقال فيه : (هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه) ، وغير ذلك من المصادر .
- (٤) شواهد التنزيل ، الحاكم الحسكاني : ج ١ ص ٤٢٦ ، ذخائر العقبى ، أحمد بن عبد الله الطبري : ص ١٧ .

هلكوا ماجت الأرض بأهلها) ^(١) ، لا سيّما إذا ضمّمنا إليها ما ورد عن رسول الله ﷺ صحيحاً ومتواتراً ، أنّ (الأرض لا تخلو من حجة) ^(٢) ، وكذا (من مات وليس له إمام مات ميتة جاهلية) ^(٣) ، وقول رسول الله ﷺ : (لا يزال هذا الأمر في قريش ما بقي من الناس اثنان) ^(٤) ، يتجلّى لنا أنّها تسجّل بمجموعها معنى مشتركاً فيما بينها ، وهو أنّ هذه الخصوصيات لا يمكن أن تتحقق إلّا إذا كان أولئك الخلفاء الاثنا عشر على شكل سلسلة واحدة متكاملة ومتناسقة ومتوالية زماناً ، وهذا لا ينسجم ولا ينطبق إلّا على العترة الطاهرة ﷺ ، على العكس من تفاسير علماء السنّة المتقدّمة ، التي تغطي عليها حالة من التشويش والتكلف وعدم التناسق ، والتواصل فيما بينها .

٢ . من الخصوصيات الأخرى التي سجلتها روايات الاثني عشر إلى جانب الخصوصية الأولى ، هي صفة (بقاؤهم ما بقي الدين ، حتى تقوم الساعة) ، وهذه الحقيقة لا تتجسّد إلّا في أئمة أهل البيت ﷺ ، ومن أوضح ما يثبت ذلك :

-
- (١) المعجم الكبير الطبراني : ج ٢ ص ١٩٦ ح ١٧٩٤ ؛ كنز العمال : ج ١٢ ص ٣٤ ح ٣٣٨٦١ .
- (٢) انظر : تاريخ مدينة دمشق : ج ٥٠ ص ٢٥٥ ؛ انظر : المناقب ، الخوارزمي : ص ٣٦٦ ؛ انظر : تاريخ يعقوبي : ج ٢ ص ٢٠٦ ؛ انظر : ينابيع المودة : ج ١ ص ٨٩ .
- (٣) صحيح ابن حبان : ج ١٠ ص ٤٣٤ ، انظر : مسند أحمد ، ابن حنبل : ج ٣ ص ٤٤٦ ؛ المعجم الكبير ، الطبراني : ج ١٩ ص ٣٨٨ ؛ سنن البيهقي : ج ٨ ص ١٥٦ ؛ المعيار والموازنة : ص ٢٤ ؛ المعجم الأوسط ، الطبراني : ج ٦ ص ٧٠ ؛ مجمع الزوائد : ج ٥ ص ٢١٨ ص ٢٢٤ ج ٩ : ص ١١١ ص ١٢١ ؛ مسند الطيالسي : ص ٢٥٩ ؛ مسند أبي يعلى : ج ١٣ ص ٣٦٦ ح ٧٣٧٥ .
- (٤) صحيح مسلم ، النيسابوري : ج ٣ ص ١٤٥٢ ح ١٨٢٠ ؛ مسند أحمد ، ابن حنبل : ج ٢ ص ٢٩ ص ٩٣ ؛ السنن الكبرى : البيهقي : ج ٣ ص ١٢١ ؛ فتح الباري : ج ١٣ ص ١٠٤ ؛ الجامع الصغير : ج ٢ ص ٧٥٦ ح ٩٩٦٩ ؛ وغيرها من المصادر الأخرى .

أ . حديث الثقلين (إِنِّي تارك فيكم ما أن تمسكتكم به لن تضلّوا بعدي ؛ أحدهما أعظم من الآخر : كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض ، وعترتي أهل بيتي ، ولن يفترقا حتى يردا علي الحوض ؛ فانظروا كيف تخلفوني فيهما) ^(١) ، والنفي التأييدي للافتراق بين الكتاب والعترّة الطاهرة لا يتحقق إلّا بديمومة أهل البيت عليهم السلام ، وبقائهم ما بقي القرآن والدين ، وإلّا فلو فرض افتقاد أهل البيت عليهم السلام في فترة معيّنة ، يلزم من ذلك افتراق القرآن عن العترّة ، وهو ينافي حديث الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله .

ب . الاعتقاد بوجود الإمام الثاني عشر ، وأنّه الإمام المهدي المنتظر عليه السلام ، وأنّه من ولد رسول الله صلى الله عليه وآله ، وأنّه حيّ يرزق . كما هو معتقد الشيعة الإمامية . يسجّل التقاء جليّاً مع مضمون روايات الخلفاء الاثني عشر في خصوصيّة كون بقائهم ما بقي الدين إلى قيام الساعة ، لا سيّما إذا أخذنا بنظر الاعتبار الأحاديث السابقة الذكر : (لا تخلو الأرض من حجّة) ، و (من مات وليس له إمام مات ميتة جاهلية) .

٣ . تشبيه الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله الخلفاء الاثني عشر من بعده بنقباء بني إسرائيل ، وحواريي عيسى . كما تقدم . يدل على كون الخلفاء أوصياء منصّبين بتعيين خاص ، كما هو الحال بالنسبة لنقباء موسى وحواريي عيسى عليه السلام ، وهذا التنصيب والتعيين يفرضه عظم وحجم المسؤولية الملقاة على عاتق النقيب ، بحسب تعبير الآية ؛ لأنّ النقيب هو الأمين والرئيس الكبير ، المقدّم على القوم ، الذي يتعرّف أخبارهم ، وينقّب عن أحوالهم ، ويعرف مناقبهم ، ودخيلة أمرهم ، ويدبّر مصالحهم ، وقد أخرج السيوطي في تفسيره عن ابن

(١) أخرج الحديث مسلم في صحيحه : ج ٤ ص ١٨٧٣ ح ٢٤٠٨ ؛ والترمذي في سننه : ج ٥ ص ٣٢٨ ، ٣٢٩ ؛ وأحمد في مسنده : ج ٣ ص ٥٩ ؛ وغيرها من المصادر العديدة جداً ، والحديث متفق على صحّته بين الفريقين ، بل إنّ له طرقاً عديدة جداً تصل إلى حد التواتر .

جرير بن الربيع : (قال : النقباء ، الأمناء)^(١) ، ونقل الفخر الرازي في ذيل آية (اثني عشر نقيبا) : (إن النقيب هاهنا فاعيل بمعنى مفعول ، يعني اختارهم على علم بهم ، قال الأصم : هم المنظور إليهم ، والمسند إليهم أمور القوم وتدير مصالحهم)^(٢) .

كما ورد عن رسول الله ﷺ أنه قال : (اثنا عشر خليفة ، كلهم يعمل بالهدى ودين الحق ، لا يضرهم من خذلهم)^(٣) ، وهذا هو الدور الذي أنيط بأهل البيت عليه السلام ، كما روي عن عمر ، أن النبي ﷺ قال : (في كل خلوف من أمتي عدول من أهل بيتي ، ينفون عن هذا الدين تحريف الضالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين ، ألا وإن أئمتكم وفدكم إلى الله عز وجل فانظروا من توفدون)^(٤) .

وعلى هذا الأساس يثبت لأوصياء وخلفاء نبينا ﷺ ما ثبت لأوصياء موسى وعيسى عليهما السلام من التنصيب والتعيين الخاص ، وهو ما لم يثبت لغير أهل البيت عليه السلام .

٤ - المؤهلات والخصائص الاستثنائية ، التي يمتلكها أهل البيت عليه السلام ، والتي يفرضها واقعهم وسيرتهم العملية بين المسلمين بإجماع أهل العلم ، وعلى جميع المستويات الفكرية ، والإيمانية والروحية والنفسية والرسالية وغيرها ، تحتّم على الباحث المنصف تفسير الحديث بهم ، ويمكن أن نلمس ذلك من خلال ما يأتي :

أولاً : النصوص القرآنية كآية المودة ، وآية هل أتى ، وآية التطهير والاصطفاء وغيرها ، وكذلك الأحاديث النبوية ، من حديث الثقلين ، وحديث السفينة ، وحديث الكساء ، وغيرها .

(١) الدر المنثور ، جلال الدين السيوطي : ج ٣ ص ٤٠ .

(٢) التفسير الكبير ، الفخر الرازي : ج ٦ ص ١٨٨ . ١٨٩ .

(٣) المعجم الكبير ، الطبراني : ج ٢ ص ١٩٦ ، ٢٥٦ ؛ المعجم الأوسط : ج ٣ ص ٢٠١ ؛ انظر : فتح الباري : ج ١٣ ص ١٨٤ .

(٤) الصواعق المحرقة ، ابن حجر الهيتمي : ص ٢٣١ ؛ انظر : ذخائر العقبى ، محب الدين الطبري : ص ١٧ ؛ انظر : ينابيع المودة ، القندوزي : ج ٢ ص ١١٤ .

ثانيا : الواقع التاريخي الذي برهن وبكل وضوح وصدق على عمق تجسيدهم ﷺ للمفاهيم الإسلامية والرسالية ، وعمق تحملهم لأدوارهم ، وقيامهم بالمسؤوليات التي أوكلت لهم ، فإن كل الدراسات التي عنيت بتدوين ودراسة التاريخ تؤكد حقيقة التميز في شخصياتهم ، ومؤهلاتهم العلمية والقيادية والأخلاقية والاجتماعية وغيرها ، لا سيما إذا أبصرنا تلك التصريحات الصادرة من رجالهم ومؤرخين وباحثين ممن عاصروا الأئمة ﷺ ، ومن لم يعاصروهم ، فقد أجمعت هذه الكلمات على الاعتراف لأهل البيت ﷺ بالموقع المنفرد والاستثنائي في العلم والورع والخلق والفضل والشرف والسمو والكمال والحسب والنسب وأهليتهم للإمامة والخلافة ، كما نقلنا ذلك مفصلاً في الجواب عن شبهة متقدمة ، وإليك بعض تلك الشواهد :

أ . قول أحمد بن حنبل : (ما جاء لأحد من أصحاب رسول الله ﷺ من الفضائل ، ما جاء لعلي بن أبي طالب عليه السلام)^(١) ، وفضل أمير المؤمنين عليه السلام ودوره في الإسلام غني عن البيان فلا نطيل فيه الحديث .

ب . وأما فضل الإمام الحسن والإمام الحسين عليهما السلام ودورهما في الإسلام ، ودفاعهما عن شريعة جدّهما ﷺ ، وما قاما به من إصلاح في الأمة الإسلامية ، ووقوفهما سداً منيعاً أمام كل المحاولات التي تستهدف النيل من الرسالة الإسلامية ، لما يحملانه من خصائص ومميزات ، وقد تواترت الروايات في علو شأنهما وسمو مقامهما ، كل ذلك جعل لهما الدور الفاعل في التأثير البليغ في المسلمين ، سواء على الصعيد الفكري ، أو الاجتماعي ، أو غيرهما ، كل ذلك في زمن أصبحت الحياة الإسلامية فيه مسرحاً للخلافات ، والجرائم والآثام ، وأصبحت فيه الحكومة ملكاً عضوضاً يتوارثه بنو أمية فيما بينهم بالقهر والغلبة ، وقد انبرى الإمام الحسن والإمام الحسين عليهما السلام في ذلك الحين لمعالجة الواقع المرير ، وقد جاء في مجامع أحاديث السنة أن رسول الله ﷺ قال في حق ابنه الحسن عليه السلام : (إن ابني هذا سيد ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين)^(٢) ، وقال ﷺ في حق ابنه الحسين عليه السلام : (حسين مني وأنا منه ، أحب الله من أحبّه . الحسن والحسين سبطان من الأسباط)^(٣) .

(١) المستدرک ، الحاكم النيسابوري : ج ٣ ص ١٠٧ .

(٢) صحيح البخاري : ج ٢ ص ١٧٩ ح ٢٧٠٤ ؛ الصواعق المحرقة ، ابن حجر : ص ٢٩١ ، وغيرها من المصادر الكثيرة جدا من الفريقين .

(٣) المعجم الكبير ، الطبراني : ج ٣ ص ٣٢ ج ٢٢ ص ٢٧٤ ؛ الجامع الصغير ، السيوطي : ج ١ ص ٥٧٥ ؛ فيض القدير في شرح الجامع الصغير ، المناوي : ج ٣ ص ٥١٣ ؛ التاريخ الكبير ، البخاري : ج ٨ ص ٤١٥ ؛ البداية والنهاية ، ابن كثير : ج ٨ ص ٢٢٤ ؛ وفي صحيح الجامع الصغير ، الألباني : ج ١ ص ٦٠٢ ح ٣١٤٦ ، قال عن الحديث بأنه : (حسن) ، وغيرها من المصادر الكثيرة .

ولذا قام الإمام الحسين عليه السلام نائراً على الظلم آمراً بالمعروف ، ناهياً عن المنكر ، مضحياً بنفسه وأهل بيته في سبيل إعلاء كلمة الحق ، طالباً الإصلاح في أمة جده ﷺ عندما لاحظ الممارسات البعيدة عن روح الدين والأخلاق من قبل الحكومة آنذاك ، حينما اتخذت الإسلام ستاراً لتغطية جرائمها وممارساتها المتهتكة ، ولذا قال عليه السلام عندما خرج متوجهاً إلى الكوفة : (إني لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا مفسداً ولا ظالماً وإنما خرجت أطلب الإصلاح في أمة جدي محمد ﷺ ، أريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر) (١) ، وقد قال الذهبي في مدحهما وبيان موقعهما القيادي في الأمة عليه السلام : (فمولانا الإمام علي من الخلفاء الراشدين ، وابناه الحسن والحسين فسبطا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وسيّدا شباب أهل الجنة ، لو استخلفا لكانا أهلاً لذلك) (٢) ، ولا نطيل الحديث في ذلك بعد أن ثبت أنّهما عليهما السلام إمامان قاما أو قعدا .

ج . قول مالك في الإمام زين العابدين : (سُمّي زين العابدين لكثرة عبادته) (٣) .

د . قول أبي حنيفة عندما سُئل : مَنْ أفقه مَنْ رأيت ؟ قال : (ما رأيت أحداً أفقه من جعفر بن محمد) (٤) .

هـ . قول الذهبي في ترجمته للإمام المهدي المنتظر عليه السلام : (ومحمد هذا هو الذي يزعمون أنّه الخلف الحجة ، وأنّه صاحب الزمان ، وأنّه حي لا يموت حتى يخرج ، فيملأ الأرض عدلاً وقسطاً ، كما مُلئت ظلماً وجوراً . فوددنا ذلك . والله . فمولانا علي : من الخلفاء الراشدين ، وابناه الحسن والحسين : فسبطا رسول الله ﷺ ، وسيّدا شباب أهل الجنة ، لو استخلفا لكانا أهلاً لذلك) .

(١) مقتل الحسين ، الخوارزمي : ص ٢٧٣ ، الفتوح ، ابن أئثم الكوفي : ج ٥ ص ٢١ .

(٢) سير أعلام النبلاء ، الذهبي : ج ١٣ ص ١٢٠ .

(٣) نور الأبصار ، الشبلنجي : ص ١٩١ .

(٤) سير أعلام النبلاء ، الذهبي : ج ٦ ص ٢٥٧ ، تذكرة الحفاظ ، الذهبي : ج ١ ص ١٦٦ .

وزين العابدين : كبير القدر ، ومن سادة العلماء العاملين يصلح للإمامة .
وكذلك ابنه أبو جعفر الباقر : سيّد إمام ، فقيه ، يصلح للخلافة .
وكذا ولده جعفر الصادق : كبير الشأن ، من أئمة العلم ، كان أولى بالأمر من أبي جعفر المنصور .
وكان ولده موسى : كبير القدر ، جيّد العلم ، أولى بالخلافة من هارون .
وابنه علي بن موسى الرضا : كبير الشأن ، له علم وبيان ، ووقع في النفوس ، صيّرهُ المأمون وليّ
عهدِهِ لجلالته .

وابنه محمد الجواد : من سادة قومه .
وكذلك ولده الملقّب بالهادي : شريف جليل .
وكذلك ابنه الحسن بن علي العسكري ، رحمهم الله تعالى (١) .
٥ - إن من الملاحم التي نصبت عليها أحاديث الاثني عشر خليفة ، هو حصول المعاداة والخذلان
لأولئك الخلفاء بعد رسول الله ﷺ ، كالتعبير بأنهم (لا يضرهم من خذلهم) (٢) ، (ولا تضرهم
عداوة من عاداهم) (٣) .

-
- (١) سير أعلام النبلاء ، الذهبي : ج ١٣ ص ١٢٠ ، ١٢١ .
(٢) المعجم الكبير ، الطبراني : ج ٢ ص ١٩٦ ، تاريخ ابن كثير : ج ٦ ص ٢٨٧ .
(٣) المعجم الكبير ، الطبراني : ج ٢ ص ٢٥٦ ، مجمع الزوائد ، الهيثمي : ج ٥ ص ١٩١ ؛ فتح الباري ، ابن حجر : ج ١٣
ص ١٨٢ .

ولا يخفى أنه جرى على أهل البيت عليهم السلام ما لم يجر على غيرهم من خذلان ومعاداة ، ابتداءً من أمير المؤمنين عليه السلام ، والإمام الحسن والحسين عليهما السلام ، ومن بعدهم العترة الطاهرة من أبناء الحسين عليه السلام ، وقد تنبأ بذلك رسول الله ﷺ عندما قال : (إنا أهل بيت اختار الله لنا الآخرة على الدنيا ، وإن أهل بيتي سيلقون بعدي بلاء وتشريداً وتطريداً) ^(١) .

وهذا شاهد آخر ، يدعم كون الخلفاء الاثني عشر هم أهل البيت عليهم السلام ، حيث خُذِلَ أمير المؤمنين بعد أن عهد إليه رسول الله ﷺ بالولاية أمام جموع الناس في واقعة الغدير وغيرها ، وقد تنبأ أيضاً رسول الله ﷺ بذلك الخذلان عندما قال وهو آخذ بضبع علي بن أبي طالب عليه السلام : (هذا أمير البررة قاتل الفجرة منصور من نصره مخذول من خذله) ^(٢) ، وقول رسول الله ﷺ له : (إن الأمة ستغدر بك بعدي) ^(٣) ، وكذا الإمام الحسن عليه السلام ، حيث خذلته الأمة ، حتى تمكّن معاوية من السلطة ، ودس إليه السم فقتل شهيدا مظلوماً .

وأما الإمام الحسين عليه السلام ، فلا يخفى كيفية خذلان الأمة له ولأصحابه السبعين نفرًا ، حتى قتلوهم ، وسبوا نساءهم وذريعتهم ، وحملوهم إلى طاغية عصره يزيد بن معاوية ، وأما بقية الأئمة عليهم السلام فلا يخفى ما عافوه من جرّاء الظلم ، والتضييق عليهم ، وزجهم في السجون من قبل السلطات الحاكمة ، فكانوا ما بين مسموم وسجين ...

(١) سنن ابن ماجه : ج ٢ ص ١٣٦٦ وقد قوّه من طريق صاحب المستدرک ، المصنف : ابن أبي شيبة الكوفي : ج ٧ ص ٥٢٧ ؛ كتاب السنّة : ص ٦١٩ ح ١٣٩٩ ؛ الدر المنثور ، السيوطي : ج ٦ ص ٥٨ ، ميزان الاعتدال : ج ٢ ص ٤١٦ ذكرها بطرق مختلفة ومتعددة ولم يضعفها ، سير أعلام النبلاء : ج ٦ ص ١٣١ ؛ لسان الميزان ، ابن حجر : ج ٣ ص ٢٨٢ .
(٢) المستدرک على الصحيحين ، الحاكم : ج ٣ ص ١٢٩ قال : (هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه) ؛ تاريخ بغداد : ج ٣ ص ١٨١ ؛ تاريخ مدينة دمشق : ج ١٥ ص ٨٨ .

(٣) المستدرک على الصحيحين : ج ٣ ص ١٤٢ ، ١٤٣ قال : (صحيح) ؛ البداية والنهاية : ج ٦ ص ٢٤٤ ؛ دلائل النبوة : ج ٦ ص ٤٤٠ ؛ تاريخ مدينة دمشق : ج ٤٢ ص ٤٤٧ . ٤٤٨ ؛ شرح نهج البلاغة ، ابن أبي الحديد : ج ٤ ص ١٠٧ .

وعلى الرغم من كل المحاولات التي استهدفت طمس معالمهم ، وإخفاء حقيقتهم ودورهم ، إلا أنهم ﷺ مارسوا دورهم على أكمل وجه ، وحافظوا على الخط الإسلامي الأصيل المتمثل بتربية أمة صالحة على العكس من الحكومات الظالمة آنذاك ، التي اكتفت برفع شعار الإسلام ؛ لتمرير مخططاتها وأهدافها .

٦ - من الشواهد التي تكشف عن كون المقصود من الخلفاء الاثني عشر هم أهل البيت ﷺ ، هو أنّ بعض روايات الاثني عشر خليفة نصّت على أنّ الخلفاء الاثني عشر كلّهم من بني هاشم ، حيث جاء عن جابر بن سمرة عن رسول الله ﷺ أنّه قال : (بعدي اثنا عشر خليفة ، ثم أخفى صوته ، فقلت لأبي : ما الذي أخفى صوته ؟ قال : قال : كلّهم من بني هاشم)^(١) .

ولعلنا لا نجانب الصواب إذا قلنا : إن لفظ (كلّهم من بني هاشم) ؛ إمّا أن يكون قد أسقط من أسقط من باقي الروايات ، أو أنّه خفي على الراوي جرّاء حصول الضجة واللغط في ذلك المجلس ، الذي ذكر فيه الرسول الأكرم ﷺ هذا الحديث ، كما خفي عليه لفظ (كلّهم من قريش) فسأل من يجنبه ، فأثبت له لفظ (كلّهم من قريش) فقط ، ولعلّ الشخص الذي أثبت له اللفظ لم يسمع قول النبي ﷺ : (كلّهم من بني هاشم) فلم يثبت له ، أو لأجل مآرب وغايات في صدور القوم ، منعت من إثبات بقية الحديث لجابر ، وهذا يعني أنّ لفظ

(١) ينابيع الموءودّ : ج ٢ ص ٣١٥ ح ٩٠٨ .

(كلَّهم من قريش) لم يسمعها الراوي من لسان النبي ﷺ مباشرة ، وهذا هو ما فهمه القسطلاني في شرحه لصحيح البخاري ، حيث قال : (وعن أبي داود من طريق الشعبي عن جابر بن سمرة : لا يزال هذا الدين عزيزاً إلى اثني عشر خليفة ، قال : فكبر الناس وضجوا ، فلعلَّ هذا هو سبب خفاء الكلمة المذكورة على جابر)^(١) .

ولذا نقول : إن الرواية الواردة عن جابر عن رسول الله ﷺ هي بعض حديث ، ويشهد على ذلك نفس الواقعة ، وكيفية إثبات الحديث لجابر ، حيث جاء فيه : (لا يزال هذا الدين عزيزاً إلى اثني عشر خليفة ، قال فكبر الناس وضجوا فقال كلمة خفية ، فقلت لأبي يا أبة ما قال ؟ فقال أبي : إنه قال : كلَّهم من قريش)^(٢) .

وفي رواية أخرى بلفظ (صمَّنيها الناس)^(٣) ، قال النووي في شرحه لصحيح مسلم : (قوله : فقال كلمة صمَّنيها الناس) هو بفتح الصاد وتشديد الميم المفتوحة ، أي أصموني عنها ، فلم أسمعها ؛ لكثرة الكلام ووقع في بعض النسخ (صمَّنيها الناس) أي سكَّتوني عن السؤال عنها)^(٤) ، وجاء ذلك المعنى بألفاظ أخرى من قبيل : (فكبر الناس وضجوا)^(٥) ، (فضج الناس)^(٦) ، وفي لسان آخر (اثنا عشر كلَّهم ، ثم لغط القوم ، وتكلموا ، فلم أفهم قوله بعد كلَّهم)^(٧) ، ومما

(١) إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري : ج ١٥ ص ٢١٢ ح ٧٢٢٢ .

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري ، ابن حجر العسقلاني : ج ١٣ ص ١٨١ ؛ انظر : سنن أبي داود ، السجستاني : ج ٤ ص ٨٦ ح ٤٢٨٠ .

(٣) صحيح مسلم : ج ٣ ص ١٤٥٣ .

(٤) شرح صحيح مسلم ، النووي : ج ١٢ ص ٢٠٣ .

(٥) سنن أبي داود ، السجستاني : ج ٤ ص ٨٦ ح ٤٢٨٠ ؛ مسند أحمد : ج ٥ ص ٩٨ ؛ تاريخ بغداد : ج ٢ ص ١٢٤ ج ١٤ ص ٣٩٦ .

(٦) مسند أبي عوانة : ج ٤ ص ٣٦٩ .

(٧) مسند أحمد : ج ٥ ص ٩٩ ؛ المعجم الكبير ، الطبراني : ج ٢ ص ١٩٦ .

يؤكد كون الرواية لم تنقل كاملة . بل سقطت منها الكلمة التي هي على خلاف أهداف وأهواء القوم . ما أخرجه القندوزي الحنفي عن جابر بن سمرة قال : (كنت مع أبي عند النبي ﷺ فسمعتة يقول : (كلهم بعدي اثنا عشر خليفة) ثم أخفى صوته ، فقلت لأبي ما الذي أخفى صوته ؟ قال : قال : (كلهم من بني هاشم) (عن سماك بن حرب مثله)^(١) ، ومن ذلك يتضح أن كلمة (كلهم من بني هاشم) كانت موجودة في الحديث ، ولعلّ الرسول ﷺ قال : (كلهم من قريش من بني هاشم) ، وهذا ما استشعره بعض علماء السنة كابن الجوزي ، حيث قال في (كشف المشكل) : (قد أطلت البحث عن معني هذا الحديث ، وتطلّبت مظانه ، سألت عنه ، فلم أقع على المقصود به ؛ لأنّ ألفاظه مختلفه ، ولا أشك أن التخليط فيها من الرواة)^(٢) ، ويدعم هذا القول ما ذهب إليه ابن العربي ، بعد عجزه عن تفسير حديث الاثني عشر ، تفسيراً واقعياً ، قال : (ولعلّه بعض حديث)^(٣) ، ممّا يؤكد سقوط كلمة (كلهم من بني هاشم) من الحديث .

٧ - الاثنا عشر خليفة أمان لأهل الأرض ، إذا ذهبوا ماجت الأرض بأهلها ، وإذا مضوا لا يبقى الدين قائماً ، ويفقد المسلمون منعتهم وصلاحتهم ، وهذه المعاني التي جاءت في حديث الاثني عشر تلتقي وتلائم تمام الملائمة مع الروايات التي نقلها الفريقان بحق أهل البيت عن رسول الله ﷺ كقوله : (أهل بيتي أمان لأهل الأرض فإذا ذهب أهل بيتي ذهب

(١) يبايع المودّة ، القندوزي : ج ٢ ص ٣١٥ ح ٩٠٨ .

(٢) نقلا عن فتح الباري : ج ١٣ ص ١٨٣ .

(٣) شرح صحيح الترمذي : ج ٩ ص ٦٨ .

أهل الأرض^(١) .

٨ . قد افترضت نصوص الاثني عشر أن أولئك الخلفاء (كلّهم يعمل بالهدى ودين الحق) ، كما فهم هذا المعنى أيضا ابن كثير في تفسيره عندما قال : (ومعنى هذا الحديث البشارة بوجود اثني عشر خليفة صالحاً يقيم الحق ، ويعدل فيهم)^(٢) ، ولا يجد المتتبع تفسيراً واحداً من التفاسير لهذا الحديث ، يجمع فيه اثني عشر خليفة كلّهم يعمل بالهدى ودين الحق ، خصوصاً مع ما ذكرناه من وجوب كون أولئك الخلفاء سلسلة متكاملة ، ومتناسقة ومتوالية زماناً ، وهذا ما يثبت لنا عدم مصداقية أي تطبيق واقعي للحديث ، سوى أهل البيت عليهم السلام ، الذين جعلهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هداة مهديين من بعده ، وأمر بالتمسك بهديهم ، وجعلهم عدلاً للقرآن الكريم لا يفترقان حتى يردا عليه الحوض .

٩ . من الخصائص المهمة التي تضمّنتها أحاديث الاثني عشر قيمومية أولئك الخلفاء على الدين والأمة (اثنا عشر قيما) ، ولا شك أن القيمومية تستدعي الرقابة والوصاية على الدين ، وعلى الأمة الإسلامية ، وهذا المعنى لم يُدّع لأحد ، ولا ادّعاه غير أهل البيت عليهم السلام ، وهذا هو مقتضى كونهم عدلاً للقرآن الكريم ، وأيضاً مقتضى قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : (في كل خلوف من أمتي عدول من أهل بيتي ينفون عن هذا الدين تحريف الضالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين ، ألا وإن أئمتكم وفدكم إلى الله عز وجل ، فانظروا من

(١) شواهد التنزيل ، الحاكم الحسكاني : ج ١ ص ٤٢٦ ؛ ذخائر العقبى ، الطبري : ص ١٧ ؛ انظر : المستدرک : الحاكم : ج ٢ ص ٤٤٨ ؛ قال فيه : صحيح الإسناد ولم يخرجاه ؛ تاريخ مدينة دمشق : ج ٤٠ ص ٢٠ ؛ النزاع والتخاصم : المقرئ : ص ١٣٢ ؛ وغيرها .

(٢) تفسير ابن كثير : ج ٢ ص ٣٤ .

توفدون (١) .

١٠ . إنّ الصخب ، واللغط ، والضجة المفتعلة ، وقيام القوم وقعودهم ، وتصميتهم لجابر والحاضرين يثير الانتباه ، ويستدعي الريب ، ويكشف أنّ في الأمر شيئاً ، لا يريد القوم وصوله إلى مسامع الحاضرين ، ولم تكن هذه الحادثة فريدة نوعها ، بل فعل ذلك القوم أيضاً عندما ضجّوا ، وتنازعوا عند رسول الله ﷺ حينما قال : (اتوني بدواة وكشف أكتب لكم كتابا لن تضلّوا بعدي أبدا) ، فوقعت حينها الضجة المفتعلة ، حتى قال بعضهم : إنّ النبي ليهجر ، وليس ذلك إلّا للحرص على الخلافة ، وطمعا بالملك والسلطان والإمارة . وهو الذي قد أخبر عنه رسول الله ﷺ عند مخاطبته لأصحابه بقوله : (إنكم ستحرصون على الإمارة ، وستكون ندامة يوم القيامة فنعم المرضعة وبئست الفاطمة) (٢) .

١١ . حديث ابن مسعود المتقدم ، يكشف عن أنّ الصحابة هم الذين سألوا رسول الله ﷺ عن الخلفاء من بعده ، وهذا يلفت النظر إلى نقطتين :

الأولى : أنّه ليس من المنطقي أن يسأل الصحابة رسول الله ﷺ عن الأمراء الذين يتسلطون على رقاب الناس بالقهر والغلبة ، وهو ذلك الرسول العظيم الذي ختم الرسالات فلا نبي بعده . إذن لا بد أن يكون السؤال عن الخلفاء الذين نصبهم رسول الله ﷺ من بعده ، وهم أهل بيته ﷺ بنص حديث الغدير وحديث الثقلين وغيرهما ، وهذا ديدن وطريقة اعتادها الصحابة آنذاك ، فقد سألوأبا بكر وعمر عن الذي يلي الأمر من بعدهما .

(١) الصواعق المحرقة : ٢٣١ .

(٢) صحيح البخاري : ج ٤ ص ٣٥٥ ح ٧١٤٨ ؛ صحيح ابن حبان : ج ١٠ ص ٣٣٤ ؛ وغيرهما من المصادر الكثيرة .

الثانية : أن النبي ﷺ أراد من الإمرة والخلافة من يكون مؤهلاً ومستحقاً لها ، فلا معنى لحمل الحديث على أمثال معاوية ويزيد ومروان والوليد وأمثالهم ، الذين عاشوا في الأرض فساداً ، ولعبوا بمقدّرات الأمة الإسلامية بما شاءوا ورغبوا ، فالمراد من الخليفة هو مَنْ يستمد سلطته من الشارع الأقدس ، ومن أجل ذلك ذكر شارح سنن أبي داود في شرحه (عون المعبود) أن : (السبيل في هذا الحديث ، وما يتعقّبه في هذا المعنى أن يحمل على المقسطين منهم ، فإنّهم هم المستحقون لاسم الخليفة على الحقيقة)^(١) .

١٢ . بعد أن صدع رسول الله ﷺ في حجة الوداع بذكر الخلفاء من بعده ، وأنهم اثنا عشر خليفة ، كلّهم من قريش ومن بني هاشم ، وكلّهم يعمل بالهدى ودين الحق ، لم يكتف بذلك . ولعلّه لما حصل من الضجّة واللغط المفتعل . بل قام خطيباً ، بعد رجوعه من حجة الوداع في طريقه إلى المدينة في غدير خم ، ونصّب عليّاً خليفة من بعده ، فعين أوّل خليفة من الخلفاء الاثني عشر ، وبادر بعد ذلك قائلاً : (إنّي تارك فيكم الخليفين من بعدي ، كتاب الله وعترتي أهل بيتي ، وإنّهما لن يفترقا حتى يرثي عليّ الحوض)^(٢) ، حينها عرف الناس مَنْ هم الخلفاء بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فأتم بذلك الحجة على الخلق ، لكي يسدّ بذلك منافذ الريب والتشكيك ، ولئلاّ يقول أحد : إنّي لم أسمع ، أو خفي عليّ ، أو صمّنيها ، أو صمّنتيها الناس !! .

(١) عون المعبود : ج ١١ ص ٢٤٥ .

(٢) المصنف ، أبي شيبة الكوفي : ج ٦ ص ٣٠٩ ، كتاب السنّة ، عمرو بن أبي عاصم : ص ٣٣٧ ح ٧٥٤ ص ٦٢٩ ح ١٥٤٩ ؛ مسند أحمد : ج ٥ ص ١٨٢ ؛ المعجم الكبير : ج ٥ ص ١٥٣ ح ٤٩٢١ ص ١٥٤ ح ٤٩٢٢ ؛ مجمع الزوائد : ج ١ ص ١٧٠ قال الهيثمي : (رواه الطبراني ورجاله ثقات) ، وكذا في ج ٩ ص ١٦٢ ، وقال في ص ١٦٣ : (رواه أحمد وإسناده جيد) ؛ الجامع الصغير ، السيوطي : ج ١ ص ٤٠٢ ح ٢٦٣١ ؛ الدر المنثور : ج ٢ ص ٢٨٥ .

١٣ . ما ورد من الأحاديث المتضافرة التي نصّت على إمامة أهل البيت عليهم السلام ، والتي تناولت الأئمة الاثني عشر بذكر أسمائهم على نحو التفصيل ، وهي كثيرة جداً نكتفي بذكر بعضها :

١ . ما جاء في فرائد السمطين للحموي المصري ^(١) : (عن مجاهد عن ابن عباس قال : قدم يهودي على رسول الله صلّى الله عليه وآله يقال له : نعثل ، فقال : يا محمد إني أسألك عن أشياء . إلى أن قال . : فأخبرني عن وصيّك من هو ؟ ، فما من نبي إلا وله وصي ، وإنّ نبينا موسى بن عمران أوصى إلى يوشع بن نون ، فقال : نعم ، إنّ وصي وال خليفة من بعدي علي بن أبي طالب عليه السلام ، وبعده سبطاي : الحسن ثم الحسين ، يتلوه تسعة من صلب الحسين أئمة أبرار ، قال : يا محمد فسمّهم لي ؟

قال : نعم ، إذا مضى الحسين فابنه علي ، فإذا مضى علي فابنه محمد ، فإذا مضى محمد فابنه جعفر ، فإذا مضى جعفر فابنه موسى ، فإذا مضى موسى فابنه علي ، فإذا مضى علي فابنه محمد ، ثم ابنه علي ، ثم ابنه الحسن ، ثم الحجّة ابن الحسن ، أئمة عدد نقباء بني اسرائيل ، فهذه اثنا عشر) ^(٢) .

٢ . ونقل الحموي أيضاً في فرائده : عن رسول الله صلّى الله عليه وآله قال : (أيّها الناس

(١) أطرى عليه الذهبي ت / ٧٤٨ هـ في تذكرة الحفاظ قال : الإمام المحدث الأوحّد الأكمّل فخر الإسلام صدر الدين ، إبراهيم بن محمد بن المؤيد بن حمويه الخراساني الجويني شيخ الصوفية .. كان شديد الاعتناء بالرواية وتحصيل الاجزاء ، حسن القراءة مليح الشكل مهيباً ديناً صالحاً . مات سنة اثنتين وعشرين وسبع مائة . تذكرة الحفاظ ، الذهبي : ج ٤ ص ١٥٠٦ .

(٢) فرائد السمطين ، الحموي : ج ٢ ص ١٣٣ ص ١٣٤ ح ٤٣١ ، وبنفس الألفاظ ما جاء في ينابيع المودة للقندوزي ، ج ٣ ص ٢٨٢ .

إن الله عز وجل أمرني أن أنصب لكم إمامكم والقائم فيكم بعدي ووصيي وخليفتي ... ولكن أوصيائي منهم : أولهم أخي ، ووزير ، ووارثي ، وخليفتي في أمّتي ، وولي كل مؤمن بعدي ، هو أولهم ثم ابني الحسن ، ثم ابني الحسين ، ثم التسعة من ولد الحسين واحداً بعد واحد حتى يردوا عليّ الحوض ... (١) . وهكذا ينقل الحموي ذلك في مواطن عديدة ، وروايات عديدة وبطرق مختلفة ؛ فراجع .

٣ . الحافظ أبو محمد بن أبي الفوارس في كتابه (الأربعين) (٢) .

كذلك أخرج ذكر الخلفاء من أهل بيت النبي ﷺ بأسمائهم .

٤ . العلامة أبو مؤيد موفق بن أحمد المتوفى (سنة ٥٦٨) في كتابه (مقتل الحسين) : ذكر الخلفاء أيضاً بأسمائهم المتقدمة (٣) .

٥ . العلامة فاضل الدين محمد بن محمد بن إسحاق الحموي الخراساني في (منهاج الفضلين) (٤) .

٦ . كذلك الحموي في (درر السمطين) (٥) .

٧ . العلامة الشيخ إبراهيم بن سليمان في كتاب (المحجة على ما في

(١) فرائد السمطين ، الحموي ، السمط الأول : ج ١ ص ٣١٥ . ٣١٨ ح ٢٥٠ .

(٢) شرح إحقاق الحق للسيد المرعشي : ج ١٣ ص ٥٩ ؛ نقلاً عن كتاب الأربعين ، ابن أبي الفوارس : ص ٣٨ .

(٣) مقتل الحسين ، الخوارزمي : ص ١٤٦ . ١٤٧ .

(٤) شرح إحقاق الحق للسيد المرعشي : ج ١٣ ص ٦٨ ؛ نقلاً عن كتاب منهاج الفضلين ، الحموي : ص ٢٣٩ .

(٥) شرح إحقاق الحق ، السيد المرعشي النجفي : ج ٤ ص ٩٣ . ٩٤ ؛ نقلاً عن كتاب درر السمطين ، الحموي : ص ٧٢٢ .

ينابيع المودة^(١) ، أيضاً ذكرهم بأسمائهم عن رسول الله ﷺ .

٨ . العلامة المولى محمد صالح الكشفي الحنفي الترمذي ، في كتابه (المناقب الرضوية)^(٢) .

إلى غير ذلك من الروايات المتضاربة التي تؤكد هذا المعنى .

وعلى ضوء ما سلف ، يتحصّل أنّ العترة الطاهرة يمثلون امتداداً طبيعياً لحركة الرسول الأكرم ﷺ في جميع أبعاد الحياة ، وقد فرضوا شخصيتهم رغم أنف الأعداء ، وقد أجمعت الأمة على أعلميتهم وأهليّتهم للخلافة ، وأنهم الأسوة الحسنة ، ويعد ذلك من أفضل الأدلة لإثبات أحقيّتهم ، وأهليّتهم للإمامة والقيادة ، وعصمتهم ؛ لأنهم ﷺ جسّدوا النظرية الإسلامية على الواقع العملي ، فعندما نرصد حياة الأئمة ﷺ ، وكيف كانوا إسلاماً متحرّكاً على الأرض ، وقرآناً ناطقاً يعيش بين الناس ؛ نستنتج مباشرة أن هذا المستوى الرفيع من الأسوة والقدوة لا يمكن أن تعكسه إلا شخصيات معصومة ، استجمعت فيها الصفات التي تؤهلها لأن تكون منبع الهداية للبشرية ؛ لذا أجمعت الأمة على أنّ هؤلاء العترة لهم من الخصائص والمميزات ما لم تكن لغيرهم ، رغم ما عانوه من ظلم واضطهاد ، فهم الذين تنطبق عليهم خصوصيات الاثني عشر ، التي بينها النبي ﷺ في أحاديث الاثني عشر المتقدمة ، ولكن أصحاب المطامع آلوا على أنفسهم إلا أن يُقصوا وينحوا أهل البيت ﷺ عن مناصبهم ومراتبهم التي رتبهم الله فيها ، ولم يكتفوا بذلك بل تبادوا في تعريض أهل البيت ﷺ لألوان الظلم والاضطهاد ، والمعاملة السيئة الفظة الغليظة ، التي يندى لها الجبين ، وتعتصر منها القلوب ألماً ومرارة ، ولم يكن لهم ذنب سوى أنّهم كانوا الامتداد الإلهي لخط الرسالة ، وكانوا أمناءها ، والرقباء عليها ، فهم الثقل الموازي للقرآن الكريم .

(١) المحجة على ما في ينابيع المودة ، الشيخ هاشم بن سليمان : ص ٤٢٧ .

(٢) المناقب المرتضوية ، محمد صالح الترمذي : ص ١٢٧ .

إذن ، ينبغي علينا كمسلمين أن نستنير بنور هؤلاء الهداة الميامين ، ونكون بذلك ممتثلين لأوامر الله تعالى ورسوله ﷺ .

ومما تقلّم اتضحت الإجابة بخصوص ما قد يقال : من أن وصف عهّ الإسلام بأولئك الخلفاء الاثني عشر لا ينطبق على أئمة الشيعة ، حيث الموقع السامي والريادي والمكانة العظيمة التي يمتلكها أهل البيت عليهم السلام في نفوس الأمة الإسلامية ، وهو ما أكّده علماء السنّة في أغلب كتبهم ، وبالإضافة إلى ذلك نقول :

إنّ عزة الإسلام وصلاحه وبقائه إلى قيام الساعة ، من المهام ، والوظائف الأساسية ، التي أناط رسول الله ﷺ مسؤوليتها ، وتحقيقها بأهل البيت عليهم السلام ، كما يكشف عن ذلك حديث الثقلين وحديث الغدير ، وأتّهم عدل القرآن ، وأنّ النجاة والأمان والعزّ عند الله لا تنال إلا بالاعتصام والتمسك بهم ، ومن يتبعهم يكون عزيزاً بعزّة الله ، مرضياً عنده تعالى .

كما أخرج ذلك الحاكم في مستدركه ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : (النجوم أمان لأهل الأرض من الغرق وأهل بيتي أمان لأمتي من الاختلاف ، فإذا خالفتها قبيلة من العرب اختلّفوا فصاروا حزب إبليس)^(١) ، ثم علّق عليه قائلاً : هذا الحديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه .

(١) المستدرک ، الحاكم : ج ٣ ص ١٤٩ .

وبنفس المضمون ما ورد في عتَّة كثيرة من المصادر عن عمر : أن النبي ﷺ قال : (في كل خلوف من أمتي عدول أهل بيتي ينفون عن هذا الدين تحريف الضالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين ، ألا وإن أئمتكم وفدكم إلى الله عز وجل ، فانظروا من توفدون) (١) .

وعن عكرمة ، عن ابن عباس ، قال : قال رسول الله ﷺ : (من سرّه أن يحيا حياتي ويموت مماتي ويسكن جنّة عدن ، غرسها ربّي ، فليوال عليّاً ، وليوال وليّه ، وليقتد بالأئمة من بعدي ، فإنّهم عترتي ، خلّقوا من طيبتني ، رزقوا فهماً وعلماً ، ويل للمكذّبين بفضلهم من أمتي ، القاطعين فيهم صلتني ، لا أنالهم الله شفاعتي) (٢) .

وعن عمار بن ياسر ، قال رسول الله ﷺ : (أوصي من آمن بي وصدّقني بولاية علي بن أبي طالب ، من تولّاه فقد تولّاني ، ومن تولّاني فقد تولّى الله عز وجل ، ومن أحبّه فقد أحبّني ، ومن أحبّني فقد أحبّ الله تعالى ، ومن أبغضه فقد أبغضني ، ومن أبغضني فقد أبغض الله عز وجل) . قال الهيثمي في مجمع الزوائد : (رواه الطبراني بإسنادين أحسب فيهما جماعة ضعفاء ، وقد وثقوا) (٣) .

وقد أخرجها ابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق بطرق كثيرة (٤) .
وعن وهب بن حمزة قال : (صحبت عليّاً إلى مكة فرأيت منه بعض ما أكره ، فقلت لأن رجعت لأشكوّنك إلى رسول الله ﷺ ، فلمّا قدمت لقيت رسول الله ﷺ

(١) ذخائر العقبى ، محي الدين الطبري : ص ١٧ ؛ الصواعق المحرقة ، ابن حجر الهيتمي : ص ٣٥٢ ؛ رشفة الصادي ، أبو بكر الحضرمي : ص ١٧ ؛ ينابيع المودة ، القندوزي : ج ٢ ص ١١٤ .

(٢) تاريخ مدينة دمشق ، ابن عساكر : ج ٤٢ ص ٢٤٠ ؛ حلية الأولياء ، الحافظ أبي نعيم الأصفهاني : ج ١ ص ٨٦ .

(٣) مجمع الزوائد ، الهيثمي : ج ٩ ص ١٠٨ ، ١٠٩ .

(٤) تاريخ مدينة دمشق : ج ٤٢ ص ٢٣٩ وما بعدها .

فقلت : رأيت من علي كذا وكذا ، فقال : لا تقل هذا فهو أولى الناس بكم بعدي (١) .

وعن زيد بن أرقم قال : قال النبي ﷺ : (مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَحْيَا حَيَاتِي وَيَمُوتَ مَوْتِي وَيَسْكُنَ جَنَّةَ الْخُلْدِ الَّتِي وَعَدَنِي رَبِّي ، فَإِنَّ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ غَرَسَ قَصَبَاتَهَا بِيَدِهِ ، فَلْيَتَوَلَّ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ ، فَإِنَّهُ لَنْ يَخْرُجَكُمْ مِنْ هُدِيِّ وَلَنْ يَدْخُلَكُمْ فِي ضَلَالَةٍ) (٢) ، قد أخرجه الحاكم في المستدرک وقال عنه : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه (٣) .

إلى غير ذلك من المصادر الكثيرة ، والروايات المتواترة معني ومضموناً ، مع صحتها وصراحتها ، وأدنى ما نجيب عمّن أراد التشكيك بها : أنّها تفيد القطع واليقين ؛ لتعدد ألفاظها ، وكثرة طرقها ، والمصادر التي نقلتها ، فهي أحاديث نبوية يقوي بعضها بعضاً لإثبات مضمونها بالقطع واليقين ، وهو وجوب التمسك بولاية أهل البيت عليهم السلام وأتباع هديهم .

إذن بأهل البيت عليهم السلام وباتباعهم تتحقق عزّة الإسلام ، والحفاظ على وجوده الحقيقي وقيمه ومبادئه الأصيلة ، من التقوى والإخلاص والاستقامة والصلاح وغيرها من المعارف الروحية والقيم الأخلاقية ، وليست عزّة الإسلام بالتظاهر بالإسلام ، واتخاذ شعاراً للتسلط على رقاب الناس بالقهر والغلبة ، ومن هنا نجد أن الحكم الإسلامي على يد الظلمة تحوّل إلى ما كان عليه قبل الإسلام من كونه ملكاً عضواً لا يحمل من قيم الإسلام شيئاً .

إذن عزّة الإسلام لا تتحقق إلا في حفظ الإسلام الحقيقي ، الذي لا يتحقق إلا باتباع أهل البيت عليهم السلام .

(١) المعجم الكبير ، الطبراني : ج ٢٢ ص ١٣٥ ؛ مجمع الزوائد : ج ٩ ص ١٠٩ ؛ فيض القدير شرح الجامع الصغير : ج ٤ ص ٤٧٠ . ٤٧١ .

(٢) المعجم الكبير ، الطبراني : ج ٥ ص ١٩٤ .

(٣) المستدرک ، الحاكم : ج ٣ ص ١٣٠ .

الأمة لم تجتمع على أهل البيت ﷺ

وأما عبارة (كلهم تجتمع عليه الأمة) ، وأنّ أهل البيت ﷺ ما اجتمعت عليهم الأمة . فجوابها

:

١ . إن رواية الاثني عشر خليفة المتضمنة لعبارة (كلهم تجتمع عليه الأمة) لم ترد في الكتب الحديثية ، والمصادر السنّية ، إلّا في سنن أبي داود ومسند البزار ، ولم يخرجها إلّا بسند واحد ضعيف ، كما ذكر ذلك الألباني ، في سلسلة الأحاديث الصحيحة ، حيث قال : (وأخرجه أبو داود (٢ / ٢٠٧) من طريق إسماعيل بن أبي خالد ، عن أبيه ، عن جابر بلفظ : لا يزال هذا الدين قائماً ، حتى يكون عليكم اثنا عشر خليفة ، كلهم تجتمع عليه الأمة ، كلهم من قريش ، وأخرجه البزار (١٥٨٤ . كشف) عن أبي جحيفة نحوه ، وهذا سند ضعيف ، رجاله كلهم ثقات ، غير أبي خالد هذا ، وهو الأحمسي ... ، وقد تفرّد بهذه الجملة (كلهم تجتمع عليه الأمة) ، فهي منكّرة (^(١)) ، والتضعيف ذاته ذكره أيضاً في تعليقه على سنن أبي داود ، حيث قال بعد أن أورد الحديث : (صحيح : دون قوله) تجتمع عليه الأمة () ^(٢) .

٢ . من الشواهد التي تؤكّد عدم صحّة صدور هذه العبارة من النبي ﷺ هو عدم انطباقها على الواقع أصلاً ، حيث لم نجد شخصاً اجتمعت عليه الأمة بعد رسول الله ﷺ ، بل البعض ممّن ادعي كونه من الخلفاء الاثني عشر ، لم يجتمع عليه أغلب الأمة ، فضلاً عن جميعها .

(١) سلسلة الأحاديث الصحيحة ، الألباني : مج ١ ، ق ٢ ، ص ٧٢٠ ح ٣٧٦ .

(٢) صحيح سنن أبي داود الألباني : ج ٣ ص ١٩ ح ٤٢٧٩ .

ولذا قال ابن كثير في البداية والنهاية (فإن قال : أنا لا اعتبر إلا من اجتمعت الأمة عليه ، لزمه على هذا القول أن لا يعد علي بن أبي طالب عليه السلام ولا ابنه ؛ لأن الناس لم يجتمعوا عليهما ؛ وذلك أن أهل الشام بكماهم لم يبايعوهما ... ، ولم يقيّد بأيام مروان ، ولا ابن الزبير كأنّ الأمة لم تجتمع على واحد منهما) ^(١) .

وهذا ما اعترف به ابن حجر العسقلاني أيضا في فتح الباري ^(٢) .

٣ . إن أكثر من أدعي اجتماع الأمة عليه ، كيزيد بن معاوية ، ومروان بن الحكم ، والوليد ، و مروان الحمار ، وغيرهم لم يكن متوفراً على خصائص الخلفاء الاثني عشر ، من كونهم يعملون بالهدى ودين الحق ، وأنهم يقيمون على الدين ، والدين قائم بهم ، وغير ذلك من الصفات السامية ، التي تقدّم ذكر بعضها .

الخلاصة

١ . إنّ حديث الاثني عشر ، حقيقة صادرة عن رسول الله صلّى الله عليه وآله ، وقد تواترت الروايات من الفريقين بنقلها بألسن مختلفة ، كلّها تشير إلى مضمون واحد ، ومن هذه الروايات قوله صلّى الله عليه وآله : (لا يزال هذا الأمر صالحا حتى يكون اثنا عشر أميرا) ^(٣) .

(١) البداية والنهاية ، ابن كثير : ج ٦ ص ٢٨٠ .

(٢) فتح الباري : ج ١٣ ص ١٨٢ .

(٣) مسند أحمد : ج ٥ ص ٩٧ ص ١٠٧ ؛ المستدرک ، الحاكم النيسابوري : ج ٣ ص ٦١٨ ؛ انظر : مجمع الزوائد ، الهيثمي : ج ٥ ص ١٩٠ وقد صحّحه .

٢ . إنّ أهل السنّة لم يتمكّنوا أن يقدّموا تفسيراً واقعياً لحقيقة الاثني عشر خليفة ، وإنّ تفسيراتهم المضطربة والمتناقضة فيما بينها خير شاهد على عجزهم عن فهمها وتفسيرها ، على الرغم ممّا ارتكبه من تكلف ظاهر على حدّ تعبير بعضهم ، لا سيّما وأنّ البعض^(١) قد أوكل تفسير حديث الاثني عشر إلى الله تعالى بعد أن عجز عن تفسيره تفسيراً صحيحاً .

٣ . إنّ الخصائص والمميزات التي تحملها أحاديث الاثني عشر ، لا تنطبق في الواقع الخارجي إلّا على أهل البيت ﷺ ، فمثل صفة (صلاح أمر الأئمة والناس بهم) و (كلّهم يعمل بالهدى ودين الحق) و (إذا هلكوا ماجت الأرض بأهلها) ، ونحوها ، لا تنسجم ولا تنطبق إلّا على عترة أهل البيت ﷺ ، فضلاً عمّا يحمله أهل البيت ﷺ من خصائص ومميزات استثنائية ، وما يحملونه من مؤهلات علمية وعملية بإجماع أهل العلم ، وعلى جميع المستويات الفكرية والروحية ونحوها ، كل هذا يؤكّد ويدعم كون حديث الاثني عشر لا يمكن انطباقه إلّا على أهل البيت ﷺ .

(١) شرح صحيح مسلم ، النووي : ج ١٢ ص ٢٠٣ .

الفصل الثالث: غيبة الإمام المهدي (عجل الله تعالى فرجه الشريف)

الشبهة :

- ١ . ما الفائدة من وجود إمام غائب ؟
- ٢ . إنّ الحجّة عند الشيعة لا تقوم إلّا بإمام ، فكيف يترك الإمامة ويغيب ؟

الجواب :

قبل البدء ينبغي ذكر تمهيد مختصر له مدخلية في الإجابة .

تمهيد :

إن الشريعة التي جاء بها الدين الإسلامي ما هي . في مجملها ، وحقيقتها ، وبكل جوانبها . إلّا خطة إلهية أعدت بإحكام ، ووُضعت من أجل ترشيد المجتمع البشري نحو الأصلح والأقوم ، وبلوغ السعادة في الدارين .

وقد وعد الله تعالى البشرية . التي عانت طوال حياتها من الظلم ، والجور . أن يسودها العدل والأمان في الأرض .

قال تعالى : (لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ) ^(١) .

وقال تعالى أيضا : (وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ ° وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْهَادِينَ) ^(٢) .

إلا أن تحقق هذا الهدف على أرض الواقع يتوقّف على توفر شرائطه ، التي شاء الله عز وجل بحكمته أن تكون من طرقها الطبيعية ، وضمن ما هو المألوف ، لا بشكل إعجازي وخارق لما هو المعتاد .

(١) التوبة : ٣٣ .

(٢) القصص : ٥ .

وحيث إن الله تعالى . لحكمته ولطفه بعباده . قد نصّب أولياء هداة معصومين ، يمثّلون امتداداً طبعياً للرسالة المحمّدية ، فهم أمناء الوحي والرسالة ، وحجّة الله على العباد ، وهم الأئمة الاثنا عشر عليهم السلام بعد رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم ، أوّلهم الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام ، وآخرهم الإمام المهدي عليه السلام ، وقد ثبت ذلك مسبقاً ، بمقتضى عدد وافر من الآيات القرآنية ، كآية الولاية ، وآية أولي الأمر ، وآية التطهير ، وآيات البلاغ في الغدير ، وآية المودّة في القرى ^(١) وغيرها ، مضافاً إلى عدد كبير جداً من الأحاديث النبويّة التي رواها أصحاب الصحاح من أهل السنّة ، كحديث الثقلين المتواتر الذي مفاده أنّ أهل البيت عليهم السلام لن يفترقوا عن القرآن حتى يردوا على رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم الحوض ^(٢) ، فكما أنّ القرآن باقٍ إلى يوم القيامة كذلك أهل البيت عليهم السلام ، وكحديث الخلفاء الاثني عشر (كلّهم من قريش) ^(٣) ، وحديث السفينة ^(٤) ، وأهل بيتي عليهم السلام أمان لأهل الأرض ، فإذا ذهب أهل بيتي ذهب أهل الأرض ^(٥) وأتاهم ما يوعدون ، وغير ذلك من الأحاديث الدالّة على بقاء الإمامة الإلهية ، واستمرارها في الأرض .

(١) الآيات : المائدة : ٥٥ ، النساء : ٥٩ ، الأحزاب : ٣٣ ، المائدة : ٦٧ .

(٢) السنن الكبرى ، النسائي : ج ٥ ص ٤٥ ص ١٣٠ ؛ خصائص أمير المؤمنين : النسائي : ص ٩٣ ؛ المعجم الصغير ، الطبراني : ج ١ ص ١٣١ ص ١٣٥ .

(٣) مسند أحمد ، أحمد بن حنبل : ج ٥ ص ٨٧ - ٨٨ .

(٤) مجمع الزوائد : الهيثمي ، ج ٩ ص ١٦٨ ، المعجم الأوسط ، الطبراني : ج ٦ ص ٨٥ .

(٥) شواهد التنزيل ، الحسكاني : ج ١ ص ٤٢٦ ، ذخائر العقبى ، الطبري : ص ١٧ .

وقد قال رسول الله ﷺ : (إِنَّ خَلْفَائِي ، وَأَوْصِيَائِي وَحُجَجَ اللَّهِ عَلَى الْخَلْقِ بَعْدِي ، الْإِثْنَا عَشَرَ ، أُولَئِهِمْ عَلَيَّ ، وَآخِرُهُمْ وَلَدِي الْمَهْدِي) (١) .

وشاءت الإرادة الإلهية أن يكون الإمام الثاني عشر من أئمة أهل البيت عليه السلام . الذي يمثل الحلقة الأخيرة من سلسلة الأئمة الهداة . مصلحاً للبشرية ، وتحقيقاً للهدف النهائي ، والثمرة الكبيرة والمرجوة من رسالات السماء وبعث الأنبياء ، قال تعالى : (لَقَدْ رَأَيْنَا رَسُولَنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَنَزَّلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَلَمَّا نَزَلَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَنَزَّلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ سَبَأٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَزِيزُ) (٢) .

إذن فلا بد . بحسب التخطيط الإلهي . من إقامة العدل ، والسلام في العالم ، بعد انتشار الظلم والجور والفساد في ربوع الأرض وأرجائها ، وهو ما نشاهده ونراه بالحس والعيان في كل حذب وصوب ، وهذا ما يتطابق مع ما تنبأ به رسول الله ﷺ بقوله : (تَمْلَأُ الْأَرْضُ ظُلْماً وَجَوْرًا ، ثُمَّ يَخْرُجُ رَجُلٌ مِنْ عَتْرَتِي ، يَمْلِكُ سِعَاً أَوْ تِسْعَاً ، فَيَمْلَأُ الْأَرْضَ قِسْطًا وَعَدْلًا) (٣) ، فكما أنَّ الأرض مُلئت وسُئلاً بالجور والفساد والظلم ، لابد لها من يوم تُملأ فيه عدلاً وقسطاً ، على يد الإمام المهدي المنتظر (عجل الله تعالى فرجه الشريف) .

(١) ينابيع المودة ، القندوزي الحنفي : ج ٣ ص ٢٩٥ .

(٢) الحديد : ٢٥ .

(٣) سنن أبي داود ، السجستاني : ج ٤ ص ٧١٢ ح ٤٢٧٦ ؛ مسند أحمد ، أحمد بن حنبل : ج ٣ ص ٢٨ ص ٣٦ ص ٧٠ ؛ المستدرک الحاكم : ج ٤ ص ٥٥٧ ؛ وانظر مجمع الزوائد : الهيثمي : ج ٧ ص ٣١٤ ، وقال فيه : (رواه الترمذي وغيره باختصار ، رواه أحمد بأسانيد ، وأبو يعلى باختصار ، ورجاهما ثقات) ؛ وانظر : المصنف : الصنعاني : ج ١١ ص ٣٧٢ . ٣٧٣ .

إلا أن النقطة الجديرة بالذكر هي أن تحقق هذا الهدف ، وهو إقامة العدل والقسط في الأرض ، يتوقف على توفر شرائطه التي أراد الله تعالى بحكمته أن تكون من الطريق الطبيعي لا الإعجازي ، وهذا ما جرت عليه السنن الإلهية في هذا العالم ، فقد قال تبارك وتعالى : (لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ)^(١) ، وقال تعالى أيضاً : (تِلْكَ أَمْثَلُ مَا كَانَ يُدْعَىٰ مِن دُونِ اللَّهِ مِن قَبْلِهِ يَدْعُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ)^(٢) ، وقال تعالى : (وَلِيَبْلُوَ اللَّهُ مَا فِي صُورِكُمْ وَرُوِيَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ)^(٣) ، وقال : (لِمَن لَّا يَمُدُّهُمُ دُولُهُمْ إِنَّا نَاسٌ نَّعْلِمُ اللَّهُ لَمَدِّ مِدَّتِ مِوَادِّ يَحْذَرُكُمْ اللَّهُ لَكَلَّ اللَّهُ لُؤْلُؤُ الْظَّالِمِينَ * وَلِيَمَحَّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ * لَمْ حَسِبْتُمْ أَنَّا تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهِدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمِ الصَّابِرِينَ)^(٤) ، وغير ذلك من الآيات المباركة ، التي تكشف عن أن التخطيط الإلهي لجريان السنن في هذا العالم مبني على السير الطبيعي للبشرية ، إلا في الظروف الخاصة والاستثنائية ، التي تقتضي فيها الحكمة الإلهية إنجاز الهدف والوصول إليه عن طريق الإعجاز وخرق المعتاد ، وذلك كإثبات أصل نبي الأنبياء مثلاً .

وإقامة العدل على هذه الأرض جاء ضمن ذلك الإطار ، فلكي يتحقق على أرض الواقع ويحين أجله ، لابد من اكتمال جميع شرائطه ، وعلى ضوء ذلك كانت غيبة إمامنا المهدي (عجل الله تعالى فرجه الشريف) جزءاً من هذا التخطيط والحكمة الإلهية ، من أجل أن تكتمل باقي الشرائط لظهور الحق وإقامة العدل ، تلك الشرائط التي يتحقق معظمها في أحضان الغيبة ، وهذا ما أخبر به رسول الله ﷺ في روايات عديدة من كتب الفريقين :

(١) الأنفال : ٣٧ .

(٢) الأنفال : ٤٢ .

(٣) آل عمران : ١٥٤ .

(٤) آل عمران : ١٤٠ - ١٤٢ .

منها : ما أخرجه الإربلي ، عن جابر بن عبد الله الأنصاري قال : لما أنزل الله على نبيّه ﷺ : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَطِيعُوا الرَّسُولَ وَطِيعُوا الْأَمْرَ مِنْكُمْ) ^(١) ، قلت : يا رسول الله عرفنا الله ورسوله ، فمن أولي الأمر الذين قرن الله طاعتهم بطاعتك ، فقال ﷺ : (هم خلفائي من بعدي يا جابر ، وأئمة الهدى بعدي أولهم علي بن أبي طالب ثم الحسن ثم الحسين ثم علي بن الحسين ثم محمد بن علي المعروف في التوراة بالباقر وستدركه يا جابر فإذا لقيتَه فاقرأه عني السلام ، ثم الصادق جعفر بن محمد ، ثم موسى بن جعفر ، ثم علي بن موسى ، ثم محمد بن علي ، ثم علي بن محمد ، ثم الحسن بن علي ، ثم سمّي وكنّي ، وحجّة الله في أرضه ، وبقية في عبادته محمد بن الحسن بن علي ، ذلك الذي يفتح الله عز وجلّ على يده مشارق الأرض ومغاربها ، وذلك الذي يغيب عن شيعته ، وأوليائه ، غيبة لا يثبت فيها على القول بإمامته إلا من امتحن الله قلبه للإيمان) ، فقال جابر : فقلت : يا رسول الله فهل يقع لشيعته الانتفاع به في غيبته ؟ فقال ﷺ : (أي والذي بعثني بالحق ، إنهم ليستضيئون بنوره ، وينتفعون بولايته في غيبته ، كانتفاع الناس بالشمس وإن علاها سحاب ، يا جابر هذا من مكنون سر الله ، ومخزون علم الله ، فاكتمه إلا عن أهله) ^(٢) .

وعن علي بن علي الهلالي ، عن أبيه قال : دخلت على رسول الله ﷺ في شكاته التي قبض فيها فإذا فاطمة رضي الله عنها عند رأسه . قال : فبكت حتى ارتفع صوتها ، فرفع رسول الله ﷺ طرفه إليها فقال : حبيبتي فاطمة ،

(١) النساء : ٥٩ .

(٢) ينابيع المودة ، القندوزي : ج ٣ ص ٣٩٩ .

ما الذي ييكيك ، فقالت : أخشى الضيعة بعدك ، فقال : يا حبيبتى ، أما علمت أن الله . عز وجل . اطلع إلى الأرض اطلاعة فاختار منها أباك فبعثه برسالته ، ثم أطلع إلى الأرض اطلاعه فاختار منها بعلك ، وأوحى إلي أن أنكحك إياه ، يا فاطمة ، ونحن أهل بيت قد أعطانا الله سبع خصال لم تُعط لأحد قبلنا ولا تُعطى أحدا بعدنا : أنا خاتم النبيين ، وأكرم النبيين على الله ، وأحب المخلوقين إلى الله عز وجل وأنا أبوك ، ووصي خير الأوصياء ، وأحبهم إلى الله ، وهو بعلك ، وشهيدنا خير الشهداء ، وأحبهم إلى الله ، وهو عمك حمزة بن عبد المطلب ، وعم بعلك ، ومنا من له جناحان أخضران يطير مع الملائكة في الجنة حيث شاء ، وهو ابن عم أبيك ، وأخو بعلك ، ومنا سبطا هذه الأمة ، وهما ابناك الحسن والحسين ، وهما سيّدا شباب أهل الجنة ، وأبوهما . والذي بعثني بالحق . خير منهما . يا فاطمة . والذي بعثني بالحق . إن منهما مهدي هذه الأمة إذا صارت الدنيا هرجاً ومرجاً وتظاهرت الفتن ، وتقطعت السبل ، وأغار بعضهم على بعض ، فلا كبير يرحم صغيراً ولا صغير يوقر كبيراً ، فيبعث الله عز وجل عند ذلك منهما من يفتح حصون الضلالة ، وقلوباً غلفاً يقوم بالدين آخر الزمان كما قمت به في أول الزمان ، ويملا الدنيا عدلاً كما ملئت جوراً ، يا فاطمة لا تحزني ولا تبكي ، فإن الله عز وجل أرحم بك وأرأف عليك مني ؛ وذلك لمكانك من قلبي ، وزوجك الله زوجاً ، وهو أشرف أهل بيتك حسباً وأكرمهم منصباً ، وأرحمهم بالرعية ، وأعدلهم بالسوية ، وأبصرهم بالقضية ، وقد سألت ربي عز وجل أن تكوني أوّ من يلحقني من أهل بيتي ، قال علي رضي الله عنه : فلما قبض النبي ﷺ لم تبق فاطمة رضي الله عنها بعده إلا خمسة

وسبعين يوماً حتى ألحقها الله عزَّجل به ﷺ . رواه الطبراني في الكبير والأوسط وفيه : الهيثم بن حبيب ، قال أبو حاتم : منكر الحديث وهو متهم بهذا الحديث ^(١) .

أقول : ولم يجدوا في الهيثم بن حبيب مطعناً سوى روايته لهذا الحديث في فضائل أهل البيت عليه السلام ، وله نظائر كثيرة !!

وعن أبي أيوب الأنصاري قال : قال رسول الله ﷺ لفاطمة : نبينا خير الأنبياء وهو أبوك ، وشهيدنا خير الشهداء وهو عمّ أبيك حمزة ، ومنا من له جناحان يطير بهما في الجنة حيث شاء وهو ابن عمّ أبيك جعفر ، ومنا سبطا هذه الأمة الحسن والحسين وهما ابناك ومنا المهدي .

رواه الطبراني في الصغير وفيه قيس بن الربيع وهو ضعيف وقد وثق ، وبقية رجاله ثقات ^(٢) .

ومنها : ما جاء عن جابر بن عبد الله الأنصاري أيضاً : قال : قال رسول الله ﷺ : (المهدي من ولدي ، اسمه اسمي ، وكنيته كنيتي ، أشبه الناس بي خلقاً وخلقاً ، تكون له غيبة وحيرة ، تضل فيها الأمم ، ثم يقبل كالشهاب الثاقب ، فيملأها عدلاً كما ملئت جوراً) ^(٣) .

وغير ذلك من الروايات ، الدالة على ضرورة الغيبة ، من أجل اكتمال شرائط الظهور ، وإقامة العدل والقسط ؛ وذلك من خلال تخطي البشرية لمراحل عديدة من التمحيص والفتن والحيرة ، والابتلاء .

(١) مجمع الزوائد ، الهيثمي : ج ٩ ص ١٦٥ . ١٦٦ .

(٢) المصدر نفسه : ج ٩ ص ١٦٦ .

(٣) ينابيع المودة ، القندوزي الحنفي : ج ٣ ص ٣٨٦ .

وهذا ما أقر به الألباني أيضا في سلسلة الأحاديث الصحيحة ، حيث قال : (فماذا عسى أن يفعل المهدي لو خرج اليوم ، فوجد المسلمين شيعاً وأحزاباً ، وعلمائهم . إلا القليل منهم . اتخذهم الناس رؤوساً ! ، لما استطاع أن يقيم دولة الإسلام إلا بعد أن يوحد كلمتهم ، ويجمعهم في صف واحد ، وتحت راية واحدة ، وهذا بلا شك يحتاج إلى زمن مديد ، الله أعلم به)^(١) .

هوية الغيبة

إن غيبة الإمام (عجل الله تعالى فرجه الشريف) تعني خفاء عنوانه غالباً ، وليس اختفاء شخصه عن الأنظار ، وإن كان خفاء المعنوي قد يتحقق أيضاً في بعض الأحيان ، كما أشارت إلى ذلك بعض الروايات على ما سيأتي لاحقاً ، ولكي يتضح هذا المعنى يتعين التذكير بأن الإمامة لطف من الله تعالى ، ولو لا خليفة الله في الأرض لساخت بأهلها .

دوام الإمامة واستمرارها لطف إلهي

لا شك أن النبوة وبعثة الأنبياء من أعظم الألفاظ الإلهية في حق البشرية ؛ وذلك من أجل إيصالها إلى كمالها اللائق بها ، وإلى مصالحها والأهداف التي خلقت من أجلها ، والتي لا يمكن لعقول البشر القاصرة أن تدركها أو تقف على كنهها ، فالنبوة جاءت في ضمن سياق هداية الله عز وجل للبشر وتوجيههم الوجهة التي خلُقوا من أجلها .

ومن أعظم تلك الألفاظ الإلهية بعثة نبيِّنا محمد ﷺ بالرسالة الخاتمة والدين الإسلامي ، ليظهره على الدين كله ، ولو كره المشركون .

ومما لا ينبغي الشك فيه أيضاً أنّ الإمامة ، وقيادة الأمة . في الجوانب الفكرية والدينية والسياسية . بعد رسول الله ﷺ استمرار لذلك اللطف الإلهي ، وإتمام لتلك النعمة ؛ وذلك من أجل الإبقاء والحفاظ على روح الإسلام ومعامله ، وضمان استمرارها ورشدتها ونموّها إلى قيام الساعة .

(١) سلسلة الأحاديث الصحيحة ، الألباني : ج ٤ ص ٤٢ .

فاستمرار وجود الإمام في كل زمان لطف من الله تعالى من أجل حفظ الدين وصلاحه ورفعته وعزّته ، وكذلك لأجل الحفاظ على كرامة الأمة الإسلامية ، والإبقاء على هويتها وكيانها ، فهو أمان للأمة من الهلاك والضلال والغواية ، بل هو أمان لأهل الأرض ، فإذا ذهب ذهب أهل الأرض ، ولولاه لساحت الأرض وماجت بأهلها ، وقد أكّد رسول الله ﷺ على تلك الحقيقة الخطيرة والمحورية في حياة الأمة عندما قال : (أهل بيتي أمان لأهل الأرض ، فإذا ذهب أهل بيتي ذهب أهل الأرض) ^(١) ، وقد أمرنا بالتمسك بهم في حديث الثقلين ، وأنبأ عن عدم افتراقهم عن القرآن الكريم ، حتى يردا عليه الخوض ، ثم قال ﷺ : (أذكركم الله في أهل بيتي ، أذكركم الله في أهل بيتي ، أذكركم الله في أهل بيتي) ^(٢) .

-
- (١) شواهد التنزيل ، الحاكم الحسكاني : ج ١ ص ٤٢٦ ؛ ذخائر العقبى ، محب الدين الطبري : ص ١٧ ؛ وانظر المستدرک ، الحاكم : ج ٣ ص ٤٥٧ ج ٢ ص ٤٨٨ ، حيث قال في ذيل الحديث : (صحيح الإسناد ولم يخرجاه) .
- (٢) صحيح مسلم ، مسلم : ج ٧ ص ١٢٣ ؛ مسند أحمد ، أحمد بن حنبل : ج ٤ ص ٣٦٧ ؛ سنن الدارمي ، الدارمي : ج ٢ ص ٤٣٢ ؛ سنن البيهقي ، البيهقي : ج ٢ ص ١٤٨ ؛ وغيرها من المصادر .

لو لا الحجّة لساخت الأرض بأهلها

إذن فالحجّة باقية ومستمرّة بعد رسول الله ﷺ إلى يوم القيامة ، ولو لا تلك الحجّة التي نصبها من بعده ﷺ . بأمر من الله عز وجل . لساخت الأرض بأهلها ، وقد تواتر هذا المضمون عن رسول الله ﷺ في السنة مختلفة من الروايات ، منها قوله ﷺ : (النجوم أمان لأهل السماء ، فإذا ذهب النجوم أتى أهل السماء ما يوعدون ، وأهل بيتي أمان لأهل الأرض ، فإذا ذهب أهل بيتي أتى أهل الأرض ما يوعدون) ^(١) .

مضافا إلى تأكيد أهل البيت عليهم السلام على هذه الحقيقة ، كقول أمير المؤمنين علي عليه السلام : (اللهم وإنك لا تخلي الأرض من قائم بحجّة ؛ إمّا ظاهر مشهور ، أو خائف مغمور ، لئلا تبطل حجج الله ، وبيئاته) ^(٢) .

وكذا ما أخرجه القندوزي الحنفي ، عن الحموي المصري في كتابه (فرائد السمطين) عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام ، عن جدّه علي بن الحسين عليه السلام قال : (نحن أئمة المسلمين ، وحجج الله على العالمين ، وقادة الغر المحجلين ، ونحن أمان لأهل الأرض ، كما أنّ النجوم أمان لأهل السماء ، وبنا يمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه ، وبنا ينزل الله الغيث ، وتنشر الرحمة ، وتخرج بركات الأرض ، ولولا ما على الأرض منا لساخت بأهلها .

(١) المستدرک ، الحاكم النيسابوري : ج ٢ ص ٤٤٨ ، قال الحاكم : صحيح الإسناد ولم يخرجاه ؛ شواهد التنزيل ، الحسكاني : ج ١ ص ٤٢٦ ؛ تاريخ مدينة دمشق ، ابن عساکر : ج ٤٠ ص ٢٠ ؛ وانظر الجامع الصغير ، السيوطي : ج ٢ ص ٦٨٠ ، وانظر فيض القدير ، المناوي : ج ٦ ص ٣٨٧ ؛ وقال المناوي : (لكن تعدّل طرقه ربّما يصيّر حسنا) ؛ النزاع والتخاصم ، المقرئ ص ١٣٢ ، مع اختلاف في اللفظ .

(٢) تاريخ مدينة دمشق ، ابن عساکر : ج ٥٠ ص ٢٥٥ ، تاريخ اليعقوبي ، اليعقوبي : ج ٢ ص ٢٠٦ ؛ وقريب منه في تذكرة الحفاظ ، الذهبي : ج ١ ص ١٢ ، نزهة الناظر وتنبیه الخاطر ، الحلواني : ص ٥٧ ، كنز العمال ، المتقي الهندي : ج ١٠ ص ٢٦٣ ، (أخرجها عن ابن الأثير في المصاحف ، والمرهبي في العلم ونصر في الحجّة) ، المعيار والموازنة ، أبو جعفر الإسكافي : ص ٨١ ، مناقب أمير المؤمنين : محمد بن سليمان القاضي : ج ٢ ص ٢٧٥ ، دستور معالم الحكم : ابن سلامة : ص ٨٤ ، وقريب منه في ينابيع المودة : القندوزي الحنفي : ج ١ ص ٧٥ .

ثم قال : ولم تخل الأرض منذ خلق الله الأرض من حجة فيها ؛ إمّا ظاهر مشهور ، أو غائب مستور ، ولا تخلو الأرض إلى أن تقوم الساعة من حجة فيها ، ولو لا ذلك لم يعبد الله (١) .

قال سليمان الأعمش : فقلت ، لجعفر الصادق عليه السلام : فكيف ينتفع الناس بالحجة الغائب المستور ؟ قال : (كما ينتفعون بالشمس إذا سترها سحاب) (٢) ، فنجد أنّ الإمام زين العابدين عليه السلام يشير بقوله هذا إلى ما ذكره جدّه رسول الله ﷺ ، بقوله : (في كل خلوف من أمتي عدول من أهل بيتي ، ينفون عن هذا الدين تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين ، ألا وإنّ أئمتكم وفدكم إلى الله عز وجل ، فانظروا بمن توفدون) (٣) ، وقوله ﷺ المتقدم : (أهل بيتي أمان لأهل الأرض ، فإذا ذهب أهل بيتي ذهب أهل الأرض) (٤) . وأولئك العدول من أهل بيته . الذين هم أمان لأهل الأرض . هم الاثنا عشر خليفة الذين نصبهم خلفاء من بعده ، وجعلهم قِيَمِينَ على هذا الدين ، وقال ﷺ

(١) ينابيع المودة ، القندوزي : ج ١ ص ٧٥ وج ٣ ص ٣٦٠ . ٣٦١ .

(٢) المصدر نفسه : ج ١ ص ٧٦ ج ٣ ص ٣٦١ .

(٣) الصواعق المحرقة ، ابن حجر الهيتمي ، باب الأمان ببقائهم : ص ٣٥٢ ؛ ذخائر العقبى ، محب الدين الطبري : ص ١٧ ؛ ينابيع المودة ، القندوزي : ج ٢ ص ١١٤ .

(٤) المستدرك على الصحيحين ، الحاكم : ج ٢ ص ٤٤٨ ؛ قال فيه : صحيح الإسناد ولم يخرجاه ؛ شواهد التنزيل ، الحسكاني : ج ١ ص ٤٢٦ ، ذخائر العقبى ، الطبري : ص ١٧ ، ونحو النزاع والتخاصم ، المقرئ : ص ١٣٢ .

في حَقِّهم : (إذا هلكوا ماجت الأرض بأهلها) ^(١) .

إذن ، لابد في كل زمان من إمام عادل ، معصوم ، لا يفترق عن القرآن ، من أهل بيت النبي ﷺ ، يكون أماناً لأهل الأرض ، به تتحقق عزّة الإسلام وصلاح الأُمة .

الغيبة لطف إلهي

أمّا في زماننا هذا ، فإنّ الإمام المهدي (عجل الله تعالى فرجه الشريف) من أهل البيت هو خليفة الله في أرضه ، كما هو واضح من الروايات المستفيضة عن الرسول ﷺ ، منها قوله : (فإن فيها خليفة الله المهدي) ^(٢) ؛ ولذا نجد المناوي في كتابه (فيض القدير) في ذيل هذه الرواية يشير إلى أن الإمام المهدي هو الإنسان الكامل ، وهو خليفة الله في أرضه ، حيث قال : (فإن قلت ما حكمة إضافته إلى الله ، وهلاّ قال الخليفة ؟ قلت : هو إشارة إلى أنّه إنسان كامل قد تجلّى عن الرذائل ، وتجلّى بالفضائل ، ومحل الاجتهاد والفتوة ، بحيث لم يفته إلّا مقام النبوة) ^(٣) .

إلّا أنّ الأمر المهم الذي ينبغي الالتفات إليه ، هو أنّه ﷺ غائب مستور ، إذ إنّ الإمام المهدي ﷺ يمتاز عن بقية آبائه ﷺ بخصوصية إضافية ، وهي أنّ الإرادة الإلهية شاءت أن يقام العدل في هذه الأرض على يده المباركة ، وشاءت أيضاً أن لا يكون قيام العدل إلّا في ضمن الشروط الطبيعية ، لا بالطريق الإعجازي . كما تقلّم . وحيث إن شرائط الظهور وإقامة العدل . من طرقها الطبيعية التي أرادها الله تعالى لها . غير متوفرة إلى يومنا الحاضر ، فلا بد من استمرار الغيبة ، والخفاء حتى توفّر شرائط الظهور ويأذن الله عزّ وجلّ بالظهور ، هذا من جهة .

(١) كنز العمال ، المتقي الهندي : ج ١٢ ص ٣٤ ، المعجم الكبير : الطبراني : ج ٢ ص ١٩٦ (بألفاظ أخرى) .

(٢) مسند أحمد ، أحمد بن حنبل ، ج ٥ ص ٢٧٧ ، ونحوه في المستدرک على الصحيحين ، الحاكم النيسابوري : ج ٤ ص ٤٦٤ ؛ الجامع الصغير ، السيوطي : ج ١ ص ١٠٠ ح ٦٤٨ .

(٣) فيض القدير شرح الجامع الصغير ، المناوي : ج ١ ص ٤٦٦ ح ٦٤٨ .

ومن جهة أخرى إن وجود الإمام المهدي عليه السلام ظاهراً بين الناس يجعله عرضة للقتل . كما سيأتي .
ومن هنا كانت الغيبة للإمام ، وحفظه من كيد الأعداء ، لطفاً من الله تعالى بعباده ، من أجل تحقيق
الهدف الإلهي وثمره الأديان بإقامة العدل والقسط في الأرض ، كما قال الله تعالى : (لَقَدْ رَأَوْا سَلْنَا رُسُلَنَا
بِالْبَيِّنَاتِ وَنَزَّلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَلَمَّا يَزُنْ لِيُقُومِ النَّاسُ بِالْقِسْطِ) ^(١) .
ومما تَقَلَّمَ يتبين أن غيبة الإمام والحجّة (عجل الله تعالى فرجه الشريف) إنما هي حالة استثنائية في
حياة البشرية ، وبالأخص في حياة الأمة الإسلامية . لأنّ الحالة الطبيعية هي وجوده بين أشياعه وأتباعه
يتعاطى معهم بشكل معلن ومباشر . وذلك من أجل الحفاظ عليه ، وادّخاره لذلك اليوم الموعود .

حقيقة الغيبة : خفاء الهوية والعنوان لإخفاء الشخصية

لا شك أنّ الحالات الاستثنائية يقتصر فيها على ما ترتفع به الضرورة ، وحيث إنّ الضرورة هي
احتجابه عليه السلام عن الناس ، بما يوجب نجاته والمحافظة عليه من براثن الظلم والعدوان ، فمقدار الغيبة
حينئذ يقتصر فيه على خفاء العنوان ، واستتار الهوية ليس أكثر ، وإن كانت الضرورة قد تقتضي خفاء
المعنون أيضاً على ما أشارت إليه بعض الروايات ؛ لأنّ هذا المقدار من الغيبة كاف لرفع حالة الاستثناء
، فهو (عجل الله تعالى فرجه الشريف) موجود بشخصه الكريم في وسط الناس ، وليست غيبته باختفاء
جسمه عن الأنظار ، كاختفاء الجن ، أو الملائكة أو غير ذلك ، بل إنّ الناس يرون الإمام المهدي عليه السلام
بشخصه المبارك ، ولكن من دون أن يكونوا عارفين له أو ملتفتين إلى حقيقته وشخصه وهويته ، وهذا
ما نصّت عليه جملة من الروايات :

(١) الحديد : ٢٥ .

منها : ما ورد عن الإمام علي عليه السلام ، حيث قال : (إذا غاب المتغيّب من ولدي عن عيون الناس ، وماج الناس بفقده ، أو بقتله ، أو بموته ، اطلعت الفتنة ، ونزلت البليّة ... فو رب علي إن حجتّها عليها قائمة ، ماشية في طرقها ، داخلّة في دورها وقصورها ، جوّالة في شرق هذه الأرض وغربها ، تسمع الكلام ، وتسلم على الجماعة ، ترى ولا تُرى ، إلى الوقت والوعد ، ونداء المنادي من السماء ، ألا ذلك يوم فيه سرور ولد علي وشيعته) ^(١) وهذه الرواية أكّدت على خفاء العنوان كما هو واضح وإن أشارت في الأثناء إلى خفاء العنوان والمعنون معا أيضا في بعض الأحيان .

ومنها : ما جاء عن الإمام الصادق عليه السلام ، حيث قال : (فما تنكر هذه الأُمّة أن يكون الله يفعل بحجّته ما فعل بيوسف ، وأن يكون صاحبكم المظلوم ، المحجود حقّه ، صاحب الأمر يتردّد بينهم ، ويمشي في أسواقهم ، ويطأ فرشهم ، ولا يعرفونه ، حتى يأذن الله له أن يعرفهم نفسه ، كما أذن ليوسف ، حين قال له إخوته : (لِمَ نَكْ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ) ^(٢) ، ^(٣) .

(١) الغيبة : محمد بن إبراهيم النعماني : ص ١٤٣ .

(٢) يوسف : ٩٠ .

(٣) الغيبة ، النعماني : ص ١٦٤ .

ومنها : ما جاء أيضا عن الإمام الصادق عليه السلام ، قال : (في القائم سنة من موسى ، وسنة من يوسف ، وسنة من عيسى ، وسنة من محمد ﷺ ... وأما سنة يوسف فإن إخوته كانوا يبايعونه ، ويخاطبونه ، ولا يعرفونه) (١) .

وفي رواية أخرى : (وسنة من يوسف بالستر ، يجعل الله سبحانه بينه وبين الخلق حجاباً يرويه ، ولا يعرفونه) (٢) .

ومنها : ما ورد كذلك عن أبي عبد الله عليه السلام : (يفقد الناس إمامهم ، وإنه يشهد الموسم ، فيراهم ولا يرويه) (٣) والمراد من عدم الرؤية عدم معرفته (عجل الله تعالى فرجه الشريف) بشخصه وعنوانه ، بقرينة ما يأتي وما تقدم من الروايات .

ومنها : قول محمد بن عثمان العمري ، وهو أحد سفراء ووكلاء الإمام المهدي (عجل الله تعالى فرجه الشريف) في غيبته الصغرى : (والله إن صاحب هذا الأمر ليحضر الموسم كل سنة ، يرى الناس ويعرفهم ، ويرويه ولا يعرفونه) (٤) .

ما الفائدة من الإمام الغائب ؟

بعد الوقوف على حقيقة وهوية الغيبة ، وأنها ليست إلا استتار العنوان فقط وإن كان استتار المعنوي قد يحصل أيضاً كما أشارت إلى ذلك بعض الروايات ، وهو ما يقع لأجل تقدير بعض الظروف والضرورات المقتضية لذلك ، يتضح أنّ الإمام المهدي (عجل الله تعالى فرجه الشريف) حاضر بوجوده المبارك بين

(١) كمال الدين ، الصدوق : ص ٢٨ .

(٢) المصدر نفسه : ص ٣٥١ ؛ الخرائج والجرائح ، قطب الدين الراوندي : ج ٢ ص ٩٣٧ .

(٣) أصول الكافي ، الكليني : ج ١ ص ٣٣٨ .

(٤) من لا يحضره الفقيه ، الصدوق : ج ٢ ص ٥٢٠ ؛ كمال الدين وتقام النعمة ، الصدوق : ص ٤٤٠ ؛ الغيبة ، الطوسي : ص ٣٦٤ .

الناس ، ولكن . بعد أن أثبتنا ضرورة وجوده (عجل الله تعالى فرجه الشريف) . قد لا يمكننا أن نشعر أو نحيط بفوائد وجوده المبارك ، كما أشار إلى ذلك الرسول الأعظم ﷺ حينما سأله جابر بن عبد الله الأنصاري عن فائدة الإمام في غيبته ، فقال ﷺ : (والذي بعثني بالحق إنهم ليستضيئون بنوره ، وينتفعون بولايته في غيبته ، كانتفاع الناس بالشمس وإن علاها سبحانه) ^(١) .

ويمكن الإشارة في هذا المجال إلى بعض وجوه الانتفاع منه (عجل الله تعالى فرجه الشريف) في غيبته ، وما يقوم به من أعمال وأدوار ، نذكرها على سبيل الإجمال والاختصار :

إدارة الإمام (عجل الله تعالى فرجه الشريف) في زمن الغيبة

قد تقلّم آنفاً ضرورة وجود الحجة من أهل البيت ﷺ ، واستمراره إلى قيام الساعة ، ولولاه لساخت الأرض بأهلها ، ونضيف إلى ذلك القول : بأن الإمام (عجل الله تعالى فرجه الشريف) يمارس أدواره التي لا تتقاطع مع غيبته ، فهو ﷺ يمارس دوره الاجتماعي والسياسي بالمباشرة ، أو بتوسط مجموعة من رجال الغيب الذين يُصطلح عليهم بالأبدال ، والسيّاح الذين يديرون حكومته الخفيّة ، ويتصرفون في مقادير الأُمّة ، بل البشرية جمعاء ، من أجل درئها عن الانحراف ، وحفظها عن الزيغ والضلال ، والوقوع في الهاوية ، وهذا ما تشير إليه الروايات الواردة من طرق الفريقين :

١ - قال السيوطي في (الدر المنثور) : (وأخرج الطبراني في الأوسط بسند حسن ، عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : (لن تخلو الأرض من أربعين رجلاً ، مثل خليل الرحمان ، فيهم تسقون وبهم تنصرون ، ما مات منهم أحد إلا أبدل الله مكانه آخر) .

(١) كشف الغمّة ، الإريلي : ج ٢ ص ٣١٥ ؛ ينابيع المودة ، القندوزي الحنفي : ج ٣ ص ٢٣٩ .

وأخرج الطبراني في الكبير عن عبادة بن الصامت قال : قال رسول الله (ص) : الأبدال في أمتي ثلاثون ، بهم تقوم الأرض ، وبهم تُمطرون وبهم تُنصرون .

وأخرج أحمد في (الزهد) والخلال في (كرامات الأولياء) بسند صحيح عن ابن عباس قال : ما خلعت الأرض من بعد نوح من سبعة يدفع الله بهم عن أهل الأرض ...

وأخرج ابن جرير عن شهر بن حوشب قال : لم تبق الأرض إلا وفيها أربعة عشر ، يدفع الله بهم عن أهل الأرض ، ويخرج بركتها إلا زمن إبراهيم فإنه كان وحده .

وأخرج أحمد في الزهد عن كعب قال : لم يزل بعد نوح في الأرض أربعة عشر يدفع الله بهم العذاب

وأخرج الخلال في كرامات الأولياء عن زاذان قال : ما خلعت الأرض بعد نوح من اثني عشر فصاعدا يدفع الله بهم عن أهل الأرض ^(١) .

٢ . ما أخرجه الهيثمي ، عن عبادة بن الصامت ، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، أنه قال : (الأبدال في هذه الأمة ثلاثون ، مثل خليل الرحمان عز وجل ، كلما مات رجل أبدل الله تعالى مكانه رجل) ^(٢) ، قال الهيثمي : رواه أحمد ، ورجاله رجال الصحيح ، غير عبد الواحد بن قيس ، وقد وثقه العجلي ، وأبو زرعة ^(٣) .

(١) الدر المنثور ، السيوطي : ج ١ ص ٧٦٥ . ٧٦٦ .

(٢) مجمع الزوائد ، الهيثمي : ج ١٠ ص ٦٢ ؛ عون المعبود ، العظيم آبادي : ج ٧ ص ١٥١ ج ١١ ص ٢٥٣ ؛ كنز

العمال ، المتقي الهندي : ج ١٢ ص ١٨٦ .

(٣) مجمع الزوائد ، الهيثمي : ج ١٠ ص ٦٢ .

٣ . وعن عبادة بن الصامت أيضاً ، عن رسول الله ﷺ قال : (لا يزال في أمتي ثلاثون ، بهم تقوم الأرض ، وبهم تُمطرون ، وبهم تُنصرون) ^(١) ، قال الهيثمي : رواه الطبراني في الأوسط ، وإسناده حسن ^(٢) ، وقد صحّحه العزيزي ، والمناوي ، في شرحيهما على الجامع الصغير للسيوطي ^(٣) .

وقال المناوي في فيض القدير : (وهذه الأخبار وإن فُرض ضعفها جميعها ، لكن لا ينكر تقوي الحديث الضعيف بكثرة طرقه وتعدد مخرّجه ، إلّا جاهل بالصناعة الحديثية ، أو معاند متعصّب ، والظن به . أي بابتن تيمية . أنّه من قبيل الثاني) ^(٤) .

ثم إنّ أولئك الأبدال مستترون عن أعين الناس ، كما نصّ على ذلك الغزالي ، حيث قال : (إنّما استتر الأبدال عن أعين الناس والجمهور ؛ لأنّهم لا يطيقون النظر إلى علماء الوقت ؛ لأنّهم جهّال بالله ، وهم عند أنفسهم ، وعند الجهلاء علماء) ^(٥) .

وبعض من الأبدال من أصحاب الإمام المهدي (عجل الله تعالى فرجه الشريف) ، يخرجون معه حين يخرج ، كما أخرج ذلك نعيم بن حماد المروزي في (كتاب الفتن) عن علي بن الحسين عليه السلام قال : (إذا سمع العائد الذي بمكة بالخسف خرج مع اثني عشر ألفاً ، فيهم الأبدال) ^(٦) .

-
- (١) مجمع الزوائد ، الهيثمي : ج ١٠ ص ٦٢ . ٦٣ ؛ عون المعبود ، العظيم آبادي : ج ٨ ص ١٥١ ؛ فيض القدير شرح الجامع الصغير ، المناوي : ج ٣ ص ٢١٧ .
- (٢) مجمع الزوائد ، الهيثمي : ج ١٠ ص ٦٢ . ٦٣ .
- (٣) نقلا عن عون المعبود : ج ٨ ص ١٥٢ .
- (٤) فيض القدير ، المناوي : ج ٣ ص ٢٢٠ .
- (٥) نقلا عن فيض القدير : ج ٣ ص ٢٢٠ .
- (٦) كتاب الفتن ، المروزي : ص ٢١٥ .

إذن فهناك أوتاد وأبدال ، على درجة عالية من الإيمان والإخلاص والتضحية في سبيل الإسلام ، مستترون عن أعين الناس بخفاء عنوانهم الذي هم عليه ، يقومون بإنجاز أدوار مهمّة في الأمّة ، وقد ذكرت بعضها الروايات . كما تقدم . فلا غرابة حينئذٍ أن يستعين بهم الإمام المهدي (عجل الله تعالى فرجه الشريف) في إدارة حكومته المستترة أثناء غيبته ، لا سيّما وأنّ الروايات ذكرت أنّ بعضهم من أنصاره (عجل الله تعالى فرجه الشريف) عند ظهوره ، لإقامة دولة العدل والقسط .

ولا يخفى أنّ الإدارة الخفيّة أقوى وأشدّ تأثيراً في الواقع من الإدارة الظاهرة ، كما هو الحال في ما نشاهده اليوم من التحكّم بمقادير الأمور ، وإدارة العالم بواسطة أجهزة المخابرات التي تعمل خلف الكواليس ، وكذا ما في السياسات الماليّة الخفيّة ، كالبنك الدولي الذي بيده مقادير سياسة العالم الاقتصادية ، ولكن بصورة مبطنّة غير معلنة .

وجه التشابه بين الخضر عليه السلام والإمام المهدي (عجل الله تعالى فرجه الشريف)

وقد ضرب الله تعالى مثلاً لنا في قصة الخضر عليه السلام مثلاً لما يقوم به الإمام المهدي عليه السلام ، حيث استعرض القرآن الكريم هذه القصة في وسط سورة الكهف ، هذا مع علمنا بأنّ القرآن الكريم لم يكن هدفه من طرح هذه القصة تسطير الحكايات الخياليّة التي لا واقع لها . والعياذ بالله . فالقرآن الكريم منزّه عن ذلك .

قصة الخضر

قال تعالى : (فَوَجَدَ عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا * قَالِ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا * قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرٌ * نَحْنُ كَاشِرُونَ عَلَىٰ مَا تَرَىٰ مِنْ ظُهُورِهَا) (١) .

فقد أمر الله عز وجل نبيه موسى عليه السلام بالذهاب إلى الخضر عليه السلام المتخفي المستتر ، حيث لم يكن أحد يعلم بمكانه إلا الله وموسى ، بعد أن أعلمه الله تعالى بمحلّ تواجده ؛ وذلك للتعلم والأخذ منه ، والاطلاع على معالم الإدارة الإلهية الخفية ، التي تدار بعيداً عن أعين الناس ، فالخضر عليه السلام مع كونه مستتراً ، كما نقل ذلك النووي عن الثعلبي ، قوله : (الخضر نبي معمر على جميع الأقوال ، محبوب عن الأبصار ، يعني عن أبصار أكثر الناس) (٢) .

فهو عليه السلام منتدب من الله تبارك وتعالى لإنجاز الأوامر الإلهية ، يعمل ضمن مجموعة خاصة من البشر ، لا يعلمها أحد من عامة الناس ، وهم أوتاد الأرض وأبدالها كما تقدم ذكرهم ، وكما تصرّح بذلك الآية المباركة ، حيث جاء فيها قوله عز وجل : (عبداً مّن عبادنا) .

ثم إن الخضر عليه السلام بنفسه قد صرح لموسى عليه السلام بأن كل ما فعله لم يكن عن أمره ، وإنما هو بأمر من الله تعالى ، حيث قال : (مَا عَلَّمْتُهُنَّ مِنْ مَّيِّ لَمْ يَكُنْ لِي * لَوْ كُنْتُ مُنَاجٍ * تَسْطِيعُ عَلَيْهِ صَبْرٌ) (٣) .

إذن هذه السورة المباركة تشير إلى وجود منظومة ومجموعة من البشر على وجه الأرض ، هم عباد الله ، اختصهم لنفسه ، يقومون بإنجاز المهام الإلهية الخطيرة والخورية التي لها الأثر البالغ والمهم على مسار البشرية ،

(١) الكهف : ٦٥ - ٦٨ .

(٢) شرح صحيح مسلم ، النووي : ج ١٥ ص ١٣٦ .

(٣) الكهف : ٨٢ .

ولم يحظ موسى ﷺ من ذلك ، إلا بعد عدّة وقائع ، استعرضها القرآن الكريم ، ولم يصبر على تلقّي المزيد من تلك الأدوار والمهام ؛ ولذا قال رسول الله ﷺ : (رحمة الله علينا ، وعلى موسى ، لو لبث مع صاحبه لأبصر العجب)^(١) .

فكان الخضر ﷺ ، ومجموعة من عباد الله الصالحين يديرون هذا العالم بطور وطرار آخر ، على غير ما هو المألوف عندنا ، بحسب الأسباب الظاهرة والإدارة المعلنّة ، وهذا ما صرّح به الكثير من المفسّرين ، كالمراغي في تفسيره تبعاً للفخر الرازي وغيره ، حيث قال : (وأحكام هذا العالم مبنية على الأسباب الحقيقية الواقعة في نفس الأمر ، وهذه لا يطلع الله عليها إلاّ بعض خواصّ عباده)^(٢) . ثم إن السورة المباركة تستعرض في هذه القصّة ثلاث قضايا مهمّة وأساسية في الحياة البشرية مارسها الخضر ﷺ .

الأوّل : وهي قضية سفينة المساكين التي خرّقتها الخضر ﷺ حتى لا يغضبها الملك ، قال تعالى : (**أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَنزَلْنَاهَا فَعَرَصْنَا فِيهَا بِمِائَةِ مِائَةٍ مِّنَ الْغُلَامِ وَفَجَدَّاهُم مِّمَّنْ مُّشْرِكِينَ ثَلَاثِينَ مِّنَ النَّاسِ وَفَجَدَّاهُم مِّمَّنْ مُّشْرِكِينَ ثَلَاثِينَ مِّنَ النَّاسِ وَفَجَدَّاهُم مِّمَّنْ مُّشْرِكِينَ ثَلَاثِينَ مِّنَ النَّاسِ**)^(٣) .

فلو صادرها الملك لأثر ذلك سلبي على معيشة أولئك المساكين ، حيث كانت السفينة مصدر رزقهم ؛ لذا قال الفخر الرازي في تفسيره : (إن تلك

(١) جامع البيان ، ابن جرير الطبري : ج ١٥ : ص ٣٥٦ ؛ السنن الكبرى ، النسائي : ج ٦ : ص ٣٩١ ؛ تاريخ بغداد ، الخطيب البغدادي : ج ٦ ص ٣٩٧ ؛ تفسير القرآن العظيم : ابن كثير : ج ٣ ص ١٠٣ .
(٢) تفسير المراغي ، المراغي : ج ٦ ص ٦ ، وكذا انظر : تفسير الفخر الرازي : ج ١١ ص ١٦٠ .
(٣) الكهف : ٧٩ .

السفينة كانت لأقوام محتاجين ، متعيشين بها في البحر ، والله تعالى سّمّاهم مساكين ... (١) .
وقال المراغي في تفسيره ، حكاية عن الخضر عليه السلام : (أما فعلي ما فعلته بالسفينة ، فلأنّها كانت
لقوم ضعفاء ، لا يقدرّون على دفع الظلمة ، وكانوا يؤاجرونها ويكتسبون قوتهم منها ... وخلاصة ذلك
: إنّ السفينة كانت لقوم مساكين عجزة ، يكتسبون بها ، فأردت بما فعلت إعانتهم على ما يخافون ،
ويعجزون عن دفعه ، من غضب ملك قدامهم ، من عادته غضب السفن الصالحة) (٢) .

الثانية : قصة الغلام ، وأنه لو بقي حيّاً لكان في ذلك مفسدة لوالديه ، في دينهما ودنياهما ، و(لو
بقي كان فيه بوارهما ، واستئصالهما) (٣) ، بل قد جاء في روايات الفريقين : أن الله تعالى أبدل أبويه .
رحمة بهما . تجارية ولدت سبعين نبياً ، فالسنة الإلهية اقتضت أن لا يُرزقا تلك الجارية المباركة ، إلّا بعد
فقدانهم ذلك الغلام .

ولا يخفى ما في الدور الكبير لوجود سبعين نبياً في حياة البشر ، وهدايتهم ورقبتهم ، كما نصّت على
ذلك بعض الروايات ، فقد أخرج ابن حجر ، عن تفسير ابن الكلبي : (ولدت [أم الغلام] جارية ،
ولدت عدّة أنبياء ، فهدى الله بهم أمماً ، وقيل : علوّ من جاء من ولدها من الأنبياء سبعون نبياً) (٤) .
الثالثة : قصة إصلاح الخضر عليه السلام للجدار ؛ لأنّه لو انهار ذلك الجدار لضاع

(١) تفسير الرازي ، الفخر الرازي : ج ١١ ص ١٦١ .

(٢) تفسير المراغي ، المراغي : ج ٦ ص ٧ .

(٣) الدر المنثور ، السيوطي : ج ٥ ص ٤٢٩ .

(٤) فتح الباري ، ابن حجر : ج ٨ ص ٣٢٠ ؛ ونحوه تفسير القرطبي : ج ١١ ص ٣٧ ؛ وانظر فتح القدير ، الشوكاني ، ج
٣ ص ٣٠٦ .

مال اليتيمين اللذين كان أبوهما صالحاً ، كما في قوله تعالى : (مَّا يَكُنِ اللَّيْلُ مُرًّا بِكُلِّ الْيَتِيمِ فَتَنْهَىٰ عَنْ يَبَاسِهِمْ جُوعًا وَيَكُنِ اللَّيْلُ حَمِيقًا لِّلْيَتِيمِ فِي مَدَائِنِ الْبِلَادِ) (١) .

خصائص الحكم الإلهي

لا يخفى أن العبر والمعطيات التي ضمنتها الله تعالى في قصة الخضر عليه السلام كثيرة ومهمة جداً ، ولكن نستعرض منها ما يتعلق ببحثنا وموضوعنا ، وهي كالآتي :

١ . دوام الحاكمية الإلهية

إنَّ حاكمية الله تعالى في الأرض لا تنقطع أبداً إلى يوم القيامة ، والذي يقوم بأداء وتنفيذ حكم الله في الأرض هو خليفته في أرضه ، فخليفة الله هو الوساطة المباشرة لإجراء حاكميته تعالى . وقد جاء ذلك في قوله عز وجل : (إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً) (٢) سواء كان ذلك الخليفة رسولا أم نبيا أم وليا ووصيا من الأوصياء .

وقال تعالى أيضا : (نَايِبُ الْحُكْمِ إِلَّا اللَّهُ) (٣) .

وقال عز وجل : (إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا) (٤) .

(١) الكهف : ٨٢ .

(٢) البقرة : ٣٠ .

(٣) يوسف : ٤٠ .

(٤) النور : ٥١ .

وقال تعالى : (أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ هُوَ لِي الْأَمْرُ مِنْكُمْ) (١) .

فحاكمية الله تعالى . التي لا تقتصر على سلطته في التشريع فقط ، بل يدها مبسوطتان في كل المجالات القضائية والسياسية والاقتصادية . يجريها على أيدي خلفائه من الرسل والأنبياء والأولياء والأوصياء .

هذا وقد أرشدنا الله عز وجل في قرآنه الكريم إلى خلفائه الذين جعلهم أئمة وقادة للبشرية جمعاء ، ابتداء من آدم عليه السلام أبي البشر ، وأول خليفة لله على أرضه ، ومروراً بنوح وإبراهيم وإسحاق ويعقوب وموسى وعيسى عليه السلام ، وانتهاء برسول الله ﷺ خاتم الأنبياء ، وأوصيائه عليه السلام الهداة المهديين ، حيث قال تبارك وتعالى :

(وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ) (٢) .

(وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا هُوَ حَيُّنَا إِلَيْهِمْ فِعْلُ الْخَيْرَاتِ هُوَ قِيَامُ الصَّلَاةِ هُوَ بِنَاءُ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ) (٣) .

(وَنُرِيدُكَ نَمُنْ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً وَجَعَلْنَاهُمُ الْوَارِثِينَ) (٤) .

(هُوَ الَّذِي ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبَّهُ بِكَلِمَاتٍ فَتَمَّتَهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنْبَالُ عَصِيكَ الظَّالِمِينَ) (٥) .

ومن حصيلة هذه النصوص القرآنية وغيرها ممَّا يشاركها في المضمون ؛ يتضح أن الله عز وجل قد جعل خلفاء له في الأرض ، ينفذون حاكميته في الأرض ، ويمثلون مظهراً وتحلياً لسلطنته على الخلق .

(١) النساء : ٥٩ .

(٢) السجدة : ٢٤ .

(٣) الأنبياء : ٧٣ .

(٤) القصص : ٥ .

(٥) البقرة : ١٢٤ .

٢ . شمولية الحاكمية الإلهية

ثم إنّ الحاكمية لله تعالى شاملة لكل المجالات ، ولجميع الأمور مهما كان حجمها ، وهذا ما نلمسه واضحاً من النصوص القرآنية ، حيث نجد أن الله تبارك وتعالى هو الحاكم في جميع الأمور ، وكان النبي الأكرم ﷺ : (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرِ إِنَّا يَعْلَمُ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرٌ بِؤْرِنَكُمْ خَيْرٌ مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَعْفِرُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) (١) .

وقوله : (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ) (٢) .

وقوله : (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ) (٣) .

وقوله : (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزْوَاجَكُمْ إِن كُنْتُمْ تُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُمْ وَأُسَرِّحْكُمْ سَرَاحًا جَمِيلًا) (٤) .

وقوله : (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ ۖ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ) (٥) .

وقوله : (أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ ۖ إِنَّا قَدْ أُخْلِفْنَا إِلَىٰ يَدَيْهِمْ فَتَعَلَّامُ مَا بَالُ مَا كُنْتُمْ تُفْعَلُونَ ۚ وَمَا كُنْتُمْ تُبَلِّغُونَ رِسَالَاتَهُ

(١) الأنفال : ٧٠ .

(٢) التوبة : ٧٣ .

(٣) الأنفال : ٦٥ .

(٤) الأحزاب : ٢٨ .

(٥) التحريم : ١ .

وَلِلَّهِ يَعْصِيكُمْ مِنَ النَّاسِ (١) .

وقوله تعالى : (وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ) (٢) .

وقوله تعالى : (فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَبْهِجْ أَبْنَاءَنَا وَنَبَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ) (٣) .

وقوله تعالى : (يَا جُنُودَ اللَّهِ لَسْلُمٌ فَأْجَنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) (٤) .

وغيرها من النصوص القرآنية الأخرى .

وقد خاطب الله تعالى نبيه ﷺ في القرآن الكريم بـ (قل كذا) و (قل كذا) في أكثر من (٣٥٠) مورداً ، وكانت الأوامر الإلهية تنزل على رسول الله ﷺ في كل صغيرة وكبيرة ، بدءاً من بيته وشؤونه الخاصة ، ومروراً بقضايا الحكومة والدولة وإدارة شؤون المسلمين ومسائل الحرب وقضايا الجهاد وغيرها ، فلا يُعقل أنّ هذه الحاكمية الحية والفعالة من قبل الله تعالى تجاه قضايا الإسلام والمسلمين والتي تجري وتنفذ عن طريق خليفته المعصوم عن الخطأ ، وهو رسول الله ﷺ ، تنقطع بين ليلة وضحاها ، ويوكل الأمر إلى عامة المسلمين ، الذين يجهلون أبسط المسائل الفقهية ، فضلاً عن غيرها من القضايا المهمة في حياة المسلمين ، والبشرية بصورة عامة .

(١) المائدة : ٦٧ .

(٢) النحل : ٤٤ .

(٣) آل عمران : ٦١ .

(٤) الأنفال : ٦١ .

إذن لابد من وجود مَنْ ينفذ حاكميته تعالى بعد رسوله الأكرم ﷺ ، وذلك هو الخليفة الحق الذي يحمل مزايا الأنبياء والأوصياء والرسل ؛ ليكون قادراً على تحمل الأمانة ، وتنفيذ تلك الحاكمية بالنحو الذي أراده الله عز وجل ، منذ بدء الخلق إلى قيام الساعة ، وقد نصب رسول الله ﷺ ، بأمر من الله تعالى ذلك الخليفة من بعده ، وهم أهل بيته ، عليّ وبنوه عليهم السلام ، وهم الخلفاء الاثنا عشر ، كلهم يعمل بالهدى ودين الحق ، إذا ذهبوا ماجت الأرض بأهلها .

ثم إن هذا المعنى من الحاكمية المستمرة لله تعالى في الأرض يلتقي مع مقولة الخضر لموسى عليه السلام : (وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِ) ^(١) ، أي أنّ هذه الأفعال التي قمت بها ليست بمحض إرادتي ، بل هي بأمر من الله تعالى ، وإجراء لحاكميته .

وعلى هذا الأساس نقول : إنّ خليفة الله في الأرض ، القائم بهذا الدور في هذا العصر ، هو الإمام المهدي (عجل الله تعالى فرجه الشريف) ، فهو الذي يقوم بتنفيذ أوامر الله سبحانه وتعالى ، ولكن في الخفاء ، لأجل الحكمة والأسباب التي اقتضت ذلك ، إلى أن يأتي أمر الله سبحانه بالظهور ، وإقامة دولة العدل والقسط ، فيكون الحق معلناً ، والباطل ضامراً خاسئاً .

وقد جاء ذكر ذلك الدور الفاعل للإمام المهدي (عجل الله تعالى فرجه الشريف) في عصر الغيبة في كثير من الروايات على لسانه عليه السلام ، منها قوله عليه السلام : (فَإِنَّا نَحِيطُ عِلْمًا

(١) الكهف : ٨٢ .

بأنبائكم ولا يعزب عنباً شيء من أخباركم) ^(١) ، وقوله ﷺ : (إنا غير مهملين لمراعاتكم ، ولا ناسين لذكركم ، ولولا ذلك لنزل بكم اللأواء ، واصطلمكم الأعداء ، اتقوا الله جلّ جلاله ، وظاهرونا على انتياشكم من فتنة ، قد أنافت عليكم ، يهلك فيها من حمّ أجله ، ويحمى عنها من أدرك أمه) ^(٢) .

دور الإمام (عجل الله تعالى فرجه الشريف) في درء الفساد

من الأدوار الأساسية التي يقوم بها خليفة الله في الأرض ، هو منع البشرية من الانحدار في الهاوية ، ودور خطر استئصالها ، والإبادة التامة والشاملة لها ، سواء كان ذلك نتيجة للحروب ، أم لتفشي الظلم والجور والفساد ، وانتشار الأمراض والأوبئة وغيرها من الأمور التي تهدد البشرية بالانقراض .

وهذا المعنى أشار إليه القرآن الكريم ، عند ذكره لاعتراض الملائكة ، في معرض تعريفه للخليفة ، وذلك في قوله تعالى . حكاية عن الملائكة : (كَلُّوا تَجْعَلْ لَكُمْ مِنْ يَدَيْكُمْ كَيْدًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ) ^(٣) ، فالملائكة افترضت أنّ خليفة الله لا يفسد ، ولا يسفك الدماء ، بل هو الذي يقف حائلاً أمام ذلك ، وقد أقرهم الله تبارك وتعالى على ذلك ، وأجابهم من جهة أخرى ، حيث قال : (إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ) .

إذن أول دور من الأدوار الأساسية التي يقوم بها خليفة الله في الأرض ، هو درء الفساد ، وممانعة سفك الدماء وهذا ما يلتقي مع التصريحات الكثيرة للنبي ﷺ في هذا المجال ، كقوله ﷺ : (لا تخلوا الأرض من حجة) ، وقوله صلى الله عليه وآله وسلم : (أهل بيتي أمان لأهل الأرض ، فإذا ذهب أهل بيتي ذهب أهل الأرض) وغير ذلك من التصريحات النبوية ، التي تؤكد على أنّ من بين الأدوار الأساسية للخلفاء حفظ البشرية من الهلاك ، ومنع وقوعها في الفساد .

(١) الاحتجاج ، الطبرسي : ج ٢ ص ٣٢٣ ، الخرائج والجرائح ، قطب الدين الراوندي : ج ٢ ص ٩٠٢ .

(٢) الاحتجاج ، الطبرسي : ج ٢ ص ٣٢٣ .

(٣) البقرة : ٣٠ .

ثم إن السؤال الأساس يقع عما هو المراد بالفساد ؟ وهل يشمل كل فساد ولو كان جزئياً ؟
وفي مقام الإجابة عن ذلك نقول : ليس المراد من الفساد ما يشمل الفساد الجزئي والمقطعي ، وذلك
بمقتضى اعتراف الملائكة ، حيث إنهم لم يعترضوا على الفساد القليل ؛ لأنّ الفساد القليل يقابله الخير
الكثير ، فاعتراض الملائكة إنّما كان على الفساد المطبق ، والشامل للأرض ومن عليها ، المستأصل
للبشرية ، والموجب لاجتثاثها وهلاكها .

فدور الخليفة إذاً لا يقتصر على فئة معيّنة من الناس ، أو على المسلمين فحسب ، وإنّما هو شامل
لكل البشرية ؛ لذا قال تعالى شأنه : (**إني جاعل في الأرض**) ، وكذا قول رسول الله ﷺ : (لا
تخلو الأرض من حجة ^(١)) وقوله : (إذا هلكوا ماجت الأرض بأهلها) ، وقوله : (أهل بيتي أمان لأهل
الأرض ، فإذا ذهب أهل بيتي ذهب أهل الأرض) ، فلم يقل هلك أو ذهب المسلمون خاصة ، أو ماجت
الأرض بهم .

فالإمام المهدي (عجل الله تعالى فرجه الشريف) الذي هو خليفة الله في الأرض ، يمارس دوراً كبيراً
في حياة البشرية ، وإن لم يتقلّد الحكومة الرسمية الظاهرة ، فهو (عجل الله تعالى فرجه الشريف) كما هو
الحال في الخضر عليه السلام ، الذي هو وليّ من أولياء الله تعالى ، وعبد من عباده ، قلّده مناصب عالية
وحكومة رائدة ، يديرها بالسر والخفاء .

فقصّة الخضر عليه السلام . الذي هو عبد من مجموعة عباد جعلهم الله أوتاداً للأرض . ذكرها الله عز وجل
في قرآنه الخالد ، عظة وعبرة لنا ، وليست هي مجرّد قصة خيالية لا واقع لها ، وإنّما الغاية من هذه القصّة
هي الاعتقاد بوجود أولياء وحجج الله تعالى ، يقومون بمهام إلهية ، ويديرون دقّة الحكم الإلهي في الأرض
.

إذن ليست الغيبة بمعنى التعطيل والجمود ، كما قد يتخيلها البعض .
إذن فالإمام المهدي (عجل الله تعالى فرجه الشريف) له دور كبير في فترة غيبته .

(١) المعجم الكبير ، الطبراني : ج ٢ ص ١٩٦ ح ١٧٩٤ ؛ كنز العمال ، المتقي الهندي : ج ١٢ ص ٣٤ ح ٣٣٨٦١ ؛
وانظر : تاريخ مدينة دمشق ، ابن عساكر : ج ٥٠ ص ٢٥٥ ؛ وانظر تاريخ البعقوبي ، البعقوبي : ج ٢ ص ٢٠٦ ؛ وانظر
ينابيع المودة ، القندوزي الحنفي : ج ١ ص ٨٩ ؛ وانظر المناقب ، الخوارزمي : ص ٣٦٦ .

أضف إلى ذلك كله ، أنّ هناك أفعالاً وأفعالاً أوكل الإمام عليه السلام مهمّة القيام بها إلى من قلّدهم النيابة العامة في زمن الغيبة ، وهم العلماء والفقهاء العدول ؛ ليكونوا بذلك ممثّلين له عليه السلام ، ينوبون عنه في بعض المهام التي أوكلت إليهم ، كما ورد ذلك عنه عليه السلام ، حيث قال : (وأبّا الحوادث الواقعة فارجعوا فيها إلى رواة حديثنا ، فإنّهم حجّتي عليكم ، وأنا حجّة الله عليهم) (١) .

وقد أشار باقي الأئمّة عليهم السلام أيضاً إلى هذا الدور المهم للعلماء في عصر الغيبة الكبرى . فمثلاً . ما عن الإمام الهادي عليه السلام أنّه قال : (لولا من يبقى بعد غيبة قائمكم عليه الصلاة والسلام من العلماء الداعين إليه ، والدّائنين عن دينه بحجج الله ، المنقذين لضعفاء عباد الله من شباك إبليس ومردته ، ومن فخاخ النواصب ، لما بقي أحد إلّا ارتد عن دينه ، ولكتّهم الذين يمسكون أزقة قلوب ضعفاء الشيعة كما يمسك صاحب السفينة سكّانها ، أولئك هم الأفضلون عند الله) (٢) .

ونقتصر في هذا المجال على ما أفاده الشيخ المفيد رحمه الله ، حيث قال بعد تعرّضه لبعض مهام الغيبة : (ولا يحتاج هو عليه السلام إلى تولّي ذلك بنفسه ، كما كانت دعوة الأنبياء عليهم السلام تظهر بأتباعهم والمقرّين بحقّهم ، وينقطع العذر بما فيما ينأى عن ملتهم ومستقرهم ، ولا يحتاجون إلى قطع المسافات لذلك بأنفسهم ، وقد قامت أيضاً بأتباعهم بعد وفاتهم ... وكذلك إقامة الحدود وتنفيذ الأحكام ، وقد يتولّاها أمراء الأئمّة ، وعمّالهم دونهم ، كما كان يتولّى ذلك أمراء الأنبياء عليهم السلام وولاتهم ، ولا يخرجونهم إلى ذلك بأنفسهم ، وكذلك القول في الجهاد ، ألا ترى أنّه يقوم به الولاة من قبل الأنبياء والأئمّة دونهم ، ويستغنون عن توليه بأنفسهم ، فعلم بما ذكرناه أنّ الذي أحوج إلى وجود الإمام ، ومنع من عدمه ، ما أختص به من حفظ الشرع ، الذي لا يجوز ائتمان غيره عليه ، ومراعاة الخلق في أداء ما كلفوه

(١) الغيبة ، الطوسي : ص ٢٩١ ؛ الاحتجاج : الطبرسي : ج ٢ ص ٢٨٣ ؛ الخرائج والجرائح ، قطب الدين الراوندي : ج ٣ ص ١١١٤ .

(٢) الاحتجاج ، الطبرسي : ج ٢ ص ٢٦٠ .

من أدائه (١) .

والحاصل : إن للإمام (عجل الله تعالى فرجه الشريف) طورا آخر من أطوار الإدارة والحكم في زمن الغيبة ، وأما تنفيذ الكثير من الأمور التي تحتاج إلى إجراء بحسب ما هو الظاهر والمعلن ، فقد أوكل ذلك عليه السلام إلى العلماء والفقهاء .

خلفيات وفوائد أخرى للغيبة

أولا : حفظ شخصية الإمام (عجل الله تعالى فرجه الشريف)

من أهم فوائد غيبة الإمام (عجل الله تعالى فرجه الشريف) هي حفظ شخصيته (عجل الله تعالى فرجه الشريف) من القتل والاعتقال ؛ لأنّ هذه الأمة الإسلامية لا تعدو خطى الأمم السابقة ، كما صحّ بذلك رسول الله صلى الله عليه وآله ، وأنّ هذه الأمة ستبعب خطى الأمم السالفة ، حدو النعل ، والقدة بالقة ، وقد وقعت الغيبة لكل من إدريس وصالح وإبراهيم ويوسف عليهم السلام ، وقد اضطرّ موسى عليه السلام إلى الهرب من قومه (**فَفَرِيََ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُمْكُمْ**) (٢) ، وكذلك رفع الله عيسى عليه السلام ، عندما أراد بنو إسرائيل قتله ، قال تعالى : (**بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا**) (٣) كذلك كان رسول الله صلى الله عليه وآله يحتجب عن قومه في غار حراء فترة مديدة من الزمن ، وقد اضطر للاعتزال عنهم في الشعب ثلاث سنين ، وأخرج أحمد بن حنبل عن عكرمة قوله : مكث النبي صلى الله عليه وآله خمس عشرة سنة ، منها أربع أو

(١) مسائل عشر ، الشيخ المفيد : ص ١٠٦ . ١٠٧ .

(٢) الشعراء : ٢١ .

(٣) النساء : ١٥٨ .

خمس يدعو إلى الإسلام سرّ وهو خائف ^(١) .

فإذا كانت غيبة واحتجاب أولئك الأنبياء ﷺ لا تضر ، ولا تقدح في نبوتهم وبعثتهم للأُمم ، بل يعد ذلك من الأساليب المهمة في سبيل انجاز وتحقيق الغاية ، لا سيّما وأنّه امتثال لمشية الله تعالى وإرادته ، كذلك ما نجده في غيبة الإمام المهدي ﷺ ، إذ إن غيبته كغيبتهم ﷺ ، وظروفه كظروفهم ، من متابعته ومحاوله قتله والقضاء عليه ، بل ما نجده في حياة الإمام المهدي ﷺ من الظروف التي تستدعي الغيبة كثيرة جداً ، وفي غاية الوضوح ، حيث كانت السلطات العباسية تسعى حثيثاً للقبض عليه وقتله ، كما نص على ذلك المؤرخون والمحدثون :

منهم : ابن الصباغ المالكي ، حيث قال : (خلّف أبو محمد الحسن ابنه الحجّة القائم المنتظر لدولة الحق ، وكان قد أخفى مولده ، وستر أمره ، لصعوبة الوقت ، وشدة طلب السلطان ، وتطلّبه للشيعة ، وحبسهم ، والقبض عليهم) ^(٢) .

ومنهم : ابن أبي الفتح الإربلي في كتابه (كشف الغمّة) ، وعبارته قريبة من عبارة ابن الصباغ المتقدمة ، وينقل بالإضافة إلى ذلك رواية أحمد بن عبيد الله بن خاقان ، والي الضياع والخراج بقم ، وجاء فيها : (وخرجنا وهو على تلك الحال ، والسلطان يطلب أثر ولد الحسن بن علي اليوم ، وهو لا يجد إلى ذلك سبيلاً ، والشيعة مقيمون على أنّه مات وخلّف ولداً ، يقوم مقامه بالإمامة) ^(٣) وغيرهم كثير ؛ فراجع .

(١) كتاب العلل ، أحمد بن حنبل : ج ٢ ص ٥٩٠ ج ٣ ص ٤٢٦ ، وكذا في الدر المنثور . السيوطي ج ٥ : ص ١٠٢ ، المصنف : الصنعاني ج ٥ ص ٣٦١ .

(٢) الفصول المهمة ، ابن الصباغ المالكي : ص ١٠٩١ .

(٣) كشف الغمة ، الإربلي : ج ٣ ص ٢٠٥ .

وهذا السبب وإن كان غير مختص به دون آبائه عليه السلام ، حيث تعرّضوا للمطاردة والقتل والاغتيال ، إلا أنّ السبب الأساس الذي يقف وراء اختصاص الإمام المهدي بالغيبة دونهم عليه السلام ، هو أنّه عليه السلام مكلف بإقامة الدولة الإسلامية العالمية ، وعلى يديه يحقق الله تعالى العدل والقسط على هذه الأرض ، وبواسطته يظهر الله عزّ وجلّ الإسلام على الدين كلّ ولو كره المشركون ، فلا بد من المحافظة على وجوه المبارك لإنجاز هذه المهمة التي جعلها الله تعالى الغاية الأساسية من بعثة الأنبياء والرسل .

ولا تعني غيبته واختفاؤه (عجل الله تعالى فرجه الشريف) انتفاء إمامته ، أو تخليه عن المسؤوليات المناطة به ، بل هو الحجة القائمة لله على خلقه ، ولكن ستره الله تعالى عن خلقه خوفاً على حياته من الظالمين ، كما صرح بذلك أمير المؤمنين علي عليه السلام ، حيث قال : (اللهم بلى لا تخلو الأرض من قائم بحجة ، إما ظاهر مشهور ، وإما خائف مغمور ، لأن لا تبطل حجج الله ، وبيئاته) ^(١) ، وخائف مغمور أي خائف مختف ، وقد بيّنا سابقاً أنّ الغيبة لا تعني أنّه ناءٍ وبعيد وعدم الدور في الأمة ، وإنّما الغيبة هي إدارة الأمور والعمل بالخفاء .

ومعنى الخوف من القتل ليس ما يتبادر إلى الأذهان الساذجة ، من المعاني الأولية للخوف ؛ لأن هذا النوع من الخوف غير متصوّر في أولياء

(١) تاريخ مدينة دمشق ، ابن عساكر : ج ٥٠ ص ٢٥٥ ، وانظر تاريخ يعقوبي : ج ٢ ص ٢٠٦ ، وانظر كنز العمال : ج ١٠ ص ٢٦٣ . ٢٦٤ (أخرجها عن ابن الأنباري في المصاحف والمرهبي في العلم ونصر في الحجة) ، المعيار والموازنة ، الإسكافي : ص ٨١ ؛ مناقب أمير المؤمنين ، محمد بن سليمان القاضي : ج ٢ ص ٩٦ ؛ دستور معالم الحكم : ابن سلامة : ص ٨٤ ، ينابيع المودة ، القندوزي الحنفي : ج ١ : ص ٨٩ .

الله تعالى وحججه الذين يأنسون بالموت ولقاء الله عز وجل ، وإنما المقصود من خوف القتل هنا هو الخوف على ضياع الغرض والمهدف الإلهي الذي أنيط به ﷺ ، حيث إنّ مسؤوليته ﷺ جسيمة وعظيمة تشبه مسؤولية الرسول الأكرم ﷺ ، الذي صدع بأمر الله تعالى ، لنشر الدين على وجه الأرض ، كما قال رسول الله ﷺ : (هو رجل من عترتي ، يقاتل على سنتي ، كما قاتلت أنا على الوحي)^(١) .

فالخوف المقصود إنّما هو الخوف من استئصال الحجج الإلهية على الخلق ، كما ورد ذلك في الروايات متضافرا :

منها : ما جاء عن زرارة قال : سمعت أبا عبد الله يقول : إن للغلام غيبة قبل أن يقوم ، قال : (قلت ولم ؟ قال : يخاف ، وأومأ إلى بطنه ، ثم قال : يا زرارة وهو المنتظر ...)^(٢) .
ومنها : ما عن أبي عبد الله ﷺ أيضا قال : (للقائم غيبة قبل قيامه قلت : ي رارة لم ؟ قال : يخاف على نفسه الذبح)^(٣) .
ومنها : ما جاء عن أبي بصير قال : سمعت أبا جعفر ﷺ يقول : (في صاحب هذا الأمر أربعة ، من سنن أربعة أنبياء ... فأما من موسى : فخائف يترقب)^(٤) .

(١) كتاب الفتن ، المروزي : ص ٢٢٩ ؛ ينابيع المودة ، القندوزي : ج ٣ ص ٢٦٣ .
(٢) الكافي ، الكليني : ج ١ ص ٣٣٧ ؛ تاريخ آل زرارة ، أبو غالب الزراري : ج ١ ص ٢١ ؛ كمال الدين ، الشيخ الصدوق : ص ٣٤٦ ؛ الغيبة : النعماني : ص ١٧٧ .
(٣) كمال الدين وتمام النعمة ، الصدوق : ص ٤٨١ .
(٤) الإمامة والتبصرة : ص ٩٤ ، كمال الدين ، الصدوق : ص ٢٨ ؛ دلائل الإمامة ، محمد بن جرير الطبري : ص ٤٧٠ ؛ كتاب الغيبة ، الطوسي : ص ٤٢٤ .

ومنها : ما عن المفضل بن عمر ، عن أبي عبد الله عليه السلام قال : (إذا قام القائم (عجل الله تعالى فرجه الشريف) قال : ففررت منكم لما خفتكم فوهب لي ربي حكما ...)^(١) .

ومنها : ما جاء في كشف الغمة للإربلي ، عن الإمام الحسين عليه السلام قال : (في القائم مئتا سنن من الأنبياء ، سنة من نوح ، وسنة من إبراهيم ، وسنة من موسى ، وسنة من عيسى ، وسنة من أيوب ، وسنة من محمد ... وأما من موسى فالخوف ، والغيبة ...)^(٢) .

وكذلك في كشف الغمة ، في حديث محمد بن مسلم ، قال : سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول : (إن قدام القائم بلوى من الله ، قلت : وما هو جعلت فداك ؟ فقرأ : (وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ ۖ بَلْإِجْوَعٍ ۖ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ ۖ وَالْأَنْفُسِ ۖ وَالثَّمَرَاتِ ۖ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ)^(٣) ، ثم قال : الخوف من ملوك بني فلان ، والجوع من غلاء الأسعار ، ونقص الأموال من كساد التجارات ، وقلة الفضل فيها ، ونقص الأنفس بالموت الذريع ، ونقص الثمرات بقلة ريع الزرع ، وقلة بركة الثمار ، ثم قال : وبشِّر الصابرين عند ذلك بتعجيل خروج القائم (عجل الله تعالى فرجه الشريف)^(٤) .

ثانيا : التمحيص

معنى التمحيص : هو التطهير مع شئ الاختبار ؛ لأن مادة (محص) تدلّ على الخلوص ، والتطهير من كل عيب ، كما يقال محص الذهب بالنار ، أي خلّصه ممّا يشوبه .

(١) الغيبة ، محمد بن إبراهيم النعماني : ص ١٧٤ .

(٢) كشف الغمة ، الإربلي : ج ٣ ص ٣٢٩ ، إكمال الدين وإتمام النعمة ، الصدوق : ص ٣٢٢ .

(٣) البقرة : ١٥٥ .

(٤) كشف الغمة ، الإربلي : ج ٣ ص ٢٦٠ .

وعلى ضوء ذلك كان التمحيص والابتلاء والاختبار سنّة إلهيّة رافقت البشرية منذ بداية خلقها ، قال تعالى : (مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ) ^(١) .

وكذا قال تبارك وتعالى : (وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ) ^(٢) ، وكقوله تعالى : (وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُورِكُمْ مِنْ وِجْدٍ وَإِيْمَانٍ) ^(٣) ، فمن خلال التمحيص يتعين مركز الفرد وواقعه تجاه عقيدته وإيمانه ، استقامة أو انحرافاً ، كما يكشف التمحيص عن عناصر القوة والضعف في نفسية الإنسان ، فهو طريق لاستكمال النفوس ورفقيها ، فإذا ورد التمحيص على جماعة من الناس فإنّه يقتضي امتياز المؤمنين من المنافقين .

وتتضاعف أهميّة التمحيص في عصر الغيبة فيما إذا اقترن بالإعداد ليوم الظهور ، لتحمل المسؤولية ، والمشاركة في إنقاذ العالم من الظلم والجور الذي يفترض فيه وجود عدد كاف ممحص ومطهر من شوائب الكفر والشرك والنفاق ، ليكونوا من المخلصين الذين لهم شرف المشاركة في الدولة الكرّمة العادلة بقيادة الإمام المهدي (عجل الله تعالى فرجه الشريف) .

ومن هذا المنطلق نعرف أهمية التمحيص والاختبار الذي أشارت إليه الروايات بكثافة .
ومّا يشهد على أهمية التمحيص ودوره في تمييز الخبيث من الطيب ، ما لمسناه واضحاً من الرّجاء والانقلاب على الأعقاب بعد رسول الله ﷺ ، حيث وجدنا أنّ الكثير ممّن رافقوا رسول الله ﷺ لم يصمدوا أمام غريال التمحيص والاختبار ، بل انخرفوا عمّا رسمه لهم رسول الله ﷺ في وصاياه الكثيرة والمتعددة في شأن الإمامة والخلافة ، فضلاً عما صرّح به القرآن الكريم في هذا الشأن ، وهذا يدل على أن كثيراً من هؤلاء الأصحاب لم يكونوا ممحصين ، ولا قادرين على تحمل المسؤولية .

(١) آل عمران : ١٧٩ .

(٢) آل عمران : ١٤١ .

(٣) آل عمران : ١٥٤ .

ومن هنا نفهم سر عدم جعل الأئمة عليهم السلام الكفاح العسكري المسلح هو الخيار والحل الوحيد لإقامة الحق والعدل ؛ وذلك لأنهم لا يرون القيام بالعمل العسكري وحده كافياً للانتصار وإقامة دعائم الحكم الصالح ، بل يتوقف ذلك على إعداد جيش عقائدي محص مطهر مخلص يؤمن بالإمام وعصمته وحاكميته إيماناً مطلقاً ، ويعي أهدافه الكبيرة ، ويدعم تخطيطه الواسع .

وعلى هذا الأساس نجد أن من شرائط ظهور الإمام المهدي (عجل الله تعالى فرجه الشريف) الأساسية هو ظهور عدد من الأصحاب والأنصار المخلصين للإسلام ولالإمام عليه السلام القادرين على تحمّل المسؤولية ، وهذا لا يتحقق إلا من خلال مرور البشرية بالظروف القاسية والفتن الشديدة .

ومما ينبغي الإشارة إليه ، هو أنّ التمحيص المقصود الذي من خلاله تنهت البشرية لليوم الموعود ، هو تمحيص البشرية بشكل عام ، وعلى طول امتدادها التاريخي ، بالنحو الذي ينتج أفراداً مخلصين قادرين على تحمّل المسؤولية في الدولة الكريمة .

أمّا روايات التمحيص والابتلاء في زمن الغيبة ، وقبل قيام الإمام المهدي (عجل الله تعالى فرجه الشريف) فهي كثيرة جداً ، وقد وردت في كتب الفريقين :

منها : رواية ابن عباس المتقدمة ، عندما قال جابر لرسول الله ﷺ : (يا رسول الله وللقائم من ولدك غيبة ؟ قال : إي وربي ، ليمحص الله الذين آمنوا ، ويمحق الكافرين) ^(١) .

ومنها : ماجاء على لسان الإمام علي عليه السلام ، عندما قال للإمام الحسين عليه السلام : (التاسع من ولدك يا حسين هو القائم بالحق ، والمظهر للدين ، والباسط للعدل ، قال الحسين عليه السلام : فقلت : وإن ذلك لكائن ؟ فقال عليه السلام : أي والذي بعث محمداً بالنبوة ، واصطفاه على جميع البرية ، ولكن بعد غيبة وحيرة لا يثبت على دينه إلا المخلصون المباشرون لروح اليقين الذين أخذ الله ميثاقهم بولايتنا ، وكتب في قلوبهم الإيمان ، وأيدهم بروح منه) ^(٢) ، فالمخلصون بحسب هذه الرواية هم حاصل ذلك الابتلاء والتمحيص .

ومنها : ما جاء أيضاً عن الإمام علي عليه السلام ، حيث قال للأصبغ بن نباته : (الحادي عشر من ولدي هو المهدي ، يملأها عدلاً كما ملئت جوراً وظلماً ، تكون له حيرة وغيبة ، يضل فيها أقوام ، ويهتدي فيها آخرون ، فقلت : يا أمير المؤمنين وإن هذا لكائن ؟ فقال : نعم ، كما أنه مخلوق ، وأتني لك بالعلم بهذا الأمر يا أصبغ ، أولئك خيار هذه الأمة ، مع أبرار هذه العترة) ^(٣) .

(١) ينابيع المودة ، القندوزي : ج ٣ ص ٢٩٧ وص ٣٨٧ ، كشف الغمة : الإريلي : ج ٣ ص ٣٢٨ .

(٢) كشف الغمة ، الإريلي : ج ٣ ص ٣٢٨ .

(٣) الإمامة والتبصرة ، ابن بابويه القمي : ص ١٢١ ؛ الغيبة ، النعماني : ص ٦١ ؛ كفاية الأثر ، الخزاز القمي : ص ٢٢٠ .

ومنها : ما ورد عن الإمام محمد الباقر عليه السلام ، في قوله تعالى : (**فَلَا أُفْسِمُ بِالْحُنُوسِ** * **لَجَرِ الْكُنُوسِ**)^(١) ، قال : (هذا مولود في آخر الزمان ، هو المهدي من هذه العترة ، تكون له حيرة وغيبة ، يضل فيها أقوام ، ويهتدي فيها أقوام)^(٢) .

ومنها : ما ورد عن أبي جعفر الباقر عليه السلام أيضاً ، قال : (والله لتميذن ، والله لتمحصن ، والله لتغربلن ، كما يغربل الزؤان من القمح)^(٣) .

ومنها : ما ورد عنه أيضاً عليه السلام ، قال : (هيهات هيهات ، لا يكون الذي تمدون إليه أعناقكم حتى تمحصوا ، هيهات ولا يكون الذي تمدون إليه أعناقكم ، حتى تميزوا ، ولا يكون الذي تمدون إليه أعناقكم حتى تغربلوا ، ولا يكون الذي تمدون إليه أعناقكم إلا بعد إياس ، ولا يكون الذي تمدون إليه أعناقكم حتى يشقى من شقي ، ويسعد من سعد)^(٤) .

ومنها : ما ورد عن أبي عبد الله جعفر بن محمد عليه السلام : (والله لثمحصن ، والله لتطيرن يميناً وشمالاً ، حتى لا يبقى منكم إلا كل امرئ أخذ الله ميثاقه ، وكتب الإيمان في قلبه ، وأيده بروح منه)^(٥) .

ومنها : ما ورد عن أبي عبد الله عليه السلام أيضاً قال : (لابد للناس أن يمحصوا ويميزوا ويغربلوا ، وسيخرج من الغربال خلق كثير)^(٦) .

(١) التكوير : ١٥ - ١٦ .

(٢) إكمال الدين وإتمام النعمة ، الصدوق : ص ٣٣٠ ، انظر : الغيبة ، الطوسي : ص ٣٣٦ .

(٣) الغيبة ، الطوسي : ص ٣٤٠ ، الغيبة ، النعماني : ص ٢٠٥ .

(٤) الغيبة ، النعماني : ص ٢٠٩ .

(٥) المصدر نفسه : ص ٢٦ .

(٦) المصدر نفسه : ص ٢١٢ ؛ دلائل الإمامة : ابن جرير الطبري (الشيعة) : ص ٤٥٦ ؛ العدد القوية ، العلامة الحلي : ص

٧٤ ؛ الكافي ، الكليني : ج ١ ص ٣٧٠ .

ومنها : ما جاء عنه أيضا عليه السلام : (لَمْ يَحْصَنْ يَا شَيْعَةَ آلِ مُحَمَّدٍ ، تَمْحِصُ الْكُحْلَ فِي الْعَيْنِ) ^(١) .
ومنها : كذلك ما ورد عنه عليه السلام قوله : (وَاللَّهُ لَتَكْسِرَنَّ تَكْسِرَ الزَّجَاجِ ، وَإِنَّ الزَّجَاجَ لَيَعُودُ فَيَعُودُ كَمَا كَانَ ، وَاللَّهُ لَتَكْسِرَنَّ تَكْسِرَ الْفَخَّارِ وَإِنَّ الْفَخَّارَ لَيَتَكْسَرُ فَلَا يَعُودُ كَمَا كَانَ ، وَوَاللَّهُ لَتَغْرِبَنَّ ، وَاللَّهُ لَتَمِيزَنَّ ، وَاللَّهُ لَتَمَحِّصَنَّ حَتَّى لَا يَبْقَى مِنْكُمْ إِلَّا الْأَقْلُ ، وَصَعَّرَ كَفَّهُ) ^(٢) .
ومنها : ما ورد عنه أيضا عليه السلام ، قال : (وَاللَّهُ لَتَمَحِّصَنَّ ، وَاللَّهُ لَتَمِيزَنَّ ، وَاللَّهُ لَتَغْرِبَنَّ ، حَتَّى لَا يَبْقَى مِنْكُمْ إِلَّا الْأَنْدَرُ) ^(٣) .

ومنها : ما عن صفوان بن يحيى ، قال : قال أبو الحسن الرضا عليه السلام : (وَاللَّهُ لَا يَكُونُ مَا تَمْدُونُ إِلَيْهِ أَعْيُنَكُمْ حَتَّى تَمْحُصُوا ، وَحَتَّى لَا يَبْقَى مِنْكُمْ إِلَّا الْأَنْدَرُ ، فَلَا أَنْدَرُ) ^(٤) .
وأخيرا : يضرب الإمام أمير المؤمنين عليه السلام لنا مثلاً في ذلك ، حيث يقول : (وَسَأُضْرِبُ لَكُمْ مَثَلًا ، وَهُوَ مِثْلُ رَجُلٍ كَانَ لَهُ طَعَامٌ فَتَقَاهُ ، وَطَيَّبَهُ ثُمَّ أَدْخَلَهُ بَيْتًا ، وَتَرَكَهُ فِيهِ مَا شَاءَ اللَّهُ ، ثُمَّ عَادَ إِلَيْهِ ، فَإِذَا هُوَ قَدْ أَصَابَهُ السُّوسُ ، فَأَخْرَجَهُ وَنَقَّاهُ وَطَيَّبَهُ ثُمَّ أَعَادَهُ إِلَى الْبَيْتِ ، فَتَرَكَهُ مَا شَاءَ اللَّهُ ، ثُمَّ عَادَ إِلَيْهِ ، فَإِذَا هُوَ قَدْ أَصَابَتْهُ طَائِفَةٌ مِنَ السُّوسِ ، فَأَخْرَجَهُ وَنَقَّاهُ ، وَطَيَّبَهُ ، وَأَعَادَهُ ، وَلَمْ يَزَلْ كَذَلِكَ حَتَّى بَقِيَ مِنْهُ رِزْمَةٌ

(١) الغيبة ، النعماني : ص ٢٠٦ ؛ الغيبة ، الطوسي : ص ٣٣٩ .

(٢) المصدر نفسه : ص ٢٠٧ ؛ المصدر نفسه : ص ٣٤٠ .

(٣) تفسير العياشي ، محمد بن مسعود العياشي : ج ١ ص ١٩٩ ؛ وانظر : الغيبة ، النعماني : ص ٢٠٨ ؛ وانظر : الغيبة ، الشيخ الطوسي : ص ٣٣٧ .

(٤) غيبة ، النعماني : ص ٢٠٨ ؛ الغيبة ، الشيخ الطوسي : ص ٣٣٧ ؛ الخرائج والجرائح : الراوندي : ج ٣ ص ١١٧٠ ؛ انظر : تفسير العياشي : ج ١ ص ١٩٩ .

كرزمة الأندر ، لا يضره السوس شيئاً ، وكذلك أنتم تُميزون ، حتى لا يبقى منكم إلا عصابة لا تضرها الفتنة شيئاً (١) ، وبنفس المضمون ما جاء عن الإمام الباقر عليه السلام (٢) .

وكذلك ما جاء أيضاً على لسان حكيمة عمّة الإمام عليه السلام ، عندما قالت لمحمد بن عبد الله المطهري : (لا بد للأمة من حيرة ، يرتاب فيها المبطلون ، ويخلص فيها المحققون ، كيلا يكون للناس على الله حجة) (٣) .

هذا مضافاً إلى روايات الفتن ، والابتلاء في آخر الزمان التي نقلها الفريقان بنحو التواتر ، والتي لا يخلو منها كتاب واحد من كتب الحديث ، بل عُقدت لروايات الفتن في آخر الزمان كتب وأبواب خاصة ، وهذا يكشف عن أهمية التمحيص والغربة في عصر الغيبة لمعرفة وتمييز المخلصين الصالحين للقيام بشؤون الدولة العالمية ، تحت راية الإمام المهدي عليه السلام عن غيرهم ، ومن تلك الروايات :

١ . قال رسول الله ﷺ : (إنّ بين يدي الساعة فتناً كقطع الليل المظلم ، يصبح فيها الرجل مؤمناً ويمسي كافراً ، ويمسي مؤمناً ويصبح كافراً ...) (٤) .

٢ . قال رسول الله ﷺ : (... ثم فتنة الدهيماء ، لا تدع أحداً من هذه الأمة إلا

(١) الغيبة ، النعماني : ص ٢١٠ .

(٢) كمال الدين وتمام النعمة ، الصدوق : ص ٤٢٦ .

(٣) المصدر نفسه : ص ٤٢٦ .

(٤) مسند أحمد ، أحمد بن حنبل : ج ٤ ص ٢٧٧ ، البداية والنهاية ، ابن كثير ج ٨ ص ٢٦٧ ؛ كنز العمال ، المتقي الهندي : ج ١٤ ص ٢٢٩ ؛ النهاية في الفتن والملاحم : ابن كثير الدمشقي : ج ١ ص ٥٩ ؛ سنن أبي داود ، السجستاني : كتاب الفتن ، ص ٧٠٨ ح ٤٢٥٣ ؛ سنن الترمذي ، الترمذي : كتاب الفتن ؛ باب ما جاء في اتخاذ سيف من خشب في الفتنة : ص ٢٣٠ ، ح ٢٢٩٣ ؛ كما أخرجه ابن ماجه في كتاب الفتن ، باب التشييت في الفتنة : ص ١٣١٠ ، ح ٣٩٦١ .

لطمته ، حتى إذا قيل انقضت عادت ، يصبح الرجل فيها مؤمناً ويمسي كافراً حتى يصير الناس فسطاطين ، فسطاط إيمان لا نفاق فيه ، وفسطاط نفاق لا إيمان فيه ، فإذا كان ذاكم فانتظروا الدجال من يومه أو من غده^(١) .

٣ . قال رسول الله ﷺ : (ويل للعرب من شر قد اقترب ، فتن كقطع الليل المظلم ، يصبح الرجل مؤمناً ويمسي كافراً ، يبيع قوم دينهم بعرض من الدنيا قليل ؛ المتمسك يومئذ بدينه كالقابض على الجمر . أو قال . على الشوك)^(٢) .

ثالثاً : انكشاف عجز وبطلان الأطروحات الأخرى

لا ريب أن الغيبة تساهم في إثبات عجز أو فشل المدارس والأطروحات الأخرى التي تدعي تحقيق السعادة والعدل والكمال المنشود للمجتمع البشري ، وهذا بدوره يكون دافعاً للمجتمع عموماً للتفاعل الإيجابي مع المهمة الإصلاحية الكبرى للإمام المهدي عليه السلام . ومن ثم يزيل العقبات التي تمنع عن حصول هذا التفاعل المطلوب ، لتحقيق الأهداف الإلهية ، التي يقوم بإنجازها الإمام عليه السلام .

(١) النهاية في الفتن والملاحم : ابن كثير الدمشقي : ج ١ ص ٦١ ؛ وكذا لاحظ : سنن أبي داود ؛ كتاب الملاحم ، باب الأمر والنهي : ج ٢ ص ٢٢٩ ، ح ٤٣٤٢ ؛ تهذيب الكمال ، المزي : ج ٢٢ ص ٥٢٧ ؛ مسند أحمد ، أحمد بن حنبل : ج ٢ ص ١٣٣ باختلاف في اللفظ ؛ المستدرک ، الحاكم النيسابوري : ج ٤ ص ٤٦٧ .

(٢) مسند أحمد ، أحمد بن حنبل : ج ٢ ص ٣٩٠ ؛ النهاية في الفتن والملاحم : ابن كثير الدمشقي : ج ١ ص ٥٥ تاريخ دمشق ، ابن عساکر : ج ٧٠ ص ٣٥ ؛ سير أعلام النبلاء ، الذهبي : ج ٢ ص ٦٢٣ ، ج ٨ ص ٢٨ ؛ كنز العمال ، المتقي الهندي : ج ١١ ص ١٥٨ ؛ انظر صحيح البخاري : كتاب أحاديث الأنبياء : باب قصة يأجوج ومأجوج : ج ٢ ص ٣٤٧ ح ٣٣٤٦ ؛ وانظر صحيح مسلم ؛ كتاب الفتن ، باب اقتراب الفتن وفتح ردم يأجوج ومأجوج : ص ٢٢٠٧ ح ٢٢٨٠ .

إذن فالغيبة تفسح المجال لكي يتضح بطلان كل ما يرفع من شعارات مُزيّفة ومُغرضة ، مهما كان مصدرها ، سواء أكانت من المدارس المادّية أم من مدارس ذات أصول سماوية منحرفة ؛ وبذلك يتبين فشل كل ما يرفع من الشعارات التي نراها براقّة في يومنا هذا ، كأطروحة العدالة العالمية ، ومحاربة الإرهاب ، ومنظمة حقوق الإنسان وغيرها ، ومن ثمّ تسقط مصداقيتها لدى الناس ، وينكشف زيفها وكذبها ، وتتضح سياساتها العنصرية ونواياها السيئة ، وكذا يتضح عجز العقل البشري عن تلبية ما تطمح إليه الفطرة البشرية من السعادة الكاملة ، وإقامة العدل على هذه الأرض .

وهذا بدوره يشكّل عاملاً مهماً في نجاح الأطروحة الإلهية على يد الإمام المهدي ﷺ ، بإقامة دولته العالمية ، وتفاعل الناس معه .

ولعلّ روايات الفتنة والتمحيص المتقدمة تشير إلى ذلك ، وتؤكد على عجز الإنتاج البشري عن تقديم ما تطمح إليه البشرية من العدل ، ورفاهية العيش والأمن في هذه الدنيا .

رابعا : تجلّي مفهوم الانتظار في أحضان الغيبة

إن إحساس الفرد المؤمن بوجود الإمام ﷺ ، وإطلاعه عن كُتب على أوضاع المجتمع عموماً ، يساهم في حصول الاطمئنان والثبات النفسي عند المؤمنين ، وبذلك تزداد صلتهم بالإمام ﷺ ، ويتغلغل إيمانهم به وبعقيدته إلى داخل أعماقهم ، ومن ثمّ تكون عقيدتهم بإمامهم عقيدة راسخة ، وهو معنى الانتظار الذي يعد من الركائز الأساسية التي اهتمّ بها القرآن الكريم

والرسول الأكرم ﷺ وأهل بيته عليهم السلام ، في عملية إعداد الفرد والمجتمع قال تعالى : (**فَانْتَظِرُوا إِنِّي** **مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظَرِينَ**)^(١) .

وقد أولى النبي ﷺ عناية خاصة بمفهوم الانتظار ، وهذا ما نجده واضحاً من خلال كثافة الروايات الواردة في هذا السياق ، فقد جاء عن النبي ﷺ قوله : (أفضل العبادات انتظار الفرج)^(٢) .

وقال ﷺ : (انتظار الفرج بالصبر عبادة)^(٣) .

وعنه ﷺ : (أحب الأعمال إلى الله انتظار الفرج)^(٤) .

وقال ﷺ : (انتظار الفرج من الله عبادة)^(٥) .

وقال ﷺ : (أفضل أعمال أمتي انتظار الفرج)^(٦) .

وقوله ﷺ : (أفضل جهاد أمتي انتظار الفرج)^(٧) .

وقال ﷺ : (أفضل العبادات انتظار الفرج ، أي انتظار الفرج بظهور المهدي)^(٨) .

—
(١) الأعراف : ٧١ .

(٢) سنن الترمذي ، الترمذي : ج ٥ ص ٢٢٦ ، مجمع الزوائد ، الهيثمي : ج ١٠ ص ١٤٧ ، الجامع الصغير ، السيوطي : ج

١ ص ١٩٢ ؛ المعجم الكبير للطبراني : ج ١٠ ص ١٠١ ، المعجم الأوسط للطبراني : ج ٥ ص ٢٣٠ .

(٣) الجامع الصغير : الطبراني : ج ١ ص ٤١٧ ؛ لسان الميزان ، ابن حجر : ج ٤ ص ٣٦٢ ، مسند ابن سلامة : ج ١ ص

٦٢ .

(٤) دستور معالم الحكم ، ابن سلامة : ص ١٠٣ .

(٥) الجامع الصغير ، السيوطي : ج ١ ص ٤١٧ .

(٦) الفرج بعد الشدة ، القاضي التنوخي : ج ١ ص ٢٧ ؛ مناقب آل أبي طالب : ابن شهر آشوب : ج ٣ ص ٥٢٧ .

(٧) تحف العقول ، ابن شعبة : ص ٣٧ .

(٨) ينابيع المودة ، القندوزي الحنفي : ج ٣ ص ٣٩٧ ؛ لسان الميزان ، ابن حجر : ج ٣ ص ٩٣ .

خامسا : عدم انقطاع سلسلة حجج الله في الأرض

إنَّ الغيبة من الوسائل المهمة للحفاظ على وجود الحجَّة الإلهية في الأرض ، وعدم خلوّها من تلك الحجّة ، كما قال رسول الله ﷺ : (لا تخلو الأرض من قائم بحجّة)^(١) .

ولا يخفى الأثر المهم والدور الأساس لوجود حجّة الله في الأرض ، من كونها أماناً لأهل الأرض ، كما قال ﷺ : (النجوم أمان لأهل السماء ، إذا ذهب النجوم ذهب أهل السماء ، وأهل بيتي أمان لأهل الأرض ، فإذا ذهب أهل بيتي ذهب أهل الأرض)^(٢) .

وقال ﷺ : (لن يزال الدين قائماً إلى اثني عشر من قريش ، فإذا هلكوا ماجت الأرض بأهلها)^(٣) .
وقال ﷺ : (إن مثل أهل بيتي فيكم مثل سفينة نوح ، من ركب فيها نجا ، ومن تخلف عنها غرق ، ومن قاتلنا في آخر الزمان فكأنما قاتل مع الدجال)^(٤) .

-
- (١) تاريخ مدينة دمشق ، ابن عساكر : ج ٥٠ ص ٢٥٥ ؛ ينابيع المودة ، القندوزي : ج ١ ص ٨٩ ؛ المناقب ، الخوارزمي : ص ٣٦٦ ، وانظر تاريخ يعقوبي ، يعقوبي : ج ٢ ص ٢٠٦ .
- (٢) فضائل الصحابة ، أحمد بن حنبل : ج ٢ ص ١٦٥ ؛ شواهد التنزيل ، الحسكاني : ج ١ ص ٤٢٦ ؛ ينابيع المودة ، القندوزي : ج ١ ص ٧١ وح ٢ ص ١١٤ ؛ ذخائر العقبى ، محب الدين الطبري : ص ١٧ ؛ ونحوه في المستدرک ، الحاكم النيسابوري : ج ٢ ص ٤٤٨ ج ٣ ص ١٤٩ ص ٤٥٧ ؛ جواهر المطالب : ابن الدمشقي الشافعي : ج ١ ص ٣٤٣ .
- (٣) المعجم الكبير ، الطبراني ج : ٢ ص ١٩٦ ؛ كنز العمال ، المتقي الهندي : ج ١٢ ص ٣٤ .
- (٤) المعجم الكبير ، الطبراني : ج ٣ ص ٤٥ ، ح ٢٦٣٦ ؛ مسند ابن سلامة : ج ٢ ص ٢٧٣ .

وقال ﷺ : (النجوم جعلت أماناً لأهل السماء ، وإنّ أهل بيتي أمان لأمتي) (١) .
 وقال ﷺ : (كيف تهلك أمة أنا أولها ، وعيسى بن مريم آخرها ، والمهدي من أهل بيتي في وسطها) (٢) .

مضافاً إلى أن غيبة الإمام عليّ عليه السلام تؤمّن إتيانه بالإسلام الخالص ، كما أنزله الله تعالى حين الظهور ؛
 لأتبه سوف يكون وارثاً عن أبيه عن آبائه عليه السلام عن رسول الله ﷺ الإسلام الصحيح ، وتفصيله
 التي أملاها الرسول ﷺ على الإمام علي عليه السلام وكتبها بخطه .
 بخلاف ما لو قلنا إن المهدي عليه السلام لم يولد بعد ، فإنّه حينئذ كيف يمكنه الإتيان بالإسلام الخالص
 بعد انقطاع الوحي ، وكيف يحرز الإسلام الصحيح وسط هذه الاختلافات بين المذاهب ، وبعد تضييع
 سنة رسول الله ﷺ .
 أضف إلى ذلك أن وجود الحجة والإمام في الأرض لطف من الله تعالى . كما تقدم . وإتمام للحجة
 البالغة على خلقه ، أمّا الغيبة فهي لأسباب وظروف اقتضت ذلك ، وقد تقدم ذكر بعضها .

سادساً : لكي لا تكون في عنقه بيعة لظالم

وهذا من معطيات الغيبة أيضاً ؛ لأن أئمة أهل البيت عليهم السلام كلهم أُجبروا وأُكرهوا على البيعة
 للحكّام الظالمين ، ابتداءً من الإمام علي عليه السلام إلى الإمام الحسن العسكري عليه السلام .
 والبيعة من الإمام المعصوم تعني إعطاء عهد يطوق به عنقه ويكبله ويقضي بعدم محاربة الظالم في
 حال لزومها .

(١) المعجم الكبير : ج ٧ ص ٢٢ .

(٢) الدر المنثور : ج ٢ ص ٧٤٢ ؛ الجامع الصغير للسيوطي : ج ٢ ص ٤٢٣ ؛ تاريخ مدينة دمشق ، ابن عساكر : ج ٤٧ ص ٥٢٢ ، ونحوها في المستدرک : الحاكم النيسابوري : ج ٣ ص ٤١ ؛ قال فيه : (حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه) ، فيض القدير : ج ٥ ص ٣٨٣ .

وهذا قضاء إلهي لآباء الإمام المهدي (عجل الله تعالى فرجه الشريف) بعد استشهاد الإمام الحسين عليه السلام ، كما قال هو عليه السلام : (... وأما علّة ما وقع من الغيبة ، فإن الله عزّ وجل يقول : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَن أَشْيَاءٍ نَّزِلَ ثُبُودُ لَكُمْ تَسْتَأْذِنُوا)^(١) ، إنّه لم يكن أحد من آبائي إلّا وقعت في عنقه بيعة لطاغية زمانه ، وإنّي أخرج حين أخرج ولا بيعة لأحد من الطواغيت في عنقي)^(٢) .

فالإمام المهدي عليه السلام لكونه معدّاً سلفاً من قبل الله تعالى ، ومرصوداً لإبادة الظلم والظالمين ، فإذا كانت في عنقه بيعة ، فكيف يقاتلهم ؟

وإذا بادروهم بالقتال بدل الغيبة مع عدم توفّر شرائط القيام والمواجهة مع الطواغيت ، فسيؤدّي ذلك إلى عدم الوصول لهدفه المرصود له ، ولذا وردت الروايات من الفريقين تقرّر هذا المعنى :
١ . عن أمير المؤمنين عليه السلام : (إن القائم ممّا إذا قام لم يكن لأحد في عنقه بيعة ؛ فلذلك تخفى ولادته ويغيب شخصه)^(٣) .

٢ . ما أخرجه الأربلي عن الإمام الحسن بن علي عليه السلام قال : (أما علمتم أنّه ما ممّا أحد إلّا ويقع في عنقه بيعة لطاغية زمانه ، إلّا الإمام القائم ، الذي يصلّي روح

(١) المائدة : ١٠١ .

(٢) الغيبة ، الطوسي : ص ٢٩٢ ؛ كشف الغمّة ، الأربلي : ج ٣ ص ٣٤٠ .

(٣) كمال الدين وتمام النعمة ، الصدوق : ص ٣٠٣ .

الله عيسى بن مريم عليه السلام خلفه ، فإن الله عز وجل يخفي ولادته ، ويغيب شخصه ؛ لئلا يكون في عنقه بيعة إذا خرج ، ذلك التاسع من ولد أخي الحسين ، ابن سيّدة الإمام ، يطيل الله عمره في غيبته ، ثم يظهره بقدرته ... (١).

٣ . ما أخرجه أيضا عن الإمام الحسين عليه السلام : (القائم منّا ، يخفي عن الناس ولادته ، حتى يقولوا لم يولد بعد ، ليخرج حين يخرج وليس لأحد في عنقه بيعة) (٢) .

٤ . عن الإمام علي بن الحسين عليه السلام : (القائم منّا تخفي ولادته على الناس حتى يقولوا : لم يولد بعد ، ليخرج حين يخرج وليس لأحد في عنقه بيعة) (٣) .

٥ . عن أبي عبد الله جعفر بن محمد عليه السلام : (يقوم القائم وليس لأحد في عنقه بيعة) (٤) .

٦ . عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام قال : (كأتني بالشيعة عند فقدهم الثالث من ولدي ، كالنعم يطلبون المرعى فلا يجدونه ، قلت له : لمَ ذاك يا بن رسول الله ؟ قال عليه السلام : لأن إمامهم يغيب عنهم ، قلت لمَ ؟ قال عليه السلام : لئلا يكون لأحد في عنقه بيعة إذا قام بالسيف) (٥) .

مضافا إلى أن وجود الإمام عليه السلام ، مع غيبته له الأثر البالغ في إثارة الخوف والرعب في صفوف الظالمين ، وهذا ما نلمسه ونشاهده بالوجدان في تصريحات كبار المسؤولين في دول العالم كأمریکا وغيرها من دول الغرب ، من تخوّفهم من ظهور رجل من حضارة بابل يقضي عليهم ؛ لذا نجد أنّهم حشدوا قواهم لمواجهته .

(١) كشف الغمّة ، الإريلي : ج ٣ ص ٣٢٨ . ٣٢٩ .

(٢) المصدر نفسه : ج ٣ ص ٣٢٩ .

(٣) المصدر نفسه : ج ٣ ص ٣٢٣ .

(٤) الإمامة والتبصرة ، ابن بابويه القميّ : ص ١١٦ ؛ الكافي ، الكليني : ج ١ ص ٣٤٢ .

(٥) علل الشرائع ، الصدوق : ج ١ ص ٢٤٥ ، عيون أخبار الرضا ، الصدوق : ج ٢ ص ٢٤٧ ، بحار الأنوار : ج ٥١ ص ١٥٢ .

سابعاً : الغيبة سرّ الهي

في البداية نقول : ما كل ما يعلم يقال : ولا كل ما يقال حان وقته ، ولا كل ما حان وقته حضر أهله .

ومن هنا ينبغي علينا عدم إغفال الجانب الغيبي في الدين ، إذ إنّ الكثير من الأمور لم يطلعنا الله تعالى على حكمتها والغاية منها ، فليس كل ما يفعله الله تعالى نستطيع أن نعرف وجه الحكمة من ورائه ، وإلاّ فما هي الحكمة في حياة نبيّين رفعهما الله تعالى إليه ؟ وما الحكمة من حياة نبيّين يسيران في الأرض ؟ وما الحكمة من نزول عيسى عليه السلام مع المهدي عليه السلام ؟ ولماذا لا يخبرنا القرآن بذلك ؟ فالغيبة سرّ على حدّ أسرار الغيب ، التي لا يكشفها الله تعالى إلّا لمن ارتضى من أوليائه ، ويبقى الأمر الذي خفيت الحكمة من ورائه مثاراً للتعجب والاستغراب ، فهذا موسى عليه السلام ، وهو نبي من أنبياء الله تعالى ، كان يظهر التعجب من عمل الخضر عليه السلام ، فكيف بمن هو مثلنا ، نحن القاصرون عن إدراك كنه الحقائق ، ثم نأتي لنجادل فيها ؟!

هذا وقد تضافرت الروايات الواردة عن أهل البيت عليهم السلام في أن للغيبة حكمة لا يعلمها إلّا الله تعالى ، ومن ارتضى من أوليائه .

فقد جاء عن الإمام الصادق عليه السلام : (إنّ للقائم منّا غيبة يطول أمدّها ، فسأله

سدير : لمَ ذاك يا بن رسول الله ؟ قال ﷺ : إن الله عز وجل أبى إلا أن يجري فيه سنن الأنبياء ﷺ في غيبتهم ، وأنه لا بد له يا سدير من استيفاء عدد غيبتهم ، قال تعالى : (لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ) (١) ، (٢) .

ثم إنّه مع الإيمان بضرورة الإمامة ، والاعتقاد بأئمة أهل البيت ﷺ ، بمقتضى الأدلة الثابتة في محلّها ، من الآيات والأحاديث ، لا يبقى مجال للتساؤل ، والتشكيك في وجود الإمام ؛ لكونه غائباً . فلعلّ في عدم الوقوف على العلة الأساسية من الغيبة ، سر من أسرار غيب الله تعالى ، لم يطلعنا عليه ، لا سيّما مع إنباء وتصريح الرسول الأكرم ﷺ بغيبة الإمام المهدي ﷺ ، كما مرّ ذكره في رواية جابر ، ورواية ابن عباس وغيرها ، وفي رواية أخرى لجابر : قال : قال رسول الله : (المهدي من ولدي ، اسمه اسمي ، وكنيته كنيتي ، أشبه الناس بي خلقاً وخلقا ، تكون له غيبة وحيرة ، تضل فيها الأمم ، ثم يقبل كالشهاب الثاقب ، فيملؤها عدلاً ، كما ملئت جوراً) (٣) .

وذلك فضلاً عن الروايات المتواترة عن أوصياء رسول الله ﷺ ، التي جاء فيها ذكر الغيبة ، وقد تقدم ذكر بعضها سابقاً .

وكذا تقدم في بعض الروايات عدم اشتراط كون الحجة والإمام ظاهراً ، كما ورد عن أمير المؤمنين ﷺ قوله : (اللهم كلا ! لا تخلوا الأرض من قائم بحق ، إما ظاهر مشهور ، وإما خائب (٤)) ، مغمور ، لئلا ييطل حجج الله عز وجل ،

(١) الانشقاق : ١٩ .

(٢) علل الشرائع ، الصدوق : ج ١ ص ٢٤٥ ؛ كمال الدين وتمام النعمة ، الصدوق : ص ٤٨٠ - ٤٨١ .

(٣) كشف الغمّة ، الإرقلي : ج ٣ ص ٣٢٧ ؛ ينابيع المودة ، القندوزي : ج ٣ ص ٣٨٦ .

(٤) ولعل الصحيح كما في كثير من المصادر (خائف) .

وَيِّنَاتِهِ (١) .

وعنه عليه السلام قال : اللهم بلى لا تخلو الأرض من قائم بحجة إمام ظاهر مستور ، وإما خائف مغمور ، لأن لا تبطل حجج الله ويِّنَاتِهِ (٢) .

هذا وقد تتضح الحكمة حينما يأتي الوقت المناسب لها ، ولذا نجد أنّ الخضر عليه السلام يقول لموسى عليه السلام لو صبرت لاتضح الحكمة .

وقال الله تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنَ أَشْيَاءٍ لَّكُمْ تُسْأَلُونَ إِن تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلَ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا مَلَّ اللَّهُ عَقُورَ حَلِيمٍ) (٣) .

إذن بعد أن قامت لدينا الأدلة القاطعة على ضرورة وجود حجة الله في الأرض ، وآمباً بأنّه الإمام المهدي الحجة ابن الحسن العسكري ، وأنّه مولود وقد طوّل الله عمره الشريف بحكمته ، فإنّ النتيجة الحتمية هي الإيمان بغيثته الطويلة ، فإنّ الإمام إمام قام أو قعد ، غاب أو ظهر ، وسواء أطلعنا على سرّ من أسرار غيخته أم لم نطلع ، ولا غرابة في ذلك بعد أن كانت حياة الأمة وحركة البشرية حافلة بالأمر التي خفيت علينا أسبابها ، وغابت عنا حكمتها .

(١) تاريخ البعقوبي ، البعقوبي : ج ٢ ، ص ٢٠٦ ؛ تاريخ مدينة دمشق : ج ٥٠ ص ٢٥٥ ؛ كنز العمال ، المتقي الهندي : ج ١٠ ص ٢٦٣ ، (أخرجها عن ابن الأنباري في المصاحف ، والمرهبي في العلم ، ونصر في الحجة) ؛ المعيار والموازنة ، أبو جعفر الإسكافي : ص ٨١ ؛ مناقب أمير المؤمنين ، محمد بن سليمان القاضي : ج ٢ ص ٢٧٥ ؛ دستور معالم الحكم ، ابن سلامة : ص ٨٤ .

(٢) تاريخ مدينة دمشق ، ابن عساكر : ج ٥٠ ص ٢٥٥ ، وانظر كنز العمال ، المتقي الهندي : ج ١٠ ص ٢٦٣ ، (أخرجها عن ابن الأنباري في المصاحف ، والمرهبي في العلم ، ونصر في الحجة) ؛ مناقب أمير المؤمنين ، محمد بن سليمان القاضي : ج ٢ ص ٢٧٥ ؛ وانظر دستور معالم الحكم ، ابن سلامة : ص ٨٤ ؛ وانظر ينابيع المودة ، القندوزي الحنفي : ج ٣ ص ٤٥٤ .

(٣) المائدة : ١٠١ .

دعوى المهدوية والسفارة

في خاتمة هذا البحث نود إلقاء الضوء على ظاهرة ادعاء المهدوية والسفارة عن الإمام المهدي عليه السلام كذباً وزوراً ، مستغلين السذاجة والبساطة وغياب الوعي الديني الذي يعيشها بعض الناس ، مستخدمين في ذلك شتى الوسائل الشيطانية ، من قبيل السحر والشعوذة وتسخير الجن ونحوها ، مضافاً إلى ما يتلقاه هؤلاء المدّعين للمهدوية والسفارة من دعم كبير من السياسات الاستعمارية ، التي جهدت إلى بروز وانتشار هذه الدعوات .

مدّعي المهدوية والسفارة في التاريخ الإسلامي

ذكر الشيخ الطوسي في كتاب الغيبة عدد مئتين ادعوا النيابة والسفارة الخاصة للإمام المهدي عليه السلام كذباً ، منهم :

١ . الرجل المعروف بالشريعي

حيث قال : (كان الشريعي يكنى بأبي محمد ... وكان من أصحاب الإمام أبي الحسن علي بن محمد عليه السلام وهو أول من ادعى مقاما لم يجعله الله فيه ولم يكن أهلاً له وكذب على الله وعلى حججه عليه السلام ، ونسب إليهم ما لا يليق بهم وما هم منه براء ، فلعنّته الشيعة وتبرأت منه ، وخرج توقيع الإمام عليه السلام بلعنه والبراءة منه ... ثم ظهر منه القول بالكفر والإلحاد)^(١) ، وقد كانت دعوته تقتصر على السذج من الناس الذين لم يتسلحوا بالوعي الديني .

(١) الغيبة ، الطوسي : ص ٣٩٧ .

٢ . محمد بن نصير النميري

حيث قال الشيخ الطوسي : (كان محمد بن نصير النميري من أصحاب أبي محمد الحسن بن علي العسكري عليه السلام ، فلما توفي أبو محمد عليه السلام ادعى أنه صاحب إمام الزمان وادعى له البابية ، وفضحه الله تعالى بما ظهر منه من الإلحاد والجهل ... وكان يقول بالتناسخ ويغلو في أبي الحسن عليه السلام ويقول فيه بالربوبية ويقول بالإباحة للمحارم ...) (١) .

٣ . أحمد بن هلال الكرخي

حيث كان من أصحاب أبي محمد عليه السلام فلما اجتمعت الشيعة على وكالة محمد بن عثمان (رض) بنص الإمام الحسن عليه السلام في حياته ، وبعد وفاة الإمام الحسن العسكري عليه السلام قالت الشيعة له : ألا تقبل أمر أبي جعفر محمد بن عثمان وترجع إليه وقد نص عليه الإمام المفترض الطاعة ؟ فقال لهم : لم أسمعه ينص عليه بالوكالة ... فقالوا له قد سمعته غيرك ، فقال : أنتم وما سمعتم ، عند ذلك نفته الشيعة وتبرؤوا منه ، ومن ثم لعنه وتبرأ منه الإمام صاحب الزمان عليه السلام في التوقيع على يد أبي القاسم بن روح بلعنه والبراءة منه في جملة من لعن (٢) .

٤ . أبو طاهر محمد بن علي بن بلال

وله قصة معروفة حيث إنه تمسك بأموال الإمام عليه السلام التي كانت عنده وامتنع عن تسليمها ، بذريعة أنه وكيل الإمام المهدي عليه السلام ؛ ولذا تبرأت منه

(١) الغيبة ، الشيخ الطوسي : ص ٣٩٨ . ح ٣٦٩ وح ٣٧١ .

(٢) المصدر نفسه .

الشيعة ولعنوه (١).

٥ . الحسين بن منصور الحلاج

وقد فضحه الله تعالى وأخزاه ، وذلك عندما ادعى الوكالة والنيابة الخاصة للإمام المهدي عليه السلام كذبا .

٦ . محمد بن علي بن أبي العزاقر المعروف بالشلمغاني

كان من أعلام الشيعة وألف كتباً في التشيع وكتبه لمناقشة جرت بينه وبين الحسين بن روح النوبختي أعلى الله مقامه الشريف النائب الثالث للإمام المهدي عليه السلام خرج عن طوره ، وراح يدعي دعاوى باطلة ويدعي أخباراً كاذبة عن الإمام عليه السلام إلا أن الإمام عليه السلام لعنه في أحد توقيعاته ومن ثم ظهر أمره وشاع كذبه .

وغير ذلك كثيرون ، إذ يصعب بل من المستحيل إحصاء عدد الذين ادعوا المهديّة أو النيابة الخاصة في التاريخ الإسلامي ؛ وذلك لأن منهم من اقتصر دعوته على عدد ضئيل من المغفلين ولم تحصل لهم قوّة وشوكة ، فبقيت أمانيتهم وأحلامهم مدفونة في صدورهم ، ولذا أغفل التاريخ ذكر أسمائهم ومدّعاتهم .

الدليل على بطلان دعوى المهديّة والسفارة في عصر الغيبة الكبرى

هناك مدّة استدلالياً واسعة لإبطال دعوى المهديّة والسفارة للإمام المهدي في عصر الغيبة الكبرى ، منها : قيام الإجماع على انقطاع النيابة الخاصة للإمام المهدي عليه السلام ، بل ضرورة المذهب على ذلك : انقطاع السفارة والنيابة الخاصة للإمام المهدي من ضروريات مذهب الإمامية .

(١) المصدر السابق نفسه .

إن مسألة انقطاع النيابة الخاصة والسفارة للإمام المهدي عليه السلام في عصر الغيبة الكبرى من ضروريات مذهب الشيعة الإمامية التي تعلو على البرهنة والاستدلال ، ومن جملة ما ورد في ذلك التوقيع المبارك (بسم الله الرحمن الرحيم : يا علي بن محمد السمري أعظم الله أجر إخوانك فيك ، فإنك ميت ما بينك وبين ستة أيام ، فاجمع أمرك ولا توص إلى أحد فيقوم أمامك بعد وفاتك ، فقد وقعت الغيبة التامة فلا ظهور إلا بعد إذن الله تعالى ذكره ؛ وذلك بعد طول الأمد ، وقسوة القلوب ، وامتلاء الأرض جوراً ، وسيأتي شيعتي من يدعي المشاهدة ، إلا من ادعى المشاهدة قبل خروج السفيناني والصيحة ، فهو كذاب مفتر ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم) ^(١) .

وقد روي الشيخ الطوسي : (إن كل من ادعى الأمر [أي أمر السفارة للإمام المهدي عليه السلام] بعد السمري [آخر السفراء الأربعة للإمام عليه السلام] رحمه الله فهو كافر منمّس ضال مضل وبالله التوفيق) ^(٢) .

وقد تواترت الروايات على انقطاع النيابة الخاصة عن الإمام إلى حين حصول الصيحة السماوية التي هي من العلامات المحتملة لظهور الإمام عليه السلام ، فقبل ظهور الصيحة لا نيابة خاصة ولا سفارة ، وكل من ادعى ذلك فهو كاذب مفتر .

والمقصود من ادعاء المشاهدة هو السفارة أو النيابة الخاصة في عصر الغيبة الكبرى .

(١) الغيبة ، الطوسي : ٣٩٥ .

(٢) المصدر نفسه : ص ٤١٢ .

الفهم الصحيح لعلامات الظهور

إنّ بعض علامات الظهور تمتاز بخصوصية معيّنة ، وقد استغلّ أدعياء المهديّة والسفارة الخاصة هذه الخصوصية للحصول على مآربهم وأغراضهم .

عند إجراء مسح ميداني لعلامات الظهور نجد أن جملة منها تنطوي على لغة الرمز والإشارة التي تجعل إمكان تطبيق هذه العلامات على أكثر من مصداق وفي كل الأوقات ، من قبيل ما أشار إليه الرسول ﷺ في أحاديث متظافره أن المهدي لا يخرج إلا بعد انتشار الظلم والفساد .

ومن الواضح أن مثل هذه العلامة للظهور وهي انتشار الظلم والفساد نجدها تنطبق على كثير من الأزمنة إن لم نقل جميعها ، وهذا ما نلمسه من الأسئلة الموجه لأهل البيت عليهم السلام وفي زمن حضورهم وقبل مولد الإمام المهدي عليه السلام حيث كان الناس يسألون الأئمة عليهم السلام بأن الظلم قد انتشر فأين المهدي الموعود ، وغير ذلك من الاستفهامات .

وهذه الحالة وهي ملائمة بعض علامات الظهور لكل زمان استغلها المدعون للمهديّة في حملاتهم الدعائية للتأثير على الناس ، وإغرائهم بأن وقت الظهور بسبب انتشار الظلم والفساد في الأرض . وعلى هذا الضوء يجب الالتفات إلى مثل هذه الأساليب التي يستغلّها هؤلاء الدجالين لإضلال الناس وإغرائهم ، لكي لا نكون فريسة سهلة لمثل هذه الدعوات الضالة والمنحرفة التي تستهدف العمل على تشويه حركة الإمام عليه السلام .

الخلاصة

- ١ . إنّ الله تعالى قد وعد في كتابه الكريم بإقامة العدل الإلهي في كل ربوع الأرض ، كما في قوله تعالى : (**وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ ۖ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْهَادِينَ**) ^(١) .
- ٢ . إن تحقق هذا الهدف يكون على يد الإمام الثاني عشر من أئمة أهل البيت عليه السلام ، بمقتضى كونهم يمثلون امتداداً للرسالة المحمدية ، وأتّم المعصومون المطهّرون كما نص على ذلك القرآن الكريم في عدد من الآيات كآية التطهير والمودة والمباهلة ، فضلاً عن السّنة النبوية كحديث الغدير والثقلين وحديث الاثني عشر .
- ٣ . شاءت الحكمة الإلهية أن يكون تحقق هذا الهدف بشكل طبيعي وليس إعجازياً ، وهو ما جرت عليه السنن الإلهية في هذا العالم ، إلّا في الظروف الاستثنائية التي تتوقف على الإعجاز ، وعلى هذا الضوء فلا بد من اكتمال جميع الشرائط لكي يتحقق الهدف والغرض الإلهي .
- ٤ . إن من أهم العوامل المساهمة في تحقيق واكمال شرائط إقامة العدل هو غيبة الإمام المهدي (عجل الله تعالى فرجه الشريف) ، فجاءت الغيبة ضمن تخطيط إلهي محكم ، لكي تتولّد شرائط وأجواء مهمة النهوض بالعدل العالمي في دولة الإمام المهدي (عجل الله تعالى فرجه الشريف) ، وقد أشارت لذلك نصوص نبوية وافرة .

(١) القصص : ٥ .

٥ . حيث إنّ استمرار ودوام الإمامة لطف إلهي ، لحفظ الدين وعزّته ، وكذلك للحفاظ على الرسالة الإسلامية من الانحراف والاندراس ؛ لأنّهم عدل القرآن الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً ، وهذا ما أكدته جملة من الروايات التي نصّت على ضرورة وجود الحجّة في الأرض ؛ لأنّه لو لا الحجّة لساخت الأرض بأهلها إلى جانب تأكيد النبي ﷺ على ضرورة التمسك بأهل البيت عليه السلام ، وأنّهم هم الأمان لأهل الأرض ، فعلى هذا الأساس تمثّل الغيبة لطف إلهي ، لحفظ وجود الإمام من خلالها ، وإلاّ يكون الإمام عرضة للقتل ، وبالتالي لا يتحقّق الهدف والغاية الإلهية من وجوده المبارك عليه السلام .

٦ . إن هوية وحقيقة الغيبة هي خفاء العنوان واستتار الهوية وليس خفاء شخص الإمام عليه السلام ، وإن كان ذلك قد يحصل أيضاً إذا اقتضت الضرورة ؛ وذلك لأن الغيبة حالة استثنائية يقتصر فيها على القدر الذي ترفع به الضرورة ، وهو خفاء العنوان لا غير ، وقد سلّطت الروايات الضوء على هذه الحقيقة ، مشيرة في بعضها إلى أنّ غيبة الإمام عليه السلام كانت ستّة شبيهة بغيبة بعض الأنبياء ، كما هو الحال في غيبة موسى وعيسى عليه السلام .

٧ . أمّا الفائدة من الإمام الغائب فقد وردت روايات متضافرة في بيان فائدة الإمام في غيبته ، من قبيل روايات الانتفاع بولايته في غيبته كانتفاع الناس بالشمس وإن علاها السحاب^(١) ، ونحوها وأخيراً ذكرنا أن من جملة فوائد وجود الإمام عليه السلام غائبا هو ممارسة دوره بشكل خفي .

(١) ينابيع المودّة ، القندوزي الحنفي : ج ١ ص ٦٧ ج ٣ ص ٢٣٩ ص ٣٩٩ .

الفصل الرابع: بطلان دعوى النص على خلافة أبي بكر

خلافة أبي بكر

الشبهة :

كيف يُعترض على خلافة أبي بكر مع وجود النص عليها من قبل الرسول الأكرم ﷺ ؟

الجواب :

ليس المهم المدعيات وما ترفع من متبنيات ، بل المهم طبيعة الأدلة التي يقيمها كل طرف على صحة موقفه ومتبنياته ، ومن تلك الدعاوى الباطلة ، هي دعوى البعض بوجود النص على خلافة أبي بكر ، إلا أن بطلان هذه الدعوى من البديهيات المستغنية عن البرهنة والاستدلال ، لكننا ولأجل أن تكون الإجابة واضحة ينبغي أن نقف على جذور هذه الشبهة ودوافعها ، وفي بداية الولوج في المناقشة نذكر :

أولاً : الروايات الصحيحة وأقوال الصحابة الصريحة الدالة على عدم النص على أبي بكر :

١ . ما ورد عن أبي بكر ، أنه قال في مرضه الذي مات فيه : (وددت أني سألت رسول الله ﷺ لمن هذا الأمر ؟ فلا ينازعه أحد ، ووددت أني كنت سألته ، هل للأنصار في هذا الأمر نصيب ؟)^(١) ، ولا ريب إن حقيقة التعبير بـ (وددت أني كنت سألته ...) ، يكشف عن عدم وجود نص على أبي بكر ، وإلا فلا معنى لقوله (وددت ...) .

(١) تاريخ الأمم والملوك ، محمد بن جرير الطبري : ج ٢ ص ٦٢٠ ؛ وتاريخ مدينة دمشق ، ابن عساكر: ج ٣٠ ص ٤١٨ .

٢ . قول أبي بكر : (إن الله بعث محمداً ﷺ وسلم نبياً ، وللمؤمنين ولياً ، فمن الله تعالى بمقامه بين أظهرنا ، حتى اختار له الله ما عنده ، فخلّى على الناس أمرهم ليختاروا لأنفسهم في مصلحتهم ، متفقين غير مختلفين ، فاختاروني عليهم والياً ولأمرهم راعياً)^(١) .

٣ . ما صحّ عندهم ، عن عمر أنّه قال : (ثلاث لأن يكون رسول الله بينهن أحب إلي من حمر النعم : الخلافة ، الكلالة ، الربا)^(٢) .

٤ . ما ورد عن عمر أيضاً ، قوله : (لأن أكون سألت رسول الله ﷺ عن ثلاث أحب إلي من حمر النعم ، من الخليفة من بعده ، قال الحاكم هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه) .
٥ . كذلك عن عمر أنّه قال : (إنّ الله تعالى يحفظ دينه ، وإني إن لا أستخلف فإنّ رسول الله لم يستخلف)^(٣) .

٦ . ما ورد عن عائشة قولها : (لو كان رسول الله مستخلفاً لأستخلف أبا بكر أو عمر) [قال الحاكم في مستدركه] (هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه)^(٤) .

٧ . ما روي عن ابن عباس قال : (قالوا للنبي ﷺ : يا رسول الله ، استخلف علينا بعدك رجلاً نعرفه وننهي إليه أمرنا ، فإنّا لا ندرى ما يكون بعدك ، فقال :

-
- (١) الإمامة والسياسة ، ابن قتيبة الدينوري : ج ١ ص ٣٢ .
(٢) السنن الكبرى ، البيهقي : ج ٦ ص ٢٢٥ ؛ ونحوه المصنف ، الصنعاني : ج ١٠ ص ٣٠٢ .
(٣) مسند أحمد ، أحمد بن حنبل : ج ١ ص ٤٧ ؛ السنن الكبرى ، البيهقي : ج ٨ ص ١٤٩ .
(٤) مسند أحمد ، أحمد بن حنبل : ج ٦ ص ٦٣ ؛ المستدرک ، الحاكم : ج ٣ ص ٧٨ ؛ وغيرها من المصادر .

إن استعملت عليكم رجالاً فأمركم بطاعة الله فعصيتموه كان معصيته معصيتي ، ومعصيتي معصية الله عز وجل ، وإن أمركم بمعصية الله فأطعتموه ، كانت لكم الحجة عليّ يوم القيامة ، ولكن أكلكم إلى الله عز وجل (١) .

٨ . أخرج الحافظ أبو نعيم الأصفهاني في كتابه (دلائل النبوة) عن عبد الله بن مسعود ، يحكي عن ليلة الجن ... إلى أن قال : (ثم شبك أصابعه في أصابعي ، وقال : إني وعدت أن يؤمن بي الجن والإنس ، فأما الإنس فقد آمنت بي ، وأما الجن فقد قال وما أظن أجلي إلاّ قرب ، قلت : يا رسول الله ألا تستخلف أبا بكر ، فأعرض عني ، فرأيت أنّه لم يوافقه ، قلت يا رسول الله ألا تستخلف عمر ، فأعرض عني فرأيت أنّه لم يوافقه ، قلت يا رسول الله : ألا تستخلف عليّاً ، قال : ذلك والذي لا إله غيره لو بايعتموه وأطعتموه أدخلكم الجنة) (٢) ، وهذه الرواية تدل دلالة واضحة وبشكل لا يقبل اللبس على عدم النص على أبي بكر ، بل هي نصّ على العدم .

ثانيا : إنكار علماء السنة وجود نص دال على خلافة أبي بكر منها :

١ . ما ذكره القرطبي في تفسيره : (... والدليل على فقد النصّ وعدمه على إمام بعينه ، هو أنّه ﷺ لو فرض على الأمة طاعة إمام بعينه ، بحيث لا يجوز العدول عنه إلى غيره لعلم ذلك ، لاستحالة تكليف الأمة بأسرها طاعة الله في غير معيّن ، ولا سبيل لهم إلى العلم بذلك التكليف ، وإذا وجب العلم به لم

(١) تاريخ بغداد ، الخطيب البغدادي : ج ١٣ ص ١٦٢ ؛ تاريخ مدينة دمشق ، ابن عساكر : ج ٦٠ ص ١١٠ ؛ ونظر : كنز العمال ، المتقي الهندي : ج ١١ ص ٦٣٢ .
(٢) المعجم الكبير ، الطبراني : ج ١٠ ص ٦٧ .

يحل ذلك العلم من أن يكون طريقه أدلة العقول ، أو الخبر ، وليس في العقل ما يدلّ على ثبوت الإمامة لشخص معين ، وكذلك ليس في الخبر ما يوجب العلم بثبوت إمام معيّن ... وبطل أن يكون معلوماً بأخبار الآحاد ، لاستحالة وقوع العلم به ... وإذا بطل ثبوت النص لعدم الطريق الموصل إليه ، ثبت الاختيار والاجتهاد ... ثم لا شك في تصميم من عدا الإمامية على نفي النصّ ، وهم الخلق الكثير ، والحجم الغفير (١) .

٢ . ما ذكره النووي في شرحه لصحيح مسلم : (سئلت عائشة : مَن كان رسول الله ﷺ مستخلفاً لو استخلفه ؟ قالت : أبو بكر ...) ، قال : (وفيه دلالة لأهل السّنة أن خلافة أبي بكر ليست بنص من النبي ﷺ على خلافته صريحاً ، بل أجمعت الصحابة على عقد الخلافة له وتقديمه لفضيلته ، ولو كان هناك نصّ عليه أو على غيره لم تقع المنازعة من الأنصار وغيرهم أولاً ، ولذكر حافظ النص ما معه ، ولرجعوا إليه ، لكن تنازعوا أولاً ، ولم يكن هناك نصّ ، ثم اتفقوا على أبي بكر واستقر الأمر) (٢) .

وقد قرّره على كل ذلك القاري في كتابه المفاتيح (٣) .

٣ . وقال ابن حجر في فتح الباري : (قال القرطبي في المفهم : لو كان عند أحد من المهاجرين والأنصار نص من النبي ﷺ على تعيين أحد بعينه للخلافة لما اختلفوا في ذلك ، ولا تفاوضوا فيه ، قال : وهذا هو جمهور أهل

(١) تفسير القرطبي ، القرطبي : ج ١ ص ٢٦٥ ، ص ٢٦٦ .

(٢) شرح صحيح مسلم ، النووي : ج ١٥ ص ١٥٤ .

(٣) مرقاة المفاتيح : ج ٩ ص ٣٨٨٥ .

السنة ... (١) .

وقال ابن حجر أيضا : (وأفرط المهلب فقال : فيه دليل قاطع في خلافة أبي بكر ، والعجب أنه قرر بعد ذلك أنه ثبت أن النبي ﷺ لم يستخلف) (٢) .

٤ . قال المراغي في تفسيره : (وأوَّ ما تشاور فيه الصحابة الخلافة ، فإنَّ النبي ﷺ لم ينص عليها حتى انتهى أمرهم إلى تولية أبي بكر) (٣) .

٥ . قال الباقلاني في تمهيده : (وعلمنا بأنَّ جمهور الأمة ، والسواد الأعظم منها ينكر ذلك . النصّ . ويجحده ويبرأ من الدائن به) (٤) .

٦ . قال الخضري في المحاضرات : (الأصل في انتخاب الخليفة رضا الأمة ، فمن ذلك يستمدّ قوّته ، هكذا رأى المسلمون عند وفاة رسول الله ﷺ ، فقد انتخبوا أبا بكر الصديق اختياراً منهم لا استناداً إلى نصّ ، أو أمر من صاحب الشريعة ﷺ) (٥) .

٧ . قال ابن حجر الهيتمي في صواعقه : (وقال جمهور أهل السنة والمعتزلة والخوارج : لم ينص على أحد) (٦) .

٨ . وقال ابن أبي الحديد المعتزلي : (فلمّا رأت البكرية ما صنعت الشيعة ، وضعت لصاحبها أحاديث في مقابلة هذه الأحاديث ، نحو : (لو كنت متخذاً

(١) فتح الباري ، ابن حجر : ج ٧ ص ٢٦ .

(٢) المصدر نفسه : ج ١٣ ص ١٧٧ .

(٣) تفسير المراغي ، المراغي : ج ٩ ص ٤٣ ؛ ونحوه تفسير القرطبي ، القرطبي : ج ١٦ ص ٣٧ .

(٤) التمهيد ، الباقلاني : ص ٤٤٤ .

(٥) الغدير ، الأميني : ج ٥ ص ٣٥٧ ؛ عن المحاضرات ، الخضري : ص ٤٦ .

(٦) الصواعق المحرقة ، ابن حجر : ص ٤٢ .

خليلاً) ، فإنهم وضعوه في مقابلة حديث الإخاء ، ونحو سد الأبواب ... (^(١)) .

٩ . وقال النووي أيضا : (إن المسلمين أجمعوا على أنّ الخليفة إذا حضرته مقدّمات الموت ، وقبل ذلك يجوز له الاستخلاف ، ويجوز له تركه ، فإن تركه فقد اقتدى بالنبي ﷺ في هذا ، وإلا فقد اقتدى بأبي بكر) (^(٢)) .

١٠ . قال عبد القاهر البغدادي في الفرق بين الفرق في معرض بيانه عقائد أهل السنة : (وقالوا : ليس من النبي ﷺ نص على إمامة واحد بعينه) (^(٣)) .

١١ . وقال أبو حامد الغزالي : (ولم يكن نص رسول الله ﷺ على إمام أصلاً ، إذ لو كان لكان أولى بالظهور من نصبه آحاد الولاة والأمرء على الجنود ، ولم يحق ذلك ، فكيف خفي هذا ؟ وإن ظهر ، فكيف اندرس حتى لم ينقل إلينا ؟ فلم يكن أبو بكر إماماً إلا بالاختيار والبيعة) (^(٤)) .

ثالثاً : الشواهد القطعية على عدم النص على أبي بكر ، منها :

١ . ما اكتنفته السقيفة من أجواء الإرهاب ، والصراع الذي بلغ أوجه إلى درجة أنّه وصل حدّ العنف وإشهار السلاح ، وما احتواه مؤتمر السقيفة من أدلة ، واحتجاجات بين الأطراف المتنازعة ، وما تضمّنه من عبارات ، من قبيل (أنتم أحق الناس به) و (منّا أمير ومنكم أمير) و (نحن الأمر وأنتم الوزراء) ، وغيرها من العبارات ، ولم نجد أنّ أبا بكر احتجّ بالنص على خلافته ، مع حاجته الماسّة إلى ذلك ، كحجّة دامغة للغلبة على الطرف

(١) شرح نهج البلاغة ، ابن أبي الحديد : ج ١١ ص ٤٩ .

(٢) شرح صحيح مسلم ، النووي : ج ١٢ ص ٢٠٥ .

(٣) الفرق بين الفرق ، البغدادي : ص ٣٤٠ .

(٤) إحياء علوم الدين ، الغزالي : ج ١ ص ١٣٩ .

الآخر ، ومّا يدلّل على عدم النص أيضاً قول أبي بكر : بايعوا عمر بن الخطاب ، أو ابن عبيدة الجراح ، وقد كشف عمر عن تلك الأجواء في خطبة له يصف فيها أحداث السقيفة ، إذ قال في ختامها : (فكثر اللغط وارتفعت الأصوات حتى فرقت من الاختلاف فقلت : أبسط يدك يا أبا بكر فبسط يده فبايعته) ^(١) .

٢ . تعبير عمر بقوله : إن بيعة أبي بكر فلتة . فإن التعبير بذلك دليل بحذ ذاته على عدم النص لأبي بكر ، بأي تفسير فسّرنا معنى الفلتة ، وإلا فلماذا تكون بيعة أبي بكر فلتة على حدّ تعبير عمر ؟!! .

٣ . اعتراف عمر بالنص لعلي عليه السلام لا غيره ، وأنّه منع الرسول الأكرم صلّى الله عليه وآله من كتابة ما أراد كتابته حين وفاته .

فعن عمر في حديث له مع ابن عباس ، يذكر فيه أمر الخلافة وحق علي عليه السلام فيها ، قال : (لقد كان في رسول الله من أمره ذرو من قول ، ولقد أراد في مرضه أن يصرّح باسمه ، فمنعت من ذلك إشفاقا وحيلة على الإسلام ! ورب هذه البنية لا تجتمع قريش عليه أبدا) ^(٢) ، وهو يلتقي مع مقولة أخرى له لابن عباس : (فما منع قومكم منكم قلت لا أدري : قال لكني أدري : يكرهون ولايتكم لهم ، قلت لم ونحن لهم كالخير ، قال اللهم غفرا يكرهون أن تجتمع فيكم النبوة والخلافة فيكون بجحا بجحا) ^(٣) .

(١) صحيح البخاري ، البخاري : ج ٤ ص ٢٧٥ ح ٤٤٣٥ .

(٢) شرح نهج البلاغة ، ابن أبي الحديد : ج ١٢ ص ٢١ .

(٣) تاريخ الطبري ، الطبري : ج ٣ ص ٢٨٨ ؛ ونحوه الكامل في التاريخ ، ابن الأثير : ج ٣ ص ٦٣ ؛ ونحوه شرح نهج البلاغة ، ابن أبي الحديد : ج ١٢ ص ٥٣ .

وفي الثالثة قال : (ما أظن القوم منعهم من صاحبك إلا أنهم استصغروه) ^(١) .
وفي رابعة قال في علي عليه السلام : (والله لو لا سيفه لما قام عمود الإسلام ، وهو بعد أفضى الأمة ،
وذو سابقتها ، وذو شرفها .
فقل له ذلك القائل : فما منعكم عنه يا أمير المؤمنين ؟ قال : كرهناه على حداثة السن وحبّه بني
عبد المطلب) ^(٢) .
وقد صحّ بذلك أيضا أبو عبيدة بن الجراح . أحد أعضاء الحزب . عندما قال لعلي عليه السلام : (يا ابن
عم إنك حديث السن ، وهؤلاء . يعني أبا بكر وعمر . مشيخة قومك ... فسلم لأبي بكر هذا الأمر)
^(٣) .

٤ . ما تجلّى بصورة واضحة ، من اعتراف أبي بكر أنّه أراد إكراه علي عليه السلام على البيعة لولا وجود
فاطمة إلى جنبه ، حيث قال لعمر : (لا أكرهه على شيء ما كانت فاطمة إلى جنبه) ^(٤) ، وهذا يعني
أنّ استيلاءه على السلطة لم يكن بطريقة شرعية ولا منصوص عليها ، وإلاّ لو كان على الحق ، فلماذا
يكره عليّاً ، ويتخوّف من وجود فاطمة إلى جنبه ، وهما اللذان لا يفترقان عن الحق ، وقد أعرب علي
عليه السلام عن إكراهه على البيعة بقوله ، عندما لحق بقبر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وهو يصيح ويبكي وينادي :
(يا ابن أمّ إنّ القوم استضعفوني ، وكادوا يقتلونني) ^(٥) ، مع أنّ عدم شرعية خلافة أبي بكر لخصها أمير
المؤمنين علي عليه السلام بعد إكراهه على البيعة ، قال : (وإن بيعتي لا تحق لهم باطلا ولا توجب لهم حقّاً)

-
- (١) شرح نهج البلاغة ، ابن أبي الحديد : ج ٦ ص ٤٥ .
(٢) المصدر نفسه : ج ١٢ ص ٨٢ .
(٣) الإمامة والسياسة ، الدينوري : ج ١ ص ٢٩ ؛ السقيفة ، الجوهري : ص ٦٣ ؛ شرح نهج البلاغة ، ابن أبي الحديد : ج
٦ ص ١٢ .
(٤) الإمامة والسياسة ، الدينوري : ج ١ ص ٢٠ .
(٥) شرح نهج البلاغة ، ابن أبي الحديد : ج ١١ ص ١١١ .

ثم إن مقتضى الحديث الوارد عن رسول الله ﷺ . الذي صححه الذهبي . أنه ﷺ قال : (مَنْ أَطَاعَنِي فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ عَصَى اللَّهَ ، وَمَنْ أَطَاعَ عَلِيًّا فَقَدْ أَطَاعَنِي ، وَمَنْ عَصَا عَلِيًّا فَقَدْ عَصَانِي) (١) ، وقوله ﷺ : (فَاطِمَةُ بَضْعَةٌ مِنِّي مَنْ أَغْضَبَهَا أَغْضَبَنِي) (٢) ، وقال أيضاً لفاطمة عليها السلام : (إِنْ اللَّهُ يَغْضِبُ لَغَضْبِكَ وَيَرْضَى لِرِضَاكَ) ، قال الحاكم : (هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحُ الْإِسْنَادِ) (٣) ، وحيث إن أبا بكر وعمر آذيا علياً وفاطمة عليها السلام ، وقال أيضاً لفاطمة : (إِنْ اللَّهُ يَغْضِبُ لَغَضْبِكَ وَيَرْضَى لِرِضَاكَ) (٤) ، صححه الذهبي ، وأجبروا علياً على البيعة ، التي حاججهم فيها وأنكرها مراراً ، وهذا يكشف عن بطلان أمرهم ومفارقتهم للحق ، فلو كانوا على حق لما فارقوا علياً ، لا سيما وأن فاطمة عليها السلام ماتت وهي واجدة عليهما ، كما ذكرت ذلك عائشة ، حيث قالت : (فغضبت فاطمة بنت رسول الله ﷺ فهجرت أبا بكر ، فلم تزل مهاجرة حتى توفيت) (٥) ، وقد قالت عليها السلام لهما : (فَإِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ

-
- (١) المستدرک ، الحاكم : ج ٣ ص ١٢١ ، هذا الحديث صحيح الأسناد ولم يخرجاه ؛ تاريخ مدينة دمشق ، ابن عساکر : ج ٤٢ ص ٢٧٠ .
- (٢) صحيح البخاري ، البخاري : ج ٢ ص ٤٣٥ ؛ السنن الكبرى ، النسائي : ج ٥ ص ٩٧ ، ص ١٤٨ ؛ خصائص أمير المؤمنين عليه السلام : النسائي : ص ١٢١ ؛ المعجم الكبير ، الطبراني : ج ٢٢ ص ٤٠٤ ؛ كشف الخفاء ، العجلوني : ج ٢ ص ٨٦ ؛ الجامع الصغير ، السيوطي : ج ٢ ص ٢٠٨ ؛ وغيرها من المصادر .
- (٣) المستدرک ، الحاكم : ج ٣ ص ١٥٤ .
- (٤) ميزان الاعتدال ، للذهبي : ج ١ ص ٥٣٥ وج ٢ ص ٤٩٢ .
- (٥) صحيح البخاري ، البخاري : ج ٢ ص ٢٨٢ ؛ صحيح مسلم ، مسلم : ج ٥ ص ١٥٤ ؛ مسند أحمد ، أحمد بن حنبل : ج ١ ص ٦ ؛ السنن الكبرى : ج ٦ ص ٣٠١ .

أنتكما أسخطمتاني وما أرضيتماني ، ولئن لقيت النبي ﷺ لأشكونكما إليه (١) .

٥ . كشف معاوية بطلان خلافة أبي بكر ، وهذا ما نلمسه واضحاً في رسالته لمحمد بن أبي بكر حيث جاء فيها : (... فقد كنت وأبوك فينا نعرف فضل ابن أبي طالب ، وحقه لازماً لنا مبروراً علينا ، فلما اختار الله لنبيه ﷺ ما عنده ، وأتم له ما وعده ، وأظهر دعوته ، وأبلغ حجته ، وقبضه الله إليه صلوات الله عليه ، فكان أبوك وفاروقه أول من ابتز حقه ، وخالفه على أمره ، على ذلك اتفقا واتسقا ، ثم أحمنا دعواه إلى بيعتهما فأبطأ عنهما ، وتلكأ عليهما ، فهما به الهموم ، وأرادا به العظيم ثم أنه بايع لهما وسلم لهما ، وأقاما لا يشركانه في أمرهما ، ولا يطلعانه على سرهما ... أبوك مهّد مهاده وبني ملكه وسادة ، فإن يك ما نحن فيه صواباً ، فأبوك استبدّ به ونحن شركاؤه ، ولو لا ما فعل أبوك من قبل ما خالفنا ابن أبي طالب ، ولسلمنا إليه ، ولكننا رأينا أباك فعل ذلك به من قبلنا ، فأخذنا بمثله ، فعبّ أباك بما بدا لك ، أو دع ذلك ، والسلام على من أجاب (٢) .

٦ . لو فرض وجود نص على أبي بكر ، فإنه يلزم التناقض مع حشد وافر من الآيات القرآنية والنصوص النبوية ، الدالة على إمامة علي بن أبي طالب عليه السلام ، كآية الولاية ، وآية أولي الأمر ، وآية المباهلة ، وآيات البلاغ ، وحديث الدار ، وحديث المنزلة ، وحديث الطير ، وواقعة الغدير وآياتها التي كان فيها أبوبكر وعمر من أول المهنيين للإمام علي عليه السلام ، وحديث

(١) الإمامة والسياسة ، الدينوري : ج ١ ص ٣١ .

(٢) مروج الذهب ، المسعودي : ج ٣ ص ٢٢ ؛ أنساب الأشراف ، البلاذري : ص ٣٩٧ ؛ وقعة صفين ، المنقري : ص

١٢٠ . ١٢١ ؛ النزاع والتخاصم ، المقرئ : ص ١٠٢ ؛ شرح نهج البلاغة ، ابن أبي الحديد : ج ٣ ص ١٩٠ .

الثقلين ، التي لا شك في دلالتها على ذلك ، وكما قال ابن أبي الحديد المعتزلي : لو كانت هناك نصوص على أبي بكر فهي من وضع البكرية لكي تكون في قبيل ما يستند إليه الشيعة من نصوص على ولاية علي عليه السلام^(١) .

٧ . لا أدري أي معنى للنص على أبي بكر ، مع أنه لو كان أبو بكر مؤهلاً أن يقود سرية صغيرة للجيش لأمره رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قائداً لسرية أسامة بن زيد بدل أن يضعه جندياً عادياً ، وهو ذو الشيبة البيضاء ، تحت إمرة أسامة بن زيد الذي لم يتجاوز عمره العشرين سنة .

٨ . احتجاج أبي بكر في السقيفة على أن الإمامة من قريش ، فلو كان منصوباً عليه لاحتج بذلك النص ، وقوله : (أقيلوني أقيلوني فلست بخيركم) ، يكشف عن عدم وجود نص ، وعدم أفضليته على الآخرين ، وعدم أهليته لذلك المقام .

٩ . قول عمر لأبي عبيدة بن الجراح : (ابسط يدك أبايعك) ، فلو كان هناك نص على أبي بكر لما جاز لعمر أن يبايع أبا عبيدة ابن الجراح .

١٠ . ذكرنا في الجواب عن حديث الاثني عشر : أنه ليس له تفسير صحيح ، ولا تطبيق واقعي ، إلا على إمامة وولاية أهل البيت عليهم السلام ، أولهم علي عليه السلام وآخرهم المهدي عليه السلام ، كما ثبت ذلك بالأدلة القاطعة ، وعلى هذا الأساس لا معنى لكون أبي بكر منصوباً عليه ، أو هو الخليفة الشرعي ، بأي وجه كان ، وإلا فسيكون حديث الاثني عشر خليفة كلهم من قريش باطلاً ، وبطلانه يتنافى مع صحة الحديث وتسالم الفريقين على نقله في المصادر المعتبرة .

(١) راجع : شرح نهج البلاغة ، ابن أبي الحديد : ج ١١ ص ٤٩ .

رابعاً : معالم تحرك الحزب القرشي :

كانت وفاة النبي ﷺ من أخطر التجارب والمنعطفات التي مرّ بها المجتمع الإسلامي ، بعد كل التضحيات التي بذلت من أجل الدين ، وبعد كل التوصيات والأوامر القرآنية والنبوية على لزوم اتباع علي عليه السلام بعد الرسول ﷺ ، وأنه وصي رسول الله ، إلا أنّ القوم تمردوا على إرادة الله ورسوله ﷺ .

وقد برز هذا المنحى للتمرد على أوامر الرسول ﷺ بشكل واضح ، عندما تخلف البعض . لا سيّما أبو بكر وعمر . عن الالتحاق بجيش أسامة ، ومن ثم تبعها تمردهم على النبي ﷺ ، ومنعه من كتابة ما أراد كتابته حين وفاته ﷺ ، فباعتراف عمر أنّ رسول الله ﷺ أراد أن يكتب كتاباً يوصي فيه بالولاية والخلافة لعلي ، وإني علمت ذلك فمنعته ، وهذا الاعتراف الصريح بعصيان الرسول ﷺ ، مع أن الله تعالى يقول : (وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا) ^(١) ، وقد برّز منعه للرسول ﷺ حين وفاته ، بأن الرسول يهجر ، وهذا خلاف القرآن الكريم ، قال تعالى : (وَمِمَّا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ) ^(٢) .

والمصيبة الأعظم ، هي تركهم رسول الله ﷺ بعد وفاته مسجى على فراشه ، واجتماعهم في سقيفتهم ، يتداولون فيها مستقبلهم السياسي ، والأغرب من ذلك أنّهم لم يكن بينهم وبين واقعة الغدير . التي نصّب فيها رسول الله ﷺ علياً عليه السلام إماماً وولياً . إلا سبعون يوماً فقط .

(١) الأحزاب : ٣٦ .

(٢) النجم : ٣ - ٤ .

وبالتأمل في سلسلة الأحداث التي كانت في حياة الرسول ﷺ ، أو بعد وفاته ﷺ ؛ نجد أن هنالك خيوطاً مرتبطة ومتشابكة فيما بينها ، حيث توجد شواهد تاريخية متضافرة تكشف عن وجود تحرّش قرشيّ كان يعمل منذ عهد رسول الله ﷺ ، يحاول أن يكون له دور متميز في الصحة والوجاهة والقيادة ، ويسعى لاحتواء الدور القيادي بديلاً عن العترة الطاهرة الذي كان يصرح رسول الله ﷺ بخلافتهم وقيادتهم للأمة من بعده ، ومن أبرز معالم هذا التحرك الذي يعتبر شاهداً على وجود هذه النزعة لمثل هذا التحرش هي :

١ . النزعة العامة عند أقطاب هذا التوجه لأن يكون لهم دور متميز في المسيرة ، كما في مبادرتهم إلى الظهور والتقدم بين يدي رسول الله ﷺ ، لا سيّما المبادرات والاقتراحات المثيرة للالتفات التي لم تعهد من أحد من الصحابة والقريبيين من الرسول ﷺ ، ومن جملة محاولاتهم الظهور في المواقع التي لا ينبغي لأحد أن يكون له رأي ، كإبداء الرأي في مقابل قول رسول الله ﷺ ، بل يبدو من بعض المواقف أيضاً أنّهم كانوا يتدخلون فيما ليس من شأنهم التدخل فيه ، كمطالبات عمر المتكررة من رسول الله ﷺ بالإذن له في ضرب الأعناق ، خاصة وأن النبي ﷺ كان في جميع هذه الحالات لا يريد قتل أولئك الأشخاص ، ولم يأذن لهم بوحدة منها ، كما في قول عمر في حق ابن صياد : (دعني يا رسول الله أضرب عنقه ، فقال

النبي ﷺ : إن يكنه فلن تسلط عليه ، وإن لم يكنه فلا خير لك في قتله (١) ، وكقوله أيضاً في عبد الله بن ذي الخويصرة عندما قال لرسول الله ﷺ : (اعدل يا رسول الله ، فقال ﷺ : ويلك من يعدل إذا لم أعدل ، قال عمر : دعني أضرب عنقه) (٢) ، وعن أنس قال : جاء رجل من أهل الكتاب فسلم على النبي ﷺ فقال : (السلام عليكم ، فقال عمر يا رسول الله ألا أضرب عنقه ، قال ﷺ : لا ...) قال الهيثمي في مجمع الزوائد : رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح (٣) ، هذا مع أن عمر لم يعرف منه في مواطن الجِد والضرب إلاّ الهرب كما هو الحال في معركة أُحد ، وبالإسناد عن عبد الرحمان بن رافع أخو بني النجارة قال : انتهى أنس بن النضر عم أنس بن مالك إلى عمر وطلحة بن عبد الله في رجال من المهاجرين والأنصار وقد ألقوا بأيديهم ، فقال : ما يجلسكم ؟ قالوا : قد قتل محمد رسول الله . قال : فما تصنعون بالحياة بعده ؟ قوموا فموتوا على ما مات عليه رسول الله ! فاستقبل القوم فقاتل حتى قتل (٤) ، والخذق وحنين وغيرها (٥) ، ولم ينقل لنا التاريخ أنّه قتل كافراً في معركة ، أو غزوة مع رسول الله ﷺ .

-
- (١) صحيح البخاري ، البخاري : ج ١ ص ٣٥٩ ، باب إذا أسلم الصبي فمات هل يصلّى عليه ؛ صحيح مسلم ، مسلم : ج ٨ ص ١٩٢ .
- (٢) صحيح البخاري ، البخاري : ج ٤ ص ٣٠٠ ، باب من ترك قتال الخوارج للتألف وأن لا ينفر الناس عنه ؛ صحيح مسلم ، مسلم : ج ٣ ص ١١٢ .
- (٣) مجمع الزوائد ، الهيثمي : ج ٨ ص ٤١ .
- (٤) جامع البيان ، الطبري : ج ٤ ص ١٥٠ ، البداية والنهاية ، ابن كثير : ج ٤ ص ٣٩ ، الدر المنثور ، السيوطي : ج ٢ ص ٨٠ .
- (٥) المستدرک ، الحاكم : ج ٣ ص ٢٧ ، مجمع الزوائد ، الهيثمي : ج ٦ ص ١١٢ ؛ وصححه الذهبي في تلخيصه ؛ التفسير الكبير ، الرازي : ج ٩ ص ٦٧ ؛ الدر المنثور : السيوطي : ج ٢ ص ٨ .

٢ . النزعة والأمل عندهم في أن يكون لهم دور كدور علي بن أبي طالب عليه السلام ومميزاته وخصوصياته التي خصه بها الله ورسوله ﷺ ، وهذا ما نلمسه واضحاً في تصرفاتهم وأفعالهم أمام المسلمين ، كمبادرتهم إلى الإتيان بأعمال إعلامية من أجل التمهيد بأنهم هم المعنيون في بعض الأحاديث والآيات والمواقف التي هي خاصة بعلي عليه السلام ، منها :

أ . ما كان يتطلع له أبو بكر وعمر من تقبُّص دور الإمام عندما قال رسول الله ﷺ لجماعة من قريش : (لن تنتهوا يا معشر قريش ، حتى يبعث الله رجلاً امتحن الله قلبه بالإيمان يضرب أعناقكم وأنتم مجفلون عنه إجمال النعم .

قال أبو بكر : أنا هو يا رسول الله ﷺ : لا ، قال له عمر : أنا هو يا رسول الله ، قال ﷺ : لا ، ولكنه خاف النعل ، قال وفي كف علي نعل يخصفها لرسول الله ﷺ (١) .

ب . أمنية عمر في واقعة خيبر ، عندما كان علي عليه السلام أرمداً لا يبصر ، فلم يستطع التواجد في بداية المعركة ، وقد قاتل المسلمون يومين ، يوماً كانت الراية فيه بيد أبي بكر ، ويوماً كانت بيد عمر ، فلم يفلحوا في الفتح ، فقال النبي الأكرم ﷺ : لأدفعنَّ اللواء غدداً إلى رجل يحب الله ورسوله ، ويحبه الله ورسوله ، كرار غير فرار يفتح الله عليه ، جبريل عن يمينه ، وميكائيل عن

(١) راجع : تاريخ بغداد ، الخطيب البغدادي : ج ١ ص ١٤٤ ؛ ج ٨ ص ٤٣٣ ؛ وقد وثق روايته الخطيب البغدادي ؛ تاريخ مدينة دمشق ، ابن عساكر : ج ٤٢ ص ٢٤٢ ؛ المناقب ، الخوارزمي : ص ١٤٢ . كنز العمال ، المتقي الهندي : ج ١٣ ص ١١٥ .

يساره ، قال عمر ما تمنيت الإمرة إلاّ يومئذٍ ، فلما كان الغد تناولت لها ، وفي رواية (فبات الناس متشوقين) ، ما إلى ذلك من التعابير والتصريحات التي تكشف عن تمّي كثير من الصحابة أن تكون الراية له ، وأمّا عمر فقد صحّ بقوله : تناولت لها ^(١) ، فلما أصبح قال رسول الله ﷺ : (ادعوا إلي عليّ رضي الله عنه ، فأوتي به أرمداً ، فبصق في عينه ودفع الراية إليه ، ففتح الله عليه) ^(٢) ، وقد صحّحها الهيتمي في مجمع الزوائد ^(٣) .

ج . عندما قدم وفد ثقيف على النبي ﷺ قال لهم : (لتسلمن ، أو لأبعثنّ إليكم رجلاً مّي . أو قال مثل نفسي . فليضربنّ أعناقكم ، وليسينّ ذرايكم ، وليأخذن أموالكم ، قال عمر : والله ما اشتهيت الإمارة إلاّ يومئذ ف جعلت أنصب صدري ، رجاء أن يقول هو هذا ، فالتفت إلى علي فأخذ بيده ، ثم قال : هو هذا ، هو هذا) ^(٤) ، وفي رواية أخرى قول عمر : (فو الله ما تمنيت الإمارة إلاّ يومئذ ، فجعلت أنصب صدري رجاء أن يقول هو هذا) ^(٥) ، وفي رواية ثالثة : (فما أحببت الإمارة قبل يومئذٍ ، فتناولت لها واستشرفت) ^(٦) ، قال الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة : (أخرجه الطيالسي (رقم ٢٤٤١) ...

-
- (١) صحيح البخاري ، البخاري : ج ٥ ص ٧٦ ؛ صحيح مسلم ، مسلم : ج ٧ ص ١٢١ ؛ طبقات ابن سعد ، ابن سعد : ج ٢ ص ١١٠ ؛ مسند أحمد ، أحمد بن حنبل : ج ٢ ص ٣٨٤ ؛ تاريخ مدينة دمشق ، ابن عساكر : ج ٤١ ص ٢١٩ وغيرها من المصادر .
- (٢) صحيح مسلم ، مسلم : ج ٧ ص ١٢٠ ؛ وانظر صحيح البخاري ، البخاري : ج ٢ ص ٢٦١ ؛ مسند أحمد ، أحمد بن حنبل : ج ١ ص ١٨٥ .
- (٣) مجمع الزوائد ، الهيتمي : ج ٩ ص ١٢٤ .
- (٤) أنساب الأشراف ، البلاذري : ص ١٢٣ . ١٢٤ .
- (٥) جواهر المطالب في مناقب الإمام علي عليه السلام ، ابن الدمشقي الشافعي : ج ١ ص ٦٠ ؛ ذخائر العقبى : ص ٦٤ ؛ ينابيع المودة ، القندوزي : ج ٢ ص ١٥٣ .
- (٦) سلسلة الأحاديث الصحيحة ، الألباني : مج ١ ؛ القسم الثاني : ص ٧٦٦ .

ومن هذا الوجه أخرجه أحمد أيضا ... وهذا سند صحيح على شرط مسلم ، وصححه ابن حبان (٩ / ٤٣ - ٤٤) (١) .

وفي خصائص النسائي : (فما راعني إلا كف عمر في حجزتي من خلفي ، وقال : مَن يعني ؟ قلت إيتاك يعني وصاحبك ، قال : فَمَن يعني ؟ قلت خاصف النعل) (٢) ، وفي رواية أخرى : (ما إيتاك يعني ولا صاحبك ، قال : فَمَن يعني : قلت : خاصف النعل) (٣) ، والحديث روي في ينابيع المودة من عدة مصادر .

د . وعن أبي سعيد الخدري قال : (كنّا جلوسا ننتظر رسول الله ﷺ ، فخرج إلينا فانقطع شسع نعله ، فرمى به إلى علي عليه السلام فقال : إنّ منكم رجلاً يقاتل الناس على تأويل القرآن ، كما قاتلت على تنزيله : قال أبو بكر أنا ، قال عمر : أنا ، قال : لا ، ولكن خاصف النعل) (٤) ، وفي رواية أخرى : (أنا هو يا رسول الله قال : لا ، قال عمر أنا هو يا رسول الله قال : لا ولكن خاصف النعل) (٥) ، وفي رواية : (فقال بعضهم أنا هو يا رسول الله ، قال ﷺ لا وقال :

-
- (١) سلسلة الأحاديث الصحيحة ، الألباني : مع ١ ؛ القسم الثاني : ص ٧٦٦ .
- (٢) خصائص أمير المؤمنين ، النسائي : ص ٨٩ .
- (٣) السنن الكبرى ، النسائي : ج ٥ ص ١٢٧ - ١٢٨ ؛ مناقب أمير المؤمنين : القاضي محمد بن سليمان الكوفي : ج ١ ص ٤٦١ ؛ ونحوه شرح نهج البلاغة ، ابن أبي الحديد : ج ٩ ص ١٦٧ ؛ ينابيع المودة ، القندوزي : ج ١ ص ١٦٦ .
- (٤) خصائص أمير المؤمنين عليه السلام ، النسائي : ص ١٣١ ؛ ونحوه تاريخ مدينة دمشق ، ابن عساكر : ج ٤٢ ص ٤٥٣ .
- (٥) مستدرک الحاكم ، الحاكم النيسابوري : ج ٢ ص ١٣٨ ، قال فيه : (هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجه) ؛ صحيح ابن حبان ، ابن حبان : ج ١٥ ص ٣٨٥ ؛ مجمع الزوائد ، الهيثمي : ج ٥ ص ١٨٦ ، قال فيه : (رواه أبو يعلى ورجاله رجال الصحيح) ؛ البداية والنهاية ، ابن كثير : ج ٦ ص ٢٤٣ ؛ المصنف ، الصنعاني : ج ٧ ص ٤٩٧ ؛ خصائص أمير المؤمنين ، النسائي : ص ١٣١ ؛ مسند أبي يعلى ، أبي يعلى الموصلي : ج ٢ ص ٣٤١ .

آخر أنا هو قال : لا ولكن خاصف النعل (^(١)) ، وقد صحّحه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (^(٢))

هـ . وعن عمران بن حصين قال : (بعث رسول الله ﷺ جيشاً ، واستعمل عليهم علي بن أبي طالب ، فمضى في السريّة ، فأصاب جارية ، فأنكروا عليه ، وتعاقدوا أربعة من أصحاب رسول الله ﷺ فقالوا : إن لقينا رسول الله ﷺ أخبرناه بما صنع علي ، وكان المسلمون إذا رجعوا من سفر بدأوا برسول الله ﷺ فسلموا عليه ، ثم انصرفوا إلى رحالهم ، فلما قدمت السرية سلموا على النبي ﷺ فقالوا : فقام أحد الأربعة فقال : يا رسول الله ! ألم تر إلى علي بن أبي طالب صنع كذا وكذا ، فأعرض عنه رسول الله ﷺ ، ثم قام الثاني ، فقال مثل مقالته ، فأعرض عنه ، ثم قام إليه الثالث ، فقال مثل مقالته ، فأعرض عنه ، ثم قام الرابع ، فقال مثل ما قالوا ، فأقبل إليه رسول الله ﷺ والغضب يعرف في وجهه ، فقال : ما تريدون من علي ؟ إنّ عليّاً منّي ، وأنا منه ، وهو وليّ كل مؤمن بعدي (^(٣)) .

وقد لوحظ استمرار هذه النزعة وانعكاسها على حياة الشيخين وأتباعهما ، حتى آخر لحظات حياة النبي ﷺ ، وهذه الظاهرة تلتقي وتنسجم مع ما افتعله عمر من تشويش على النبي ﷺ ، وما أحدثه من ضجة لمنع الرسول ﷺ من كتابة الكتاب الذي أراد تدوينه ؛ وذلك يلتقي أيضاً مع ما فعله عمر يوم وفاة النبي ﷺ ، ويتناغم كذلك مع ما صرّح به لابن عباس كما سلف .

(١) المعجم الأوسط ، الطبراني : ج ٤ ص ١٥٨ .

(٢) سلسلة الأحاديث الصحيحة ، الألباني : مج ٥ : ص ٦٣٩ ح ٢٤٨٧ .

(٣) مسند أحمد ، أحمد بن حنبل : ج ٤ ص ٤٣٧ ؛ سنن الترمذي ، الترمذي : ج ٥ ص ٢٩٦ ح ٣٧٩٦ ؛ خصائص أمير المؤمنين ، النسائي : ص ٩٧ ؛ صحيح ابن حبان ، ابن حبان : ج ١٥ ص ٣٧٣ ؛ مستدرک الحاكم ، الحاكم النيسابوري : ج ٣ ص ١١٠ ، [وقال الحاكم :] (هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجه) ؛ سلسلة الأحاديث الصحيحة ، الألباني : ج ٥ ص ٢٦١ ح ٢٢٢٣ .

٣ . العلاقات التي كانت قائمة بين قادة التحرك لم تكن عفوية ، بل كانت هادفة ، ومشفوعة بشيء من الثقافة في مجال الولاية ، بمعنى أنهم يدركون أنّ الولي الشرعي بعد رسول الله ﷺ هو علي عليه السلام ، ولا يخفى على المتأمل البصير كيف كان تركيزهم على حديث أن الخلفاء (كلهم من قريش) دون باقي الأحاديث التي هي أخص من ذلك ، كحديث (كلهم من بني هاشم) ، وعلى ضوء ذلك يتضح ما افتعله البعض من ضجة ، حينما بين الرسول ﷺ من هم الأئمة من بعده ، بحيث ما سُمح للرسول ﷺ من إيصال كلامه لبعض الحاضرين ، حتى أنّ الراوي . جابر بن سمرة . عندما لم يسمع الحديث بكامله من رسول الله ﷺ استفهم من بعض الحاضرين ، كأبيه وعمر ، فأثبتوا له الحديث .

ومما يؤكد انسجام فكرة التحريمّ وسبق التثقيف عليها عند أقطاب هذا الاتجاه وقواعده ، هو ما حصل في السقيفة من احتجاجات إعلامية منسجمة مع بعضها البعض ، مع أنّ تلك الاحتجاجات كانت تعتمد على أمرين بينهما تناقض واضح ، ومع ذلك فإنّهما تمّ عرضهما بأسلوب مهذب ومنمّق ، يوهم عدم التناقض بينهما ، وهما :

أولاً : ولاية قريش

وثانياً : استبعاد أهل البيت عليهم السلام ، وإهمال ذكرهم ، كأن لا وجود ولا دور لهم في مجال القيادة والخلافة .

فأوحوا إلى الذين حضروا مؤتمر السقيفة ، أنّ ورثة الرسول ﷺ هم قريش ، وفي مقدمتهم أبو بكر وعمر ، هذا مع قدرة عالية على توظيفهم السوابق وما قام به الشيخان من الأعمال التمهيدية التي افتعلوها في زمن النبي ﷺ ، ومحاولات أخذ دور علي عليه السلام ، بشكل منمّق ومنسق كما تقدم ، وتوظيف قضية هجرة أبي بكر مع النبي ﷺ ، مع أنّها لا تعني شيئاً من معاني القرب والأفضلية والتقديم على الآخرين ، فكثير ما يتخذ القادة رفقاء لهم في الهجرة مع الأتباع العاديين .

فصوّر الشيخان وكأتهما أكثر التصاقاً بالنبي ﷺ من علي عليه السلام ، ولا يخفى ما في ذلك من

حسد ...

٤ . ممّا يشهد بوجود التنسيق المسبق بين أقطاب هذا التحرك ، هو شكل الحكومة التي تمخّضت عن السقيفة ، الخلافة ، قال ابن الأثير : (لمّا ولي أبو بكر قال له أبو عبيدة : أنا أكفيك المال . وقال له عمر : أنا أكفيك القضاء)^(١) ، وفي المصطلح المعاصر أنّ الأول تولّى السلطة العليا ، والثاني تولّى السلطة الاقتصادية ، والثالث تولّى السلطة القضائية ، وهذه أهم الوظائف الرئيسية في نظام الحكم الإسلامي ، فإنّ تقسيم هذه المراكز الحيوية في الحكومة الإسلامية بهذا الشكل على هؤلاء الثلاثة الذين قاموا بدور كبير في اجتماع السقيفة ، لا يأتي عن صدفة ، ولم يكن أمراً عفويّاً ومرتبلاً .

(١) الكامل في التاريخ ، ابن الأثير : ج ٢ ص ٤٢٠ .

ومّا يدعم ذلك قول أبي بكر : (إني لا آسى على شيء من الدنيا إلا على ثلاثة فعلتھن ، وودت أنّي تركتھن ، ... وودت أنّي يوم سقيفة بني ساعدة كنت قدذت الأمر في عنق أحد الرجلين عمر وأبا عبيدة فكان أحدهما أميراً وكنت وزيراً)^(١) ، وكذلك قول عمر حين حضرته الوفاة : (لو كان أبو عبيدة حيّاً لاستخلفته)^(٢) ، وهذا يلتقي مع رواية أبي مليكة ، قال : (سئلت عائشة مَن كان رسول الله ﷺ مستخلفاً لو استخلفه ؟ قالت : أبو بكر ، فقليل لها : ثم مَن بعد أبي بكر ؟ قالت : عمر ، ثم قيل لها : مَن بعد عمر ؟ قالت : أبو بكر ، وفي رواية أخرى عن عبد الله بن شقيق قال : (سئلت عائشة ، أي أصحاب رسول الله كان أحب إليه ؟ قالت : أبو بكر ، ثم عمر ، ثم أبو عبيدة بن الجراح ، قلت : ثم مَن ؟ فسكت)^(٣) .

وكل هذه الشواهد تؤكّد وجود التناغم والتنسيق بينهم ، ويبدو أنّ عائشة كان لها اطلاع على هذا الأمر ، بل قد تكون شريكة لهم في الحزب وأحد أعضائه .

٥ . من الأدلة على وجود التخطيط المسبق ، ما فعله عثمان بن عفّان عندما كتب اسم عمر في الوصية ، كخليفة من بعد أبي بكر ، من دون أن يأمره أبو بكر بذلك ، حيث كان مغمي عليه ، فمن أين علم عثمان أنّ عمر هو خليفة أبي بكر ، مع أنّه كان مغمي عليه ، ومن أعجب المفارقات أنّ أبا بكر تُكتب وصيّته وهو مغمي عليه ، ورسول الله ﷺ . الذي لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى . يقال : إنّّه ليهجر ، حينما أراد أن يكتب كتاباً للأمة لن تضل بعده أبداً !!!

-
- (١) تاريخ الأمم والملوك ، الطبري : ج ٢ ص ٦١٩ ؛ تاريخ مدينة دمشق ، ابن عساكر : ج ٣ ص ٤١٨ ، ص ٤٢٠ .
(٢) تاريخ الطبري ، الطبري : ج ٣ ص ٢٩٢ ؛ تاريخ مدينة دمشق ، ابن عساكر : ج ٥ ص ٤٠٤ ؛ شرح نهج البلاغة ، ابن أبي الحديد : ج ١ ص ١٩٠ .
(٣) صحيح مسلم ، مسلم : ج ٧ ص ١١٩ ؛ فضائل الصحابة ، أحمد بن حنبل : ص ٣٠ ؛ فتح الباري : ج ٧ ص ٢٥ ، وغيرها من المصادر الكثيرة .
(٤) فضائل الصحابة ، أحمد بن حنبل : ص ٣٠ ؛ سنن الترمذي ، الترمذي : ج ٥ ص ٢٦٨ .

٦ . قول علي عليه السلام لعمر : (احلب يا عمر حلباً لك شطره ، اشدد له اليوم أمره ليرد عليك غداً ، ثم قال : والله يا عمر لا أقبل قولك ولا أبايعه) ^(١) .

٧ . مما يكشف عن وجود هذا المنحى التحزبي ، هو أنّ قريشاً التي كانت في مجتمع الجزيرة الذي تحكمه النزعة القبلية كانت ترفض اجتماع القيادة في بيت واحد ، فقريش لم تكن تتحمل ظهور نبي في بطن من خيار بطونها ، بل أفضلها ، وهم بنو هاشم ؛ لذلك اجتمعت كلمتها على محاربة النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، فكيف تتحمل أن يستمر بنو هاشم بالخلافة بعد النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، لا سيما وأنّ قريشاً كان الطابع السياسي فيها قائم على اقتسام مناصب الشرف والسيادة ، ومن هنا لم تكن قريش تريد أن يتميز البطن الهاشمي عن بقية بطونها ، وأن يتفوق عليها ، وقد سادت هذه الفكرة والعقلية الأجواء السياسية المحمومة في أواخر حياة النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وقريشاً مدركة أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ميت لا محالة في مرضه هذا ، وقد أخبرهم صلى الله عليه وآله وسلم بذلك ، فلو تركت الأمور على مجراها الطبيعي ، فالخلافة ستؤول إلى علي عليه السلام حتماً ، من هنا تحرك الحزب المناوي لبني هاشم ، وهذه الفكرة أفصح عنها عمر في محاورته مع ابن عباس قائلاً : (أتدري ما منع قومكم منكم بعد محمد ؟ قال ابن عباس : فكرهت أن أجيئه ، فقلت : إن لم أكن أدري ، فإنّ أمير المؤمنين يدري ؟ فقال عمر : كرهوا أن يجمعوا لكم النبوة والخلافة) ^(٢) .

(١) الإمامة والسياسة ، الدينوري : ج ١ ص ٢٩ ؛ شرح نهج البلاغة ، ابن أبي الحديد : ج ٦ ص ١١ .

(٢) تاريخ الطبري ، الطبري : ج ٣ ص ٢٨٩ ؛ الكامل في التاريخ ، ابن الأثير : ج ٣ ص ٦٣ .

بل نجد أنّ حالة التطلّع إلى السلطة والقيادة كان موجوداً حتى عند القبائل النائية ، فكيف بقريش ، يقول الطبري في تاريخه : (كان رسول الله ﷺ يعرض نفسه في المواسم . إذا كانت . على قبائل العرب يدعوهم إلى الله وإلى نصرته ... - إلى أن يقول . إنه أتى بني عامر بن صعصعة فدعاهم إلى الله ، وعرض عليهم نفسه ، فقال رجل منهم ، يقال له ببحرة بن فراس : والله لو أتي أخذت هذا الفتى من قريش لأكلت به العرب ، ثم قال له : رأييت إن نحن تابعناك على أمرك ، ثم أظهرك الله على من خالفك ، أليكون لنا الأمر من بعدك ؟ قال الأمر إلى الله يضعه حيث يشاء ، قال : فقال له : أفتهدف نحورنا للعرب دونك ، فإذا ظهرت كان الأمر لغيرنا ؟! لا حاجة لنا بأمرك ، فأبوا عليه)^(١) .

فإذا كان هذا حال القبائل الصغيرة والمتوسطة والنائية في تطلّعها إلى السلطة والحكم بعد رسول الله ﷺ ، فكيف بقريش وهي تعد نفسها أشرف قبائل العرب ، لا سيّما وأنّ الله سبحانه وتعالى قال في كتابه الكريم : (لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ) ، وقد أخبر النبي ﷺ عن مستقبل الدين الإسلامي ، وأنّه سوف يسود العالم ، وكذلك ما تنبأت به الكهنة والمنجمون الذين تعتمد عليهم قريش كثيراً ، وقد ذكرت إخباراتهم بمستقبل النبي ﷺ ، وما يؤول إليه الدين الإسلامي ، في كتب السير والتواريخ ؛ لذا كانت اليهود والنصارى كثيراً ما تتوجّد المشركين بالظفر عليهم عند بعثة خاتم النبيين من مكّة المكرّمة ؛ ولذا هاجروا من بلاد الشام ، واستوطنوا الحجاز انتظاراً لبعثة النبي ﷺ ، وقد أشار القرآن الكريم

(١) تاريخ الطبري ، الطبري : ج ٢ ص ٨٣ - ٨٤ .

لذلك بقوله تعالى : (وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكِتَابٌ مِنْ قَبْلِ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ)^(١) .

٨ . عندما تخلف عن بيعة أبي بكر قوم من المهاجرين والأنصار ، ومالوا مع علي بن أبي طالب عليه السلام ، وتحصنوا في دار فاطمة عليها السلام : (أرسل أبو بكر إلى عمر بن الخطاب وأبو عبيدة بن الجراح والمغيرة بن شعبة ، فقال : ما الرأي ؟ قالوا : الرأي أن تلقى العباس بن عبد المطلب فتجعل له في هذا الأمر نصيبا ، يكون له ولعقبه من بعده ، فتقطعون به ناحية علي بن أبي طالب ، حجة لكم على علي إذا مال معكم ، فانطلق أبو بكر وعمر وأبو عبيدة بن الجراح والمغيرة حتى دخلوا على العباس ليلا)^(٢) .

إذن قريش كانت تعلم أنّ مستقبل الدين هو سيادته على جميع البلدان ، وعلى ضوء ذلك يتضح تخطيط الحزب القرشي في الاستحواذ على السلطة وإبعاد بني هاشم عنها ، وأنّه كان في مقدمة أهدافها ، فلم تكن المسألة مسألة نص ، أو تعيين لأبي بكر من قبل رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم ، بل هو أمر دُبر بليلى .

خامسا : سياسات السلطة الحاكمة يكشف عن عدم الشرعية

ما أن سيطر الحزب القرشي على مواقع السلطة في الدولة ، حتى بدت بعض الظواهر والممارسات المنحرفة ، التي اتبعها الحزب ، والتي تكشف عن نواياه الباطلة وغير الشرعية .

(١) البقرة : ١٩ .

(٢) تاريخ يعقوبي : ج ٢ ص ١٢٤ . ١٢٥ ؛ ونحوه الإمامة والسياسة ، الدينوري : ج ١ ص ٢١ ؛ السقيفة ، أبو بكر الجوهري : ص ٤٩ ؛ شرح نهج البلاغة ، ابن أبي الحديد المعتزلي : ج ٢ ص ٥٢ .

ومن أبرز تلك السياسات هي موقفهم من بني هاشم .

فإن الخطوة الأولى التي ابتدأها الحزب القرشي ، هي إبعاد بني هاشم عن الحكم نهائياً ؛ للقضاء على كل معارضة محتملة مستقبلاً ، حيث اعتمدوا لإنجاز هذا الإجراء عدّة آليات ، منها :

١ . اتهم بني هاشم بإحداث وإثارة الفتنة ، التي تؤدّي إلى ضعف الكيان الإسلامي ، كقول أبي بكر في حق علي عليه السلام : (مرب لكل فتنة)^(١) ، وقد ساعدهم على التبجح بهذا الاتهام الظروف الإسلامية آنذاك ، من وجود الأعداء خارج البلاد كالروم وبلاد فارس واليهود وغيرها ، الذين يهددون الدولة الإسلامية ، مضافاً إلى أحداث الردة وغيرها .

٢ . أسلوب الشتم والعنف مع الإمام علي عليه السلام ومن معه ، بنفس الطريقة التي اتبعوها مع سعد بن عبادة في السقيفة ، حتى بلغ العنف والشدة في عمر أن هدد بحرق بيت علي عليه السلام وإن كانت فاطمة فيه ، حيث قال : (والذي نفس عمر بيده لتخرجن أو لأحرقنها على من فيها ، فقليل له : يا أبا حفص : إن فيها فاطمة ؟ فقال : وإن ... فوقفت فاطمة (رضي الله عنها) على بابها ، فقالت : لا عهد لي بقوم حضروا أسوأ محضر منكم ، تركتم رسول الله ﷺ جنازة بين أيدينا ، وقطعتم أمركم بينكم ، لم تستأمرونا ولم تروا لنا حقاً ... ثم قام عمر فمشى معه جماعة حتى أتوا باب فاطمة فدقوا الباب ، فلما سمعت أصواتهم

(١) السقيفة ، أبو بكر الجوهري : ص ١٠٤ ؛ شرح نهج البلاغة ، ابن أبي الحديد : ج ١٦ ص ٢١٥ .

نادت بأعلى صوتها : يا أبتى يا رسول الله ماذا لقينا بعدك من ابن الخطاب وابن أبي قحافة ، فلمّا سمع القوم صوتها وبكاءها صرخوا باكين ... وبقي عمر ومعه قوم فمضوا به إلى أبي بكر فقالوا له : بايع ، فقال : إن أنا لم أفعل ، فمه ؟ قالوا : إذا والله الذي لا إله إلا هو نضرب عنقك ^(١) ، ومن صور ذلك العنف أيضا وصف أبي بكر لعلي عليه السلام بأنه مرّب لكل فتنة ، وتشبيهه له (بمُ طحال أحب أهلها إليها البغي) ^(٢) .

٣ . إن الحزب القرشي . وعلى رأسهم أبو بكر . لم يشركوا أي شخص من الهاشميين في شأن من شؤون الحكم ، المهمة خشية أن يصل الهاشميون إلى الخلافة ؛ لذا لم يجعلوا أي واحد منهم واليا على شبر من الدولة الإسلامية ، وخوفاً من افتضاح هذا الأمر دعوا العباس لإعطائه نصيباً في الأمر ؛ وذلك عندما قال المغيرة ابن شعبة : (الرأي يا أبا بكر أن تلقوا العباس ، فتجعلوا في هذه الإمرة نصيباً يكون له ولعقبه ، وتكون لكما الحجة على علي وبني هاشم إذا كان العباس معكم ...) ^(٣) .

٤ . تهيئة وإعداد كتلة ضخمة مادية لأهل البيت عليهم السلام ومنافسة لهم في الوصول إلى المناصب العالية في الحكم ، ويحتل الأمويون موقع الصدارة في هذا المضمار ؛ لما تميّزوا به من طموحات عالية في السلطة والخلافة ؛ لذا نجدهم قد احتلوا المناصب الإدارية المهمة أيام أبي بكر وعمر ، مضافاً لمبدأ الشورى الذي ابتدعه عمر ، ليعطي الحظ الأوفر لعثمان بن عفان للوصول إلى دفة الحكم ، وقد أخذت هذه الكتلة تزداد وتتسع يوماً بعد يوم حتى استتب لها الأمور ؛ وذلك لأنّها لم تكن متمثلة في شخص واحد ، بل كانت في بيت كبير من قريش ، وبالتالي سوف يكون وصول آل محمد صلّى الله عليه وآله وسلم إلى سدة الحكم متعلّواً ، أو ليس سهلاً على أقل تقدير .

(١) الإمامة والسياسة ، الدينوري : ج ١ ص ٣٠ .

(٢) السقيفة ، أبو بكر الجوهري : ج ص ١٠٤ ؛ شرح نهج البلاغة ، ابن أبي الحديد : ج ١٦ ص ٢١٥ .

(٣) الإمامة والسياسة ، الدينوري : ج ١ ص ٣٢ .

٥ . عزل كل العناصر التي تميل إلى بني هاشم ؛ ولذا عزل أبو بكر خالد بن سعيد بن العاص عن قيادة الجيش الذي وجهه لفتح الشام ؛ لأن عمر نَبّه أبا بكر إلى نزعة خالد الهاشمية ، وميله لآل محمد ﷺ ، وذكره بموقفه المعارض لهم بعد وفاة الرسول ﷺ (١) .

٦ . السعي لإضعاف القدرة الاقتصادية خشية أن يستثمرها الإمام عليّ في الدعوة لاستعادة حقّه الشرعي في الخلافة ؛ لذلك قام أبو بكر بمصادرة فذك من الزهراء عليها السلام ؛ لعلمه أنّها كانت سنداً قوياً لعليّ عليهما السلام ، لا سيّما وأنّ أبا بكر نفسه اتخذ المال وسيلة من وسائل الإغراء وكسب الأصوات ، وإليك بعض تلك الشواهد :

منها : عندما عاد أبو سفيان إلى المدينة سأل عما جرى أثناء غيبته عنها : (فقالوا : مات رسول الله ﷺ فقال : مَنْ ولي بعده ؟ قيل : أبو بكر ، قال : أبو فضيل ؟! قالوا : نعم ، قال : ما فعل المستضعفان علي والعباس ؟ أما والذي نفسي بيده لأرفعن لهما من أعضادهما ، قال أبو بكر ، وذكر الراوي وهو جعفر بن سليمان : أن أبا سفيان قال : شيئاً آخر لم تحفظه الرواة ، فلمّا قدم المدينة قال : إني لأرى عجاجة لا يطفئها إلّا دم ، فكلم عمر أبا بكر ، فقال : إن

(١) تاريخ الطبري ، الطبري : ج ٢ ص ٥٨٦ .

أبا سفيان قدم وإنّا لا نأمن شرّه ، فدفع إليه ما في يده فتركه ورضي (١) .

وكان في يد أبي سفيان في ذلك الحين صدقات كثيرة للمسلمين قد جمعها منهم ؟!

ومنها : مفاوضاتهم مع العباس بن عبد المطلب ، ومحاوله إغرائه عندما قالوا له : (نريد أن نجعل لك في هذا الأمر نصيباً ، يكون لك ولعقبك من بعدك ...) (٢) .

ومنها : (لما اجتمع الناس على أبي بكر قسّم قسماً بين نساء المهاجرين والأنصار ، فبعث إلى المرأة من بني عدي بن النجار قسماً مع زيد بن ثابت ، فقالت : ما هذا ؟ قال : قسم قسمه أبو بكر للنساء ، قالت : أتراشوني عن ديني ، والله لا أقبل منه شيئاً فردّته عليه) (٣) .

ومنها : منح أبو بكر مزايا خاصة لابنته عائشة ، إذ إنّه جعل زيادة في عطائها ألفي دينار بعدما جعل عطايا أمهات المؤمنين ستة آلاف دينار لكل واحدة (٤) ، واستمرت عائشة بأخذ الزيادة في عهد أبيها وعمر الذي أوصى له بالخلافة ممّن بعده .

-
- (١) السقيفة ، أبو بكر الجوهري : ص ٣٩ . شرح نهج البلاغة ، ابن أبي الحديد : ج ٢ ص ٤٤ .
- (٢) تاريخ يعقوبي ، يعقوبي : ج ٢ ص ١٢٥ ؛ الإمامة والسياسة ، الدينوري : ج ١ ص ٤٢ ؛ شرح نهج البلاغة ، ابن أبي الحديد المعتزلي : ج ١ ص ٢٢٠ .
- (٣) السقيفة وفدك : ص ٥١ ؛ شرح نهج البلاغة ، ابن أبي الحديد : ج ٢ ص ٥٣ .
- (٤) راجع : تاريخ يعقوبي ، يعقوبي : ج ٢ ص ١٥٣ .

الخلاصة

أولاً : وجود روايات كثيرة صحيحة تنص على عدم وجود نص على أبي بكر ، من قبيل قول عائشة في مقام نفي النص : (لو كان رسول الله مستخلفاً لاستخلف أبا بكر أو عمر)^(١) ونحوها من الروايات .

ثانياً : اعتراف عدد كبير من أعلام السنّة بعدم وجود النص على أبي بكر وإنكارهم على من ادعى ذلك ، من قبيل القرطبي والنووي في شرحه لصحيح مسلم وابن حجر في فتح الباري ناسباً ذلك إلى جمهور أهل السنّة ، والمرغني في تفسيره والباقلاني في تمهيده والخضري في المحاضرات وابن حجر الهيثمي وعضد الدين الإيجي وابن أبي الحديد المعتزلي والغزالي والبغداددي وغيرهم .

ثالثاً : وجود شواهد قطعية كثيرة تدل على عدم النص على أبي بكر ، منها :
١ . ما حصل في السقيفة من نزاعات وتهديدات فيما بين الصحابة على الخلافة ، ولم يدّع أبو بكر ولا غيره وجود النص ، مع أنّه كان بأمر الحاجة إليه كحجة دامغة .

٢ . تعبير عمر بقوله : (إن بيعة أبي بكر فلتة) .

٣ . اعتراف عمر بالنص لعلي عليه السلام لا غير ، وأنّه هو الذي منع رسول الله ﷺ من كتابة الوصية يوم وفاته .

٤ . اعتراف أبي بكر بإرادته لإكراه علي عليه السلام على البيعة لولا وجود فاطمة عليها السلام إلى جنبه ، وهذا يكشف عن كون استيلائه على السلطة غير شرعي .

٥ . قول علي عليه السلام إن بيعتي لا تحق لهم باطلاً ولا توجب لهم حقاً .

(١) صحيح مسلم ، مسلم : ج ٤ ص ١٨٥٦ ؛ مستدرک الحاكم ، الحاكم النيسابوري : ج ٣ ص ٧٨ ، قال الحاكم (هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه) ؛ مسند أحمد ، أحمد بن حنبل : ج ٦ ص ٦٣ ، وغيرها من المصادر .

٦ . الأحاديث الكثيرة المتواترة في حق علي عليه السلام وأنه مع الحق ومع القرآن ، ومن يطع علياً عليه السلام فقد أطاع الله ورسوله ، وأن من فارق علياً فقد فارق رسول الله ﷺ وبالتالي فارق الله تعالى ، وكذا حديث الغدير والثقلين ، وكل هذه الأحاديث صحيحة ومن المصادر المعتمدة ، فإن هذه الأحاديث الشريفة تدل على عدم النص على غير علي عليه السلام .

٧ . إن فاطمة عليها السلام ماتت وهي واجدة وغاضبة وغير راضية على أبي بكر ، ومن المعلوم إن عدم رضا فاطمة عليها السلام يدل على عدم رضا الله تعالى وغضبه على أبي بكر وعمر ، كما قال ﷺ مخاطباً فاطمة عليها السلام : (إن الرب يغضب لغضبك ويرضى لرضاك) .

٨ . اعتراف معاوية بغضب أبي بكر للخلافة ، كما في رسالته التي أرسلها إلى محمد بن أبي بكر .
٩ . إن أبا بكر لم يكن مؤهلاً لقيادة سرية صغيرة فضلاً عن خلافة المسلمين ، ولو كان أهلاً للقيادة والخلافة لما أمر رسول الله ﷺ أسامة بن زيد الذي لا يتجاوز عمره عشرين سنة قائداً على السرية ، وكان أبو بكر جندياً عادياً في تلك السرية .

١٠ . أحقية أمير المؤمنين في الخلافة لا غير ، كما جاء ذلك في نصوص كثيرة ، مضافاً لدلالة حديث الاثني عشر المتسالم عليه عند الفريقين ، والذي لا يمكن تفسيره إلا بإمامة أهل البيت عليه السلام دون غيرهم .

رابعا : وجود تخطيط قرشي سابق للاستيلاء على السلطة ، ولهذا التخطيط شواهد كثيرة ، منها :
١ . محاولات أقطاب هذا التوجه أن يكون لهم دور متميز في حياة المسلمين ومبادرتهم للظهور والتقدم ، وإن استلزم ذلك إيذاء الرسول ﷺ ، من قبيل إيذاء الرأي مقابل رأي الرسول الأكرم ﷺ ونحوها ، كما هو الحال بالنسبة لعمر بن الخطاب وأبي بكر .

٢ . الأمل والشوق الكبيران في نفوس رجالات الحزب بأن يكون لهم دور كدور علي عليه السلام ، وما خصّه الله ورسوله به من امتيازات خاصة عبر عدد من الآيات والروايات .

٣ . ملاحظة العلاقات القائمة بين قادة هذا التحرك ، حيث لم تكن عفوية فطرية ، وإنما كانت علاقات هادفة يجمعها قاسم مشترك ، وهو الاستيلاء على السلطة بعد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ، وهذا ما نلمسه واضحاً عند إثارتهم للضجة وتعالى الأصوات حين بيّن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم الخلفاء من بعده .

ومن الشواهد الأخرى على هذا التنسيق :

١ . تقاسمهم للخلافة بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم واستيلائهم على أهم المناصب الحكومية في الدولة حينما استولى أبو بكر على الخلافة وأخذ عمر القضاء وأبو عبيدة المال ، وتعد هذه المناصب من أهم المراكز في الدولة لهؤلاء الثلاثة الذين كان لهم الدور الكبير في التخطيط المسبق ، ولا يمكن أن يكون قد حصل ما حصل صدفة أو أنّه أمر عفوي ارتجالي .

٢ . ما فعله عثمان بن عفان حيث كتب اسم عمر في وصيّة أبي بكر من دون أن يأمره أبو بكر بذلك ؛ لأنّه كان مغمى عليه ، وهذا يدل على اطلاع عثمان وعلمه بهذا التخطيط والتقسيم فيما بينهم .

٣ . وجود النزعة القبلية عند قريش التي كانت ترفض اجتماع القيادة في بيت واحد ، فهي لم تكن تتحمّل ظهور بطن من خيار بطونها وأفضلها وهم بنو هاشم ونيلهم مقام النبوة ، فكيف تتحمّل استمرار السلطة في هذا البيت ؟

خامساً : السياسات التي اتبعتها السلطة الحاكمة تكشف عن عدم شرعيتها وتخطيطها لاستلام الحكم مسبقاً ؛ ولذلك شواهد كثيرة ، منها :

١ . اتّهام بني هاشم بإحداث وإثارة الفتنة ، لا سيّما اتّهام أبي بكر لعلي عليه السلام بذلك .

- ٢ . أسلوب الشقاق والعنف مع الإمام علي عليه السلام ومن معه من أتباعه .
- ٣ . عدم إشراك أي شخص من الهاشميين في شؤون الحكم ، خشية أن يصل الهاشميون إلى الخلافة ؛ ولذا لم يجعلوا أي واحد منهم واليا على شبر من الدولة الإسلامية .
- ٤ . تهيئة وإعداد مجموعة كبيرة معادية لأهل البيت عليهم السلام ، منافسة لهم في الوصول إلى المناصب العالية في الحكم ، كما هو الحال في الأمويين .
- ٥ . عزل كل العناصر التي تميل إلى بني هاشم ، كما هو الحال في عزل أبي بكر الخالد بن سعيد بن العاص عن قيادته للجيش ، لولائه لآل محمد ﷺ .
- ٦ . غضبهم لفدك في محاولة منهم لإضعاف القدرة الاقتصادية للإمام علي عليه السلام خشية استثمارها في الدعوة لاستعادة حقه الشرعي .

الفصل الخامس: عصيان الصحابة

عصيان الصحابة

الشبهة :

كيف أوصى الرسول وأشهد الصحابة على الولاية ثم عصوه ؟
وكيف أجبر أبو بكر وعمر وأبو عبيدة الناس على البيعة ؟

الجواب :

تمهيد :

بادئ ذي بدء ، نقول : إن خير دليل على الإمكان هو الوقوع ، وهذا التاريخ بين أيدينا يحدثنا عن وقوع هذه الحوادث وعدول الصحابة عن وصية نبيهم ﷺ ، إلا من امتحن الله قلبه للإيمان ، وهم : علي عليه السلام وأتباعه ، ولا يمكن التشكيك بصحة هذه الوقائع ، بعدما نطقت به أحاديث الفريقين .

والملاحظة الجديرة بالذكر ، أنّ ما حصل من انحراف عن وصايا الرسول ﷺ ، والعدول عن الوصي الشرعي ، وهو علي بن أبي طالب عليه السلام ، ليس غريباً إذا ما أخذنا بنظر الاعتبار طبيعة النفس الإنسانية ، وما فيها من تجاذبات ميّالة إلى التسلّط والزعامة والظلم وغيرها ، كما أعرب القرآن الكريم عن ذلك في كثير من الآيات المباركة : كقوله تعالى : (لَئِنْ الْإِنْسَانُ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ) ^(١) .
وقوله تعالى : (وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا) ^(٢) .

(١) إبراهيم : ٣٤ .

(٢) الإسراء : ٦٧ .

وقوله تعالى : (قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ)^(١) .

ومما يؤكد ذلك سيرة هذا الإنسان مع أنبياء الله ورسله وأوصيائهم ، وسائر حججه تعالى على خلقه ، حيث نجد إعراض أغلب الناس عن دعوة الأنبياء وهدايتهم ، فهذا شيخ الأنبياء نوح لبث في قومه (أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا)^(٢) ، فلم يؤمن به إلا قليل منهم .

وقد كشف القرآن الكريم هذه الحقيقة في كثير من الآيات ، كقوله تعالى في قوم نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ : (وَمِمَّا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ)^(٣) ، وقوله عز وجل في قوم موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ : (ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُّعْرِضُونَ)^(٤) ، وقوله تبارك وتعالى : (وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرِينَ)^(٥) ، وقوله : (إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ)^(٦) ، وغيرها من الآيات .

فإذا كان هذا حال الأمم الماضية مع أنبيائها من الإعراض والتمرد ، كذلك ما حصل في أمتنا الإسلامية ، التي أنبأ النبي ﷺ عن أنها يجري فيها ما جرى في الأمم السالفة ، كما هو وارد في الأحاديث المتفق عليها عند الفريقين .

منها ما ورد في صحيح البخاري ، عن أبي سعيد الخدري ، قال : قال رسول الله ﷺ : (لَتَبْعَنَ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ شَبْرًا بِشِيرٍ وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ ، حَتَّى لَوْ

(١) عبس : ١٧ .

(٢) العنكبوت : ١٤ .

(٣) هود : ٤٠ .

(٤) البقرة : ٨٣ .

(٥) سبأ : ١٣ .

(٦) سورة ص : ٢٤ .

دخلوا جحر ضب تبعثوهم ، قلنا : يا رسول الله ، اليهود والنصارى ؟ قال : فمن ؟! (١) .
وفي نص آخر أخرجه الحاكم في مستدركه . ووافقه الذهبي في تلخيصه . عن عمرو بن عوف المزني ،
عن أبيه ، قال : كنّا قعوداً حول رسول الله ﷺ في مسجده ، فقال : (لتسلكن سنن من قبلكم حذو
النعل بالنعل ، ولتأخذنّ مثل أخذهم إن شبراً فشبر ، وإن ذراعاً فذراع ، وإن باعاً فباع ، حتى لو دخلوا جحر
ضب دخلتم فيه ، ألا إن بني إسرائيل افترقت على موسى على إحدى وسبعين فرقة كلها ضالّة إلا فرقة واحدة
) (٢) .

خلفيات عدول بعض الصحابة عن وصيّة رسول الله ﷺ

أولاً : الحرص على كرسي الزعامة

لا عجب ممّا فعله الصحابة ، من إعراضهم عن وصايا النبي ﷺ ، لا سيّما إذا أخذنا بنظر
الاعتبار طبيعة قريش وما تحمله من تطلّع نحو الزعامة والملك والسلطان ، وذلك ما كان يتخوّف منه
رسول الله ﷺ عندما قال :

-
- (١) صحيح البخاري : ج ٤ ص ٤٠٠ ح ٧٣٢٠ ، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة ، باب لتبعن سنن من كان قبلكم .
(٢) المستدرک ، الحاكم النيسابوري : ج ١ ص ١٢٩ ؛ وكذا : مجمع الزوائد ، الهيثمي : ج ٧ ص ٢٦٠ ؛ كنز العمال ،
المتقي الهندي : ج ١ ص ٢١١ ح ١٠٥٩ ؛ تحفة الأحوذى ، المباركفوري : ج ٦ ص ٣٤٠ ؛ قال فيه : (هذا حديث حسن
صحيح ، وأخرجه أحمد في مسنده) ؛ السنن ، الترمذي : ج ٤ ص ١٣٥ ح ٢٧٧٩ ، قال فيه : (هذا حديث حسن غريب
) ، سلسلة الأحاديث الصحيحة ، الألباني : ج ٣ ص ٣٣٤ ، ح ١٣٤٨ ، وفيه زيادة : (وحتى لو أن أحدهم ضاجع أبه
بالطريق لفعلتم) ، قال الألباني : رجاله رجال الصحيح غير موسى بن ميسرة الديلمي وهو ثقة على أنّه متابع .

(أكثر ما أتخوِّع على أمتي من بعدي رجل يتأوَّى القرآن يضعه على غير مواضعه ، ورجل يرى أنه أحق بهذا الأمر من غيره)^(١) .

ثانيا : دور المنافقين والذين في قلوبهم مرض

إنَّ وجود عدد كبير من المنافقين في صفوف المسلمين ، الذين ما فتئوا يتربصون الدوائر للإطاحة بالإسلام ، له دور مهم في إيجاد حالة إعلامية وخلق أجواء سياسية مناهضة للخلافة الشرعية ، وقد قال رسول الله ﷺ : (أخوف ما أخاف عليكم بعدي كل منافق عليم اللسان)^(٢) ، وكذلك وجود طائفة من مرضى القلوب ، كقوله تعالى : (إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ)^(٣) .

ثالثا : التنافس والنزاع بين القبائل

لقد كان لطبيعة العلاقات التي كانت سائدة بين القبائل في المدينة المنورة دور مؤثّر في هذا المجال ، حيث كان التنافس والنزاع سائداً بين تلك القبائل ، كما هو الحال في قبيلتي الأوس والخزرج ، فلم تكن قبائل المدينة المنورة موحدة ، بل إنَّ قبليتي الأوس والخزرج . وهما قبيلتان كبيرتان من الأنصار . كانتا متنازعتين متنافستين على الزعامة في الجاهلية ،

(١) المعجم الأوسط ، الطبراني : ج ٢ ص ٢٤٢ . ٢٤٣ ؛ الجامع الصغير ، السيوطي : ج ١ ص ٢٠٥ ح ١٣٨٣ ؛ كنز العمال ، المتقي الهندي : ج ١٠ ص ٢٠٠ ح ٢٩٠٥٢ .

(٢) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ، الهيثمي : ج ١ ص ١٨٧ ، قال فيه : (رواه الطبراني في الكبير والبخاري ، ورجاله رجال الصحيح) .

(٣) الأنفال : ٤٩ .

وسكنت فورهم بوجود رسول الله ﷺ بين ظهرانيهم ، وقد كانت تطفح فورة التنازع بينهم في حياة رسول الله ﷺ بين الحين والآخر ، كما نقل ذلك البخاري ، ومسلم في صحيحيهما ، وكذا غيرهما ، من ذلك المقطع التالي : (... فقام رسول الله ﷺ ... على المنبر ، فقال : يا معشر المسلمين ، مَنْ يعذرني من رجل قد بلغني عنه أذاه في أهلي ، ... فقام سعد بن معاذ أخو بني عبد الأشهل ، فقال : أنا يا رسول الله أعذرک ، فإن كان من الأوس ضربت عنقه ، وإن كان من إخواننا من الخزرج ، أمرتنا ففعلنا أمرک ، ... فقام رجل من الخزرج [هو سعد بن عبادة] ، ... فقال لسعد : [والمقصود به ابن معاذ الأنصاري] كذبت لعمر الله لا تقتله ولا تقدر على قتله ، ولو كان من رهطك ما أحببت أن يقتل ، فقام أسيد بن حضير ، وهو ابن عم سعد ، فقال لسعد بن عبادة : كذبت لعمر الله لنقتله ، فإنك منافق تجادل عن المنافقين ، ... فثار الحَيَّان الأوس والخزرج ، حتى همَّوا أن يقتلوا رسول الله ﷺ قائم على المنبر)^(١) .

وكذلك نقل الطبري في تفسيره ، وغيره : (عن زيد بن أسلم قال : مرَّ شاس بن قيس . وكان شيخا قد عسا في الجاهلية ، عظيم الكفر ، شديد الضغن على المسلمين ، شديد الحسد لهم . على نفر من أصحاب رسول الله ﷺ من الأوس والخزرج ، في مجلس قد جمعهم يتحدثون فيه ، فغاضه ما رأى من جماعتهم ، وإلفتهم وصلاح ذات بينهم على الإسلام ، بعد الذي كان بينهم من العداوة في الجاهلية ، ... فأمر فتى شاباً من اليهود ، وكان معه ، فقال : اعمد إليهم فاجلس معهم ، وذكّرهم يوم بعث وما كان قبله ، وأنشدهم بعض

(١) صحيح البخاري : ج ٣ ص ٥٤ . ٥٥ ح ٤١٤١ ، كتاب المغازي ، باب حديث الإفك ؛ صحيح مسلم : ج ٤ ص ٢١٢٩ . ٢١٣٤ ح ٢٧٧٠ ، كتاب التوبة ، باب في حديث الإفك .

ما كانوا يتناولوا فيه من الأشعار ، ... ففعل فتكلم القوم عند ذلك ، فتنازعوا وتفاخروا ، حتى تواتب رجالان من الحيين على الركب ، ... فتناولوا ، ثم قال أحدهما لصاحبه : إن شئتم والله رددناها الآن جذعة ، وغضب الفريقان ، وقالوا : قد فعلنا ، السلاح السلاح ، موعدكم الظاهرة ، فخرجوا إليها ، وتحاور الناس ، فانضمت الأوس بعضها إلى بعض ، والخزرج بعضها إلى بعض ، على دعواهم التي كانوا عليها في الجاهلية ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فخرج إليهم ، ... فقال : يا معشر المسلمين ، الله الله ، أبدوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد إذ هداكم الله إلى الإسلام ^(١) .

إذن كان للخلاف العريق بينهم الدور الكبير في حسم الموقف في السقيفة لصالح زعماء الحزب القرشي ، وهم أبو بكر وعمر وأبو عبيدة ابن الجراح .

ويتضح من ذلك أن الأجواء التي كان يتعايش فيها الأوس والخزرج ، أجواء مضطربة هيأت الأرضية المناسبة لانقلاب الأمر في السقيفة لمن حضرها من المهاجرين ؛ ومن هنا نجد أنّ المنازعة ذاتها تكررت في السقيفة بين الأوس والخزرج ، عندما قام بشير بن سعد ، فقال : (يا معشر الأنصار ، إنّنا والله لئن كنّا أولى فضيلة في جهاد المشركين وسابقة في هذا الدين ، ما أردنا به إلا رضى ربنا ، وطاعة نبينا والكدح لأنفسنا فما ينبغي لنا أن نستطيل على الناس بذلك ، ولا نبتغي به من الدنيا عرضاً ، فإنّ الله ولي المنّة علينا بذلك ، ألا إنّ محمداً ﷺ من قريش ، وقومه أحق به وأولى ، ... فناداه الحباب بن المنذر : يا بشير بن سعد ، عقلت عقاق ، ما أحوجك إلى ما

(١) جامع البيان ، الطبري : ج ٤ ص ٣٢ - ٣٣ .

صنعت ، أنقست على ابن عمك الإمارة ، ... ولما رأت الأوس ما صنع بشير بن سعد ، ... فقاموا إليه [أبو بكر] فبايعوه (١) .

فكان ذلك الاختلاف والتنازع بين القبيلتين من العوامل المساعدة في حسم الموقف في تلك الأجواء الملتهبة لصالح المهاجرين ، وبالخصوص من حضر منهم ، ولم يكن ذلك كاشفاً عن الرأي السديد والشرعي في الخلافة ، بل هي ظروف وأجواء مهدت لذلك .

ومن هنا نجد أن علياً عليه السلام عندما تكلم عن فضله ، وسابقته في الإسلام ، وأحقّيته برسول الله ﷺ في مسجد رسول الله ﷺ أمام أبي بكر وعمر وجمع من الناس ، قال : (الله يا معشر المهاجرين ، لا تخرجوا سلطان محمد في العرب عن داره وقعر بيته إلى دوركم وقعر بيوتكم ، ولا تدفعوا أهله عن مقامه في الناس وحقّه ، فوالله ، يا معشر المهاجرين لنحن أحق الناس به ؛ لأنّا أهل البيت ونحن أحق بهذا الأمر منكم ... والله إنّه لفينا ، فلا تتبعوا الهوى فتضلوا عن سبيل الله ، فتزدادوا من الحق بعدا) (٢) فقام أحد الحاضرين ، وقال : (لو كان هذا الكلام سمعته الأنصار منك يا علي قبل بيعتها لأبي بكر ، ما اختلف عليك اثنان) (٣) .

-
- (١) تاريخ ، الأمم والملوك ، الطبري : ج ٢ ص ٤٥٨ ؛ الإمامة والسياسة ، الدينوري : ج ١ ص ٢٦ .
(٢) الإمامة والسياسة ، الدينوري : ج ١ ص ٢٩ ؛ انظر : السقيفة وفدك ، أبو بكر الجوهري : ص ٦٣ ؛ شرح نهج البلاغة ، ابن أبي الحديد : ج ٦ ص ١٢ .
(٣) الإمامة والسياسة ، الدينوري : ج ١ ص ٢٩ ؛ السقيفة وفدك ، أبو بكر الجوهري : ص ٦٣ .

رابعاً : التناحر والتحاسد بين المهاجرين والأنصار

إن التناحر والتحاسد . الذي كان بين الأوس والخزرج . كان ذاته بين المهاجرين والأنصار ، ولهذا الحقيقة شواهد كثيرة أيضاً في حياة رسول الله ﷺ ، كما أخرج ذلك البخاري في صحيحه ، عن جابر بن عبد الله ، قوله : (كُنَّا فِي غَزَاةٍ ، قَالَ سَفِيَّانُ : مَرَّةً فِي جَيْشٍ فَكَسَعَ ^(١) رَجُلًا مِنَ الْمُهَاجِرِينَ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ ، فَقَالَ الْأَنْصَارِيُّ : يَا لِلْأَنْصَارِ ، وَقَالَ الْمُهَاجِرِيُّ : يَا لِلْمُهَاجِرِينَ ، فَسَمِعَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، فَقَالَ : مَا هَذَا ؟ فَقَالُوا : كَسَعَ رَجُلًا مِنَ الْمُهَاجِرِينَ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ ، فَقَالَ الْأَنْصَارِيُّ : يَا لِلْأَنْصَارِ ، وَقَالَ الْمُهَاجِرِيُّ : يَا لِلْمُهَاجِرِينَ ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : دَعُوهَا فَإِنَّهَا مَنْتَنَةٌ ^(٢) .

وقد كان الأنصار يعلمون أن قريشا سوف لا تسمح لعلي في تسلّم الخلافة بعد رسول الله ﷺ ، وأنهم سوف يزوونها عنه ، فكان الشغل الشاغل لهم ، أن يحصلوا على ضمانات تؤمّن لهم مصيرهم بعد رسول الله ﷺ ، وذلك لأنهم هم الذين قتلوا سادات قريش وأبطالها ، فكانوا يخشون أن تحيف عليهم قريش بعد رسول الله ﷺ ؛ ومن هنا نجد أن عمر رتب كلاماً وثمّنه لإقناع الأنصار وطمانتهم بإعطائهم دوراً في الخلافة ، والموقف ذاته اتخذهُ أبو بكر في السقيفة ، حيث خاطب الأنصار بقوله : (وأنتم يا معشر الأنصار من لا ينكر فضلهم في الدين ، ولا سابقتهم العظيمة في الإسلام ،

(١) كسع : أن تضرب بيدك أو برجلك بصدر قدمك على دبر إنسان أو شيء ، وفي حديث زيد بن أرقم : إن رجلاً ضرب رجلاً من الأنصار ، أي : ضرب دبره بيده ؛ لسان العرب ، ابن منظور : ج ٨ ص ٣٠٩ .

(٢) صحيح البخاري : ج ٣ ص ٢٩١ ح ٤٩٠٧ ، كتاب التفسير ، سورة المنافقون ، باب (يقولون لأن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ...) .

ورضيكم الله أنصارا لدينه ورسوله ، وجعل إليكم هجرته ، وفيكم جلة أزواجه وأصحابه ، فليس بعد المهاجرين الأولين عندما بمنزلتكم ، فنحن الأمراء وأنتم الوزراء (١) .

خامسا : سياسة الإرهاب في السقيفة

لم تكن بيعة أبي بكر تتمتع بأجواء من الحرية والاختيار ، بل خيِّمت عليها أجواء الرعب والقسوة والغلظة والإكراه ، فلم يُفسح المجال للصحابة كي يدلوا برأيهم بوافر من الحرية والاختيار ، بل السرعة والعجلة والإكراه زوت الخلافة عن صاحبها الشرعي بعد رسول الله ﷺ ؛ ولذا يقول ابن أبي الحديد في شرح النهج : (وعمر هو الذي شد بيعة أبي بكر ، ورقم المخالفين فيها ، فكسر سيف الزبير لما جرّده ، ودفع في صدر المقداد ، ووطئ في السقيفة سعد بن عباد ، وقال : اقتلوا سعداً قتل الله سعداً ، وحطّم أنف الحباب بن المنذر ، الذي قال يوم السقيفة : أنا جديليها المحكك ، وعذيقها المرجب . وتوعد من لجأ إلى دار فاطمة ؓ من الهاشميين ، وأخرجهم منها ، ولولاه لم يثبت لأبي بكر أمر ، ولا قامت له قائمة) (٢) .

وقال البراء بن عازب : (فلم ألبث وإذا أنا بأبي بكر قد أقبل ومعه عمر وأبو عبيدة وجماعة من أصحاب السقيفة ، وهم محتجزون بالأزر الصنعانية ، لا يمرون بأحد إلّا خبطوه وقدموه فمدوا يده فمسحوها على يد أبي بكر ،

(١) تاريخ الأمم والملوك ، الطبري : ج ٢ ص ٤٥٧ .

(٢) شرح نهج البلاغة ، ابن أبي الحديد : ج ١ ص ١٧٤ .

يباعه ، شاء ذلك أو أبى ، فأنكرت عقلي وخرجت ...) (١) .

وعندما جاء عمر إلى بيت فاطمة عليها السلام (وخرج إليهم الزبير بسيفه ، فقال عمر : عليكم الكلب) (٢) .

سادسا : مخالفات الصحابة لرسول الله صلى الله عليه وسلم

لقد حدثنا التاريخ عن مخالفات كثيرة حصلت من المهاجرين والأنصار لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلم يكن إطباق أكثرهم على مخالفة الرسول صلى الله عليه وسلم أول قارورة انكسرت في الإسلام ، وقد اتخذت المخالفات صورا وأشكالا متعددة ومتنوعة منها :

١ . عصيان أوامر النبي صلى الله عليه وسلم

إن المواقف التي وقفها بعض الصحابة الذين يعتبرون من المقرين من الرسول صلى الله عليه وسلم تكشف عن عدم معرفتهم به صلى الله عليه وسلم وجهلهم بمكانة القدسية بحيث أدى بهم الأمر إلى عصيان أوامره وكأنه شخص عادي ، وقد جاء في الصحاح والكتب الأخرى ما يكشف عن ذلك ومنها :

أ . أخرج مسلم في صحيحه بسنده عن جابر بن عبد الله : (إن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج عام الفتح إلى مكة في رمضان حتى بلغ كراع الغميم ، فصام الناس ثم دعا بقدح من ماء ، فرفعه حتى نظر الناس إليه ثم شرب ، فقليل له بعد ذلك : إن بعض الناس قدم صام . فقام : أولئك العصاة ، أولئك العصاة) (٣)

(١) شرح نهج البلاغة ، ابن أبي الحديد : ج ١ ص ٢١٩ .

(٢) السقيفة ، أبو بكر الجوهري : ص ٦٢ ؛ شرح نهج البلاغة ، ابن أبي الحديد : ج ٦ ص ١١ .

(٣) صحيح مسلم ، محمد بن مسلم النيسابوري : ج ٢ ص ٧٨٥ ح ١١١٤ ، كتاب الصيام .

(وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا)^(١) .

ب . وأخرج مسلم في صحيحه أيضاً بسنده عن عائشة أنها قالت : (قدم رسول الله ﷺ لأربع مضيئ من ذي الحجة أو خمس ، فدخل عليّ وهو غضبان ، فقلت : مَنْ أغضبك يا رسول الله أدخله الله النار ، قال : أَوْما شعرت أنّي أمرت الناس بأمر فإذا هم يتردّون)^(٢) .

ج . وأخرج الهيثمي في مجمع الزوائد عن البزار قال : (خرج رسول الله ﷺ وأصحابه فأحرمننا بالحج ، فلمّا أن قدمنا مكة ، قال : اجعلوا حجّكم عمرة ، قال الناس : يا رسول الله أحرمننا بالحج فكيف نجعلها عمرة ، قال : انظروا ما آمركم به فاعملوا . قال : فردّوا عليه القول ، فغضب ثم انطلق حتى دخل على عائشة غضبان ، قال : فعرفت الغضب في وجهه ، قالت : مَنْ أغضبك أغضبه الله ، قال : مالي لا أغضب وأنا أمر بالأمر لا يتبع) .

قال الهيثمي : (رواه أبو يعلى ورجاله رجال الصحيح)^(٣) .

د . وأخرج البخاري في صحيحه بسنده عن ابن عباس قال : (لمّا اشتد بالنبي وجعه قال : ائتوني بكتاب أكتب لكم كتاباً لا تضلّوا بعده ، قال عمر : إنّ النبي غلبه الوجد وعندنا كتاب الله حسبنا ، فاختلفوا وكثر اللغط ، قال : قوموا عني ولا ينبغي عندي التنازع ، فخرج ابن عباس يقول : إنّ الرزّة كل الرزّة ما حال بين رسول الله وبين كتابه)^(٤) .

(١) الأحزاب : ٣٦ .

(٢) صحيح مسلم ، محمد بن مسلم النيسابوري : ج ٢ ص ٨٧٩ ح ١٢١١ ، كتاب الحج .

(٣) مجمع الزوائد ، الهيثمي : ج ٣ ص ٢٣٣ .

(٤) صحيح البخاري : ج ١ ص ٧٤٠٧٣ ح ١١٤ ، كتاب العلم ، باب كتابة العلم .

٢ . الفرار في معركة أحد

أخرج البخاري ، عن أنس قال : (لما كان يوم أحد انهزم الناس عن النبي ﷺ)^(١) .
وأخرج أيضا في نفس الواقعة : (فأقبلوا منهزمين ، فذاك إذ يدعوهم الرسول في أحراهم ، فلم يبق مع النبي ﷺ غير اثني عشر رجلا)^(٢) .
وأخرج أيضا ، عن أنس : (إن عمه قال : ... فهزم الناس ، فقال : اللهم إني أعتذر إليك بما صنع هؤلاء [يعني المسلمين] ، وأبرأ إليك مما جاء به المشركون)^(٣) .

٣ . الفرار في يوم حنين

أخرج البخاري ، عن أبي إسحاق قوله : (قال رجل للبراء بن عازب : أفررتم عن رسول الله ﷺ يوم حنين ؟ فقال : لكن رسول الله لم يفر)^(٤) .
وأخرج الطبراني بسنده عن زيد بن أرقم قال : (انهزم الناس عن رسول الله ﷺ يوم حنين ، فقال : أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب)^(٥) ، وقال

-
- (١) صحيح البخاري : ج ٢ ص ٢٣٠ ح ٢٨٨٠ ، كتاب الجهاد والسير ، باب غزو النساء وقتالهن مع الرجال .
(٢) المصدر نفسه : ج ٢ ص ٢٦٧ ح ٣٠٣٠ ، كتاب الجهاد والسير ، باب ما يكره من التنازع والاختلاف في الحرب .
(٣) المصدر نفسه : ج ٣ ص ٢٩ ح ٤٠٤٨ ، كتاب المغازي ، باب غزوة أحد .
(٤) صحيح البخاري : ج ٣ ص ٩٢ ح ٤٣١٧ ، كتاب المغازي ، باب قوله تعالى : (ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم ...)
؛ صحيح مسلم : ج ٣ ص ١٤٠١ ح ١٧٧٦ ، كتاب الجهاد والسير ، باب في غزوة حنين ؛ صحيح ابن حبان : ج ١١ ص ٩٠ ح ٤٧٧٠ .
(٥) المعجم الكبير ، الطبراني : ج ٥ ص ١٩٠ .

الميثمي: (رواه الطبراني ورجاله ثقة)^(١).

٤ . اعتراض الأصحاب على الرسول ﷺ في الحديبية

أخرج البخاري أيضا قول عمر : (فأتيت نبي الله ﷺ ، فقلت : أأست نبي الله حقا ؟
قال : بلى .

قلت : أألسنا على الحق وعدونا على الباطل ؟

قال : بلى .

قلت فلم نعطي الدنية في ديننا ؟ . إلى أن قال : - فلما فرغ من قضية الكتبا ، قال رسول
ﷺ لأصحابه : قوموا ثم اخلقوا ، قال : فوالله ما قام منهم رجل ، حتى قال ذلك ثلاث مرات ،
فلما لم يقيم منهم أحد دخل على أم سلمة فذكر لها ما لقي في الناس ، فقالت أم سلمة : يا نبي الله
أتحب ذلك ؟ أخرج ثم لا تكلم أحداً منهم كلمة حتى تنحر بدنك ، وتدعو حالقك فيحلقك ، فخرج
فلم يكلم أحداً منهم حتى فعل ذلك ، نحر بدنه ، ودعا حالقه فحلقه ، فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا ،
وجعل بعضهم يحلق بعضاً ، حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً غمًا ...)^(٢).

(١) مجمع الزوائد ، الميثمي : ج ٦ ص ١٨٢ .

(٢) صحيح البخاري : ج ٢ ص ١٩٠ . ١٩١ ح ٢٧٣١ . ٢٧٣٢ ، كتاب الشروط ، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع
أهل الحرب ؛ مسند أحمد : ج ٤ ص ٣٣٠ . ٣٣١ ؛ صحيح مسلم ، محمد بن مسلم النيسابوري : ج ٣ ص ١٤١١ .
١٤١٢ ح ١٧٨٥ ، كتاب الجهاد والسير ، باب صلح الحديبية ؛ نيل الأوطار ، الشوكاني ج ٨ ص ١٨٧ ؛ صحيح ابن حبان
: ج ١١ ص ٢٢٤ ؛ وغيرها من المصادر الكثيرة .

٥. الإشفاق من التصق

وذلك قوله تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَجَّيْتُمُ السَّبِيلَ فَتَقَدَّمُوا يَدَايَ ۖ بِكُمْ صَدَقَةٌ ذَلِكَ بِكُمْ ۖ ظَهَرْتُ يَدَايَ ۖ تَبْجُدُوا لِلَّهِ غُفُورٌ رَحِيمٌ * شَقَقْتُمُ ۖ تَقَدَّمُوا يَدَايَ ۖ بِكُمْ صَدَقَاتٌ فَلْيَا ۖ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ اللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ) (١) .

وفي فتح الباري : أخرج سفيان بن عيينة في جامعه عن عاصم الأحول قال : (لما نزلت كان لا يباحي النبي ﷺ أحد إلا تصدق ، فكان أول من ناجاه علي بن أبي طالب ، فتصدق بدينار ، ونزلت الرخصة (لِذِي َ تَفْعَلُوا وَتَبَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ) الآية ، وهذا مرسل رجاله ثقات) (٢) ، وفي تحفة الأحوذى قال : (فلما أمروا بالصدقة كفوا عن مناجاته ، فأما الفقراء وأهل العسرة فلم يجدوا شيئاً ، وأما الأغنياء وأهل الميسرة فضنوا واشتد ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ ، فنزلت الرخصة ، وبعده (ذلك خير لكم) يعني تقديم الصدقة على المناجاة لما فيه من طاعة الله وطاعة رسوله (وأطهر) (٣) ، وفي موضع آخر نقل صاحب تحفة الأحوذى ، عن أبي يعلى ، وابن جرير ، والمناذر عن مجاهد ، قال : (فلم يناجه إلا علي بن أبي طالب رضي الله عنه قدم ديناراً ، فتصدق به ، ثم أنزلت الرخصة في ذلك) (٤) .

(١) المجادلة : ١٢ - ١٣ .

(٢) فتح الباري ، ابن حجر : ج ١١ ص ٦٨ .

(٣) تحفة الأحوذى ، المباركفوري ج ٩ ص ١٣٧ .

(٤) المصدر نفسه : ج ٩ ص ١٣٨ .

٦ . عدم إنفاذ جيش أسامة

حيث تخلف القوم عن إنفاذ جيش أسامة ورسول الله ﷺ يكرّ قوله : (أنفذوا بعث أسامة ، لعن الله من تخلف عنه) ^(١) ، ويقول ﷺ أيضا : (أنفذوا بعث أسامة ، فلعمري لأن قلت في إمارته لقد قلت في إمارة أبيه من قبله ، وإنه لخليق بالإمارة) ^(٢) .

فإذا كانت تلك المخالفات الكثيرة والجماعية من الصحابة في عهد رسول الله ﷺ ، وهو بين أظهرهم ، فلا غرابة أن تقع ذلك بعد وفاته ﷺ .

وإذا كانوا قد تكلموا في إمارته زيد ، وابنه أسامه لصغر سنّه ، فلا عجب أن يتكلموا من في إمارة علي عليه السلام وخلافته ، خصوصاً وأنّ الحزب القرشي قد صرّح بأنهم استصغروا سنّ علي عليه السلام ، فنحوه عن الخلافة .

٧ . الارتداد والانقلاب على الأعقاب

إنّ الارتداد والانقلاب والعصيان من الأمور التي صرّحت بها الآيات المباركة ، والروايات الواردة عن الرسول الأكرم ﷺ ، فقد جاء في قوله تعالى : (وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَلَا مَاتَ وَأَقْتُلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ) ^(٣) .

-
- (١) السقيفة ، أبو بكر الجوهري : ص ٧٧ ؛ انظر : شواهد التنزيل ، الحاكم الحسكاني : ج ١ ص ٣٣٨ ؛ انظر : المعيار والموازنة ، الإسكافي : ص ٢١١ ؛ شرح نهج البلاغة ، ابن أبي الحديد : ج ٦ ص ٥٢ .
- (٢) الطبقات الكبرى ، ابن سعد : ج ٢ ص ٢٤٩ ؛ سيرة ابن هشام : ج ٤ ص ١٠٦٤ .
- (٣) آل عمران : ١٤٤ .

وأخرج البخاري عن رسول الله ﷺ قوله : (يا أيها الناس إنكم محشورون إلى الله حفاة عراة غرلا ^(١)) ، ثم قال : (كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَندًا عَلَيْنَا إِنْ آتَيْنَا فَأَعْلَيْنَا) ^(٢) ، إلى آخر الآية ، ثم قال : ثم إن أول من يكسى يوم القيامة إبراهيم ، ألا إنه يجاء برجال من أمتي فيؤخذ بهم ذات الشمال ، فأقول : يا رب أصحابي ، فيقال : لا تدري ما أحدثوا بعدك ؟ فأقول كما قال العبد الصالح : (وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ) ، فيقال : إن هؤلاء لم يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم ^(٣) .

وروى البخاري أيضاً ، عن رسول الله ﷺ قال : (أنا فرطكم على الحوض ، ليرفعن إلي رجال منكم حتى إذا أهويت لأناولهم اختلجوا دوني ، فأقول : أي رب أصحابي ، فيقول : لا تدري ما أحدثوا بعدك) ^(٤) . وروى أيضاً عن سهل بن سعد قال : سمعت النبي ﷺ يقول : (أنا فرطكم على الحوض ، من ورده شرب منه ، ومن شرب منه لم يظماً بعده أبداً ، ليرد علي أقوام أعرفهم ويعرفوني ، ثم يحال بيني وبينهم) ^(٥) .

وروى مسلم في صحيحه ، في كتاب الطهارة في الوضوء بسنده عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : (ترد علي أمتي الحوض ، وأنا أذود الناس عنه ، كما يذود الرجل إبل الرجل عن إبله ... وليصدق عني طائفة

(١) غرلا : جمع الأغرل ، ورجل غرل : مسترخي الخلق ، لسان العرب ، ابن منظور : ج ١١ ص ٤٩٠ .

(٢) الأنبياء : ١٠٤ .

(٣) صحيح البخاري : ج ٣ ص ٢٢٨ . ٢٢٩ ح ٤٧٤٠ ، كتاب التفسير ، (كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ) .

(٤) المصدر نفسه : ج ٤ ص ٣٣٤ ح ٧٠٤٩ ؛ كتاب الفتن ، باب ما جاء في قوله تعالى : (وَتَقَبُّوا فِتْنَةَ لَا تُضَيِّبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً) .

(٥) صحيح البخاري : ج ٤ ص ٣٣٤ ح ٧٠٥٠ ، ٧٠٥١ ، كتاب الفتن ، باب ما جاء في قوله تعالى : (وَتَقَبُّوا فِتْنَةَ لَا تُضَيِّبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً) .

منكم فلا يصلون ، فأقول : يا رب ! هؤلاء من أصحابي ، فيجيبني مَلَكٌ ، فيقول : وهل تدري ما أحدثوا بعدك ؟ (١) .

وروى مسلم أيضاً ، عن أنس بن مالك ، قال : إن النبي ﷺ قال : (ليردن علي الحوض رجال مَمَّنْ صاحبي حتى إذا رأيتهم ، ورفعوا إليّ ، اختلجوا دوني ، فلأقولنّ : أي ربّ أصحابي أصحابي ، فليقالنّ لي : إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك) (٢) .

وروى ابن جرير الطبري في تفسيره بسنده عن قتادة في تفسير قوله تعالى : (يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ) (٣) ، لقد كفر أقوام بعد إيمانهم كما تسمعون ، ولقد ذكر لنا أنّ نبي الله كان يقول : (والذي نفس محمد بيده ، ليردنّ عليّ الحوض مَمَّنْ صاحبي أقوام ، حتى إذا رفعوا إليّ ورأيتهم اختلجوا دوني ، فلأقولنّ : رب أصحابي أصحابي ، فليقالنّ : إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك) (٤) .

وفي شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ، قال : (... وكان يقال : أطوع الناس في قومه الجارود بن بشر بن المعلّى ، لما قبض رسول الله ﷺ فارتدتّ العرب ، خطب قومه فقال : أيّها الناس ، إن كان محمد قد مات فإن الله حي لا يموت ...) (٥) . وقد أنبأ رسول الله ﷺ عليّاً عليه السلام بذلك الارتداد

(١) صحيح مسلم ، محمد بن مسلم النيسابوري : ج ١ ص ٢١٧ ح ٢٤٧ ، كتاب الطهارة باب استحباب إطالة الغرة والتجميل في الوضوء .

(٢) صحيح مسلم ، النيسابوري : ج ١ ص ١٨٠٠ ح ٢٣٠٤ ، كتاب الفضائل ، باب فضل نسب النبي ﷺ .

(٣) آل عمران : ١٠٦ .

(٤) جامع البيان ، الطبري : ج ٤ ص ٥٥ .

(٥) شرح نهج البلاغة ، ابن أبي الحديد : ج ١٨ ص ٥٧ .

وغدر الأمة له ، حيث قال ﷺ : (إِنَّ الْأُمَّةَ سَتَغْدِرُ بِكَ بَعْدِي ، وَأَنْتَ تَعِيشُ عَلَى مِلَّتِي وَتُقْتَلُ عَلَى سَنَّتِي ، مَنْ أَحْبَبَكَ أَحَبَّنِي ، وَمَنْ أَبْغَضَكَ أَبْغَضَنِي ، وَإِنْ هَذِهِ سَتَخْضَبُ)^(١) ، وسنده صحيح ولم يتكلموا فيه إلا من جهة ثعلبة بن يزيد الحماني ولكن قال النسائي فيه : إنه (ثقة)^(٢) وقال ابن عدي : (لم أر له حديثاً منكراً)^(٣) وقال ابن حجر : (صدوق شيعي)^(٤) ، وقال الحاكم فيه : (صحيح)^(٥) .
وأخرج الحاكم في المستدرك ، عن علي بن أبي طالب أنه قال : (إِنْ مِمَّا عَهْدَ لِي النَّبِيِّ : إِنْ الْأُمَّةَ سَتَغْدِرُ بِي بَعْدَهُ)^(٦) . قال الحاكم : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه .

والحاصل أن الانقلاب والزيف عن جادة الصواب في أمر الخلافة ممّا تنبأ به القرآن والرسول الأكرم ﷺ .

وبعد هذا كلّه ، كيف يستغرب في عصيان الصحابة ، ومخالفتهم في أمر الخلافة والإمامة التي هي من أصعب المنعطفات التي مرّت بها الأمة الإسلامية بعد وفاة الرسول الأكرم ، كما عبّر عن ذلك الشهرستاني في

-
- (١) التاريخ الكبير : البخاري : ج ٢ ص ١٧٤ ح ٢١٠٣ ؛ تاريخ مدينة دمشق ، ابن عساكر : ج ٢ ص ٤٤٨ ؛ البداية والنهاية ، ابن كثير : ج ٦ ص ٢٤٤ . ٣٦٠ ؛ تهذيب الكمال ، المزي : ج ٤ ص ٣٩٩ ؛ تاريخ بغداد ، الخطيب البغدادي : ج ١١ ص ٢١٦ ح ٥٩٢٨ ؛ كنز العمال ، المتقي الهندي : ج ١١ ص ٢٩٧ ح ٣١٥٦٢ .
(٢) ميزان الاعتدال ، الذهبي : ج ١ ص ٣٧١ .
(٣) المصدر نفسه .
(٤) تهذيب الكمال ، المزي : ج ٤ ص ٣٩٩ .
(٥) المستدرك على الصحيحين ، الحاكم النيسابوري : ج ٣ ص ١٤٣ .
(٦) المصدر نفسه : ج ٣ ص ١٤٠ ؛ وجاء بهذا اللفظ في مجمع الزوائد : ج ٩ ص ١٣٧ .

كتابه (الملل والنحل) بقوله : (ما سُبِّل سيف في الإسلام على قاعدة دينية مثل ما سل على الإمامة في كل زمان)^(١) .

الخلاصة

إن انحراف الناس عن الأنبياء ﷺ في الأمم السابقة أمر معهود في التاريخ ، كما يحدثنا القرآن الكريم والتاريخ بذلك ، وعلى هذا الضوء فإن الأمة الإسلامية لم يستثنها الله تعالى من باقي الأمم التي يجمعها قاسم مشترك ، وهو طبيعة النفس الإنسانية وميلها للشهوات والأطماع ، لا سيما وأنّ الرسول ﷺ نص وأكد على أن الأمة الإسلامية تحذو حذو هذه الأمم السابقة في كل شيء .

ومن هنا فعدول الصحابة عن وصية نبيهم ﷺ أمر لا يخرج عن الأسباب التي دفعت الأمم السابقة بالعدول عن أنبيائهم ، ويمكن إجمال خلفيات عدول الصحابة فيما يلي :

- ١ . طبيعة قريش وما تحمله من تطّلع نحو الزعامة والملك والسلطان .
- ٢ . وجود عدد كبير من المنافقين ومرضى القلوب في صفوف المسلمين .
- ٣ . التنافس والنزاع بين القبائل كما هو الحال بين قبيلتي الأوس والخزرج .
- ٤ . التنافر والتحاسد بين المهاجرين والأنصار .

(١) الملل والنحل ، الشهرستاني : ج ١ ص ٢٠ .

٥ . سياسة الإرهاب في السقيفة .

٦ . تجاسر الصحابة على رسول الله ﷺ ، حيث أحصى التاريخ عدداً وافراً من المخالفات للرسول ﷺ منها :

أ . مخالفة أوامر رسول الله ﷺ عند فرارهم في معركة أحد .

ب . عصيانهم لله ورسوله بفرارهم من الزحف كما في يوم حنين .

ج . اعتراض الصحابة على الرسول ﷺ في الحديبية ، حيث أمرهم رسول الله ﷺ بالنحر فاعترضوا عليه ولم يقيم منهم أحد .

د . الإشفاق من التصقّد عندما أمر الله تعالى بتقديم صدقة عند مناجاة الرسول ﷺ ، فتركوا مناجاة الرسول ﷺ خشية من دفع الصدقة .

هـ . تخلف القوم عن الالتحاق بجيش أسامة الذي أمرهم الرسول ﷺ بإنفاذه .

٧ . إنّ ارتداد الصحابة قد أنبأنا به القرآن الكريم ، كما في قوله تعالى : (وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَلَا مَاتَ وَأَقْتُلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ)^(١) .

بالإضافة إلى إنباء رسول الله ﷺ في روايات مستفيضة بارتداد بعض أصحابه .

(١) آل عمران : ١٤٤ .

الفصل السادس: العصمة والغلو

العصمة والغلو

الشبهة :

عصمة أهل البيت من أبرز مظاهر الغلو .

الجواب :

لكي تتضح عصمة أهل البيت عليهم السلام بشكل واضح ، ينبغي أن نقف قليلاً لنفهم معنى وحقيقة العصمة ، فنقول :

العصمة لغة :

العصمة : هي المنع والوقاية ، قال في القاموس : (أعصم ، يعصم : اكتسب ومنع ، ووقى ... والعصمة بالكسر المنع ...)^(١) .

وجاء في كتاب العين : (أن يعصمك الله من الشر ، أي : يدفع عنك . واعتصمت بالله ، أي : امتنعت به من الشر . واستعصمت ، أي : أبيت . وأعصمت ، أي : لجأت إلى شيء اعتصمت به)^(٢) .

وقال في لسان العرب : (العصمة في كلام العرب : المنع . وعصمة الله عبده : أن يعصمه ممّا يوبقه . عصمه يعصمه عصما : منعه ووقاه ، وفي التنزيل : لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم ، أي لا معصوم إلا المرحوم)^(٣) .

وجاء في مختار الصحاح : (ع ص م العصمة المنع ، يقال عصمه الطعام ،

(١) القاموس، الفيروزآبادي : ج ٤ ص ١٥١ .

(٢) كتاب العين ، الخليل أحمد الفراهيدي : ج ١ ص ٣١٣ .

(٣) لسان العرب ، ابن منظور : ج ١٢ ص ٤٠٣ .

أي منعه من الجوع ، والعصمة أيضاً الحفظ ، وقد عصمه يعصمه بالكسر عصمة فانهصم ، واعتصم بالله أي امتنع بلطفه من المعصية ^(١) .

العصمة اصطلاحاً :

لا يختلف معنى العصمة اصطلاحاً عن المعنى اللغوي إلا في خصوصيات مصداق العصمة الشرعية من أجزاء وشرائط مرتبطة بالأفراد المعصومين ، فالعصمة لدى الأنبياء والرسل والأولياء والأئمة عليهم السلام تعني المنع من ارتكاب المعصية والوقاية من كل رجس ، فلا بد أن نعرف أسباب هذا المنع وموجبات هذه الوقاية .

منشأ العصمة :

إنّ الأساس الذي تعتمد عليه العصمة هو العلم ، وهذا الضرب من العلم ليس من سنخ العلم العادي الموجود عند جميع أفراد البشر على السواء ، والذي يسمّى في الاصطلاح العلمي بالعلم الحسولي ، وهو الذي أشارت إليه الآية المباركة بقوله تعالى : (**مَلَلَهُ أَنْجَرَحَكُم مِّنْ بَطُونٍ أَهْمَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَلَا بَصَارَ وَلَا أَفْئِدَةً لَّعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**) ^(٢) وهذا النوع من العلم موجود عند كل إنسان سواء كان فاسقاً فاجراً أم مؤمناً عادلاً .

وقد أشار القرآن الكريم إلى حقيقة العلم الذي يكون منشأ للعصمة في موارد متعددة :

١ . قوله تعالى في حكايته عن النبي يوسف عليه السلام : (**مَلَا تَضُرُّ عَنِي كَيْدُهُنَّ**)

(١) مختار الصحاح ، محمد بن عبد القادر : ص ٢٣٠ .

(٢) النحل : ٧٨ .

أَصْب إِلَيْهِنَّ مَكُن مِنَ الْجَاهِلِينَ (١) .

فالآية تؤكد بكل صراحة أن الذي يصبو إلى المعصية هو الجاهل الذي يقوده هوى النفس إلى ارتكاب ما حرمه الله تعالى .

فإذا كان الجاهل هو الذي يقود إلى المعصية فالعلم هو المانع والحائل عن المعصية ؛ ولذلك قال عليه السلام (مَكُن مِنَ الْجَاهِلِينَ) ولم يقل : (وأكن من الظالمين) كما قال لامرأة العزيز : إنه لا يفلح الظالمون أو أكن من الخائنين ، وكما قال للملك : (هِنَ اللَّهُ لَا يَهْجَا كَيْدَ الْخَائِنِينَ) .

فالنبي يوسف عليه السلام فرق في الخطاب بينه وبين امرأة العزيز والملك من جهة ، وبينه وبين ربه من جهة أخرى ، فخطب امرأة العزيز والملك (بالظلم ، والخيانة) ، وأن الظالم لا يفلح ، والله لا يهدي كيد الخائنين ، وخطب ربه تعالى بخطاب آخر وهو أن الصبوة إليهن من الجهل .

فيتضح من هذه الآية أن منشأ العصمة هو العلم .

٢ . قوله تعالى : (وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّت طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضْلَوْكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَصُدُّوكَ مِنْ شَيْءٍ مَزْنَرُ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ عَالِمِي ۚ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا) (٢) .

وهذه الآية واضحة الدلالة على أن المنشأ الرئيس للعصمة هو العلم الذي أنعم الله به على الأنبياء عليهم السلام ، فالآية أشارت إلى أن المنافقين لا يتمكّنون من إضلال النبي ﷺ أو التأثير عليه وذلك لما منحه الله تعالى من

(١) يوسف : ٣٣ .

(٢) النساء : ١١٣ .

قدرات علمية خاصة جعلته في حصانة تامة من الضلال ؛ ولذا يقول الفخر الرازي في صدر تفسيره للآية : (وهذا من أعظم الدلائل على أن العلم أشرف الفضائل والمناقب) ^(١) .

وهذا بدوره يكشف عن سر تركيز القرآن الكريم وتأكيد على أهمية العلم الذي يحمله الأنبياء ﷺ ، وهو العلم الذي يحمل في طياته خصائص ومميزات عديدة تؤهل الإنسان لأن يكون نبياً مرسلًا من الله تبارك وتعالى .

قال تعالى حكاية عن النبي يوسف ﷺ : (وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا) ^(٢) ، وقال تعالى : (وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا) ^(٣) .

أما حقيقة هذا العلم . كما ستأتي الإشارة إليه في مبحث علم الإمام . هو سنخ علم ليس كالعلوم التي يتعلمها الناس ، وإنما هو علم يلقيه الله تعالى على قلب من يشاء ، وهو من سنخ العلم الذي كان وصي سليمان (آصف بن برخيا) يتصرف في التكوين بواسطته ، مع أنه كان عنده بعض هذا العلم لا كله ، كما في قوله تعالى : (قَالَ الْكَلْبُ عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلُ لَأُزَيِّدَنَّكَ طَرَفًا فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقَرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَٰذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي) ^(٤) .

ومن الواضح أنه تعالى قال : (عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ) فإن (من) تفيد التبعية ، وبهذا البعض من العلم استطاع نقل عرش بلقيس من مملكتها إلى مقام سليمان في لحظة واحدة . وعلى هذا الأساس ، فإنّ هذا السنخ من العلم كله موجود عند أهل البيت وسنشير إلى جملة من الشواهد الروائية التي تثبت ذلك في مبحث (علم الإمام) ، ونكتفي هنا بالإشارة لروايتين فقط .

(١) التفسير الكبير ، الفخر الرازي : مج ٦ ، ج ١١ ص ٤٠ .

(٢) يوسف : ٢٢ .

(٣) النمل : ١٥ .

(٤) النمل : ٤٠ .

الرواية الأولى : أخرج القندوزي الحنفي عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال : (علم الكتاب والله عندنا وما أعطي وزير سليمان بن داود ، إنما عنده حرف واحد من الاسم الأعظم ، وعلم بعض الكتاب كان عنده ... وقال في علي عليه السلام ومن عنده علم الكتاب وعلم بعض الكتاب سمّاه عنده الكتاب)^(١) .
وعنه عليه السلام أيضا عن آبائه عليهم السلام أنه قال : (ألا وإنا أهل بيت من علم الله علمنا ويحكم الله حكمنا)^(٢) .

الرواية الثانية : ما أخرجه ابن المغازلي عن علي عليه السلام قال : قال رسول الله ﷺ : (أعطينا أهل البيت سبعة لم يُعطها أحد قبلنا ، ولا يعطاها أحد بعدنا : الصبابة والفصاحة والسماحة والشجاعة والحلم والعلم والمحبة من النساء)^(٣) .

إذن هذا العلم الخاص بإفاضة منه تعالى لأهل البيت عليهم السلام وهو منشأ عصمتهم ، مضافاً إلى جملة وافرة من الأدلة العقلية والنقلية الدالة على عصمتهم عليهم السلام .

(١) ينابيع المودة ، القندوزي : ج ١ ص ٣٠٦ .

(٢) شرح نهج البلاغة ، ابن أبي الحديد : ج ١ ص ٢٦٧ ؛ جواهر المطالب في مناقب الإمام الجليل علي بن أبي طالب : أحمد بن محمد الدمشقي الشافعي : ج ١ ص ٣٤٣ ؛ ينابيع المودة ، القندوزي : ج ١ ص ٨٠ ؛ ج ٣ ص ٤٠٨ .

(٣) مناقب علي بن أبي طالب عليه السلام ، ابن المغازلي : ص ٢٩٥ ، ط ٢ .

الدليل العقلي على عصمة أهل البيت ﷺ

تقدم سابقاً أنّ الإمامة متممة للنبوّة في مجال الدين بمعنى أنّها واجبة لأداء وظيفة النبي ﷺ في بيانه لأحكام الدين والعمل لهداية الناس إلى مصالحهم الواقعية وتركيبه الناس وتربيتهم على الكمال اللائق بهم وحفظ التشريع عن التحريف والزيادة والنقصان .

وعلى هذا يعود الدليل الدال على عصمة النبي ﷺ بعينه ليكون دليلاً على وجوب عصمة الإمام

فالدليل العقلي القائم على عصمة النبي ، من أنّه لو جاز على النبي ﷺ الخطأ والمعصية ، مع أنّ الله تعالى أمر باتباعه والافتداء به والانصياع والطاعة لإوامره ، فإنّ هذا يعني أنّ الله تعالى جوّز لنا ارتكاب المعصية والخطأ الذي يصدر من النبي ، وهذا محال لأنّ الله تعالى لا يأمر بالمعصية والانحراف عن المسار الصحيح الذي رسمه للبشرية .

إذن بالنظر إلى موقعية الإمام من الدين وكونه حافظاً للشرعية وقيماً عليها لابد من القول بعصمته ، كما هو الحال بالنسبة للنبي ﷺ ، فحيث لا يخامرنا الشك بعصمة النبي ﷺ وأنها أمر واضح ، وخلافها لا ينسجم مع الحكمة الإلهية ، فكذلك الإمام بعد النبي ﷺ للسبب ذاته .

وبذلك يتضح ضرورة عصمة الأئمة ﷺ بعد النبي ﷺ ، وأنها واجبة كعصمة النبي ﷺ .

مضافاً إلى أنّه لو افترضنا إمكان صدور الخطأ أو الوقوع في الذنب من النبي أو الإمام فإن هذا بدوره يؤديّ إلى إنكار الآخرين عليه ونفورهم منه ، وهو أمر يناهض ويضاد ما أمر الله تعالى به من طاعته ، وبالتالي يؤديّ إلى الإنكار عليه إلى تفويت غرض الله تعالى من وصول الناس إلى كمالهم المرسوم ، الناتج عن طاعتهم للنبي أو الإمام .

الأدلة القرآنية على عصمة الأئمة عليهم السلام

يطالعنا القرآن الكريم بعثاً من الآيات الصريحة الدالة على عصمة الأئمة عليهم السلام :
الآية الأولى : قوله تعالى (**مَدَّ ابْنُ مَرْيَمَ رِيَّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّتْهُنَّ قِيلَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قِيلَ وَمِنْ ذُنُوبِي قَال لا يَنَالُ عَهْدُ الظَّالِمِينَ**) ^(١) .

بيان الاستدلال :

لا ريب أن الظالم في منطق الشريعة هو كل من يعصي الله تعالى ؛ لأنه ظالم لنفسه على أقل تقدير ، أما العهد في الآية المباركة فالمراد منه الإمامة ، بقرينه قوله تعالى في نفس الآية : (**إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا**) ، فالظالم المرتكب للمعصية في أي فترة من فترات حياته لا يمكن أن يكون إماماً .
وربما يُعترض على ذلك بالقول : إنَّ الإنسان قد يرتكب في شوط من أشواط حياته معصية ما ، وقد يكون ظالماً لنفسه في مرتبة من مراتب عمره ثم يتوب ، فما المانع من أن يشملهُ اللطف الإلهي بالإمامة ؟

(١) البقرة : ١٢٤ .

والجواب عن ذلك بالبيان التالي :

يمكننا تصنيف الناس إلى أربعة أصناف لا خامس لها :

الصنف الأول : مَنْ كان ظالماً من أوّل عمره إلى آخره .

الصنف الثاني : مَنْ كان ظالماً في بداية عمره فحسب ، وكان تائباً مؤمناً في أواخر حياته .

الصنف الثالث : مَنْ كان مؤمناً أوّل عمره ، ظالماً في آخره .

الصنف الرابع : مَنْ كان في كل مراحل حياته مؤمناً من أوّلها إلى آخرها.

وبالعودة إلى إبراهيم ودعائه وطلبه الإمامة لذريّته نجد أنّه من غير المعقول أن يطلب الإمامة لمن كان

ظالماً في جميع عمره أو ظالماً آخر عمره وإن كان في أوّله مؤمناً ، وهذا واضح .

إذن يبقى الصنف الثاني والثالث هما اللذان طلب إبراهيم عليه السلام لهما الإمامة ، وقد نصّ الله تعالى في

الآية المباركة على أنّ العهد والإمامة لا ينالها الظالم ، وينحصر المقصود بالظالم لا محالة بالصنف الثاني ،

وهو مَنْ يكون ظالماً في بداية عمره فحسب ، وتائباً في آخر حياته .

وحينئذ يبقى الصنف الرابع وهو مَنْ كان مؤمناً في طول حياته ، وهو المعصوم عن الخطأ .

لا سيّما مع الالتفات إلى أنّ النبي إبراهيم من أنبياء أولي العزم ، وقد تحدّث القرآن الكريم عن خلقه

وأدبه مع الله تعالى في الطلب والمسألة .

كما في قوله تعالى : (وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ

عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَيَّنَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ)^(١) .

فالنبي إبراهيم عليه السلام تبرأ من عمّه آزر بعد اطلاعه وعلمه بأنّه عدو لله .

(١) التوبة : ١٤ .

إذن إبراهيم عليه السلام يتبرأ من كل عدو وعاص لله تعالى ؛ لأنّ العاصي هو عدو الله بمرتبة من المراتب ، وعلى هذا الأساس فإن كل ظالم لنفسه ولو مرة واحدة في حياته يخرج عن محوطة دعاء إبراهيم عليه السلام له ، بعد أن أعلمه الله تعالى بأنّ هذا الصنف غير مستحق لعهد الإمامة ، وبذلك يخرج كل من كان ظالماً لنفسه في أي مقطع من مقاطع حياته ، فيبقى القسم الرابع وهو من كان غير ظالم من أول عمره إلى آخره .

إذن الآية الشريفة تدل بكل وضوح على عصمة كل من ينال ويستحق مقام الإمامة منذ اليوم الأول ، فلا بد أن يكون الإمام معصوماً قبل الإمامة وبعدها .
وبذلك تدل الآية المباركة على عصمة أهل البيت عليهم السلام ، بعد ثبوت إمامتهم للأئمة بالأدلة القرآنية والروائية المذكورة في محلّها .

الآية الثانية : قوله تعالى : (إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً)^(١) وهذه الآية المباركة تبين كيفية تعلّق إرادة الله تعالى بإذهاب الرجس عن أهل البيت عليهم السلام وأن يكونوا مطهّرين معصومين ، ولما كانت إرادة الله تعالى لا تنفك عن مراده سبحانه فإن الذي أراده الله تعالى وهو تطهير أهل البيت عليهم السلام واقع لا محالة .

وقد نوقش الاستدلال بالآية في قوله تعالى (إِنَّمَا يُرِيدُ ...) فإنّه إما يقصد الإرادة التشريعية وهي تتخلّف عن المراد ، مضافاً لعدم اختصاصها بأهل البيت عليهم السلام ، حيث إنّ الله تعالى أراد من الناس كافة أن يطهّروا بأن يكونوا طائعين مهتدين سائرين في طريق الكمال ، ونهاهم عن الرجس وارتكاب المحرمات كشرب الخمر والفسق والفجور وغيرها ، فهذه الإرادة التشريعية تعلقت بكل البشرية ولا خصوصية لها بأهل البيت عليهم السلام .

(١) الأحزاب : ٣٣ .

وإمّا أن تكون تلك الإرادة تكوينية وقد تعلقّت بطهارة أهل البيت عليهم السلام فهذا يعني أنّهم مطهّرون جزماً ، إذ يستحيل أن تتخلّف إرادة الله التكوينية عن المراد ، لكن الملاحظة التي تقف بوجه هذا التقريب من الاستدلال ، هي أنّ هذا هو الجبر بعينه ، وأنّ أهل البيت عليهم السلام مجبورون عن الابتعاد عن الرجس بإرادة الله التكوينية التي لا تتخلف عن المراد ، وهذا يعني أنّ عصمة أهل البيت عليهم السلام ليست شرفاً أو مدحاً لهم ؛ لأنّ العصمة لم تكن باختيارهم .

والجواب على ذلك سيأتي مفصّلاً في مبحث علم الإمام بالغيب ، إلّا أنّه يمكننا أن نكتفي بالإشارة المفهومة للجواب ، فنقول : حيث إنّ الله تعالى عالم بكل شيء لا يعزب عن علمه مثقال ذرّة في الأرض ولا في السماء ، فهو يعلم بأفعال عبيده قبل خلقهم ويعلم ما يصدر من الإنسان قبل أن يخلقه ، ومحيط بما هو صائر إليه .

وعلى هذا الأساس : فإنّ الله تعالى لما علم من هؤلاء نفر وهم أهل البيت عليهم السلام بأنّهم لا يريدون لأنفسهم إلّا الطاعة المطلقة لله سبحانه أعانهم على ذلك ، وأراد لهم من الطهارة ما يتناسب مع ما علمه من إرادتهم ؛ لأنّه علم منهم أنّهم لا يريدون لأنفسهم إلّا الطاعة ، فلم تتعلّق إرادته التكوينية بعصمتهم إلّا بعد العلم بأنّهم سوف لا يكون لهم همّ إلّا الطاعة والعبودية .

وقد ركزت الآيات القرآنية على هذه الحقيقة ، كما في قوله تعالى :

(كَلَّا نَعْدُ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ) ^(١) وقوله عز وجل : (لَيْسَ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ) ^(٢) وقوله تعالى : (أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ لَوَارِيَةً يَبْقِيهِهَا) ^(٣) ، وهكذا قوله تبارك وتعالى : (إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا مِمَّا كُفِّرُوا) ^(٤) .

إذن فالمسألة لا ترجع إلى اختيار جزائي بل تتحرك في إطار هادف ، وعلمه تعالى بهم صار منشأ لهذه الإرادة التكوينية ؛ وبذلك يتبين عدم التنافي بين كون الله تعالى علم منهم أنهم يريدون طاعة الله باختيارهم ، وبين تعلق إرادته عز وجل التكوينية بتطهيرهم وإذهاب الرجس عنهم ، النابع عن ذلك الاختيار بعد علم الله تعالى به ، ويمكن استظهار ما ذكرناه من الآية ذاتها ، حيث إنها عبرت بـ (إِنَّمَا يريد) ومن الواضح أنّ الفعل المضارع دالّ على الاستمرارية ، أي أنّ النفر والأشخاص الذين أخبرت الآية عن عصمتهم متصفون بهذه الصفة على الدوام والاستمرار ، وهذا لا ينطبق إلا على العترة خاصة دون سواهم ، مع مطابقة ذلك التسديد الإلهي لما يريدونه من الطهارة حيناً فحيناً .

فالآية المباركة تدل على عصمة أهل البيت عليهم السلام ، وقد تقدّم ^(٥) ما يدل على عدم مشاركة غير أهل البيت في الآية الشريفة ، وهنالك قرائن قطعية

(١) الإسراء : ٢٠ .

(٢) الحجر : ٢١ .

(٣) الرعد : ١٧ .

(٤) الإنسان : ٣ .

(٥) راجع : بحث آية التطهير السابق عند رد شمولها لبني هاشم عامة .

وشواهد روائية صريحة تؤكد على انحصار هذه الآية الشريفة بأهل البيت عليهم السلام .
ومنها مثلاً اهتمام وحرص الرسول صلى الله عليه وآله وسلم على تشخيص عنوان أهل البيت عليهم السلام بالعترة الطاهرة
والمنع من استعمال هذه الكلمة في غير عترته عليهم السلام وإدخال المسيء فيهم ، وقد جاء ذلك في روايات
كثيرة ، منها :

ما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال : (ادعوا لي ، ادعوا لي ، فقالت صفية : مَنْ ؟ قال صلى الله عليه وآله وسلم :
أهل بيتي علياً وفاطمة والحسن والحسين ، فجاء بهم فألقى عليهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم كساءه ، ثم رفع يديه ،
ثم قال : اللَّهُمَّ هَؤُلَاءِ آلِي فَصْلِي عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ مُحَمَّدٌ ، وَأَنْزِلِ اللَّهُ عِزَّ وَجَلَّ ، (**إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ**
لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً) ^(١) ، ثم يؤكد صلى الله عليه وآله وسلم هذا الحصر والتشخيص
بقوله : (اللَّهُمَّ هَؤُلَاءِ آلِي فَصْلٍ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ) ، فنزل الله تعالى فيهم قرآناً محكماً ، وهو قوله
تعالى : (**إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً**) ولا يخفى ما في هذه
الكلمة : (اللَّهُمَّ هَؤُلَاءِ آلِي) من الدلالة على حصر أهل البيت .

(١) المستدرک علی الصحیحین ، الحاكم النيسابوري : ج ٣ ص ١٤٨ والآية ٣٣ من سورة الأحزاب .

الأدلة الروائية

أولاً : حديث الثقلين

عن رسول الله ﷺ قال : (إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي ...) ^(١) ، وأول سؤال يطالعا في هذا المجال : هل صدر هذا الحديث عن النبي ﷺ أم لا ؟
والجواب : إن هذا الحديث ما لا شك في صدوره عن النبي ﷺ ، وقد نقله أهل السنة ، ورواه في كتبهم أكثر من نقل الشيعة له .

وهذا الحديث وإن قيل إنه صدر بصيغة (وسنتي بدل وعترتي) إلا أنه لا تنافي بينهما ؛ لأن العترة هي في موقع بيان السنة ، فالعترة هي المبيّن الواقعي للسنة ، وإنّ السنة بتمامها لدى العترة ، وفحوى (كتاب الله وعترتي) يتمثل بوجوب تلقينا السنة عن العترة ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى أنه إذا كان رسول الله ﷺ قد صحّ بعبارة (وسنتي) في موطن واحد فإنه قد نطق بصيغة (كتاب الله وعترتي) في مواطن متعددة ومتواترة ^(٢) .

(١) المعجم الكبير ، الطبري : ج ٥ ص ١٧٠ ص ١٨٦ ؛ تفسير ابن كثير : ج ٤ ص ١٢٢ ؛ قال فيه : (وثبت في الصحيح أن الرسول الله ﷺ قال في خطبة بغدير ... (الحديث) ، ونحوه صحيح مسلم : ج ٤ ص ١٨٧٣ ؛ ونحوه مجمع الزوائد : ج ٩ ص ١٦٢ . ١٦٣ ، وقال فيه : (رواه أحمد وإسناده جيد) ؛ الصواعق المخرقة : ص ٣٤١ ، ونحوه صحيح الترمذي : ج ٥ ص ٣٢٩ ؛ ونحوه السنن الكبرى ، النسائي : ج ٥ ص ٤٥ .
(٢) المعجم الكبير ، الطبراني : ج ٥ ص ١٧٠ وص ١٨٦ ؛ السنن الكبرى ، النسائي : ج ٥ ص ٤٥ وص ١٣٠ وغيرها من المصادر .

دلالة الحديث على عصمة أهل البيت عليه السلام

فمن الملاحظ أن الرسول ﷺ قد حثَّ أُمَّتَهُ على الالتزام والتمسك بالثقلين ، وأخذ دينهم من هذين المصدرين : (الكتاب والعترة) ، فكما أن القرآن معصوم عن الزيغ ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . بلا خلاف في ذلك . كذلك يكون العدل الآخر له معصوماً أيضاً ؛ لأنَّه من المحال أن يدعو النبي ﷺ إلى أخذ الدين من مرجع بشكل حاسم ، ثم يتخلَّل الخطأ والسهو والزيغ بعض كلام ذلك المرجع .

فالعترة مرجع إلهي عبَّته الله تعالى لهذا الموقع إلى جوار القرآن الكريم بالنحو الذي لا يمكن الأخذ بأحدهما دون الآخر ، وإلاَّ سوف ينتهي الأخذ بأحدهما دون الآخر إلى الضلال . وعليه فإنَّه من المحال أن يدعو الله تعالى ورسوله إلى مصدر ومرجع في حال يمكن فيه المعصية والخطأ والاشتباه ؛ لأنَّ ذلك يعني تجويز الله سبحانه وتعالى المعصية والخطأ ، وهو أمر مستحيل ، وعلى هذا الأساس يتعين القول بعصمة أهل البيت عليه السلام .

ثانياً : النص على العصمة والطهارة

كما في قول رسول الله ﷺ : (أنا وعلي والحسن والحسين وتسعة من ولد الحسين مطهَّرون معصومون)^(١) .

وهو صريح الدلالة في إثبات العصمة لأهل البيت عليه السلام .

(١) ينابيع المودة ، القندوزي : ج ٢ ص ٣١٦ وج ٣ ص ٢٩١ وص ٣٨٤ .

ثالثاً : طاعتهم طاعة الله ولرسوله ﷺ

قال رسول الله ﷺ لعلي أمير المؤمنين عليه السلام : (مَنْ أَطَاعَنِي فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ عَصَا اللَّهَ ، وَمَنْ أَطَاعَ عَلِيًّا فَقَدْ أَطَاعَنِي ، وَمَنْ عَصَا عَلِيًّا فَقَدْ عَصَانِي) (١) .

ومن مميزات هذا الحديث أنّ الذهبي الذي هو إمام النقد والتجريح عند السنّة ، والذي عمل كل ما يستطيع لإسقاط عمدة أحاديث فضائل أمير المؤمنين عليه السلام ، قد صحّح هذا الحديث ، ففي هذا الحديث النبوي الكريم أصل وفرع ، وشجرة وثمره فالأصل والشجرة هو النبي ﷺ والفرع هو علي عليه السلام ، وهذا الحديث واضح الدلالة في عصمة الإمام علي عليه السلام ؛ لأنّه يدل على أن إرادة علي عليه السلام لا يمكن أن تتخلّف عن إرادة الله تعالى ، ولا تتخلّف كراهته عن كراهته الله تعالى ، ولو أمكن أن تتخلّف لكان قوله : (وَمَنْ أَطَاعَهُ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ) خطأ واشتباهاً ، والعياذ بالله .

وحيث تثبت عصمة الإمام علي عليه السلام تثبت عصمة بقيّة أهل البيت عليهم السلام ؛ لأنّهم نور واحد وورثة رسول الله ﷺ وخلفاؤه كما هو واضح .

ثمّ إنه بعد ثبوت العصمة لأهل البيت عليهم السلام في العقل والقرآن والسنّة ، لا يبقى مجال لدعوى الغلو في مبدأ العصمة لأهل البيت عليهم السلام .

(١) المستدرك على الصحيحين ، الحاكم النيسابوري : ج ٣ ص ١٢١ ؛ وقال فيه : (حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه) .

الخلاصة

إن عصمة أهل البيت عليه السلام أمر لا يمكن التردد فيه بعد الوقوف على حقيقة العصمة والأدلة القرآنية والروائية .

فالعصمة لغة : المنع والوقاية أي إنّ العصمة ملكة تمنع صاحبها من ارتكاب المعصية ، وهذا هو المعنى الاصطلاحي للعصمة .

منشأ العصمة

إنّ منشأ العصمة هو العلم ، إلاّ أنّه ليس العلم العادي الموجود عند جميع أفراد البشر المسمّى بالعلم الحسولي ، بل هو سنخ علم خاص يفيضه الله تعالى على قلب من يشاء من عباده ، وقد أشارت إلى هذا النمط من العلم عدة من الآيات القرآنية ، كما هو الحال في قضية وصي سليمان آصف بأقل من طرفة عين ، كما في قوله تعالى : (قَالَ اللَّهُ عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقَرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِي)^(١) .

ولا ريب أنّ هذا السنخ من العلم ، هو في صدور أهل البيت عليه السلام ، وقد تقدّمت عدّة شواهد وأدلة على ذلك .

إذن منشأ وسبب العصمة إنّما هو العلم الخاص الذي عند أهل البيت عليه السلام .

(١) النمل: ٤٠ .

الدليل العقلي على عصمة أهل البيت ﷺ

إن الدليل القائم على عصمة النبي ﷺ هو بعينه يكون دليلاً على عصمة خلفاء النبي وهم أهل البيت ﷺ ؛ وذلك لأن خطورة دور الإمام وكونه حافظاً للشرعة وقيماً عليها يوازي خطورة الدور النبوي ، فلو كان الإمام غير معصوم ويخطأ ويعصي مع أن الله تعالى ورسوله أمرنا باتباعه فهذا يعني تجويز الله لنا بارتكاب المعصية ، وهو محال .

الأدلة القرآنية على عصمة الأئمة ﷺ

هنالك عدة آيات قرآنية يستدل بها على العصمة :

منها : قوله تعالى : (**وَإِذْ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ...**) ^(١) .

فالآية المباركة تدل بكل وضوح على أن مَنْ ينال منصب الإمامة لا بد أن يكون معصوماً قبل تقلد الإمامة .

كذلك قوله تعالى : (**إِنَّمَا يَرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ...**) التي لا يشك في اختصاصها بأهل البيت ﷺ .

الأدلة الروائية على عصمة أهل البيت ﷺ

منها : حديث الثقلين : (**إني تارك فيكم الثقلين : كتاب الله وعترتي أهل بيتي**) .

حيث أكّده الرسول ﷺ على لزوم التمسك بالكتاب والعترة على هذا الأساس ، فلو لم تكن العترة معصومة ، لا يمكن أن يأمر الرسول بلزوم اتباعها ، مضافاً إلى عدة أحاديث أخرى .

(١) البقرة : ١٢٤ .

مقام الوصي

الشبهة :

إن منزلة الوصي عند الشيعة تعادل منزلة النبي ﷺ ، وإنّ الوصي يوحى إليه .

الجواب :

يجدر بالقارئ الكريم أن يلتفت إلى أن صاحب هذه الشبهة يحاول أن ينسب إلى الشيعة أمرين :
الأوّل : أن الأوصياء أنبياء .

الثاني : أن الأوصياء يوحى إليهم .

وينتج عن ذلك هو توريط الشيعة الاثني عشرية واتهامهم بفكرة الغلو ، وبالتالي ارتباطهم بالسبئية ،
إلا أنّ هذا باطل وغير صحيح ، وسوف نتناول ذلك إجمالاً ، فنقول :

أولاً : لو رأيد من كون الأوصياء بمنزلة الأنبياء أنّهم أنبياء ، فهذا ما لا نريده ، ولم يدون في كتاب
من كتب الشيعة ؛ ولذا روى الفريقان عن رسول الله ﷺ أنّه قال لعلي : (أنت منّي بمنزلة هارون من
موسى إلا أنّه لا نبي بعدي)^(١) ، فالرسول الأكرم في هذا الحديث جعل الإمام عليّاً عليّاً

(١) صحيح مسلم : ج ٤ ص ١٨٧٠ . ١٨٧١ باب فضائل علي عليه السلام ، المعجم الكبير ، الطبراني : ج ٦ ص ١٤٨ ؛
الثقات ، ابن حبان : ج ١ ص ١٤٢ ، المناقب ، الخوارزمي : ص ١٥٢ ؛ ونحوه الدر المنثور ، السيوطي : ج ٤ ص ٣٢٢ ؛
تاريخ مدينة دمشق ، ابن عساكر : ج ٢٠ ص ٣٦٠ وج ٢١ ص ٤١٥ وج ٤٢ ص ٥٣ ؛ صحيح ابن حبان : ج ١٥ ص
١٦ وص ٣٧١ ؛ مجمع الزوائد ، الهيثمي : ج ٩ ص ١٠٩ ؛ سنن الترمذي ، الترمذي : ج ٥ ص ٣٠٤ ؛ المعجم الصغير ،
الطبراني : ج ٢ ص ٥٤ ؛ المعجم الأوسط ، الطبراني : ج ٦ ص ٧٧ ؛ المستدرک ، الحاكم النيسابوري : ج ٣ ص ١٠٩ ؛
ونحوه السنن الكبرى ، البيهقي : ج ٩ ص ٤٠ ؛ شرح صحيح مسلم ، النووي : ج ١٥ ص ١٧٤ ؛ مسند الطيالسي : ص
٢٩ ؛ مسند ابن راهويه : ج ٥ ص ٣٧ ؛ مسند أبي يعلى : ج ٢ ص ٦٦ وص ١٣٢ ؛ وغيرها من المصادر .

بمنزلة هارون . الذي هو نبي من الأنبياء . من موسى على أنه لا نبي بعد رسول الله ﷺ ، وهذا يكشف عن أن التنزيل بحد ذاته لا يعني التنزيل من جميع الجهات حتى من جانب النبوة ، كما أكد على ذلك الأئمة عليهم السلام :

- ١ . قال أبو عبد الله الصادق عليه السلام : (إِنَّمَا الْوُقُوفُ عَلَيْنَا فِي الْحَلَالِ فَأَمَّا النَّبِيُّ فَلَا) ^(١) .
- ٢ . وعن بريد بن معاوية عن أحدهما . أبي جعفر وأبي عبد الله . عليه السلام ، قال : (قلت له : ما منزلتكم ؟ وَمَنْ تَشْبَهُونَ مَنْ مَضَى ؟ قال : صاحب موسى وذو القرنين كانا عالمين ولم يكونا نبيين) ^(٢) .
- ٣ . كذلك عن سدير قال : قلت لأبي عبد الله عليه السلام : (... وعندنا قوم يزعمون أنكم رسل يقرؤون علينا بذلك قرآنا (يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ الْأَعْيُنَ وَالْأَلْأَبْصَارَ عَالِمِينَ) ، فقال : يا سدير سمعي وبصري وشعري وبشري ولحمي ودمي من هؤلاء براء ، وبرئ الله منهم ورسوله ، ما هؤلاء على ديني ولا على دين آبائي ، والله لا يجمعني الله وإياهم يوم القيامة إلا وهو ساخط عليهم ، قال : قلت : فما أنتم ؟ قال : نحن خزائن علم الله ، نحن تراجمة أمر الله ، نحن قوم معصومون أمر الله تبارك وتعالى بطاعتنا ، ونهى عن معصيتنا ، نحن الحجة البالغة على مَنْ دُونِ السَّمَاءِ وَفَوْقِ الْأَرْضِ) ^(٣) .
- ٤ . عن محمد بن مسلم قال : (سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول : الأئمة بمنزلة

(١) الكافي ، الكليني: ج ١ ص ٢٦٨ .

(٢) الكافي ، الكليني: ج ١ ص ٢٦٩ .

(٣) الكافي ، الكليني: ج ١ ص ٢٦٩ .

رسول الله ﷺ ، إلا أنهم ليسوا بأنبياء ، ولا يحل لهم من النساء ما يحل للنبي ﷺ ، فأما ما خلا ذلك فهم فيه بمنزلة رسول ﷺ (١) .

٥ . عن أبي أيوب بن الحر ، قال : (سمعت أبا عبد الله يقول : إن الله عزّ ذكره ختم بنبيكم النبيين ، فلا نبي بعده أبداً ، وختم بكتابكم الكتب ، فلا كتاب بعده أبداً ، وأنزل فيه تبيان كل شيء) (٢) .
ثم كيف يدعي الشيعة أن الأئمة أنبياء ، أو أنهم يوحى إليهم ، وهم يترلون القرآن بكرة وعشياً :
لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ جَاهِلِينَ بِمَا نَزَّلْنَا بِهِ الْكِتَابَ فَذَكِّرُوا بِهِ وَمَا نَزَّلْنَاهُ إِلَّا بِوَحْيٍ مُبِينٍ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٣) .

أقوال علماء الشيعة

وقال الشيخ المفيد : (فإن قيل : هل علمتم من دينه أنه خاتم الأنبياء أم لا ؟

فالجواب : علمنا ذلك من دينه ﷺ .

فإن قيل : بما علمتموه ؟ .

فالجواب : علمنا ذلك بالقرآن والحديث ، أمّا القرآن فقوله تعالى : (مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّنْ جَاهِلِكُمْ ۖ كَانَ سَوْلاً لَّهِ ۚ خَتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا) .
وأما الحديث فقوله ﷺ لعلي عليه السلام :

(١) الكافي ، الكليني: ج ١ ص ٢٧٠ .

(٢) المصدر نفسه : ج ١ ص ٢٦٩ .

(٣) الأحزاب : آية ٤٠ .

(أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي) (١) .

قال الشيخ الطوسي رحمه الله : (مسألة : نبينا محمد ﷺ خاتم الأنبياء والرسل بدليل قوله تعالى : (لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَ أَيْدِيهِمْ وَلَا يُحِيطُ بِشَيْءٍ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ) (٢) .

وقال القاضي ابن براج : (مسألة : نبينا خاتم النبيين والمرسلين بمعنى أنه لا نبي بعده إلى يوم القيامة ، يقول تعالى : (لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَ أَيْدِيهِمْ وَلَا يُحِيطُ بِشَيْءٍ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ) (٣) .

واستدل بذلك أيضا علي بن يونس العاملي في كتابه الصراط المستقيم (٤) ، وقال الشيخ الطوسي في تفسير هذه الآية (خَاتَمَ النَّبِيِّينَ) أي : (آخرهم ؛ لأنه لا نبي بعده إلى يوم القيامة) (٥) .

وقال الشيخ الطبرسي : (خَاتَمَ النَّبِيِّينَ) أي : وآخر النبيين ختمت النبوة به ، فشريعته باقية إلى يوم الدين ، وهذا فضيلة له ﷺ اختص بها من بين سائر المرسلين (٦) .

وأقوال علمائنا في ذلك كثيرة جداً فوق حد الإحصاء .

(١) النكت الاعتقادية ، المفيد : ص ٣٨ .

(٢) الرسائل العشر ، الطوسي : ص ٩٧ .

(٣) جواهر الفقه ، ابن البراج : ص ٢٤٨ .

(٤) الصراط المستقيم ، علي بن يونس العاملي : ج ١ ص ٦١ .

(٥) التبيان ، الطوسي : ج ٨ ص ٣٤٦ .

(٦) مجمع البيان ، الطبرسي : ج ٨ ص ١٦٦ .

الوحي انقطع بموت النبي ﷺ

أمّا بالنسبة إلى الوحي فإنّه انقطع بموت النبي ﷺ ، وهذا يعد من الضروريات والبديهيات في مذهب أهل البيت عليه السلام ، ولو تصفّحنا سريعاً ما ورد في الكتب الروائية الشيعية لوجدناها زاحرة بهذا المعنى .

فمن باب المثال لا الحصر ما جاء في (الوسائل) عن أبي أيوب الخراز أنّه قال : (أردنا أن نخرج فحجنا نسلم على أبي عبد الله عليه السلام ، فقال : كأنكم طلبتم بركة الاثنين ؟ قلنا : نعم ، قال : فأَيُّ يوم أعظم شؤماً من يوم الاثنين ، فقدنا فيه نبياً ﷺ وارتفع الوحي عنا)^(١) .

وعن أبي عبد الله بن أبي الكرام قال : تهيأت للخروج إلى العراق ، فأُتيت أبا عبد الله عليه السلام لأسلم عليه وأودّعه ، فقال : (أين تريد قلت : أريد إلى العراق ، فقال لي : في هذا اليوم . وكان يوم الاثنين . ؟ فقلت : إن هذا اليوم يقول الناس : إنّه يوم مبارك فيه وُلد النبي ﷺ ، فقال : والله ما يعلمون أي يوم وُلد فيه النبي ﷺ ، إنّه يوم شؤم ، فيه قبض النبي ﷺ وانقطع الوحي)^(٢) .

وعن جامع الأخبار في كتاب التعبير عن الأئمة عليهم السلام : (إن رؤيا المؤمن صحيحة ؛ لأن نفسه طيبة وبقينه صحيح ، وتخرج فتتلقى من الملائكة ، فهي وحي من الله العزيز الجبار ، وقال عليه السلام : انقطع الوحي وبقي المبشرات ألا وهي نوم الصالحين والصالحات)^(٣) .

وسبأني أنّ من معاني الوحي هو ما يحصل في المنام ، كما في الإيحاء إلى أمّ موسى عليه السلام .

(١) الوسائل ، الحر العاملي : ج ١١ ص ٣٥١ ح ١ ؛ باب آداب السفر إلى الحج وغيره ، الباب الرابع (باب كراهة

اختيار الاثنين للسفر) ؛ وكذا الباب السابع : ح ٩ ص ٣٦٠ .

(٢) وسائل الشيعة ، الحر العاملي : ج ١١ ص ٣٦٠ .

(٣) نقلاً عن بحار الأنوار ، المجلسي : ج ٥٨ ص ١٧٦ .

وأخرج البخاري في صحيحه في باب الرؤيا الصالحة ، عن عبد الله بن سلمة ، عن مالك بن إسماعيل بن عبد الله بن أبي طلحة ، عن أنس بن مالك أنّ رسول الله ﷺ قال : (الرؤيا الحسنة من الرجل الصالح جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة) ، وكذا ذكرها بعدة أسانيد في باب الرؤيا الصالحة (جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة) كما عن عبادة بن الصامت وأبي هريرة وأنس ^(١) .

أقسام الوحي

ذكر المفسّرون أنّ للوحي أكثر من معنى ، استعملها القرآن الكريم : كالإيجاء إلى النحل وإلى أمّ موسى ونحوها .

وعلى هذا الأساس ، فلو عبّر في بعض الروايات بالوحي لا يعني ذلك أنّ المقصود منه هو الوحي الرسالي والنبويّ أبداً ، بل لابد أن يكون المراد غير ذلك ، ومن أقسام الوحي في القرآن الكريم ما يلي :

١ . الوحي بمعنى الإلهام : كما في قوله تعالى : (**هُوَ جِي رَبِّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً**) ^(٢) ، كما نصّ على ذلك النخّاس ، حيث قال : روي عن الضحاك أنّه قال : أهمها ، وأصل الوحي في اللغة الإعلان بالشيء في

(١) صحيح البخاري ، البخاري : ج ٨ ص ٦٨ ، ص ٧٠ .

(٢) النحل : آية ٦٨ .

ستره ، فيقع ذلك بالإلهام وبالإشارة وبالكتابة وبالكلام الخفي (١) ، وكذا قيل إنّ من الوحي الرحماني بمعنى الإلهام ، قوله تعالى : (هُوَ خَيَّنَا إِلَىٰ لَمْ مُوسَىٰ) (٢) .

٢ . الوحي بمعنى الخلق : عن السيّد (وَأَخَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا) (٣) ، قال : (خلق في كل سماء خلقها من الملائكة ، والخلق الذي فيها من البحار وجبال البرد وما لا يعلم ، وعن قتادة (هُوَ جَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا) : خلق فيها شمسها وقمرها ونجومها وصلاحها) (٤) .

٣ . الوحي بمعنى إلقاء القول بخفاء : كما في قوله تعالى : (إِنِّي يُوحِي رَبِّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ) (٥) .

٤ . الوحي بمعنى الإشارة والكتابة : كما نقل القرطبي في تفسير قوله تعالى : (فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ ذَٰلِكَ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا) (٦) ، عن الكلبي وقاتدة وابن منبه : أوحى إليهم أشار ، وعن القتيبي : أوماً ، وعن مجاهد : كتب على الأرض ، وأما عكرمة فيقول : كتب في كتاب ، والوحي في كلام العرب الكتابة ... (٧) .

٥ . الوحي بمعنى الإسرار : كما في قوله تعالى : (يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ

(١) معاني القرآن ، النحاس : ج ٤ ص ٨٣ .

(٢) القصص : آية ٧ .

(٣) فصلت : آية ١٢ .

(٤) جامع البيان : ابن جرير الطبري : ج ٢٤ ص ١٢٥ .

(٥) الأنفال : آية ١٢ .

(٦) مريم : آية ١١ .

(٧) تفسير القرطبي ، القرطبي : ج ١١ ص ٨٥ ؛ وكذا ما في : جامع البيان : ابن جرير الطبري : ج ١٦ ص ٦٨ ؛ وتفسير

ابن كثير ، ابن كثير : ج ٣ ص ١١٩ .

تُخْرِجُ الْفَوْغُورُ (١) .

٦ . الوحي بمعنى الإلقاء في الروح : كما في قوله تعالى : (وَحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ رَأَيْهِ) (٢) .
قال الجبائي : (كان الوحي رؤيا منام) ، وقال الزجاج : (معنى أوحينا إلىٰ مُوسَىٰ أعلمناها) ،
وقال عبد الرزاق الصنعاني في تفسيره : (عن قتادة في قوله وأوحينا إلىٰ مُوسَىٰ ، قذف في نفسها)
(٣) .

وفي زاد المسير لابن الجوزي : (فيه ثلاثة أقوال : أحدها : أنه إلهام قاله ابن عباس ، والثاني : إن
جبرائيل أتاه ، وبذلك قاله مقاتل ، والثالث : أنه كان رؤيا منام) (٤) .
٧ . الوحي بمعنى الأمر : كما في قوله تعالى (إِنَّا رَبُّكَ وَأَجَىٰ) (٥) ، ذكره القرطبي في تفسيره (٦)

إذن للوحي معان عديدة ، فمن السذاجة حصره بالوحي الرسالي . ومما يؤيد جميع ما ذكرنا ما جاء
في كتاب التعبير عن الأئمة عليهم السلام : (إن رؤيا المؤمن صحيحة ؛ لأن نفسه طيبة وبقينه صحيح ، وتخرج
فتلقى من

(١) الأنعام: آية ١١٢ .

(٢) القصص : آية ٧ .

(٣) تفسير الصنعاني ، عبد الرزاق الصنعاني : ج ٣ ص ٨٧ ؛ وكذلك في : تفسير الطبري : ج ٢ ص ٣٧ ؛ ومعاني القرآن:
النحاس : ج ٥ ص ١٥٧ .

(٤) زاد المسير ، ابن الجوزي : ج ٦ ص ٨٧ ؛ وهكذا انظر : تفسير القرطبي : ج ٦ ص ٣٦٣ ؛ ج ١٣ ص ٢٥٠ .

(٥) الزلزلة : آية ٥

(٦) تفسير القرطبي ، القرطبي : ج ٦ ص ٣٦٣ .

الملائكة ، فهي وحي من الله العزيز الجبار ، وقال عليه السلام : انقطع الوحي وبقي المبشرات ألا وهي نوم الصالحين والصالحات (١) .

والنتيجة : هي أن الوحي انقطع والائمة عليه السلام ليسوا بأنبياء .

الخلاصة

- ١ . إن انقطاع النبوة والوحي الرسالي بعد موت النبي صلى الله عليه وآله وسلم من بديهيات وضروريات مذهب أهل البيت عليه السلام ، والتراث الشيعي مليء بالروايات التي تنطق بهذه الحقيقة .
- ٢ . مضافاً إلى ما سبق من وجود الجَم الغفير من الروايات التي تؤكد هذه الحقيقة ، فقد أجمع علماؤنا على انقطاع الوحي بعد موت نبيِّنا صلى الله عليه وآله وسلم وأنه خاتم النبيين .
- ٣ . ورد الوحي في القرآن الكريم على معان عديدة ؛ لذا فإطلاق الوحي . لو وجد في بعض الروايات . لا يعني ذلك أن المراد هو وحي النبوة والرسالة .

(١) نقلا عن بحار الأنوار : المجلسي : ج ٥٨ : ص ١٧٦ .

تأليه الإمام عند الشيعة

الشبهة :

الشيعة يؤهلون أئمتهم ويتخذونهم أرباباً من دون الله .

الجواب :

تمهيد :

أولاً : إنّ هذا القول والادعاء باطل لا أساس له من الصحة أبداً ، فهذه كتب الشيعة ومؤلفاتهم حكماً بيننا ، فهي تصرح بأنّ الأئمة عليهم السلام عباد لله تعالى ، بل إنّ سيدهم رسول الله ﷺ نال جميع المقامات السامية والرفيعة بالعبودية لله تعالى ، حيث قال الله عز وجل : (سُبْحَانَ اللَّهِ) أسيرَ يَعْبُدُهُ يَوْمَ نَنْزِلُ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى اللَّهُ بَارَكْنَا خَلْقَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (١) .

ومجاميع الشيعة الحديثية مليئة بالروايات الصحيحة والصريحة التي تحذّر من فرق المغالين وعقيدتهم الفاسدة ، وإليك بعضها على سبيل الاختصار :

(١) الإسراء : آية ١ .

أولا* : نُهي أهل البيت عليه السلام عن الغلو :

١ . ما جاء عن الإمام الرضا عليه السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قوله : (لا ترفعوني فوق حقي فإن الله تبارك وتعالى اتخذني عبداً قبل أن يتخذني نبياً)^(١) .

٢ . قال أمير المؤمنين عليه السلام : (إياكم والغلو فينا ، قولوا عبید مربوبون ، وقولوا في فضلنا ما شئتم)^(٢) .

٣ . ما جاء عن الإمام الرضا عليه السلام عن أمير المؤمنين عليه السلام أيضا : (أنا أبرأ إلى الله تبارك وتعالى ممّن يغلو فينا ويرفعنا فوق حدنا كبراءة عيسى بن مريم من النصارى)^(٣) .

٤ . وعنه أيضا عليه السلام : (فمّن ادعى للأنبياء ربوبية وادعى للأئمة ربوبية أو نبه أو لغير الأئمة إمامة فحن منه براء في الدنيا والآخرة)^(٤) .

٥ . عن مرّازم قال : قال الإمام الصادق عليه السلام : (قال للغالية توبوا إلى الله فإنكم كفّار فسباق مشركون)^(٥) .

٦ . ما عن سدير قال : (قلت لأبي عبد الله عليه السلام : إنّ قوماً يزعمون أنّكم آلهة ، يتلون بذلك علينا قرآنا (وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ)^(٦) ، فقال : يا سدير سمعي وبصري ولحمي ودمي وشعري من هؤلاء براء ،

* للتنويه فقط : نشير هنا إلى أن لا وجود لـ (ثانيا) ... ؛ فإمّا وردت (أولا) عن غير قصد ، أو لم تذكر بقيّة النقاط سهواً أو غير ذلك ! [الشبكة] .

(١) عيون أخبار الرضا ، الصدوق : ص ٢١٧ .

(٢) الخصال : الصدوق : ص ٦١٤ .

(٣) عيون الأخبار ، الصدوق : ج ١ ص ٢١٧ .

(٤) المصدر نفسه : ج ١ ص ٢١٧ .

(٥) رجال الكشي : ج ٢ ص ٥٨٧ ح ٥٢٧ .

(٦) الزخرف : ٨٤ .

وبرئ الله منهم ، ما هؤلاء على ديني ولا على دين آبائي ، والله لا يجمعني الله وإياهم يوم القيامة إلا وهو ساخط عليهم ، قال : قلت : وعندنا قوم يزعمون أنكم رسل يقرأون علينا بذلك قرآنا (يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ كَلِّبُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَعَمَلُوا صَالِحًا إِنَّي بَأْسَعَمَلُونَ عَلِيمٌ) ^(١) ، فقال : يا سدير سمعي وبصري وشعري وبشري ولحمي ودمي من هؤلاء براء وبرئ الله منهم ورسوله ، ما هؤلاء على ديني ولا على دين آبائي ، والله لا يجمعني الله وإياهم يوم القيامة إلا وهو ساخط عليهم ، قال : قلت : فما أنتم ؟ قال : نحن خزّن علم الله ، نحن تراجمة أمر الله ، نحن قوم معصومون ، أمر الله تبارك وتعالى بطاعتنا ونهى عن معصيتنا ، نحن الحجّة البالغة على من دون السماء وفوق الأرض ^(٢) .

٧ . وقال الإمام الصادق عليه السلام : (احذروا على شبابكم من الغلاة لا يفسدونهم فإن الغلاة شر خلق الله يصغرون عظمة الله ويدعون الربوبية لعباد الله ، والله إنّ الغلاة شر من اليهود والنصارى والمجوس والذين أشركوا) ^(٣) .

مواقف علمائنا من الغلاة

١ . قال الشيخ الصدوق رحمه الله : (اعتقادنا في الغلاة والمفوضة أنهم كفّار بالله تعالى ، وأنهم شر من اليهود والنصارى والمجوس والقدرية والحرورية ومن جميع أهل البدع والأهواء المضلّة) ^(٤) .

(١) المؤمنون : آية ٥١ .

(٢) الكافي ، الكليني : ج ١ ص ٢٦٩ ، ص ٢٧٠ .

(٣) الأمالي ، الطوسي : ص ٢٥٠ .

(٤) الاعتقادات الصدوق : ص ٩٧ .

٢ . قال الشيخ المفيد رحمته الله : (والغلاة من المتظاهرين بالإسلام هم الذين نسبوا أمير المؤمنين والأئمة من ذريته عليه السلام إلى الألوهية ... وهم ضالّ كفار ، حكم فيهم أمير المؤمنين عليه السلام بالقتل والتحريق بالنار ، وقضت الأئمة عليهم السلام بالإكفار والخروج عن الإسلام) (١) .

٣ . وقال الشيخ كاشف الغطاء رحمته الله : (أمّا الشيعة الإمامية وأئمّتهم عليهم السلام فيبرؤون من تلك الفرق براءة تحرّم ويبرؤون من تلك المقالات ، ويعدّونها من أشنع الكفر والضلالات ، ليس دينهم إلّا التوحيد المحض وتنزيه الخالق عن كل مشابهة للمخلوق) (٢) .

٤ . وقال الشيخ المظفر رحمته الله : (لا نعتقد في أئمّتنا عليهم السلام ما يعتقده الغلاة والحلوليون (كُنْزُ كَلِمَةٍ) تَخْرُجُ مِنْ أَفْهَمِهِمْ) (٣) ، بل عقيدتنا الخاصة أنّهم بشر مثلنا لهم ما لنا وعليهم ما علينا ، وإنّما هم عباد مكرّمون اختصهم الله بكرامته وحباهم بولايته إذ كانوا في أعلى درجات الكمال اللائقة في البشر من العلم والتقوى والشجاعة والكرم والفقّه ، وجميع الأخلاق الفاضلة والصفات الحميدة ، لا يدانيهم أحد من البشر فيما اختصوا به ، قال إمامنا الصادق عليه السلام : (ما جاءكم عنّا ممّا يجوز أن يكون في المخلوقين ولم تعلموه ولم تفهموه فلا تجحدوه وردّوه إلينا ، وما جاءكم عنّا ممّا لا يجوز أن يكون في المخلوقين فاجحدوه ولا تردّوه إلينا) (٤) .

(١) تصحيح الاعتقادات ، المفيد : ص ١٣١ .

(٢) أصل الشيعة وأصولها ، كاشف الغطاء : ص ٣٨ ، نشر دار الأعلمي ، ١٣٩٧ هـ .

(٣) الكهف : آية ٥ .

(٤) عقائد الإمامية ، محمد رضا المظفر : ص ٧٣ - ٧٤ .

وكيف نغالي في أهل البيت عليهم السلام وندعي لهم الألوهية ونحن نروي أن الإمام الرضا عليه السلام كان يقول في دعائه :

(اللهم إني أبرأ إليك من الحول والقوة ، فلا حول ولا قوة إلا بك ، ... اللهم لا تليق الربوبية إلا بك ، ولا تصلح الإلهية إلا لك ، فالعن النصارى الذين صغروا عظمتك ، والعن المظاهرين لقولهم من بريتك ، اللهم إنا عبيدك لا نملك لأنفسنا ضراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياةً ولا نشوراً ، اللهم من زعم أننا أرباب ، فنحن إليك منه براء ...) ^(١) .

ثانياً : إنَّ ما تمسَّك به المستشكل عبارة عن روايتين ضعيفتين ، أحدهما رواية واردة في البحار ، عن تفسير العياشي ضعيفة السند ، مضافاً إلى جهالة الجعفري إذ لم يذكر له توثيق في كتب الرجال . وكذا ما في الرواية الأخرى التي وردت في كتاب تأويل الآيات للسيد علي الأسترآبادي ، (عن علي بن أسباط ، عن إبراهيم الجعفري ، عن أبي الجارود ، عن أبي عبد الله عليه السلام في قوله تعالى : (**لَوْلَا مَعَهُ** **اللَّهُ بَلَّ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ**) ، قال : أي إمام هدى مع إمام ضلال في قرن واحد) ^(٢) فطريق السيد إلى علي بن أسباط مجهول ، فالرواية مقطوعة السند ولا يمكن الاعتماد عليها ، بالإضافة إلى ما في نسبة الكتاب إلى السيد من كلام .

فلا اعتماد على هذه الرواية ولا على أختها في المسائل الفرعية ، فضلاً عما إذا كانت من المسائل الاعتقادية .

(١) الاعتقادات ، المفيد : ص ٩٩ . ١٠٠ .

(٢) تأويل الآيات ، الأسترآبادي : ج ١ ص ٤٠١ .

ثالثاً : إن الإمامية الاثني عشرية لديهم مباني وأصول أصّلها لهم الرسول الأكرم ﷺ وأهل بيته عليه السلام يسيرون على طبقها في قبول الرواية أو ردّها ، ومن تلك الأصول هي : إن كل ما يخالف العقل الصريح والقرآن الكريم من الروايات يرد ولا يقبل :

١ . فعن هشام بن الحكم وغيره ، عن أبي عبد الله عليه السلام قال : (خطب رسول الله ﷺ فقال : يا أيّها الناس ما جاءكم عنّي يوافق كتاب الله فأنا قلته ، وما جاءكم يخالف كتاب الله فلم أقله) (١) .

٢ . وقد ورد في صحيح محمد بن الحر قال : (سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول : كل شيء مردود إلى الكتاب والسنة ، وكل حديث لا يوافق كتاب الله فهو زخرف) (٢) .

٣ . وجاء عن أبي عبد الله عليه السلام : (إذا ورد عليكم حديث فوجدتم له شاهداً من كتاب الله أو من قول رسول الله ﷺ وإلا فالذي جاءكم به أولى به) (٣) .

٤ . وعنه أيضاً عليه السلام : (ما لم يوافق من الحديث القرآن فهو زخرف) (٤) .

٥ . وعنه أيضاً عليه السلام : (الوقوف عند الشبهة خير من الافتحام في الهلكة ، إنّ على كل حق حقيقة وعلى

كل صواب نوراً فما وافق كتاب الله فخذوه ، وما خالف كتاب الله فدعوه) (٥) .

٦ . عن سدير قال : (قال أبو جعفر وأبو عبد الله عليه السلام : لا تصدق علينا إلا ما

(١) وسائل الشيعة ، الحر العاملي : ج ٢٧ : ص ١١١ .

(٢) المصدر نفسه : ج ٢٧ : ص ١١١ .

(٣) المصدر نفسه : ج ٢٧ : ص ١٠٧ .

(٤) المصدر نفسه : ج ٢٧ : ص ١١٠ .

(٥) المصدر نفسه : ج ٢٧ : ص ١١٩ .

وافق كتاب الله وسنة نبيه ﷺ (١) .

وغيرها من الروايات التي بهذا المضمون .

ولا شك أن تأليه الإمام وجعل المخلوق في مرتبة الخالق ، والفقير في مرتبة الغني مما يرفضه صريح العقل ، وصريح القرآن الكريم ، كقوله تعالى : (لَا كُفْلَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا) (٢) .

وعلى هذا الأساس فإذا جاءتنا رواية يظهر منها تأليه الإمام نردّها ولا نقبلها ولو كانت صحيحة السند ، فضلاً عما لو كانت ضعيفة ، خصوصاً فيما لو كانت المسألة من المسائل الاعتقادية ، بل من أساس العقائد .

رابعا : لو فرضنا جدلا وجود رواية صحيحة ومقبولة من الناحية الاعتقادية إلا أنه يمكن القول أنّها تستهدف الإشارة إلى أمر دقيق وحساس يحتاج إلى المزيد من النباهة والفتنة وإمعان النظر ، إلا أنه قبلولوج في بيان المقصود والذي تستهدفه الرواية ينبغي الإشارة إلى نقطة أساسية تساهم في توضيح المراد وتحول دون وقوع الالتباس فيه :

وملخصها :

إنّ القرآن الكريم يؤكّد على وجود إمام هدى وإمام ضلال في هذا العالم ، كما في قوله تعالى : (وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا) (٣) ، (وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً وَجَعَلْنَاهُمُ الْفُورِثِينَ) (٤) ، وقوله تعالى : (وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ

(١) المصدر السابق نفسه : ج ٢٧ : ص ١٢٣ .

(٢) مريم : آية ٩٣ .

(٣) الأنبياء : ٧٣ .

(٤) القصص : ٥ .

الْقِيَامَةَ لَا يُنْصَرُونَ (١) ، وقوله تعالى : (فَقَاتِلُوا أُمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أِيْمَانَهُمْ) (٢) فهناك أئمة هدى وأئمة كفر وضلال .

ولا شك أن إمام الهدى من الله تعالى ، وإمام الضلال من الطاغوت والشيطان . وعلى ضوء هذه النقطة ، نقول : إن الرواية تنبّه على أمر بالغ الخطورة على واقع الإنسان العملي ، حيث إنّها تخاطبه ، وتقول : أيّها الإنسان لا تتخذ في حياتك وفي سلوكك وتعاملك إمامين ، إمام هدى وإمام ضلال ، فإنّ مَنْ يتخذ ويتبع هذين الإمامين معاً سوف يقع في الشرك بالله تبارك وتعالى من حيث لا يشعر ؛ إذ معنى ذلك هو الإيمان بجاعل أئمة الهدى وهو الله تعالى ، وجاعل أئمة الضلال وهو غيره تعالى ، وهو عين الشرك به عزّ وجلّ ، وهذا المعنى بنفسه يلتقي مع قوله تعالى : (لَا تَتَّخِذُوا لِهَيْبَةِ رَجُلٍ ۖ يَنْفَرُ) (٣) ، فالإمام عليه السلام يريد أن يشير إلى إن نتيجة اتخاذ الإنسان إمامين في آن واحد (إمام هدى مع إمام ضلال) (٤) ، حصيلته الشرك بالله عزّ وجلّ .

فمَنْ أراد الالتزام بمبدأ التوحيد وأن لا يتخذ إلهين اثنين ، عليه أن لا يتبع إمامين : إمام حق من الله وإمام باطل من غيره تعالى ؛ لأن هذا هو الشرك الذي ينافي مضمون الآية المباركة . وهذا المعنى بنفسه هو الذي ذكرته بعض الروايات ومنها تلك الرواية

(١) القصص : ٤١ .

(٢) التوبة : ١٢ .

(٣) النحل : ٥١ .

(٤) تأويل الآيات ، الأستريادي النجفي : ج ١ ص ٤٠١ .

التي نقلها السيد شرف الدين علي الأسترآبادي : (عن علي بن أسباط ، عن إبراهيم الجعفري ، عن أبي الجارود ، عن أبي عبد الله عليه السلام في قوله تعالى : (**لِرَّكَّهِ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ**) قال : أي إمام هدى مع إمام ضلال في قرن واحد)^(١) ، فهذه الرواية تؤكد المعنى الذي قرّزناه آنفاً ، ولهذا فهم السيد الأسترآبادي من الرواية نفس المعنى الذي فهمناه ، حيث قال في كتابه تأويل الآيات تفسيراً لمعنى الرواية : (يعني كما أنّه لا يجوز أن يكون إله مع الله سبحانه كذلك لا يجوز أن يكون إمام هدى مع إمام ضلال في قرن واحد ؛ لأن الهدى والضلال لا يجتمعان في زمن من الأزمان ، والزمان لا يخلو من إمام هدى من الله يهدي الخلق)^(٢) .

فعندما نجد بعض الروايات الضعيفة في بعض الكتب ، فليس من الصحيح أن ننسب شيئاً إلى طائفة بكاملها اعتماداً عليها أو على رواية ضعيفة واحدة ، وهذا لا يختص بمذهب الشيعة فقط ، بل كتب أهل السنة ومنها الكتب المعتمدة كالصحيح والسنن وغيرها ممّا تحتوي على مثل هذه الروايات الضعيفة بشهادة كبار علمائهم بتضعيفها .

الخلاصة

١ . إن ما ذكر في الشبهة محجّر ادعاء لا أساس له في مذهب أهل البيت عليهم السلام ، وقد صرح وأكّد الرسول الأكرم صلّى الله عليه وآله على أنّه صلّى الله عليه وآله مهما بلغ من مقامات فهو في إطار العبودية ، وفي هذا المقام روايات متضاربة ، فإذا كان هذا الحال مع الرسول الأكرم صلّى الله عليه وآله بهذه الكيفية ، فكيف بأهل البيت عليهم السلام وهم يأتون بعد النبي صلّى الله عليه وآله في الدرجة والمقام .

(١) تأويل الآيات ، الأسترآبادي النجفي : ج ١ ص ٤٠١ .

(٢) المصدر نفسه : ج ١ ص ٤٠١ .

- ٢ . إن وصف الإمام عليه السلام بصفة الألوهية يعد من الغلو ، ولا يخفى موقف أهل البيت عليهم السلام من الغلو والمغالين ، حيث تبرأ أئمة أهل البيت عن هؤلاء المغالين ، وكل من يصفهم بالربوبية والألوهية .
- ٣ . إن مواقف علمائنا واضحة تجاه المغالين فقد وصفوهم بأنهم أنجس من اليهود والنصارى .
- ٤ . لو فرض وجود رواية صحيحة في المقام إلا أنه لا يمكن قبولها لتعارضها مع كتاب الله تعالى ، وقد أمرنا النبي صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام ألا نأخذ إلا بما وافق القرآن الكريم وترك كل ما خالفه ، فيما إذا لم يكن هناك طريق لتوجيه الرواية الصحيحة المفروض صحتها .
- ٥ . لو فرضنا جدلاً وجود رواية مثل هذه وكانت صحيحة إلا أنه يمكن أن يقال : إنها ترمي الإشارة إلى مطلب آخر حاصله أنها تحذّر الإنسان من اتخاذ إمامين في آن واحد ، إمام هدى وإمام ضلال ، كما حكى ذلك الحق تعالى بقوله : (لَا تَتَّخِذُوا الْمُنَىٰ ثِنثًا) ؛ لأنه يؤديّ إلى الشرك والضلال .

الولاية عند الشيعة أهم من التوحيد

الشبهة :

ولاية أهل البيت عليهم السلام عند الشيعة أهم من التوحيد .

الجواب :

أولاً : التوحيد أساس الدين

إنَّ أصل التوحيد عند الشيعة الإمامية ، يأتي في الذروة ويحتل موقع الصدارة في المنظومة الدينية ، هذا ما نلمسه واضحاً عند مراجعة بسيطة لمصادر الشيعة في ذلك ، ويكفي للقارئ مراجعة سريعة لمجامعنا الحديثية ليجد الأحاديث المتضاربة والمتواترة في ذلك ، والتي تؤكد على أنَّ كل الكمالات لله تعالى ، بحيث لا يشدُّ عنه كمال ، بل له من كل كمال وجودي أعلاه وأشرفه ، وهذا يعد من الأصول الأساسية عند الشيعة .

ومن يتأمل في حصيلة النصوص الروائية الشريفة الواردة عن أهل البيت عليهم السلام يتضح له أن مفتاح الولوج إلى عالم التوحيد الرحيب يكمن في معرفته تعالى معرفة حقيقية ، وهذه الفكرة لخصها أمير المؤمنين عليه السلام في أوَّ خطب النهج بقوله : (أوَّ الدين معرفته)^(١) ، وبموازاة هذا المعنى سارت بيانات أهل البيت عليهم السلام ، وهذا المعنى يبرز في المحاورة التي دارت بين الإمام أمير المؤمنين عليه السلام والخبر اليهودي عندما جاء إلى الإمام يسأله

(١) نهج البلاغة : الخطبة الأولى ، صبحي الصالح : ج ١ ص ١٤ ؛ وقد نقلها أكثر علمائنا في مجامعهم الحديثية .

قائلاً : (يا أمير المؤمنين متى كان ربك فقال له : ثكلتك أمك ، ومتى لم يكن حتى يقال متى كان ؟! كان ربي قبل القبل بلا قبل ، وبعد البعد بلا بعد ، ولا غاية له ، ولا منتهى لغايته ، انقطعت الغايات عنده ، فهو منتهى كل غاية) ، وهنا يبهت الرجل ، وتبهره هذه الكلمات ، فيبادر الإمام بقوله : (يا أمير المؤمنين أفنبي أنت ؟! فقال : وملك أنا عبد من عبيد محمد ...) ^(١) أي بمعنى التلميذ الذي أخذ عنه علمه ومعرفته في أمر دينه ودنياه .

هذا مضافاً إلى أن الكثير من الروايات الواردة عن أهل البيت عليهم السلام في هذا المجال والتي ترشد إلى أهمية معرفة التوحيد معرفة صحيحة ، ودورها في انشراح النفوس والصدور ، وما تكتنزه من الثواب والأجر الكبير للموحدين ، ولذا نجد أنّ أحد كبار علمائنا المحدثين ، وهو أبو جعفر بن علي بن الحسين المشهور بالصدوق ، قد أفرد كتاباً خاصاً في التوحيد وحقيقته وفضله ، ونجده يخصص باباً خاصاً بعنوان (ثواب الموحدين) ، يسرد فيه عدداً كبيراً من الأحاديث الشريفة في هذا المضمار ، منها ما جاء عن الإمام الصادق عليه السلام قال : (خير العبادة قول لا إله إلا الله) ^(٢) ، وروى أيضاً عليه السلام في كتابه المذكور عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال : (إن أساس الدين التوحيد والعدل) ^(٣) ، وجاء أيضاً عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام عن آبائه عليهم السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال : (قال رسول الله صلى الله عليه وآله : التوحيد ثمن الجنة) ^(٤) ، وعن علاء بن الفضل عن أبي عبد الله عليه السلام قال سألته عن قول الله عز وجل :

(١) أصول الكافي : الكليني ، ج ١ ص ٨٧ ، باب الكون والمكان : ح ٥ .

(٢) التوحيد ، الصدوق : ص ١٨ .

(٣) المصدر نفسه : ص ٩٦ .

(٤) بحار الأنوار ، المجلسي : ج ٣ ص ٣ .

(**فَطِيرَ** الله الّتي **فَطَّرَ** النَّاسَ عَلَيْهَا) ، (قال : التوحيد)^(١) ، وما إلى ذلك من الروايات المتضافرة في هذا المجال ، كل ذلك يكشف عن صرح بناء المعرفة التوحيدية عند الشيعة ، ويكون ذلك ردّاً قاصماً لأصحاب الأفكار المغلقة التي تكيل الاتهامات للآخرين من دون روية .

ثانيا : ترابط أصول الدين

إن الشيء الذي يسترعي الالتفات إلى أن المنظومة الدينية عبارة عن مركّب ذي حلقات مترابطة : التوحيد ، النبوة ، العدل ، المعاد ، الإمامة ، فهي كالصلاة التي يُعبّر عنها بالمركّب الارتباطي ، بتحقيقها مجتمعة يتحقق الكل .

وعلى هذا الأساس فإن التوحيد الحق والمطلوب المرضي عند الله تعالى لا يتحقق إلا اعتقد الإنسان بهذه الأصول الخمسة ، وأنّ الإخلال بأيّ حلقة من حلقات هذا المركّب يؤديّ إلى الإخلال بالتوحيد المطلوب المرضي عند الله تعالى ، الذي هو غاية الغايات وليس وراءه غاية .

ومن هنا فإن الروايات المختلفة لدى السنة والشيعة تشير إلى أن كفر إبليس ليس كفر شرك ؛ لأنّه لم يعبد غير الله ، وإنّما كان جحوده واستكباره على الله عزّ وجلّ في توحيدهِ في مقام الطاعة ، وقد ورد في بعض الروايات أنّه طلب من الله تعالى إعفائه من السجود لآدم **عَلَيْهِ السَّلَامُ** ،

(١) بحار الأنوار المجلسي : ج ٣ ص ٢٧٧ .

وسوف يعبد عباد لا نظير لها ، وما كان الجواب من الحق تعالى هو : (إني أحب أن أطاع من حيث أريد)^(١) ، وفي رواية أخرى : (إنما أريد أن أعبد من حيث أريد لا من حيث تُريد)^(٢) .

وبناءً على ما سبق وتأسيساً عليه ، فإن التوحيد الحق والمطلوب والمرضي عند الله تعالى لا يتحقق إلا من خلال الطريق الذي رسمه الله لنا ، قال تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَطِيعُوا الرَّسُولَ **وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ**)^(٣) ، وقال تعالى : (**وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا**)^(٤) ، فأهمية الإمامة تكمن في دورها الأساسي في رسم معالم التوحيد المرضي عند الله عز وجل .

وبعد هذه الإطلالة السريعة اتضح لنا أهمية التوحيد عند الشيعة ، وزيف قول صاحب الشبهة : إن الإمامة أهم من التوحيد لدى الشيعة .

ثالثاً : الولاية فرع التوحيد

إن الروايات التي جاءت في تعظيم شأن الولاية جعلتها في قبال الصلاة والصوم والزكاة والحج ، وذكرت أنّ الولاية أعظم منها ، ولم تجعل الولاية في قبال التوحيد ، فضلاً عن تفضيلها عليه ، كما جاء ذلك :

١ . عن أبي جعفر عليه السلام : (بُني الإسلام على خمس : على الصلاة والزكاة

(١) بحار الأنوار ، المجلسي ، ج ٢ : ص ٢٦٢ ، ج ١١ ص ١٤٥ .

(٢) المصدر نفسه : ج ١١ ص ١٤١ .

(٣) النساء : ٥٩ .

(٤) الحشر : ٧ .

والصوم والحج والولاية ولم يناد بشيء كما نودي بالولاية (١) .

٢ . عنه أيضا عليه السلام : (بُني الإسلام على خمس : إقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وحج البيت ، وصوم شهر رمضان ، والولاية لنا أهل البيت ، فجعل في أربعة منها رخصة ، ولم يجعل في الولاية رخصة) (٢) .

وأين هذا من تفضيل الولاية على التوحيد !!؟

بل لعل هذه الروايات صريحة في أنّ الولاية ليست بمستوى التوحيد ، بل هي فرع هذه الشجرة الطيبة ، وهي شجرة التوحيد .

الخلاصة

١ . إنّ التراث الشيعي الضخم يشهد على مكانة وعظمة التوحيد عند الشيعة ، وهذا واضح لمن كان له أدنى اطلاع على روايات أهل البيت عليه السلام وكيفية تعظيمهم وتقديسهم للذات الإلهية ، كما قال أمير المؤمنين عليه السلام : (أوّ الدين معرفته) .

٢ . إنّ التوحيد المرضي عند الله تعالى إنّما يتحقق من حيث يريد هو عز وجل لا من حيث يريد العبد ، وقد رسم الله تعالى الطريق في قوله : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَطِيعُوا الرَّسُولَ وَهُوَ لِي الْأَمْرُ مِنْكُمْ) وقد تضافرت الروايات عنه ﷺ على وجوب موافقة أهل البيت عليه السلام وموالاتهم واتباعهم والتمسك بهم ، كما هو مقتضى حديث الثقلين والسفينة والغدير ونحوها .
إذن الجحود بحق أهل البيت عليه السلام وعدم موالاتهم ونصب العداوة لهم تعني عدم طاعة الله ورسوله ، وبالتالي لا يتحقق التوحيد المرضي عنده تعالى .

(١) الكافي : الكليني : ج ٢ : ص ١٨ .

(٢) الخصال : الصدوق : ص ٢٧٨ .

٣ . الروايات التي اعتنت بالولاية إنما جعلتها قبال الصلاة والصوم والحج ونحوها ، ولم تجعلها في قبال التوحيد .

علم أهل البيت عليهم السلام بالغيب غلو

الشبهة :

إن علم الغيب مختص بالله تعالى لقوله تعالى : (**فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ**) فكيف يدّعي الشيعة أن أهل البيت يعلمون الغيب ؟

تمهيد :

لكي تتضح الصورة في هذه المسألة ، ينبغي أن نتوقف قليلاً عند حقيقة علم النبي صلى الله عليه وآله وسلم للتعرف على مقدار وحدود ونوع هذا العلم ، وما هي نوع العلاقة بين أهل البيت عليهم السلام وبين النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وهل توارث أهل البيت عليهم السلام علمهم من النبي صلى الله عليه وآله وسلم أم لا ؟ وسوف نخوض في تحقيق هذه المعاني بشكل إجمالي مكتفين بالإشارة المفهومة ، التي من خلالها يمكن إيصال المطلوب ، وسيتجلى إن شاء الله تعالى ، أن أهل البيت عليهم السلام هم ورثة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في العلم اللدني الخاص من الله تعالى .

علم النبي صلى الله عليه وآله وسلم

ولكي نصل إلى معرفة علم النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، ينبغي الإجابة على تساؤل مسبق ، يثار على ضفاف هذه المسألة يسهم في بناء الرؤية الفكرية الصحيحة حول العلم بالغيب .

والسؤال هو : ما هي حقيقة وجوهر علم النبي ﷺ ؟

وفي مقام الجواب على ذلك نقول :

إنَّ علم النبي هو سنخ علم خاص يختلف عن علوم سائر البشر المتعارفة ، التي تسمّى بالاصطلاح العلمي بالعلوم الحصولية ، وقد سجّل القرآن الكريم هذه الحقيقة ، كما في قوله تعالى :

(وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ ضَمَّهُمْ عَلَى الْمَلَأَ كَرَمَهُ قَالُوا بَيِّنْ لَنَا مَلَكًا بَاءَ هَؤُلَاءِ لَئِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

(^١) إلى أن قال تعالى : (قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ) (^٢) ، ثم انعطف بتوجيه الخطاب إلى آدم عليه السلام ، فقال : يا آدم أنبئهم بأسمائهم ، حيث نجد أنَّ المشهد القرآني استبدل صيغة التعبير من (التعليم) الذي استخدمه مع آدم إلى التعبير (بالإنباء) الذي استخدمه مع الملائكة ، وتغيّر التعبير لم يكن بسبب التفنن الأدبي فحسب ، لأننا بإزاء كلام الله تعالى ، الذي وصفه في قرآنه بأنه : (كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ) (^٣) ، إذن التعبير بهذه الصيغة يحمل في طياته مغزى يتمثل في أنَّ ما حصل لآدم هو تعليم ، وأتاه عليه السلام كان فيه القابلية والاستعداد لتحمل هذا العلم الإلهي الذي لم يتحمّله غيره ، أمّا الملائكة فلم يتجاوز تحمّلهم سوى الإنباء لهم بالواسطة ، لعدم استعدادهم لتلقّي الفيض من الله تعالى بالمباشرة ؛ لأنّ نشأتهم الوجودية لا تؤهّلهم لتعلّم ذلك العلم وحمله بتمامه وبالمباشرة ، وإمّا ما يمكنهم هو الإنباء والاطلاع على الواقعة بعد تمامها بالواسطة .

(١) البقرة : ٣١ .

(٢) البقرة : ٣٢ .

(٣) هود : ١ .

وتشير الآية المباركة الأنفة الذكر إلى نقطة بالغة الأهمية ، تتمثل في موقع ومنزلة العلم الذي تعلّمه آدم عليه السلام ، فلاهمية وعظمة هذا العلم ؛ حاز عليه به الموقع الوجودي الذي أهله ليكون مسجودا للملائكة (فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ) ، ولا يخفى أن لفظة الملائكة المحالّ بالألف واللام تفيد العموم والشمول ، ولفظة كلّهم لزيادة التأكيد ، ثم عاد ليؤكدّه بالمزيد في قوله تعالى : (أَجْمَعُونَ) ممّا يفيد عدم تخلف أحد من الملائكة في السجود إلى هذا الخليفة الإلهي الأرضي ؛ ولذا نجد الكثير من المفسرين ذهبوا لذلك ، كما يومئ إليه قول الفخر الرازي في تفسيره : (قال الأكثرون إن جميع الملائكة مأمورون بالسجود لآدم)^(١) ثم ذكر الأدلة التي احتجوا بها على رأيهم .

أفضلية نبينا ﷺ على سائر الأنبياء

اتفقت كلمة المسلمين على أفضلية نبينا محمد ﷺ على بقية الأنبياء من أولي العزم من الرسل وغيرهم من الأنبياء والمرسلين ، وجاء هذا الإجماع على ضوء أدلة قرآنية وروائية ، منها قوله تعالى : (وَجَدْنَا مِنْ تَبْيِينِ مِيثَاقِهِمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَجَدْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا)^(٢) فمع أن نبينا آخر النبيين مبعثاً ، إلا أنّ القرآن الكريم يقدّمه في أخذ الميثاق على نوح عليه السلام الذي هو أول أنبياء أولي العزم ، ثم يأتي من يليه من أولي العزم ، ولم يأت هذا التقديم جزافاً ؛ إذ لا موضع للجزاف في القرآن الكريم ، الذي هو كتاب الله وكلماته ، وقد ذكر الألوسي في تفسير الآية

(١) التفسير الكبير : الفخر الرازي ، مج ١ ، ج ٢ ص ٢٥٩ ، دار الفكر - بيروت ، ١٤١٥ هـ .

(٢) الأحزاب : ٧ .

قائلا : (نخصيصهم بالذكر مع اندراجهم في النبيين اندراجاً بيناً للإيدان بمزيد مزيتهم وفضلهم وكونهم من مشاهير أرباب الشرائع ، واشتهر أئهم أولو العزم صلوات الله تعالى وسلامه عليهم أجمعين ، وأخرج البراز عن أبي هريرة أئهم خيار ولد آدم ﷺ ثم أضاف : (وتقدم نبينا ﷺ ثم أضاف : (وتقدم نبينا ﷺ مع أنه آخرهم بعثة للإيدان بمزيد خطره الجليل ، أو لتقدمه في الخلق) (١) .

والأحاديث المشهورة في هذا المضمار كثيرة ، لا سيما الأحاديث التي تركز على حقيقة مهمة ، وهي أن نبينا ﷺ هو أول مخلوق خلقه الله سبحانه وأئهم المصداق الأئهم ، والتجسيد الأكمل للخلافة الإلهية ، وقد أشار الألوسي لهذا المعنى بقوله : (فهو عليه الصلاة والسلام الكامل المكمل للخلق ، والواسطة في الإفاضة عليهم على الحقيقة ، وكل من تقدمه عصرا من الأنبياء وتأخر عنه من الأقطاب والأولياء ، نواب عنه مستمدون منه) (٢) .

وقد جاء في العديد من الروايات أنه ﷺ أفضل الأولين والآخرين ، ومن هنا نجد القرآن الكريم بين عظمة الرسول ﷺ في عتق من آيات أخرى ، منها : قوله تعالى : (لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ) (٣) ، وقال القاضي عياض في ذيل هذه الآية : (اتفق أهل التفسير في هذا أنه قسم من الله جل جلاله بمقتضى حياة محمد ﷺ ... وهذه نهاية التعظيم وغاية البر والتشريف ، قال ابن عباس : ما خلق الله تعالى وما ذراً وما برأ نفساً أكرم عليه من محمد ﷺ وما سمعت الله أقسم بحياة غيره ، وقال أبو الجوزاء : ما أقسم الله بحياة أحد غير

(١) روح المعاني ، الألوسي : ج ٢١ ص ١٥٤ ، نشر : دار إحياء التراث العربي .

(٢) روح المعاني ، الألوسي : ج ٢٢ ص ٢٠ .

(٣) الحجر : ٧٢ .

محمد ﷺ ؛ لأنه أكرم البرية عنده (١) .

وقد تضافرت الروايات في هذا المعنى :

منها : ما جاء عن وائلة بن الأسقع قال : قال رسول الله ﷺ : (إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل واصطفى قريشاً من كنانة ، واصطفى بني هاشم من قريش ، واصطفاني من بني هاشم ، فأنا سيّد ولد آدم ولا فخر ، وأوّل من تنشق عنه الأرض ، وأوّل شافع وأوّل مشفع) (٢) .

ومنها : ما روته عائشة عنه ﷺ قال : (أتاني جبرائيل فقال : قلبت مشارق الأرض ومغاربها فلم أر رجلاً أفضل من محمد ، ولم أر بني أب أفضل من بني هاشم) (٣) .

ومنها : ما ورد عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : (أنا سيّد ولد آدم يوم القيامة ، وأوّل من ينشق عنه القبر ، وأوّل شافع وأوّل مشفع) (٤) .

ونحوها من الروايات التي تؤكّد وتثبت أفضلية نبيّنا محمد ﷺ على سائر الأنبياء ﷺ ، وهذه الحقيقة ممّا لا خلاف فيها بين المسلمين ، فهي محل اتفاق الجميع .

(١) الشفاء بتعريف حقوق المصطفى ، القاضي عياض : ج ١ ص ٣١ . ٣٢ ؛ فتح القدير ، الشوكاني : ج ٣ ص ١٣٨ ؛ وانظر : تفسير القرطبي : ج ١ ص ٣٩ .

(٢) صحيح ابن حبان ، ابن حبان : ج ١٤ ص ١٣٥ .

(٣) تفسير ابن كثير ، ابن كثير : ج ٢ ص ١٧٩ . ١٨٠ ؛ البداية والنهاية ، ابن كثير : ج ٢ ص ٣١٧ ؛ الجامع الصغير ، الطبراني : ج ٢ ص ٢٤٧ ؛ دلائل النبوة ، البيهقي : ج ١ ص ١٧٦ ؛ الشفاء ، القاضي عياض ، ج ١ ص ١٦٦ الباب الثالث الفصل الأول .

(٤) تفسير ابن كثير ، ابن كثير : ج ٣ ص ٦٢ ؛ صحيح مسلم ، مسلم النيسابوري : ج ٧ ص ٥٩ ؛ مسند أحمد ، أحمد بن حنبل : ج ٢ ص ٥٤٠ ؛ سنن ابن ماجه : ج ٢ ص ١٤٤٠ ؛ سير أعلام النبلاء : ج ٨ ص ٢٩٤ وج ١٠ ص ٢٢٣ ؛ وغيرها .

الرسول ﷺ أعلم الأنبياء على الإطلاق

اتضح مما تقدم أنفاً أن النبي ﷺ أفضل الأولين والآخرين ، وأفضل الأنبياء على الإطلاق ، فمن البديهي أن يكون ﷺ أعلم الأنبياء جميعاً ؛ وإلا فلا يكون هناك معنى للأفضلية والقرب والرفعة والمقام المحمود عند الله تعالى .

وقد تبين أن علم الأنبياء والمرسلين سيما نبينا ﷺ هو سنخ علم خاص ليس من العلم الاكتسابي المتعارف عند سائر الناس ، كما هو الحال في علم التلميذ الذي يأخذ علمه من المعلم ، فعلم الأنبياء هو علم يلقيه الله سبحانه في قلب من يشاء ، وهو مفاد قوله تعالى : (**فَوَجَّهْ عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ حِمَّةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا**) ^(١) وكذلك العلم الذي أفاضه تعالى على آدم عليه السلام وألقاه في قلبه مرة واحدة ، بقوله تعالى : (**وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا**) ^(٢) .

إذن علم الأنبياء هو علم خاص يلقيه الله تعالى في قلب من يشاء . وعلى هامش هذا المعنى تنبثق إثارة أخرى ، محصلها : هل الأنبياء يعلمون الغيب أم لا ؟

(١) الكهف : ٦٥ .

(٢) البقرة : ٣١ .

الأنبياء يعلمون الغيب

إن المتأمل في هذه الإثارة يجد أن منشأها من قبيل البعض الذين يجمدون على ظواهر بعض الآيات القرآنية ، التي تنفي العلم للغيب لغير الله تعالى ، كقوله تعالى : (قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعَا مِنْ الرِّسْلِ وَمَا يُرِيَّ مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ) ^(١) ، وكذا قوله تعالى : (قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدَ خَزَائِنِ اللَّهِ وَلَا أَغْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ) ^(٢) وقوله تعالى : (قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَمَنْ مِّنْ عِلْمٍ مُّغَيَّبٍ سَيَكْثُرُ مِنْ خَيْرٍ مَّا سَنِي السَّوْءِ) ^(٣) .

إلا أنّ الملاحظة التي تستدعي الالتفات ، والتي غفل عنها أصحاب الشبهة ، وأخذوا ينظرون إلى القرآن بعين واحدة ، هي أنّ القرآن الكريم يفسر بعضه بعضاً ، فقد ورد في آية واحدة بيان شافٍ لذلك ، وهو قوله تعالى : (كَلِمَ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا * إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ سَلِكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا * لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رَسُولَاتٍ رَّبِّهِمْ وَأَخَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَخَصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عِلْدًا) ^(٤) نعم (وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ) ^(٥) .

إذن على ضوء هذه الآية المباركة (إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ) يتضح تخصيص الأنبياء والرسل المرضيين عند الله تعالى ، كما أشار إلى ذلك القرآن الكريم ، بأنّ الله تعالى أوصى إلى الأنبياء والرسل وأطلعهم على

(١) الأحقاف : ٩ .

(٢) الأنعام : ٥٠ .

(٣) الأعراف : ١٨٨ .

(٤) الجن : ٢٦ - ٢٨ .

(٥) البقرة : ٢٥٥ .

مضافاً إلى ما صرّحت به الروايات من اطلاع الأنبياء على الغيب ، وبعبارة أخرى : إن الآيات التي تنفي بظاهرها علم الغيب عن الأنبياء واختصاصه بالله تعالى ، إنّما يكون المقصود منها هو نفي علم الغيب من الأنبياء بالاستقلال والأصالة ومن دون الإذن الإلهي ، وليست هذه الآيات في مقام نفي العلم بالغيب عن الأنبياء إذا كان بنحو التبعية والتعليم من قِبَل الله وبإِجَاء منه تعالى ، كما قال تعالى حكاية عن النبي الأكرم ﷺ : (لَا أَقُولُ لَكُمْ عِندَ خَزَائِنِ اللَّهِ وَلَا أَعْلِمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ) ^(١) ، مضافاً لحكم العقل القاضي باستلزام موقع الخلافة الإحاطة والعلم بكل شيء .

إذن لا إشكال في علم الأنبياء بالمغيبات إذا كان بإذن الله تعالى ، وإليك جملة من الشواهد القرآنية على ذلك :

ثُمَّ عدد من النصوص الأخرى القرآنية التي تشهد على علم الأنبياء بالغيب ، منها :

(١) النساء : ١٦٣ .

(٢) هود : ٣١ .

تَمَتُّعُوا فِي دَرَجَاتِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ (١) .

٢ . كلام نبي الله عيسى عليه السلام وأخباره لبني إسرائيل بما يأكلون وما يدخرون ، كما في قوله تعالى : (وَنُتِبْكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي يُبُوتِكُمْ إِنِّي فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لَكُمْ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) (٢) .

٣ . ما ورد في القرآن من مواعيد الأنبياء بالملاحم والإخبار بالغيب ، وقد وقع ذلك كله كوعيد نوح بحدوث الطوفان ، وإنذار هود وشعيب ولوط بوقوع العذاب ، وغير ذلك .

إخبار نبينا محمد ﷺ بالغيب

ونجد في هذا الحقل إخبارات غيبية كثيرة ، سطرها القرآن الكريم منها :

١ . إخباره ﷺ باهتزام الفرس على يد الروم ، كما في قوله تعالى : (أَلَمْ * غَلَبَتْ الرُّومُ * فِي لَأَنِي الْأَوَّلَى * وَهُمْ مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بَضْعِ سِنِينَ اللَّهُ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدِ وَيَوْمَئِذٍ يَفْجَحُ الْمُؤْمِنُونَ) (٣) .

٢ . إخباره لأصحابه بأنهم سيدخلون المسجد الحرام في مكة ، كما في قوله تعالى : (لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنِ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ وَفُؤُسِكُمْ وَمُقَصِّرِينَ) (٤) ، وقد تحقق الأمر بذلك الدخول كما أخبر به الله تعالى ، ورسوله ﷺ وسلم .

(١) هود : ٦٥ .

(٢) آل عمران : ٤٩ .

(٣) الروم : ٤٠١ .

(٤) الفتح : ٢٧ .

٣ . ما أخبر به ﷺ بالغيب في مقام التحدي وإعجاز القرآن ، وأنه لم يستطع أحد أن يأتي ولو بسورة واحدة ، كما قال تعالى : (فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ) ^(١) ، وكذا قوله تعالى : (فَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ) ^(٢) .

٤ . إخباره بالفتوحات والمغانم الكثيرة ، كما في قوله تعالى : (عَلِمَكُمُ اللَّهُ بِكُمْ كَثِيرًا تَأْخُذُ نَهَا) ^(٣) .

٥ . إخباره تعالى أنه يحفظ نبيه من أذى المنافقين ، كما في قوله تعالى : (وَلِلَّهِ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ) ^(٤) . هذا وإن كان إخبار بالغيب من قبل الله تعالى على لسان رسوله ﷺ ولكن ذلك لا ينافي أن يكون النبي الأكرم ﷺ يعلم الغيب بالتبع عن طريق إعلام الله تعالى له .

علم أهل البيت عليه السلام

بعد أن تبين أن علم الأنبياء عليهم السلام هو سنخ علم خاص يتلقاه النبي من الله تعالى سواء أكان عن طريق الإلهام أم التلقين ، ينبغي الالتفات إلى أن الله سبحانه وتعالى هو العالم وحده بالاستقلال ولا يشاركه غيره ، نعم قد يفيض الله تعالى من علمه على بعض المخلوقات كالأنبياء عليهم السلام على وفق حكمته تعالى ، ومن ثم قد تتفاوت درجات إفاضة هذا العلم من قبله تعالى حسب ما تقتضيه حكمته .

وعلى هذا الأساس نقول : إن الله تعالى خص أهل البيت عليهم السلام أيضاً بهذا النوع من العلم ؛ لكونهم ورثة رسول الله ﷺ وهم الثقل والعُدل الآخر للقرآن الكريم ، وسوف نلج في هذا المبحث من خلال بوابة العقل ، وبوابة القرآن الكريم ، والروايات الخاصة بذلك وبعض الشواهد الأخرى .

(١) يونس : ٣٨ .

(٢) هود : ١٣ .

(٣) الفتح : ٢٠ .

(٤) المائدة : ٦٧ .

الدليل العقلي على علم الإمام

بما أنه ثبت في محله أن الأئمة عليهم السلام خلفاء الله في أرضه ، ومقام الخلافة الإلهية في الأرض هو سنخ مقام لحكم الله في أرضه ، وهو ما تسجله الأبحاث التفسيرية على هدي قوله تعالى : (**إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً**) ^(١) ومن هنا نجد الألوسي يقول : (ومعنى كونه خليفة أنه خليفة الله تعالى في أرضه ، وكذا كل نبي ، استخلفهم في عمارة الأرض وسياسة الناس ، وتكميل نفوسهم ، وتنفيذ أمره فيهم لا حاجة به تعالى ، ولكن لقصور المستخلف عليه ؛ لما أنه في غاية الكدورة والظلمة والجسمانية ، وذاته تعالى في غاية التقديس ، والمناسبة شرط في قبول الفيض على ما جرت به العادة الإلهية ، فلا بد من متوسط ذي جهتي تجرّ وتعلّق ؛ ليستفيض من جهة ويفيض بأخرى) ^(٢) .

إذن تبين أن الخليفة موجود أرضي له بعدان : أحدهما روحي ، والآخر معنوي وبشري يؤهّله للنهوض بدوره في العالم ليمثّل سلطان الله في أرضه ، وعلى هذا الأساس فلا بدّ من أن يتمتع بمواصفات ومزايا خاصة ، فينبغي أن يكون أعلم ممّا سواه ليمثّل علم الله تعالى ، وأن يكون قادراً على تحمّل منصب الخلافة في القدرة والسمع والبصر الإلهي على هذه الأرض ، ومن هنا نجد نصوصاً روائية وافرة تشهد على أن الرسول صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام لهم هذه القدرة بإذن الله تعالى .

(١) البقرة : ٣٠ .

(٢) روح المعاني ، الألوسي : ج ١ ص ٢٢٠ .

ففي الحديث ، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : (هل ترون قلبي ها هنا فوالله ما يخفى علي خشوعكم ولا ركوعكم وإني لأراكم من وراء ظهري) (١) .

وقد ذكر ابن حبان: (بأن المصطفى ﷺ كان يرى من خلفه كما يرى بين يديه فرقا بينه وبين أمته) (٢) .

ولا غرابة في ذلك ، كما يحدثنا القرآن عن كثير من الأنبياء بامتلاكهم مثل هذه القدرة ، فهذا نبي الله عيسى عليه السلام له قدرة على الخلق وإحياء البشر وشفاء المرضى ، قال تعالى : (وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ * وَسُئِلَ إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ طَيْرٍ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرٌ بِإِذْنِ اللَّهِ * يُخَيِّلُ الْأَكْهَمَ وَالْأَبْرَصَ * وَخَيَّرَ الْمَرْءَ الْمَوْتَ بَيْنَ اللَّهِ) (٣)

ومن هنا نجد أن ابن كثير يقول في تفسيره في ذيل الآية : (وكذلك كان يفعل : يصوّر من الطين شكل طير ثم ينفخ فيه ، فيطير عيانا بإذن الله عز وجل الذي جعل هذا معجزة له تدل على أن الله أرسله) (٤) .

(١) مسند أحمد ، أحمد بن حنبل : ج ٢ ص ٣٠٣ ؛ صحيح ابن حبان ، ابن حبان ج ١٤ ص ٢٥٠ .

(٢) صحيح ابن حبان ، ابن حبان : ج ١٤ ص ٢٥٠ .

(٣) آل عمران : ٤٩ .

(٤) تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير ، ص ٤٨٥ .

وقد جاء في روايات الخلفاء الاثني عشر (كلهم يعمل بالهدى ودين الحق) ولا ريب أن من يعمل بالهدى لا بد أن يكون على علم خاص من الله سبحانه وتعالى ، وإلاً فوقوعه في الخطأ لا شك فيه . إذن تبين أن الإمام (الخليفة) لابد أن يتوفر على علم خاص منه تعالى ليؤهله لأداء مسؤوليته وتمثيله في الأرض .

الأدلة القرآنية على علم الإمام

نستعرض فيما يلي جملة من الآيات القرآنية الواردة بشأن اختصاص أهل البيت عليهم السلام بنوع خاص من العلم يختلف عن علم سائر الناس .

الدليل الأول :

قوله تعالى : (ثُمَّ وَرَيْنَا آلَ كَافِرٍ - الَّذِي هُوَ ظَفِيرًا مِنْ - يَدِنَا مِنْهُمْ - كَلِمَ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٍ وَمِنْهُمْ سَابِقَ بِالْخَيْرِ إِنَّ اللَّهَ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ) ^(١) وتقريب الاستدلال بهذه الآية يتطلب منا أن نمكث قليلاً لمعرفة حقيقة الورثة القرآنية واختلافها عن الورثة الترابية (المادية) ، لا سيما مع ملاحظة أن أوّ ما يطالعنا القرآن به من الورثة هي وراثة الإمامة المستمرة إلى يوم القيامة التي نلمسها بوضوح من خلال دعوة النبي إبراهيم لذريته .

دعوة النبي إبراهيم لذريته

إن منصب الإمامة وما يمثله من حالة تكاملية للإنسان الذي يعد من أرقى درجات التكامل الإنساني ، شاء الله تعالى بلطفه وكرمه وفضله على الأنبياء ، أن يجعل من ذريتهم أئمة وهداة يؤدون الواجب الإلهي تكريماً لهم ونعمة ومنة منه تعالى على أنبيائه عليهم السلام .

(١) فاطر : ٣٢ .

وفي الوقت نفسه كان هذا التكريم يمثّل رغبة وأمنية من أمنيات الأنبياء ، تفصح عن حالة فطرية عند الإنسان في الرغبة والبقاء والاستمرار من خلال ذريته الصالحة ، وهذا بحث اجتماعي مهم يرتبط بدراسة علاقة الإنسان بذريته وشعوره بالبقاء من خلالها .

فالقضية إذا ترتبط بكلا الجانبين : الجانب الإلهي ، وهو تعالى الجواد المتفضل على أنبيائه المحيب لدعائهم ، والجانب الإنساني العبودي المتمثّل بمؤلاء الأنبياء الذين أخلصوا لله تعالى في العبودية .

وهذا ما نشاهده واضحا على لسان نبي الله إبراهيم عليه السلام الذي هو شيخ الأنبياء ، عندما امتحنه الله تعالى ، ونجح في ذلك الابتلاء والاختبار ، كان أول شيء طلبه من الله تعالى هو أن تكون هذه الإمامة التي حمّله الله مسؤوليتها ، أن تكون في ذريته أيضاً ، كما في قوله تعالى : (مَدَّ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبَّهُ بِكَلِمَاتٍ فَاتَمَمَهَا قَالَ إني جاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدُكَ الظَّالِمِينَ) ^(١) ، وكذا وقوله تعالى : (مَدَّ يَرْفَعِ إِبْرَاهِيمَ الْمَوْعِدَ مِنَ الْبَيْتِ هُتَمَاعِيلَ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * بَيْنَا وَبَيْنَا سُلُوسٌ مِّنْهُمْ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَةٌ مُّسْلِمَةٌ لَّكَ وَرَبَّنَا مَنَّا سَكَنًا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ) ^(٢) حيث طلبا من الله تعالى في البداية قبول هذا العمل العظيم ، ثم دعيا أيضاً أن يشرك معهما في إسلامهما لله عزّ وجلّ ذريتهما من المسلمين المهتدين المقبولين لديه ، ولم يقتصر على ذلك وإنما طلبا من الله تعالى أن تكون هذه الذرية ذرية تتحمّل مسؤولية النبوة والرسالة أيضاً ، كما بيّنته الآية الشريفة ، حيث جاء فيها : (رَبَّنَا مَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) .

ومن ذلك أيضا قوله تعالى : (فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا * يَرْثُنِي) .

(١) البقرة : ١٢٤ .

(٢) البقرة : ١٢٧-١٢٩ .

ولذلك نلاحظ أن رسول الله ﷺ كان يفتخر ويقول : (أبا دعوة إبراهيم)^(١) أي في جعله من ذرية إبراهيم عليه السلام ، وأنه الرسول الذي يتلو الآيات ، ويعلم الناس الكتاب والحكمة ويركّهم .

الإمامة في الذرية سنة قرآنية

عندما نرجع إلى القرآن ومفاهيمه وتصويره لحركة الأنبياء والرسالات الإلهية ، نجد أنّ هذا التكريم الإلهي للأنبياء ، وهو أن يجعل من ذريتهم أنبياء وأئمة يقومون بالواجب الإلهي ، فصار ذلك سنة من السنن الإلهية الواضحة في تاريخ الرسالات والأنبياء ، كما في قوله تعالى : (وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ * وَكَهَنَّا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمَن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدُ وَسُلَيْمَانُ يُوسُفُ وَمُوسَى هَارُونَكَرَّمْنَا لَكَ بِنِي الْمُحْسِنِينَ * زَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِيلَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ * هَمْسَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُوشَعَ وَثُوطًا وَكَوْنًا فَضَلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ * وَمِنَ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)^(٢) .

(١) الجامع الصغير ، الطبراني : ج ١ ص ٤١٤ ؛ فيض القدير شرح الجامع الصغير ، المناوي : ج ٣ ص ٥٩٠ ؛ كنز العمال : ج ١١ ص ٣٨٤ . ص ٤٠٥ .
(٢) الأنعام : ٨٣ . ٨٧ .

حيث يشير القرآن الكريم في الآيات المباركة إلى هذه السنّة التاريخية وتعميمها لتشمل الآباء والإخوان ، كما في قوله تعالى ومن آبائهم وذريتهم وإخوانهم ، وكذلك ما ورد في سورة مريم عندما تحدث القرآن عن عدد من الأنبياء ، وهم إبراهيم وبعض ذريته ، وإدريس من قبل إبراهيم ، وبعد ذلك يذكر القانون العام في الذرية (أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرَوْا سُجُودًا وَبُكِيًّا) (١) ، ويشير القرآن الكريم إلى هذا المعنى عندما يتحدث عن نوح وإبراهيم ، وأنه تعالى جعل في ذريتهما النبوة ، قال تعالى : (وَلَقَدْ رَأَوْا سَلْنَا نُوحًا مِنْ ذُرِّيَّتِهِمْ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمُ النَّبِيَّ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ) (٢) .

وغيرها من الموارد الكثيرة التي لا يسع المجال لاستعراضها .

وبعد أن اتضح أنّ هذه سنّة إلهية تحكم مسيرة وحركة الأنبياء ، ويبرز لنا عنوان آخر في عدد من الآيات القرآنية ، ولعلّه يعد السبب الرئيس من وراء جعل هذه السنّة في حركة الأنبياء وكونهم من ذرية واحدة ، وهو ما تحدث عنه القرآن الكريم في مناسبات متعددة ، ذلك هو الاصطفاء والاجتباء .

ما هو الاصطفاء ؟

الاصطفاء لغة هو الاختيار والاجتباء ، فمعنى اصطفاهم أي جعلهم

(١) مريم : ٥٨ .

(٢) الحديد : ٢٦ .

صفوة خلقه ، كما في قوله تعالى لموسى عليه السلام : (قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ) ^(١) ، وقال في إبراهيم عليه السلام : (وَذَكِّرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَاسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَأُولِي الْأَيْكَةِ . وَلَأَبْصَارُ * إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَ اللَّهِ * فَهُمْ عِنْدَنَا لَمَنِ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارَ) ^(٢) ، فالاصطفاء يمثل ظاهرة واضحة في حركة الأنبياء ، كما جاء ذلك أيضاً في قوله تعالى : (إِنَّا اصْطَفَيْنَا آدَمَ وَنُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ عِزًّا عَلَى الْعَالَمِينَ * ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) ^(٣) ، فنلاحظ أنّ الله تعالى اصطفى آدم اصطفاءً واختياراً خاصاً ثم اختار نوحاً ، ثم اختار إبراهيم وآل إبراهيم ثم عمران ، وآل عمران مضافاً إلى تأكيد القرآن الكريم . إن هذا الاختيار والاصطفاء ليس أمراً واقفاً على هذه الأسماء وهذه الجماعات ، وإنما هي قضية ذات امتداد في هذه الذرية (ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ) .

الاصطفاء والعدالة الإلهية

إن اصطفاء واختيار الله تعالى للأنبياء ، إنّما جاء وفقاً للعدالة الإلهية ووفقاً لقوله تعالى : (فِيَّ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى) ^(٤) و (إِنَّا أَكْرَمُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ) ^(٥) . إنّما أنّ النقطة الجديرة بالالتفات ، هي أنّ الكيفية والآلية التي اختارهم الله عزّ وجلّ على أساسها ، إنّما جاءت نتيجة علمه تعالى بأن هؤلاء الأنبياء مطيعون له طاعة لا نظير لها دون غيرهم ، ويمتلكون إرادة واستعداداً خاصاً لتحمل المسؤولية ، والفناء في ذات الله تعالى وإرادته ، بحيث يعجز غيرهم عن الوصول لما وصلوا إليه .

(١) الأعراف : ١٤٤ .

(٢) ص : ٤٥ . ٤٧ .

(٣) آل عمران : ٣٣ . ٣٤ .

(٤) النجم : ٣٩ .

(٥) الحجرات : ١٣ .

إذن ، لعلمه تعالى السابق بهم وبكفاءتهم في تحمّل المسؤولية اصطفاهم واختارهم دون غيرهم من الناس ؛ لأنّه تعالى يعلم بأفعال المكلفين قبل حصولها ؛ ولا ينافي ذلك اختيارهم كما هو واضح .
وعلى هذا الأساس ، فإنّ الله تعالى ، بعد علمه السابق بهم ، وأنّهم يفوقون غيرهم ، سوف يوليهم عناية خاصة لكي يكونوا قادرين على تحقيق ما كانوا مستعدين لتحقيقه .

ولا ريب أنّ هذا المنطق هو منطق عقلائي ، يمارسه العقلاء في حياتهم ، ألا ترى لو وجد بين طلاب مدرسة ، طالب يمتاز بنبوغ عال ، فهل من العدالة والإنصاف أن يترك مع بقية الطلبة ، ويعامل بمستواهم العلمي الذي يقلّ عن مستواه بمراتب ؟ طبعاً لا ، وإنّما من العدالة أن يحضى برعاية استثنائية ، ويُوفّر له من الإمكانيات ما يجعله قادراً على الإنتاج وتحقيق الغايات المرجوة من نبوغه بحسب قابليته ، بل لو كان لديك أولاد ، وكان لأحدهم نبوغ وكفاءة ، فالمنطق العقلائي يُحتم عليك أن توفّر وتهيئ له الظروف وتهتم به وترعاه ، ومن الظلم له أن تتركه وتساويه مع غيره في العناية ؛ لأن قوام العدل وأساسه ليس التساوي ، وإنّما هو إعطاء كل ذي حق حقه ، فمن حق الذي تتوفّر فيه القابلية والكفاءة أن تهيئ له ما يستلزم استثمار كفاءته واستعداداته .

وعلى ضوء هذا نجد أن الله تعالى أولى عناية خاصة بالأنبياء والمرسلين ، لعلمه تعالى بهم وبقابليتهم على طاعته بتلك الدرجة دون غيرهم ، بل نجد الآن في علم الهندسة الوراثية أنّهم يدرسون جينة الشخص ؛ ليتمكنوا من تشخيص قابلياته ، ومعرفة كفاءته واستعداداته ليضعوه في الموضع المناسب ، وأنّه هل له قدرة على القيادة والعطاء أم لا ؟ وهذا هو منهج الاصطفاء .

الذرية الصالحة للأنبياء عناية إلهية

من الواضح أن الوراثة والأبويّ والجدودة من الأمور التي لها نوع تأثير ومدخلية على تركيبة وشخصية الإنسان ومزاجه ، بما ينسجم مع عالم الدنيا المادي الذي نعيش فيه ؛ ولذلك شاء الله تعالى لهؤلاء الأنبياء والمرسلين والأئمة الذين اصطفاهم واختارهم أن يجعلهم من ذرية صالحة وأرحام مطهّرة ، وهذا ما نلمسه في روايات متضافرة في هذا الصدد .

تقلّبهم في الأرحام المطهّرة

وهو ما يسمّى بأخبار الطينة والأصلاب المطهّرة ، فقد أخرج بن مردويه عن ابن عباس ، قال : سألت رسول الله ﷺ فقلت : بأبي أنت وأمي أين كنت وآدم في الجنة ؟ فتبسّم حتى بدت نواجذه ، ثم قال : (إنّي كنت في صلبه وهبط إلى الأرض وأنا في صلبه ، وركبت السفينة في صلب أبي نوح ، ففقدت في النار في صلب أبي إبراهيم ، لم يلتق أبواي قط على سفاح ، لم يزل الله ينقلني من الأصلاب الطيّبة إلى الأرحام الطاهرة ، مصفّى مهذباً ، لا تتشعب شعبتان إلّا كنت في خيرهما ، قد أخذ الله بالنبوة ميثاقي ، وبالإسلام هداني ، وبين في التوراة والإنجيل ذكرني ، وبين كل شيء من صفتي في شرق الأرض وغربها ، وعلمني كتابه في سمائه ، وشق لي من أسمائه ، فذو العرش محمود وأنا محمد ، ووعدني أن يحبوني بالحوض وأعطاني الكوثر ، وأنا أول شافع وأول مشفّع ، ثم أخرجني في خير قرون أمّتي ، وأمّتي الحمادون يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر)^(١) .

وعن رسول الله ﷺ قال : (ما بال أقوام ينتقصون عليّاً ، من تنقّص عليّاً فقد تنقّصني ، ومن فارق عليّاً فقد فارقتني وإنّ عليّاً منّي وأنا منه ، خلق من طينتي وخلقت من طينة إبراهيم وأنا أفضل من إبراهيم ، ذريّة بعضها من بعض ، والله سميع عليهم)^(٢) .

وعن رسول الأكرم ﷺ قال : (خلقت أنا وهارون ابن عمران ويحيى بن زكريا وعلي بن أبي طالب من طينة واحدة)^(٣) .

أبعاد أخرى

إذن ظاهرة اختيار واصطفاء الأنبياء والمرسلين والأئمّة ، وجعلهم في ذرية واحدة ، لا ينحصر أثرها في عناية الله تعالى بهم وجعلهم في أصلاب وأرحام مطهّرة فحسب ، وإنّما نجد لهذه الظاهرة أبعاداً وأهدافاً أخرى ذات أهمية فائقة ، منها :

-
- (١) الدر المنثور ، السيوطي : ج ٦ ص ٣٣٢ ؛ تاريخ مدينة دمشق ابن عساكر : ج ٣ ص ٤٠٨ ، وكذلك البداية والنهاية ، ابن كثير : ج ٢ ص ٣١٨ ، وكذلك البيرة النبوية : ابن كثير : ج ١ ص ١٩٦ .
 - (٢) مجمع الزوائد ، الهيثمي : ج ٩ ص ١٢٨ .
 - (٣) تاريخ بغداد ، الخطيب البغدادي : ج ٦ ص ٥٦ ؛ تاريخ مدينة دمشق ، ابن عساكر : ج ٤٢ ص ٦٣ .

أولاً : البعد التاريخي

وهذا واضح كما في اختيار الله تعالى أوصياء الأنبياء ، حيث نجد أنَّ اختياره تعالى للأوصياء يتركز على أولئك المقربين للأنبياء من أقاربهم أو ذريتهم ممن يرتبطون بالنبي أو الرسول القائد ارتباطاً نسبياً ، كما في قوله تعالى : (وَلَقَدْ رَأَوْنَا نوحاً يُرْهِيمُ وَجْعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمُ النَّبُوءَ وَلَكِيبَ) ^(١) وغيرها من الآيات ^(٢) .

ثانياً : البعد الرسالي

ونقصد بذلك ما يترتب على الذرية الصالحة للأنبياء من تحقيق مصالح الرسالة ، وإعداد الأفراد المؤهلين للقيام بمهامها وتحمل أعبائها الثقيلة ؛ وذلك لأنَّ عُمر الرسول . عادة . يكون أقصر من عمر الرسالة ، ومن ثمَّ يحتاج إلى مَنْ يقوم بتحمل أعبائها ومسؤولياتها ، وهذا إنما يحتاج إلى إعداد يتناسب مع طبيعة وحكم هذه الأعباء والمسؤوليات الضخمة ، ولا ريب أنَّ الإعداد الأفضل والأكمل لا يتم إلاَّ في داخل البيت الرسالي ، ومن الأفراد الذين انحدروا من صاحب الرسالة الذين لم يروا النور إلاَّ في كنفه وفي إطار تربيته ، دون غيرهم من الأفراد الذين يفتقرون إلى الكفاءة والاستعداد ، وإن كانوا من نفس ذرية النبي ﷺ ، كما في قوله تعالى : (هَذِهِ ابْنَتِي إِبراهيمَ رَبِّهِ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّتْهُنَّ قَالَ إني جاعِلُكَ لِلنَّاسِ إماماً قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ) ^(٣) .

(١) الحديد : ٢٦ .

(٢) الأنعام : ٨٣-٨٧ .

(٣) البقرة : ١٢٤ .

ما هي حقيقة وراثۃ الأنبياء ؟

على ضوء ما سلف آنفاً يتضح أنّ وراثۃ الأنبياء أعم من الوراثة المتعارفة ، فهي شاملة لوراثة العلم والنور والملك ، ومن هنا نجد الفخر ، الرازي يفسّر آية (**وَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ**)^(١) على أنّها أعم من وراثۃ النبوة والمال حيث قال : (... الله تعالى جعل سبب الإرث فيمن يرث الموت على شرائط ، وليس كذلك النبوة ؛ لأن الموت لا يكون سبباً لنبوة الولد فمن هذا الوجه يفترقان ، وذلك لا يمنع من أن يوصف بأنّه ورث النبوة لما قام به عند موته ، كما يرث الولد المال إذا قام به عند موته) ، ثم ذكر وجوهاً عديدة لشمول الإرث للمال والنبوة والمقامات الرسالية ، إلى أن قال : (فبطل بما ذكرنا قول من زعم أنّه لم يرث إلا المال)^(٢) .

فمن أبرز ما يورث في أسرة التوحيد بين الأنبياء والمرسلين والأئمة هو العلم ، ولا يخفى ما في العلم من فضل ومزية ، ولذا فإنّ الفخر الرازي في ذيل الآية المباركة : (**وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْماً وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ**)^(٣) ، قال : (في الآية دليل على علو مرتبة العلم ؛ لأنهما أوتيا من الملك ما لم يؤت غيرهما ، ... إن تلك الفضيلة ليست إلا ذلك العلم)^(٤) .

وبهذا يتبيّن أنّ الأنبياء والمرسلين والأئمة وراثتهم نورية ، فضلاً عن الوراثة المتعارفة ، وأن أبرز شيء متوارث فيما بينهم هو العلم والنبوة والحكمة ، كما في قوله تعالى : (**ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا**) قال الثعلبي في مرآتي المجالس في آية (**وَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ**) : (يعني نبوته وحكمته وملكه) .

(١) النمل : ١٦ .

(٢) التفسير الكبير ، للفخر الرازي : المجلد الثاني عشر ج ٢٤ ص ١٨٧ .

(٣) النمل : ١٥ .

(٤) التفسير الكبير ، الفخر الرازي : المجلد الثاني عشر : ج ٢٤ ص ١٨٦ .

أهل البيت عليهم السلام ورثة الأنبياء

وحيث إن أهل البيت عليهم السلام من تلك الشجرة المباركة ، ومن أسرة التوحيد ، ومن تلك الأصلاب الشامخة والأرحام المطهرة المصطفاة المجتابة المتمثلة بالأنبياء والمرسلين ، وعلى رأسهم سيدهم وأفضلهم نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، فهم عليهم السلام ورثة الأنبياء وممن اصطفاهم واختارهم واجتباهم الله سبحانه وتعالى لسابق علمه بطاعتهم وحبهم وفنائهم في ذات الله تعالى .
وإليك نموذجاً من الشواهد الروائية المؤكدة لورثة أهل البيت عليهم السلام للأنبياء :

١ . الإمام علي عليه السلام وذريته عليهم السلام وارثو رسول الله

ففي المناقب للخوارزمي عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عند المؤاخاة أنه قال : (والذي بعثني بالحق ما أخرجتكم إلا لنفسي فأنت عندي بمنزلة هارون من موسى ووارثي ، فقال : يا رسول الله ما أرت منك ؟ قال : ما ورثت الأنبياء ، قال : وما أورثت الأنبياء قبلك ؟ قال : كتاب الله وسنة نبيهم)^(١) .
وفي ينابيع المودة ، عن أمير المؤمنين علي عليه السلام قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : (يا

(١) المعجم الكبير ، الطبراني: ج ٥ ص ٢٢١ ؛ وذكره ابن حبان في الثقات : ج ١ ص ١٤٢ ؛ تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر: ج ٢١ ص ٤١٥ ، ج ٤٢ ص ٥٣ ؛ مناقب الخوارزمي : ص ١٥٢ .

علي أنت أخي ووارثي ووصيي ، محبّك محبّي ، ومبغضك مبغضي ، يا علي أنا وأنت أبوا هذه الأمة ، يا علي أنا وأنت والأئمة من ولدك سادات في الدنيا وملوك في الآخرة ، من عرفنا فقد عرف الله عزّ وجلّ ، ومن أنكرنا فقد أنكر الله عزّ وجلّ (١) .

وعن أبي ذر رضي الله عنه أنّه قال :

(أيّها الناس من عرفني فقد عرفني ، ومن لم يعرفني فأنا أبو ذر الغفاري ، أنا جندب بن جنادة الرندي ، إنّ الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين ذرية بعضها من بعض ، والله سميع عليم ، محمد الصفوة من نوح ، فالأول من إبراهيم ، والسلالة من إسماعيل ، والعترة الهادية من محمد ، إنّّه شرف شريفهم ، واستحقوا الفضل في قوم هم فينا كالسمااء المرفوعة وكالكعبة المستورة ، أو كالقابلة المنصوبة ، أو كالشمس الضاحية ، أو كالقمر الساري ، أو كالنجوم الهادية ، أو كالشجر الزيتونية أضاء زيتها ، وبورك زبدها ، ومحمد وارث علم آدم وما فضل به النبيون ، وعلي بن أبي طالب وصيّ محمد ، ووارث علمه ، أيّها الأمة المتحيّرة بعد نبيها ! أما لو قدّمتم من قدّم الله ، وأخترتم من أختار الله ، وأقررتم الولاية والوراثة في أهل بيت نبيكم لأكلتم من فوق رؤوسكم ، ومن تحت أقدامكم ، ولما عال ولي الله ، ولا طاش سهم من فرائض الله ، ولا اختلف اثنان في حكم الله ، إلّا وجدتم على ذلك عندهم من كتاب الله وسنّة نبيّه ، فأما إذ فعلتم ما فعلتم ، فذوقوا وبال أمركم ، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون) (٢) .

(١) ينابيع المودة ، القندوزي : ج ١ ص ٣٧٠ .

(٢) تاريخ يعقوبي ، يعقوبي : ج ٢ ص ١٧١ .

٢ . الأنبياء يقرّون بولاية علي وذريته ﷺ

أخرج الحاكم الحسكاني في شواهده : (إن النبي ﷺ ليلة أُسري به جمع الله تعالى بينه وبين الأنبياء ، ثم قال : سلهم يا محمد على ماذا بُعثتم ؟ [فسألهم] فقالوا : بُعثنا على شهادة أن لا إله إلا الله ، وعلى الإقرار بنبوّتك ، والولاية لعلي بن أبي طالب ^(١) .

وأخرج أيضا عن أنس أنّه قال : (قلنا لسلمان : سل النبي من وصيّهِ فقال له سلمان : يا رسول الله من وصيّك ، قال : (يا سلمان من كان وصي موسى ؟ فقال : يوشع بن نون . قال : فإن وصيّ ووارثي يقضي ديني وينجز موعودي علي بن أبي طالب) ^(٢) .

وعن الرسول الأكرم ﷺ أنّه قال : (إن الفضل والشرف والمنزلة والولاية لرسول الله وذريته فلا تذهب بكم الأباطيل) ^(٣) ، ونحوها من الروايات الكثيرة .

وهذه الروايات فيها دلالة صريحة على وراثة الإمام علي وأهل البيت ﷺ لعلم النبي الأكرم ﷺ ، ومن الواضح أنّ إقرار الأنبياء بولاية الإمام علي ﷺ يستلزم كونه حامل علم الأنبياء ﷺ وإلا فلا معنى لكونه وليا لرسول الله ﷺ .

٣ . أهل البيت ﷺ ورثة الكتاب

لقد وردت جملة من الروايات تؤكّد على أن أهل البيت ﷺ هم ورثة الكتاب الكريم .

(١) شواهد التنزيل : الحاكم الحسكاني : ج ٢ ص ٢٢٤ .

(٢) المصدر نفسه : ج ١ ص ٩٩ .

(٣) ينابيع المودة ، القندوزي : ج ١ ص ٧٨ .

منها : ما أخرجه السيوطي في تفسيره عن قتادة في قوله تعالى : (**إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا**) قال : (هم أهل بيت طهرهم الله من السوء واختصهم برحمته ، قال : وحدث الضحاك بن مزاحم أن نبي الله ﷺ كان يقول : نحن أهل بيت طهرهم الله ، من شجرة النبوة ، وموضع الرسالة ، ومختلف الملائكة وبيت الرحمة ومعدن العلم) ^(١) .

ومنها : ما أخرجه الحاكم الحسكاني في شواهد ، عن الحرث ، قال سألت أمير المؤمنين عليّ عليه السلام عن هذه الآية : (**فَسَبِّحُوا أَهْلَ الذِّكْرِ**) قال : (والله إنا أهل الذكر ، ونحن أهل العلم ، ونحن معدن التأويل والتنزيل ، وقد سمعت رسول الله ﷺ يقول : أنا مدينة العلم وعليّ بابها ، فمن أراد العلم فليأت من بابها) ^(٢) .

ومنها : ما ورد عن عبد الله بن أعين قال : سمعت جعفر الصادق عليه السلام يقول : (قد ولدني رسول الله ﷺ وأنا أعلم كتاب الله ، وفيه بدء الخلق وما هو كائن إلى يوم القيامة ، وفيه خبر السماء وخبر الأرض ، وخبر الجنة وخبر النار ، وخبر ما كان وخبر ما يكون ، وأنا أعلم ذلك كله كأنما أنظر إلى كفي ، وأن الله يقول : (**نَبِّينَا لِكُلِّ شَيْءٍ**) ويقول تعالى : (**ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا**) فنحن الذين اصطفانا الله جلّ شأنه ، وأورثنا هذا الكتاب ، فيه تبيان لكل شيء) ^(٣) .

(١) الدر المنثور ، السيوطي : ج ٦ ص ٦٠٦ .

(٢) شواهد التنزيل ، الحاكم الحسكاني : ج ١ ص ٤٣٢ .

(٣) ينابيع المودة ، القندوزي : ج ١ ص ٨١ .

ومنها : ما جاء عن أمير المؤمنين علي عليه السلام أنه قال : (لا يقاس بآل محمد صلى الله عليه من هذه الأمة أحد ، ولا يسوى بهم من جرت نعمتهم عليه أبداً ، هم أساس الدين ، وعماد اليقين ، إليهم يفيء الغالي ، وبهم يلحق التالي ، ولهم خصائص حق الولاية ، وفيهم الوصية والوراثة ، الآن إذ رجع الحق إلى أهله ونقل إلى منتقله) (١) .

ومنها : ما في ينابيع الموهبة عن الإمام الباقر عليه السلام قال : (ونحن مستودع مواريث الأنبياء ... ونحن العلم المرفوع للحق) (٢) .

وغيرها من الروايات التي لا يسع المجال لذكرها ، ولا يخفى ما في دلالتها على أن أهل البيت عليهم السلام ورثة علم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، ومن هنا نجد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يؤكد على بيان منزلة أهل البيت وفضلهم في الأمة ، كما في قوله صلى الله عليه وآله وسلم : (إن الفضل والشرف والمنزلة والولاية لرسول الله وذريته فلا تذهبن بكم الأباطيل) (٣) .

أعلمية أهل البيت في القرآن الكريم

من الأدلة القرآنية على أعلمية أهل البيت عليهم السلام مضافاً إلى ما تقدم : قوله تعالى : (كَفَى بِاللّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ) (٤) . ففي هذه الآية المباركة يبين الله تعالى لرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم كيفية الإجابة والمواجهة مع الكفار الذين ينكرون نبوته ورسالته ، بقوله تعالى : (وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسَبْتَ مُرْسِلاً قُلْ كَفَى بِاللّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ) حيث لقّن الله تعالى نبيه صلى الله عليه وآله وسلم في مقام إثبات نبوته بأن يستشهد بشهادتين :

(١) شرح نهج البلاغة ، ابن أبي حديد : ج ١ ص ٣٠ .

(٢) ينابيع الموهبة ، القندوزي : ج ١ ص ٧٧ .

(٣) نظم درر السمطين ، الزرندي : ص ٢٠٨ ؛ ينابيع الموهبة ، القندوزي : ج ١ ص ٧٨ ، ج ٢ ص ٤٥ ، ٣٨٢ ، ٤٦٥ .

(٤) الرعد : ٤٣ .

الشهادة الأولى : وهي شهادة الله تعالى : (قُلْ كَفَىٰ بِاللّٰهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ) وأنه تعالى هو الذي أوحى إليه القرآن الكريم ، وأنه معجزة خالدة ، وهذه شهادة إلهية عظيمة لا تعدلها شهادة ، ولا يضر معها جحود هؤلاء الكافرين .

الشهادة الثانية : شهادة من عنده علم الكتاب : (قُلْ كَفَىٰ بِاللّٰهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ) فجعل شهادة الذي عنده علم الكتاب لإثبات رسالته وصحة دعوته ، وكفى بهذه الشهادة كرامة وفضلاً ، لاقتراحها بشهادة الله تعالى .

ولكي نقف على عظمة هذه الشهادة ينبغي التعرّص على حقيقة علم الكتاب :

حقيقة علم الكتاب

لمعرفة حقيقة علم الكتاب ينبغي أن نقف متأملين قليلاً عند قوله تعالى : (قَالِ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلُ) يَا تُؤْتِي مُسْلِمِينَ * قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلُكَ تَقُومُ مِنْ مَّقَامِكَ رَبِّ نِعْمَ عَلَيْكَ لَعَلَّيْكَ آمِينَ * قَالَ الْكَلْبُ عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلُكَ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقَرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَٰذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي ءَ شَكَرْتُ أَمْ أَكْفَرْتُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّيَ غَنِيٌّ كَرِيمٌ (١) .

فإن هذه الآية المباركة تبين أن وصي سليمان عليه السلام كان عنده بعض علم الكتاب وليس علم الكتاب كله ، كما هو واضح من قوله : (قَالِ الْكَلْبُ عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ) حيث إن (من) في الآية الكريمة تبعية ، أي عنده بعض علم الكتاب ، وبهذا البعض من العلم من الكتاب كان لوصي سليمان (آصف بن برخيا) القدرة على الإتيان بعرش بلقيس من سبأ في اليمن إلى بيت المقدس في أقل من طرفة عين ، فكيف بمن عنده علم الكتاب كله ؟!

(١) النمل: ٣٨ . ٤٠ .

حدود علم الكتاب

وُصِفَ الكتاب في القرآن الكريم بأنه يحتوي على كل شيء ، قال تعالى : (وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ) ^(١) .

وكلمه (شيء) في الآية مفهوم مطلق لا يوجد أعم منه ، فلا يخرج من هذا التعميم مخلوق من الأزل إلى الأبد ، لا سيما مع ملاحظة أنذ الشيء في الآية جاء مشفوعا بكلمة (كل) التي تؤكد العموم ، إذن الكتاب بيان لكل شيء .

ومن البديهي أن هذا الضرب من العلم بالكتاب الذي تشير إليه الآية الكريمة آنفة الذكر : (قَالِ الْفِكَرِ عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ) والآية المباركة : (قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ) ^(٢) أن هذا العلم ليس هو العلم المتعارف بين الناس المسمّى بالعلم الحسولي ، بل هو سنخ آخر من العلم ميزته أنّ لصاحبه القدرة على التصرف بنظام التكوين ، وبواسطته استطاع وصي سليمان . الذي عنده علم من الكتاب . أن يأتي بعرش بلقيس من سبأ إلى بيت المقدس في أقل من طرفة عين .

(١) النحل : ٨٩ .

(٢) الرعد : ٤٣ .

مَن الذي عنده علم الكتاب ؟

استفاضت الروايات ، واحتشدت دلائلها على أنَّ المراد بِمَن عنده علم الكتاب في الآية : (قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ) أنَّه الإمام علي بن أبي طالب ؑ ، فقد جاءت هذه الشواهد الروائية بألسنة مختلفة ملتقية في نقطة واحدة ، وهي أنَّ الذي عنده علم الكتاب في الآية هو علي بن أبي طالب ؑ ، منها :

الإمام علي ؑ أحصى علم كل شيء

- ١ . أخرج القندوزي في ينابيع الموءِّ بسنده عن الحسين بن علي ؑ : لما نزلت هذه الآية : (وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ) قالوا يا رسول الله هو التوراة أو الإنجيل أو القرآن ؟ قال : (لا ، فأقبل أبي عليؑ فقال ﷺ : هذا هو الإمام الذي أحصى الله فيه علم كل شيء)^(١) .
- ٢ . أخرج الحاكم الحسكاني في شواهد التنزيل ، في هذا المجال ستة أحاديث عن ابن عباس ، وأبي صالح ، والإمام الباقر ؑ ومحمد بن الحنفية ، وأبي سعيد الخدري ، نكتفي بنقل حديث واحد منها ، وهو ما جاء عن عطية ، عن أبي سعيد الخدري قال : (سألت رسول الله ﷺ عن قول الله تعالى : (وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ) قال : ذاك أخي علي بن أبي طالب)^(٢) .

(١) ينابيع الموءدة ، القندوزي : ج ١ ص ٢٣٠ .

(٢) شواهد التنزيل ، الحسكاني عبد الله بن أحمد : ج ١ ص ٤٠٠ . ٤٠٥ .

٣ . أخرج أبو إسحاق الثعلبي في تفسيره حديثين ، الأول عن ابن عبد الله بن عطاء أنّه قال : (كنت جالسا مع أبي جعفر في المسجد فرأيت ابن عبد الله بن سلام جالسا في ناحية ، فقلت : لأبي جعفر : زعموا أنّ الذي عنده علم الكتاب عبد الله بن سلام ، فقال : إنّما ذلك علي بن أبي طالب عليه السلام ، والثاني ؛ عن أبي عمر زاذان ، عن ابن الحنفية : ((وَمِنْ عِنْدِهِ عِلْمُ الْكِتَابِ)) ، قال : هو علي بن أبي طالب (١) .

٤ . أخرج القرطبي في تفسيره ، عن عبد الله بن عطاء أنّه قال : (قلت : لأبي جعفر بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام ، زعموا أنّ الذي عنده علم الكتاب عبد الله بن سلام ، فقال : (إنّما ذلك علي بن أبي طالب عليه السلام ، وكذلك قال محمد بن الحنفية (٢) .

٥ . أخرج الحافظ أبو نعيم الأصفهاني في كتابه (ما نزل من القرآن في علي عليه السلام ، عن إسماعيل بن سليمان : عن [محمد] بن الحنفية في قوله عز وجل : (قُلْ كَفَىٰ بِاللّٰهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمِنْ عِنْدِهِ عِلْمُ الْكِتَابِ) قال : (هو علي بن أبي طالب عليه السلام) (٣) .

٦ . قال الآلوسي في تفسيره : (قال محمد بن الحنفية ، والباقر كما في البحر : المراد بـ (من) ، علي (كمّ الله تعالى وجهه) ، الظاهر أنّ المراد بالكتاب حينئذ القرآن ، ولعمري إنّ عنده ﷺ علم

(١) الكشف والبيان ، الثعلبي أبو إسحاق أحمد : ج ٥ ص ٣٠٣ . ٣٠٢ .

(٢) الجامع الأحكام القرآن ، القرطبي محمد بن أحمد : ج ٩ ص ٣٣٦ .

(٣) النور المشتعل من كتاب ما نزل من القرآن في علي عليه السلام ، الأصبهاني ؛ أحمد بن عبد الله بن أحمد (أبو نعيم) : ص ١٢٥ ؛ تحقيق محمد باقر المحمودي .

الكتاب كملاً (١) ! .

٧ . ابن مردويه (٢) روى في كتابه (مناقب علي بن أبي طالب عليه السلام) ، عن ابن عباس في قوله تعالى :
(وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ) قال : (هو علي بن أبي طالب) (٣) .

اختصاص أهل البيت عليه السلام بعلم الكتاب

بعد أن اتضح أن الذي عنده علم الكتاب هو أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام بمقتضى الروايات الآتية الذكر ، فهناك عدّة آيات قرآنية تشير إلى اختصاص رسول الله ﷺ وأهل البيت عليه السلام بعلم الكتاب فضلاً عن الروايات الصحيحة ، ومن جملة هذه الآيات ما يلي :

أولاً : قوله تعالى : (وَتَزَلَّيْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ) (٤) ، وقوله تعالى : (مَا فَزَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ) ، حيث دلّت هاتان الآيتان على أنّ القرآن فيه تبيان كل شيء ، ثم إننا لو سألنا القرآن الكريم عن سبب وجود الاختلافات الكثيرة بين المسلمين مع أنّ القرآن الكريم موجود بين أيديهم ؟ لأجابنا بأن هذا الكتاب الذي فيه تبيان لكل شيء يحمله ثلّة

(١) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ، الألوسي : ج ١٣ ص ١٧٦ .

(٢) قال الذهبي في حقه : ابن مردويه الحافظ ، المجوّد ، العلامة ، محدّث أصبهان ، كان من فرسان الحديث ، فهماً يقطاً متقياً كثير الحديث جداً ، ومن نظر في تواليفه عرف محله من الحفظ ، راجع : الذهبي : سير أعلام النبلاء : ج ١٧ : ص ٣٠٨ . ٣٠٩ .

(٣) مناقب علي بن أبي طالب عليه السلام ، الأصبهاني ؛ ابن مردويه أحمد بن موسى : ص ٢٦٨ ؛ جمعه وقد له عبد الرزاق محمد حسين حرز الدين .

(٤) النحل : ٨٩ .

مطهرة من الأمة ، وهم الثقل الآخر للقرآن الكريم بتعبير حديث الثقلين وهو : (إِنِّي تَارِكُ فِيكُمْ الثَّقَلَيْنِ كِتَابَ اللَّهِ وَعَتْرَتِي أَهْلَ بَيْتِي مَا إِنْ تَمَسَّكْتُمْ بِهِمَا لَنْ تَضِلُّوا بَعْدِي أَبَدًا) وهذا الحديث متواتر سنداً ومضموناً ، وصريح من حيث الدلالة على أنَّ أهل البيت ﷺ هم الثقل الآخر في الأمة ، وأنَّهم عدل للقرآن ، وهذا المعنى يلتقي مع قوله تعالى . الذي يدلنا على مكان وموضع علم الكتاب . (بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُورٍ الَّذِينَ أُتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ) ^(١) ولم يلحَّ أحد من المسلمين أنَّه عنده علم ما في القرآن إلا هم ﷺ لا يفترقون عنه إلى قيام الساعة ، فقد ورد عن عمر أنَّه قال : (سمعت رسول الله ﷺ يقرأ قوله تعالى : (وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ) ، وسمعتة يقول : (بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُورٍ الَّذِينَ أُتُوا الْعِلْمَ) ، وقد أثبتنا أنَّ الذي عنده علم الكتاب هو الإمام علي وولده ﷺ وهذه دلالة واضحة على أن المراد بـ (صُورٍ الَّذِينَ أُتُوا الْعِلْمَ) هم أهل بيت النبي ﷺ وفي مقدمتهم أمير المؤمنين عليّ عليه السلام .

ثانيا : قوله تعالى : (إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ * فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ * لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ) . ولأجل أن نتفهّم الآية المباركة ينبغي بيان مقدّمة تساهم في الوصول إلى المطلوب : وملخص هذه المقدّمة : هي أن لكل شيء أربعة وجودات :

- الوجود الأوَّ : وهو الوجود الكتبي مثل كتابة (زيد) .
- الوجود الثاني : الوجود اللفظي كما لو تلقّطنا بكلمة (زيد) فقط .
- الوجود الثالث : الوجود الذهني كوجود صورة زيد في ذهننا .
- الوجود الرابع : الوجود الخارجي وهو وجود زيد حقيقة في الخارج .

(١) العنكبوت : ٤٩ .

والقرآن الكريم لا يخرج عن هذه الحقيقة التكوينية ، فهو له أربعة وجودات أيضاً ، فوجوده اللفظي هو القرآن المصوت به ، وكذا له وجود كُتبي وهو هذه النسخة الشريفة الموجودة والتي لها أحكام شرعية خاصة بها .

ووجوده الذهني الذي هو عبارة عن تدبّر معانيه السامية ، والتأمل فيها ، وهي ما دعانا الباري تعالى إلى التدبّر والتأمل فيها .

ووجوده الخارجي هو نفس حقيقة القرآن الكريم ، وهي التي أشار إليها القرآن الكريم في قوله تعالى :
(لَوْ أَنزَلْنَا هَذِهِ الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْنَاهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأُمُثَالُ نَضِيزَةٌ لِّلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ) ، فتصدع الجبل لا يحصل بوجود القرآن اللفظي أو الكُتبي بتلاوته أو كتابته أو وضعه على الجبل ، ولا بوجود القرآن الذهني بل تصدّع الجبل فيما إذا نزلت حقيقة القرآن الخارجية على الجبل ، وهذا هو ما نصّت عليه الآية المباركة .

وبعد أن اتضح هذه المقدمة وهي أنّ للقرآن حقيقة خارجية تكوينية سامية ، فإنّ هذه الحقيقة لا يمكن أن يصل إليها إلاّ المطهّرون ، كما في قوله تعالى : (إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ * فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ * لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ) ومعنى (مكنون) أي محفوظ ؛ ولذا قال الراغب الأصفهاني في مفرداته في معنى قوله تعالى : (لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ) أي لا يبلغ حقائق معرفته إلاّ مَنْ طهّر نفسه وتنقّى من درن الفساد (١) .

(١) المفردات في غريب القرآن ، الراغب : ص ٣٠٨ .

مَن هم المطهَّرون ؟

لقد بادر القرآن الكريم لبيان ماهية وحقيقة المطهَّرين ، وأنهم أهل البيت عليهم السلام ، قال تعالى : (**إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا**) ، وقد بيَّن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله في روايات متضافرة بأن المطهَّرين هم أهل بيته عليهم السلام ، ومن هذه الروايات :

١ . ما ورد عن عبد الله بن جعفر لما نظر رسول الله صلى الله عليه وآله إلى الرحمة هابطة قال : (ادعوا لي ، ادعوا لي ، فقالت صفية : مَنْ ؟ قال صلى الله عليه وآله : أهل بيتي : علياً وفاطمة والحسن والحسين ، فجاء بهم فألقى عليهم كساءه ، ثم رفع يديه ، ثم قال : اللهم هؤلاء آلي فصل علي محمد وعلي آل محمد ، وأنزل الله عز وجل ، (**إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا**)) ، [قال الحاكم] : (هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، وقد صحَّحت الرواية على شرط الشيخين ، أنه علَّمهم الصلاة على أهل بيته كما علَّمهم الصلاة على آله)^(١) .

٢ . ما ورد عن أبي سلمة : فدعا حسناً وحسيناً ، وفاطمة ، فأجلسهم بين يديه ، ودعا علياً فأجلسه خلفه فتجلَّل هو وهم بالكساء ، ثم قال : (هؤلاء أهل بيتي فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا)^(٢) .

ومنها : ما رواه ابن كثير في تفسيره قال : (... حدثنا شداد بن عمار قال دخلت على واثلة بن الأسقع رضي الله عنه ، وعنده قوم فذكروا علياً رضي

(١) المستدرک علی الصحیحین ، الحاكم النيسابوري : ج ٣ : ص ١٤٨ .

(٢) جامع البيان ، الطبري : ج ٢٢ : ص ١٢ ؛ المعجم الكبير ، الطبراني : ج ٩ : ص ٢٦ ؛ شواهد التنزيل : الحاكم الحسكاني : ج ٢ : ص ١٢٠ ؛ تاريخ مدينة دمشق ، ابن عساکر : ج ١٤ ص ١٤٥ .

الله عنه فشتموه ، فشتمته معهم ، فلمّا قاموا قال لي شتمت هذا الرجل ؟ قلت : قد شتموه فشتمته معهم ، ألا أحيرك بما رأيت من رسول الله ﷺ ؟ قلت : بلى ، قال : أتيت فاطمة رضي الله عنها أسألها عن علي رضي الله عنه ، فقالت توجّه إلى رسول الله ﷺ ، فجلست أنتظره ، حتى جاء رسول الله ﷺ ومعه علي وحسن وحسين رضي الله عنهم آخذاً كل واحد منهما بيده حتى دخل فأدنى علياً وفاطمة رضي الله عنهما وأجلسهما بين يديه ، وأجلس حسناً وحسيناً رضي الله عنهما كل واحد منهما على فخذه ثم لفّ عليهم ثوبه ، أو قال : كساءه ، ثم تلى ﷺ هذه الآية (**إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً**) ، وقال : **اللّهم هؤلاء أهل بيتي وأهل بيتي أحق**)^(١).

٣ . وعنه أيضاً في رواية أخرى عن أم سلمة قالت : (فأخذ ﷺ فضل الكساء فغطاهم به ، ثم أخرج يده فألوى بها إلى السماء ، ثم قال : **اللّهم هؤلاء أهل بيتي وخاصتي ، فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا** ، قالت . أم سلمة . : فأدخلت رأسي البيت ، فقلت وأنا معكم يا رسول الله ؟ فقال ﷺ : **إِنَّكَ إِلَى خَيْرٍ ، إِنَّكَ إِلَى خَيْرٍ**)^(٢).

٤ . وفي رواية ثالثة عنها أيضاً قالت : (فلمّا رأهم مقبلين مدّ ﷺ يده إلى كساء كان على منامه ، فمدّه وبسطه ، وأجلسهم عليهم ، ثم أخذ بأطراف الكساء الأربعة بشماله فضمّه فوق رؤوسهم وأومأ به بيده اليمنى إلى ربّه ، فقال : **اللّهم هؤلاء أهل بيتي**)

(١) تفسير ابن كثير ، ابن كثير : ج ٣ : ص ٤٩٢ .

(٢) المصدر نفسه : ج ٣ : ص ٤٩٢ .

فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا (١) .

٥ . وفي رواية رابعة كذلك قالت : (... فاجتمعوا فجللهم رسول الله ﷺ بكساء كان عليه ثم قال : اللَّهُمَّ هَؤُلَاءِ أَهْلُ بَيْتِي ، فَأَذْهَبْ عَنْهُمْ الرِّجْسَ وَطَهِّرْهُمْ تَطْهِيراً ، فنزلت هذه الآية حين اجتمعوا على البساط ، قالت ، فقلت : يا رسول الله وأنا ؟ قالت : فو الله ما أنعم ، وقال : إِنَّكَ إِلَى خَيْرٍ) (٢) .

٦ . وفي رواية خامسة عن أم سلمة أيضا : (... بينما رسول الله ﷺ في بيتي يوماً ، إذ قالت : الخادم إن فاطمة وعلياً بالسدة ، قالت : فقال لي رسول الله ﷺ : قومي فتسحي عن أهل بيتي) (٣) .

٧ . وفي رواية سادسة عن أم سلمة : (قالت : إن هذه الآية نزلت في بيتي (إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً) ، قالت : وأنا جالسة على باب البيت ، فقلت يا رسول الله : ألسنت من أهل البيت ؟ فقال ﷺ : إِنَّكَ إِلَى خَيْرٍ ، أنت من أزواج النبي ...) (٤) .

وهذه الروايات وغيرها صريحة في الدلالة على أن المراد بأهل البيت هم : علي وفاطمة والحسن والحسين وتسعة من أولاد الحسين عليه السلام .

ومما يزيد هذه الحقيقة تأكيداً . وهي أن أهل البيت عليهم السلام لديهم علم وحقيقة القرآن . قوله تعالى : (وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ مَلَكٌ سَخُورٌ فِي الْعِلْمِ) ،

(١) تفسير ابن كثير ، ابن كثير : ج ٣ ص ٤٩٣ ؛ جامع البيان ، الطبري : ج ٢٢ ص ١١ ؛ شواهد التنزيل ، الحسكاني : ج ٢ ص ١٠٣ .

(٢) تفسير ابن كثير ، ابن كثير : ج ٣ ص ٤٩٣ ؛ وانظر : المعجم الأوسط ، ج ٤ ص ١٣٤ ؛ وانظر : شواهد التنزيل ، الحسكاني : ج ٢ ص ١٠٢ .

(٣) تفسير ابن كثير : ج ٣ ص ٤٩٣ .

(٤) تفسير ابن كثير ، ابن كثير : ج ٣ ص ٤٦٦ .

وقد ورد عن أمير المؤمنين علي عليه السلام أنه خطب الناس قائلاً : (أين الذين زعموا أنهم الراسخون في العلم دوننا ، كذباً وبغياً علينا ، أن رفعنا الله ووضعهم ، وأعطانا وحرّمهم ، وأدخلنا وأخرجهم ، بنا يستعطي الهدى ، ويستجلى العمى . إنّ الأئمة من قريش ، غرسوا في هذا البطن من هاشم ، لا تصلح على سواهم ، ولا تصلح الولاية من غيرهم)^(١) .

إذن تبين من هذه الروايات أن علم الكتاب إنّما هو عند أهل البيت عليه السلام بفضل الله تعالى واصطفائه لهم .

الروايات الخاصة في علم أهل البيت عليه السلام

وأما على صعيد البحث الروائي فقد تواترت الروايات المؤكّدة على أعلمية أهل البيت عليه السلام ، فضلاً عن كونهم ورثة النبي عليه السلام ، منها :

١ . علم الأنبياء عند أهل البيت عليه السلام :

أخرج القندوزي الحنفي في الينابيع ، عن عمر بن أذينة عن جعفر الصادق عليه السلام قال : قال أمير المؤمنين : (ألا إن العلم الذي هبط به آدم عليه السلام من السماء إلى الأرض وجميع ما فضّلت به النبيون إلى خاتم النبيين في عترة خاتم النبيين)^(٢) .

٢ . علم الكتاب كلّهُ عند أهل البيت عليه السلام :

أخرج القندوزي الحنفي عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال : (علم الكتاب والله عندنا ، وما أُعطي وزير سليمان بن داود ، إنّما عنده حرف واحد من

(١) شرح نهج البلاغة: ابن أبي الحديد : ج ٢ ص ٢٧ ، ج ٩ ص ٨٤؛ ينابيع المودة، القندوزي: ج ٣ ص ٢٩٣ .

(٢) ينابيع المودة، القندوزي: ج ١ ص ٣٠٦ .

الاسم الأعظم ، وعلم بعض الكتاب كان عنده ... وقال في علي عليه السلام ومن عنده علم الكتاب (١) ، وعن الإمام علي عليه السلام أنّه قال : (ألا وإنا أهل بيت من علم الله علمنا وبحكم الله حكمنا) (٢) .

٣ . أُعطي أهل البيت سبعا لم يعطها أحد قبلهم

أخرج ابن المغازلي عن علي عليه السلام قال : (قال رسول الله ﷺ : أُعطينا أهل البيت سبعة لم يُعطها أحد قبلنا ، ولا يُعطها أحد بعدنا : الصباحة والفصاحة والسماحة والشجاعة والحلم والعلم ...) (٣) .

٤ . الإمام علي عليه السلام عيبة علم الرسول ﷺ

أخرج ابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق عن ابن عباس قال : (علي عيبة علمي) (٤) .

٥ . الإمام علي عليه السلام يعلم ظاهر القرآن وباطنه

أخرج القندوزي الحنفي في ينابيع المودّة عن ابن مسعود أنّه قال : (نزل القرآن على سبعة أحرف له ظهر وبطن ، وأنّ عليّاً عليه السلام علم القرآن ظاهره وباطنه) (٥) .

(١) ينابيع المودّة ، القندوزي : ج ١ ص ٣٠٦ .

(٢) شرح نهج البلاغة : ج ١ ص ٢٧٦ ؛ جواهر المطالب : أحمد بن محمد الدمشقي الشافعي : ج ١ ص ٣٤٣ ؛ ينابيع

المودّة ، القندوزي : ج ١ ص ٨٠ ؛ ج ٣ ص ٤٠٨ .

(٣) مناقب علي بن أبي طالب عليه السلام : ابن المغازلي ص ٢٩٥ ، ط ٢ .

(٤) تاريخ مدينة دمشق ، ابن عساكر : ج ٤٢ ص ٣٨٥ ، وكذا جاء في الكامل : ج ٤ ص ١٠١ ؛ ميزان الاعتدال : ج ٢

ص ٣٢٧ ؛ فيظ القدير في شرح الجامع الصغير : ج ٤ ص ٤٦٩ .

(٥) ينابيع المودّة ، القندوزي ج ١ ص ٢١٥ ، ٢٢٣ ، ج ٣ ص ١٤٦ .

هل أن أهل البيت عليهم السلام يعلمون الغيب ؟

إن جدلية العلم بالغيب من قبل الرسول الأكرم ﷺ وأهل البيت عليهم السلام من الجدليات التي اتخذها المناوئون ذريعة للنيل من مذهب الشيعة الاثني عشرية ، وهذه الجدلية قائمة على مغالطة واضحة .

وجه المغالطة

محصل ومنشأ هذه المغالطة وجود بعض الآيات القرآنية التي تنفي علم الغيب عن الأنبياء ، كما في الآية الكريمة : (مَا كُنْتُ بِدَعَا مِنَ الرَّسُولِ وَمَا ذُرِّيَ مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ) ^(١) وكذا قوله تعالى : (قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عَمَلًا خَيْرٌ مِنْ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ) ، وقوله تعالى : (قُلْ لَا مَلِكُ لِنَفْسِي نَفْعٌ وَلَا ضَرٌّ إِلَّا مِمَّا يَشَاءُ اللَّهُ) ^(٢) .

إذن على ضوء هذه الآيات يتبين عدم اطلاع الأنبياء مطلقاً على الغيب ، وأنّ علم الغيب مختص بالله تعالى .

والمغالطة المخبوءة في هذا الاستدلال هو أن المستدل بالآيات على نفي علم الغيب عن الأنبياء كما تقدّم اقتصر على بعض الآيات ، بل في آية واحدة اقتصر على صدر الآية وطرح ذيلها ، مع أنّ هذا الأسلوب من التعامل مع القرآن الكريم من الوقوف على آية واحدة فقط ، أو صدر آية وطرح ذيلها ، أو غض النظر عن الآيات الأخرى أسلوب يخالف حتى أسلوب المحاورات العرفية ؛ فإن المتكلم لا يصح نسبة الكلام إليه إلاّ بعد ملاحظة مجموع كلامه ، وليبيان ذلك نقول :

(١) الأحقاف : ٩ .

(٢) الأنعام: ٥٠ .

١ . قوله تعالى : (لَمْ الْعَيْبُ فَلَا يُظْهَرُ عَلَى عَيْنِهِ أَجْدًا * إِلَّا مَن ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا) ^(١) .

(١) الجن: ٢٦ - ٢٧ .

(٢) النساء : ١٦٣ .

(٣) الأنعام : ٥٠ .

مِنْهُمْ لَعَلَّكَ لَا تَكُونُ مِنَ الْفَاسِقِينَ (١) ، وغيرها هذه الآيات مما يشاركها في هذا المعنى ، من هنا قال الألوسي في تفسيره للآية المباركة (قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ) (٢) : (لعلَّ الحق أن يقال إن نفي علم الغيب عن غيره جلّ وعلا ، هو ما كان للشخص بذاته أي بلا واسطة في ثبوته لهم ، وما وقع للخواص ليس من هذا العلم المنفي في شيء ، وإنما هو من الواجب عز وجل إفاضة منه عليهم بوجه من الوجوه ، فلا يقال إنهم علموا بالغيب بذلك المعنى [يعني الاستقلال] ، فإن ذلك كفرٌ ، بل يقال إنهم أظهروا وأطلعوا على الغيب) (٣) .

وهذا المعنى يلتقي مع ما أثر عن أهل البيت عليه السلام ، فقد ورد عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال : (يسطر لنا العلم فنعلم ، ويقبض عنا فلا نعلم) (٤) وهو عين معنى الآية ، هي قوله تعالى : (كَلِمَ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا * إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ إِنَّهُ سَيَكُونُ مِنْ يَدَيْهِ وَمَنِ خَلَقَهُ رَصَدًا) (٥) ولا شك أن الرسول هو المرتضى ، وأهل البيت عليه السلام ورثته .

(١) هود : ٤٩ .

(٢) النمل : ٦٥ .

(٣) تفسير روح المعاني ، الألوسي : ص ٩ .

(٤) أصول الكافي ، الكيني : ج ١ ص ٢٥٦ ، بصائر الدرجات ، الصفار : ص ٥٣٣ .

(٥) الجن : ٢٦-٢٧ .

وحاصل ما تقلم :

إنّ الآيات الدالة على اختصاص علم الغيب به سبحانه ، هو ما يليق بساحة الواجب الذي لا يشاركه فيه أحد ، وهو العلم الذاتي بالاستقلال والأصالة ، بل هذا النوع من العلم يمتنع أن يشاركه أحد فيه ؛ لاستلزامه الشرك وتعدد الواجب الغني ، فإطلاع غير الله تعالى إنما يكون بالتبع ، نظير قوله تعالى : (**اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا**) ^(١) الذي يكون ظاهراً في أنّ التوفيّ منحصر بالله تعالى ، مع أنّه تعالى أسنده إلى ملك الموت في موارد ، وإلى رسله في موارد أخرى ، كما في قوله تعالى : (**قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَيِّتِ الَّذِي وَكَّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ**) ^(٢) ، وقوله تعالى : (**تَوَفَّيْتَهُ رُسُلُنَا**) ^(٣) .

إذن لا إشكال في علم النبي ﷺ بالغيب بإذن الله تعالى وفضله ، بل هنالك موارد لا يمكن التغاضي والتغافل عنها ، كالتّي أخبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن بعضها بما يتعلّق بالمعيّيات ، كما تقدّمت الإشارة إليه .

أهل البيت يعلمون الغيب

بعد أن تبين أنّ المراد بعلم الغيب الممتنع هو العلم بالأصالة والاستقلال ، وهو خاص بالله تعالى ، وأمّا العلم بالغيب بإذن الله تعالى وبمشيئته وبإفاضته على من يرتضيه فلا إشكال فيه ، يثبت على هذا الأساس أن النبي ﷺ إنما يعلم الغيب بإذن الله تعالى ومشيئته .

(١) الزمر : ٤٢ .

(٢) السجدة : ١١ .

(٣) الأنعام : ٦١ .

وعلى ضوء ما تقدم من أن أهل البيت هم ورثة رسول الله ﷺ . كما أشرنا إليه . يثبت علمهم
عليه السلام بالغيب بإنباء الرسول ﷺ بذلك ، وقد ورد في الأثر إخبار أمير المؤمنين علي عليه السلام بالغيب في
مواطن متعددة ، منها :

أولاً : إخباره عليه السلام بقتل (ذي الندية) من الخوارج وعدم عبور الخوارج النهر ، بعد أن قيل له قد
عبروا ^(١) .

ثانياً : إخباره بمقتل ولده الحسين عليه السلام لما اجتاز أرض كربلاء ، حيث بكى عليه السلام وقال : (هاهنا ناخ
ركابهم وهاهنا موضع رحالهم وها هنا مهراق دمائهم فتية من آل محمد ﷺ يقتلون بهذه العرصة تبكي
عليهم السماء والأرض) ^(٢) .

ثالثاً : قوله عليه السلام قبل قتاله الفرق الثلاث : (أمرت بقتال الناكثين والقاسطين والمارقين) والمقصود
من هؤلاء هم أصحاب الجمل وأصحاب معاوية وخوارج النهروان ، الذين قاتلهم في الجمل وصفين
والنهران ، فقاتلهم عليه السلام وكان الأمر كما أخبر به عليه السلام ^(٣) .

رابعاً : إخباره بملك معاوية من بعده ، وإخباره بعدة الجيش الوارد إليه من الكوفة لما شخص لحرب
البصرة ، وإخباره بمن يقتل من أصحابه أو يصلب ، وإخباره عن مقتل عبد الله بن الزبير ، وإخباره عن
هلاك أهل

(١) مروج الذهب ، المسعودي : ج ٢ ص ٤٢٥ ، الكامل في التاريخ ، ابن الأثير ، ج ٣ ص ٣٤٧ ، شرح نهج البلاغة ، ابن
أبي الحديد : ج ١٩ ص ١١٩ .

(٢) ذخائر العقبى : ص ٩٧ ؛ ينابيع المودة ، القندوزي : ج ٢ ص ١٨٦ ؛ وانظر شرح نهج البلاغة ، ابن أبي الحديد ج ٣ ص
١٦٩ . ١٧١ .

(٣) النهاية في غريب الحديث ، ابن الأثير : ج ٥ ص ١١٤ ؛ البداية والنهاية ، ابن كثير : ج ٧ ص ٣٨٨ ؛ جواهر المطالب
في مناقب الإمام علي عليه السلام ، ابن الدمشقي : ج ٢ ص ٨١ .

البصرة بالغرق ، وإخباره عن النفس الزكية ونحوها^(١) .

خامسا : قال الحافظ الجويني في فرائد السمطين : (الإمام الثامن [علي بن موسى الرضا] مظهر خفيات الأسرار ، ومبرز خبيات الأمور ... والواقف على غوامض السر المكتوم والمخير بما هو آت وعمّا غبر ومضى والمرضي عند الله ...)^(٢) .

هل الاعتقاد بعلم النبي وأهل بيته بالغيب غلو ؟

عرّفوا الغلو : بأنّه مجاوزة الحد ، يقال غلا فلان في الدين غلواً تشدّد حتى تجاوز الحد^(٣) ، وكل من تجاوز حد الاعتدال وغلا ، يصحّ لُغوياً تسميته بالمتطرّف ، جاء في المعجم الوسيط في معنى تطرف (تجاوز حد الاعتدال ولم يتوسط)^(٤) .

وقد عرّف ابن تيمية الغلو شرعا (بأنّه مجاوزة الحد بأن يزداد في الشيء في حمده أو ذمّه على ما يستحق)^(٥) .

وجاء في فتح الباري : (إذ إنّ الغلو هو المبالغة في الشيء والتشديد فيه بتجاوز الحد)^(٦) . وبذلك تبين أن الغلو هو تجاوز الحد الذي حدده الله تعالى ورسوله للشيء ، فالمغالي هو الذي يتجاوز ما حدده الله ورسوله لذلك الشيء اتّباعاً للهوى ، وخروجاً عن الحق إلى الباطل ، بحيث يصفه بوصف لم يسبق أن يصفه الله ورسوله به من غير دليل عقلي عليه .

(١) شرح نهج البلاغة : ج ٧ ص ٤٧ . ٤٩٠ .

(٢) فرائد السمطين : ج ٢ ص ١٨٧ .

(٣) انظر : الصحاح للجوهري مادة (غلا) واللسان لابن منظور (غلو) .

(٤) المعجم الوسيط : مادة (طرف) .

(٥) اقتضاء الصراط المستقيم ، ابن تيمية : ج ١ ص ١٠٦ .

(٦) فتح الباري ، ابن حجر : ج ١٣ ص ٢٣٤ .

وعلى ضوء ما سلف هل يمكن إطلاق الغلو على مَنْ قال : إن النبي ﷺ أخبر بالمغيبات كما تقدم إثبات ذلك ؟ وهل من الغلو أنّه ﷺ أعلم وأفضل الأنبياء السابقين ؟ وهل من الغلو أن نقول : إن الله تعالى اصطفاه واختاره ؟

وهل من الغلو أن نقول : إن علم أهل البيت من علم النبي ﷺ ورثهم إياه كما ثبت ذلك في جملة من الروايات المتضافرة ؟

هل تعظيم الرسول ﷺ وأهل بيته من الغلو ؟
ولكي تكون الإجابة واضحة بعيدة عن الملبسات ، ينبغي أن نعرض هذا السؤال على الشريعة الإسلامية :

وبدءا نقول : إن الذي نلمسه من الشريعة هو أنّه ليس كل تعظيم وإكبار واحترام يكون تأليها للشخص المعظم ، وغالباً ما نجد أن الأمر بتعظيم واحترام هذه المخلوقات مشفوع ببيان السبب من وراء ذلك التعظيم ، وهو أنّ نفس الإعظام والإكبار بأمر من الله لمخلوق معين هو طاعة الله تعالى وتعظيم له ، ومن استكبر وأبى ورفض تعظيم مَنْ أمر الله تعالى بتعظيمه يُعدّ عصياناً لله تعالى وإنكاراً عليه .
وهذا ما يتجلّى واضحاً من أمر الله تعالى للملائكة بالسجود لآدم ، فهو إعظام لآدم بأمر منه تعالى ، وحاشا لله تعالى أن يشرك أحداً في كبريائه .

إذن إعظام الملائكة لآدم إنما هو إعظام لله تعالى ؛ لأنه متسبب عن أمره تعالى ، ولذا نجد أن الله جعل مصير إبليس مرهوناً بإعظام آدم والسجود له ، فرفض إبليس لإعظام آدم يعدّ استكباراً على الله تعالى ، كما هو صريح قوله تعالى : (**قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدْ لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَسَبَّحَر** **وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ**) ^(١) .

وهذا الأمر يكشف عن حقيقة مهمة جداً على صعيد العقيدة أو الإيمان ، وهي أن تعظيم أولياء الله تعالى يعتبر طاعة وامثالاً لأوامر الله عز وجلّ ، وما إبليس إلا مثل ضربة الله تعالى للذين ينكرون ذلك ؛ إذ لم يكن عصيان إبليس لربه إنكاراً لتوحيده تعالى .

ومن هنا فإن الروايات المختلفة لدى الشيعة والسنة تشير إلى أن كفر إبليس لم يكن كفر شرك كما تقدم ؛ لأنه لم يعبد غير الله ، وإنما كان جحوده واستكباره على الله عز وجلّ في توحيده في مقام الطاعة ، وقد ورد في بعض الروايات أنه طلب من الله تعالى إعفائه السجود لآدم عليه السلام ، وسوف يعبد لا نظير لها ، وكان الجواب من الحق تعالى هو : (**إني أحب أن أطاع من حيث أريد**) ^(٢) ، وفي رواية أخرى : (**إنما أريد أن أعبد من حيث أريد لا من حيث تُريد**) ^(٣) .

ومن موارد أمر الله تعالى بتعظيم مخلوقاته ، أمره تعالى بتعظيم النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وقد ورد ذلك في آيات عديدة :

(١) البقرة : ٣٤ .

(٢) بحار الأنوار ، المجلسي : ج ٢ ص ٢٦٢ ، وج ١١ ص ٤٥ .

(٣) المصدر نفسه : ج ١١ ص ١٤١ .

منها : قوله تعالى : (لِيُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلِيُعْزِزَهُ وَتُبْقِرَهُ وَيُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا) ^(١) ، وقال ابن عباس في تفسير هذه الآية : تُعَزِّزُهُ : تَجْلُوهُ ، وقال المبرد : تُعَزِّزُهُ : تبالغوا في تعظيمه ^(٢) .

ومنها : قوله تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن بَطَّ أَعْمَالُكُمْ فَإِن تَنَبَّهْتُمْ لَا تَنبِّهُوا * الَّذِينَ يَغْضِبُونَ أَصْبَحَتْهُمُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أَلْتَأْتِكُمُ الَّذِينَ أَمْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى * إِنَّمَا مَغْفِرَةٌ * الَّذِينَ ينادون بك من وراء الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ) ^(٣) .

وليست هذه الأوامر من الله تعالى إلا لبيان وجوب احترام النبي ﷺ وتعظيمه ، وقد نقل القاضي عياض أن هذه الآية نزلت في محاورة كانت بين أبي بكر وعمر بين يدي النبي ﷺ واختلاف جرى بينهما ، حتى ارتفعت أصواتهما ^(٤) ، فهنا يأمر الله تعالى بوجوب إعظام النبي ﷺ وتوقيره ، وأن ترك الأدب بين يدي رسول الله ﷺ يؤدي إلى حبط العمل ، والخروج عن رتبة الإيمان ؛ ولذا ورد عن الفريقين أن الشاتم للنبي ﷺ أو الذي يستهزئ به ﷺ يقتل ، ويحكم عليه بالكفر .

ومنها : قوله تعالى : (لَا يَهْدِي اللَّهُ لِنَبِيِّهِ إِذَا يَدْعُوهُ وَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُ) ^(٥) وهذه الآية صريحة في وجوب التعظيم والخضوع بين يدي الرسول الأكرم ﷺ .

(١) الفتح : ٩ .

(٢) انظر : الشفا بتعريف حقوق المصطفى ، القاضي عياض : ج ٢ ص ٣٥ . ط بيروت . دار الفكر ، ١٤٠٩ هـ .

(٣) الحجرات : ٤٠٢ .

(٤) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ، القاضي عياض : ج ٢ ص ٣٦ .

(٥) الحجرات : ١ .

ومنها : قوله تعالى : (لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا) ونقل القاضي عياض أن معنى ذلك : أن لا تسابقوه بالكلام ، وتغلظوا له بالخطاب ، ولا تنادوه باسمه نداء بعضكم بعضاً ، ولكن عظموه ووقروه بأشرف ما يجب أن ينادى به : يا رسول الله ، يا نبي الله ^(١) .

وقد بلغ الأمر في شدة تعظيم الرسول الأكرم ﷺ من أهل البيت عليه السلام أن مالك بن أنس قال : (لقد كنت أرى جعفر بن محمد الصادق ، وكان كثير الدعابة والتبسّم ، فإذا ذكر عنده النبي ﷺ اصفرّ ، وما رأيته يحدث عن رسول الله ﷺ إلا على طهارة ، وقد اختلفت إليه زماناً فما كنت أراه إلا على ثلاث خصال : إما مصلياً ، وإما صامتاً ، وإما يقرأ القرآن ، ولا يتكلّم فيما لا يعنيه ، وكان من العلماء والعباد الذين يخشون الله عزّ وجلّ ^(٢) ، وكان مالك نفسه إذا ذكر النبي ﷺ يتغير لونه ^(٣) ، إلى غير ذلك من إعظام المسلمين للنبي ﷺ والتبرّك به بما لا يسع المقام ذكره .

تعظيم أهل البيت عليه السلام جذره قرآني

إن التعظيم الإلهي لأهل البيت عليه السلام يمكن أن نلمسه من خلال عددٍ من إضاءات قرآنية في آيات متعددة كما في آية المباهلة التي أمر الله تعالى نبيه فيها بأن يباهل النصارى بهؤلاء الخمسة ، فهم عليهم السلام شركاء للنبي ﷺ في إثبات أحقية وصدق رسالته ﷺ ، وكذا آية التطهير : (إِمَّا يُريدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا) ، وآية المودة : (قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى) ونحوها .

(١) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ، القاضي عياض : ج ٢ ص ٣٥ . ٣٦ .

(٢) المصدر نفسه : ج ٢ ص ٤٢ .

(٣) المصدر نفسه : ج ٢ ص ٤٢ .

إذن القرآن الكريم يعظم هؤلاء النخبة من البشر وهم الأئمة المطهرون .

فضلا عن الروايات الكثيرة التي تعظم أهل البيت عليهم السلام وتأمّر المسلمين بذلك ، وإليك بعضها :
منها : قوله صلى الله عليه وآله : (إني تارك فيكم ثقلين أولهما كتاب الله عز وجل فيه الهدى والنور ، فخذوا بكتاب الله تعالى واستمسكوا به ، فحث على كتاب الله ورغب فيه ، ثم قال : وأهل بيتي أذكركم في أهل بيتي ، أذكركم في أهل بيتي ، أذكركم في أهل بيتي)^(١) . ومن الواضح أن تكراره صلى الله عليه وآله من قول : (أذكركم في أهل بيتي) ثلاث مرات يدل بوضوح على وجوب تعظيمهم عليهم السلام .

ومنها : ما أخرجه الخوارزمي في مناقبه عن أم سلمة أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال لها : (قومي فافتحي له الباب ، فقالت : يا رسول الله من هذا الذي بلغ من خطره ما أفتح له الباب فأتلّقه بمعاصمي ، وقد نزلت في آية في كتاب الله بالأمس ؟ فقال لها كالمغضب : إن طاعة الرسول طاعة [الله] ومن عصى الرسول فقد عصى [الله] إن بالباب رجلاً ليس بالنزق ولا بالخرق ، يحب الله ورسوله ويحبّه الله ورسوله ، ففتحت له الباب ، فأخذ بعضادتي الباب

(١) صحيح مسلم ، مسلم : ج ٧ ص ١٢٣ ؛ مسند أحمد بن حنبل ، أحمد بن حنبل : ج ٤ ص ٣٦٧ ، وانظر : مجمع الزوائد ، الهيثمي : ج ٥ ص ١٦٣ .

حتى إذا لم يسمع حساً ولا حركة وصرت إلى خدري استأذن فدخل ، فقال رسول الله ﷺ : أتعرفينه ؟ قلت : نعم ، هذا علي بن أبي طالب ، قال : صدقت ، سحنته من سحنتي ، ولحمه من لحمي ، ودمه من دمي ، وهو عيبة علمي ، اسمعي واشهدي (١) .

ومنها : قال الرسول الأكرم ﷺ : (فلا تقتلوهم ولا تقهروهم ، ولا تقصروا عنهم ، وإنّي سألت لهم اللطيف الخبير فأعطاني أن يردوا علي الحوض كهاتين ، وأشار بالمسبحتين ، ناصرها إليّ ناصر ، وخاذلهما إليّ خاذل ، ووليها إليّ والي ، وعدوهما لي عدو) (٢) .

ومنها : قول رسول الله ﷺ قال : (من حفظني في أهل بيتي فقد اتخذ عند الله عهداً) (٣) .
ومنها : قول رسول الله ﷺ : (استوصوا بأهل بيتي خيراً ، فإنّي أخاصمكم عنهم غداً ، ومن أكن خصمه أخصمه ، ومن أخصمه دخل النار) (٤) .

ومنها : عن ابن عمر قال : كان آخر ما تكلم به رسول الله ﷺ : (اخلفوني في أهل بيتي) (٥) .

ومنها : ما ورد في شرح نهج البلاغة عن أمير المؤمنين الإمام علي عليه السلام أنه قال : (أين الذين زعموا أنهم الراسخون في العلم دوننا ، كذباً وبغياً علينا ،

(١) المناقب ، الخوارزمي : ص ٨٧ .

(٢) نظم درر السمطين ، الزرندي الحنفي : ص ٢٣٤ .

(٣) ذخائر العقبى ، أحمد بن عبد الله الطبري : ص ١٨ .

(٤) المصدر نفسه : ص ١٨ .

(٥) المعجم الأوسط ، الطبراني : ج ٤ ص ١٥٧ ؛ الجامع الصغير ، السيوطي : ج ١ ص ٥٠ .

أن رفعنا الله ووضعهم ، وأعطانا وحرّمهم ، وأدخلنا وأخرجهم ، بنا يُستعطي الهدى ويُستجلى العمى ، إنّ الأئمة من قريش ، غرسوا في هذا البطن من هاشم ، لا تصلح على سواهم ، ولا تصلح الولاية من غيرهم (١) .

ومنها : ما أخرجه الحاكم الحسكاني أن الحسن بن علي ؑ خطب الناس حين قُتل علي ؑ ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : (وساق كلامه عليه السلام إلى أن قال : أيّها الناس مَن عرفني فقد عرفني ، ومَن لم يعرفني فأنا الحسن بن علي ، وأنا ابن الوصي وأنا ابن البشير ، وأنا ابن النذير ، وأنا ابن الداعي إلى الله يأذنه والسراج المنير ، وأنا من أهل البيت الذين افترض الله موَدّتهم على كل مسلم ، فقال لبيّه : (قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ مَن يَرْثِ الْحَسَنَةَ نَزَلَ بِهِ فِيهَا حُسْنًا) ، فاقتِراف الحسنة موَدّتنا أهل البيت (٢) .

ولا يخفى ما في هذه الروايات من دلالة واضحة وصريحة على عظمة ومكانة أهل البيت ؑ ووجوب تعظيمهم وإكرامهم وتوقيرهم .

فلسفة هذا التعظيم

عند التأمل في السرّ الذي يكمن وراء أمر الله بتعظيم بعض مخلوقاته ، وما هي الحقيقة التي تنضوي تحت هذا الأمر ؛ نجد أنّ هذا الأدب يصب في دائرة التوحيد ، بحيث إنّ الاعتقاد بالنبى والإمام وتوقيرهما وتعظيمهما هو إعظام لله تعالى ، وتوحيد له عزّ وجلّ ، وهو عين طاعة الله تعالى وتوحيده ؛ لأنّه نابع عن الانقياد للأوامر الإلهية ، وهذا بنفسه يعد دليلاً عقلياً على وجوب إعظام الأنبياء لا سيّما خاصتهم ، وهو نبينا الأكرم ﷺ وأهل بيته ؑ بحدود ما أمرنا به الله تعالى .

(١) شرح نهج البلاغة ، ابن أبي الحديد : ج ٩ ص ٨٤ .

(٢) شواهد التنزيل ، الحاكم الحسكاني : ج ٢ ص ٢٠٦ ؛ وانظر : ذخائر العقبى ، الطبري : ص ١٣٨ .

ومن هنا نجد أن استكبار إبليس . كما مر سابقا . وعدم سجوده لآدم ﷺ كان سببا لخروجه من رحمة الله ، وموجباً لكفره ، قال تعالى : (**مَذَّ قُلُوبَنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ**) ^(١) فعدم إعظامه واحترامه لآدم ﷺ كان موجبا لحبط عمله وخروجه من رتبة الإيمان بالله تعالى إلى الكفر .

ومما تقلّم يتحصّل أن تعظيم النبي ﷺ وأهل بيته بما وصفهم الباري عز وجل ليس من الغلو بشيء ، بل يُعدّ امتثالاً لما أمرنا به الله ورسوله .

أهل البيت ﷺ وظاهرة الغلو

لقد واجه أهل البيت ﷺ ظاهرة الغلو بقوة وشدة ، وعبّأوا كل إمكاناتهم وقدراتهم من أجل تقويض أركان الغلو ، معتبرين الغلو أحد أقسام الكفر الذي يجب محاربتة ، ومحدّرين شيعتهم وأتباعهم من مغبة الانحراف في مخاطر العقيدة الفاسدة ، وقد ورد في هذا السياق جملة من الأخبار منها :
ما جاء عن رسول الله ﷺ أنه قال : (**إِيَّاكُمْ وَالْغُلُو** ، فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو في الدين) ^(٢) .

وعن أمير المؤمنين ﷺ قال : (**بُني الكفر على أربع دعائم : الفسق والغلو**

(١) البقرة : ٣٤ .

(٢) مسند أحمد ، أحمد بن حنبل : ج ١ ص ٢١٥ وص ٣٤٧ .

والشك والشبهة (١) .

كذلك عن أمير المؤمنين عليه السلام قال : (لعن الله من قال فينا ما لا نقوله في أنفسنا ، لعن الله من أزالنا من العبودية لله الذي خلقنا وإليه مآبنا ومعادنا وبيده نواصينا) (٢) .

وعن الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام ، قال : (احذروا على شبابكم الغلاة لا يفسدونهم ، فإن الغلاة شر خلق الله ، يصغرون عظمة الله ، ويدعون الربوبية لعباد الله ، والله إن الغلاة شر من اليهود والنصارى والمجوس الذين أشركوا) (٣) .

موقف علماء الشيعة من الغلاة

أما موقف ورأي علماء الشيعة في الغلاة ، فقد كان موقفاً ورأياً مستمداً من بيانات أهل البيت عليه السلام ، حيث كان موقفاً يتسم بالشدّة والرفض لمثل هذه الظواهر الفاسدة .

فعلى سبيل المثال نجد الشيخ المفيد وسم الغلاة بالكفار الضلال ، حيث قال : (والغلاة من المتظاهرين بالإسلام هم الذين نسبوا أمير المؤمنين والأئمة من ذريته إلى الألوهية والنبوة ووصفوه من الفضل في الدين والدنيا إلى ما تجاوزوا فيه الحد ، وحرصوا عن القصد ، وهم ضالّال كفار حكم فيهم أمير المؤمنين بالقتل والتحريق بالنار ، وقضت الأئمة عليهم

(١) أصول الكافي ، الكليني : ج ٢ ص ٣٩١ .

(٢) بحار الأنوار ، المجلسي : ج ٢٥ ص ٢٩٧ .

(٣) الأمالي ، الطوسي : ص ٦٥٠ ح ١٣٤٩ / ١٢ .

بالكفر والخروج عن الإسلام (١).

وقد وصف الشيخ الصدوق الغلاة بأهم شر من اليهود والنصارى والمجوس ، حيث قال : (اعتقادنا في الغلاة والمفوضية أنهم كفار بالله تعالى ، وإهم شر من اليهود والنصارى والمجوس والقدرية والحرورية ، ومن جميع أهل البدع والأهواء المعتلة) (٢) .

أما الشيخ كاشف الغطاء فقد برّ الأئمة عليهم السلام والشيعة من هؤلاء الغلاة ، حيث قال : (أما الشيعة الإمامية وأئمتهم فيبرأون من تلك الفرق براءة التحريم) (٣) ، وقال أيضا (أما الشيعة الإمامية ... ويرأون من تلك الفرق المقالات ويعدونها من أشنع [إشكالات] الكفر والضلالات ، وليس دينهم إلا التوحيد المحض ، وتنزيه الخالق عن كل مشابهة للمخلوق) (٤) .

الخلاصة

١ . اتضح أن حقيقة وجوه علم النبي ﷺ سنخ علم خاص يفترق عن علوم سائر البشر التي تسمى بالعلوم الحسولية .

وقد سجل القرآن الكريم هذه الحقيقة إلى جوار حقيقة أخرى ، شاطرت الروايات الشريفة القرآن في النصّ عليها ، وهي أفضلية نبينا ﷺ على كل الأنبياء ، وأنه أعلمهم على الإطلاق .

٢ . وقد اتضح أيضا أن علم الغيب وإن كان منحصرًا بالله تعالى إلا أن هناك آيات عديدة تصرّح بأن الله تعالى يفيض هذا العلم على من ارتضى من عباده المتجبين ، وعلى هذا الأسس يتضح أن علم الله بالغيب بنحو الاستقلال لا يشاركه فيه غيره ، أما علم الأنبياء فهو بالتبع ، أي بإرادة الله تعالى وعطائه لهم ، وقد تقدّمت عدّة شواهد قرآنية وروائية دلّت على علم الأنبياء بالغيب .

(١) تصحيح اعتقادات الإمامية ، المفيد : ص ١٣١ .

(٢) اعتقادات الإمامية ، الصدوق : ص ٩٧ .

(٣) أصل الشيعة وأصولها ، كاشف الغطاء : ص ١٧٣ .

(٤) المصدر نفسه : ص ١٧٧ .

٣ . كذلك ثبت أن علم أهل البيت عليهم السلام امتداد لعلوم النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم وأتتهم ورثته بروايات متضافرة ، فتكون حقيقة علمهم عليهم السلام هي من سنخ علم النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وهو سنخ علم إفاضي خاص يفيضه الله تعالى على بعض عباده .

٤ . ثبت أن الإمام هو خليفة الله تعالى في الأرض ، فلا بد أن يتوفر على علم خاص يؤهله لأداء مسؤوليته ، وتمثيل الله تعالى في الأرض .

٥ . يتجلى في عدة من الآيات أن علم الكتاب إرث للمصطفين المنتجبين من الله تعالى ، ولا ريب أن أهل البيت عليهم السلام ورثة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وهم الذين اصطفاهم واختارهم . وإن هذه الوراثة أعم من كونه وراثة مادية ، أو وراثة نورية جعلها الله تعالى في صلب الأنبياء ، كما في قوله تعالى :

(أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَمِنْ هَاجِرِينَ إِذَا تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَشَارُوا إِلَيْهِمْ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْكَوْنِ) (١) .

(١) مريم : ٨٥ .

٦ . إنّ الاصطفاء والاختيار الإلهي إنّما جاء وفقاً للعدالة الإلهية ، ووفقاً لقوله تعالى : (**لَا أَكْزِمُكُمْ** **عِنْدَ اللَّهِ أَنْتَقَاكُمْ**) ^(١) ، والسبب في ذلك هو أنّ الاصطفاء والاختيار ناشئ من علمه تعالى بحقائق الأشياء ، وأنّ علمه محيط بكل شيء ، فالله تعالى لعلمه السابق بما للمصطفين من قدرة على تحمّل المسؤولية ، وإرادتهم لذلك وانصهارهم في ذات الله تعالى ، اختارهم الله تعالى دون غيرهم من الناس ، وهذا منطق عقلائي يمارسه العقلاء في حياتهم اليومية .

٧ . إنّ الذرية من الآباء والأجداد من الأمور التي لها مدخلية وتأثير على شخصية الإنسان ومزاجه ، ولذا شاء الله تعالى أن يجعل هؤلاء الأنبياء والمرسلين والأئمة المصطفين من ذرية واحدة ، من أصلاب شائعة وأرحام مطهرة ، وهذا ما نلمسه من أخبار الطينة الواردة في كتب الفريقين .
وذكرنا أن لظاهرة الاختيار والاصطفاء وجعلهم في ذرية واحدة أبعاداً مهمة لها أثر كبير في حفظ الرسالة ، منها :

البعد التاريخي : حيث نجد أن اختيار الله للأوصياء يتركز على أولئك المقرّبين للأنبياء من أقاربهم أو ذريّاتهم ، أو ممّن يرتبطون بالنبي والرسول ارتباطاً نسبياً .

البعد الرسالي : وهو ما يترتب على الذرية من تحقيق مصالح الرسالة ، وإعداد أفراد صالحين يتحمّلون أعباءها الثقيلة ؛ وذلك لأنّ عمر الرسول يكون أقصر من عمر الرسالة ، فتحتاج لمن يقوم بأعبائها ومسؤولياتها ، وممّا لا شك فيه أن الإعداد الأفضل لا يتم إلا في داخل البيت الرسالي ومن الأفراد المقرّبين نسبياً من صاحب الرسالة .

(١) الحجرات : ١٣ .

- ٨ . إنّ أهل البيت هم ورثة الأنبياء ، واستدللنا على ذلك بأدلة متعددة .
- ٩ . أثبتنا في الجواب عن هذه الشبهة أعلمية أهل البيت ﷺ على سائر البشر ، كما في قوله تعالى : (قُلْ كَفَى بِاللّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ) ^(١) ، ولا شك أنّ المراد بمنّ عنده علم الكتاب هو (الإمام علي بن أبي طالب) كما في الروايات الواردة من طرق الفريقين .
- ١٠ . قلنا إنّ حقيقة علم الكتاب عبارة عن سنخ علم خاص ، يمنح لصاحبه القدرة على التصرف في الكون كما في تصرف آصف بن برخيا ، حيث تمكّن من نقل عرش بلقيس من اليمن إلى بيت المقدس بأقل من طرفة عين ، مع أنّه لم يكن عنده إلّا بعض علم الكتاب ، كما هو مقتضى نص الآية المباركة : (قَالَ اللَّهُ عِنْدَهُ عِلْمُ مَنْ الْكِتَابَ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ) ^(٢) .
- ١١ . بيّنا أيضا اختصاص أهل البيت ﷺ بعلم الكتاب ، وهو ما تشير إليه بعض الآيات القرآنية ، كما في قوله تعالى : (بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُبُورٍ الَّذِينَ أُتُوا الْعِلْمَ) ^(٣) ، وقوله تعالى : (وَتَزَلَّجْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ بُيُوتًا لِّكُلِّ شَيْءٍ) ^(٤) ، فالقرآن فيه تبيان كل شيء يحمله ثلّة مطهّرة من الأُمّة ، وهم أهل البيت ﷺ ، كما هو مقتضى حديث الثقلين .

(١) الرعد : ٤٣ .

(٢) النمل : ٤٠ .

(٣) النحل : ٨٩ .

(٤) العنكبوت : ٤٩ .

مضافا لقوله تعالى : (**إِنَّهُ لَقَبْرُنْ كَرِيمٌ * فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ * لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ**) ^(١) ، وهذا يدلنا على حقيقة مهمة وهي أنّ حقيقة وكنه القرآن لا يمكن أن يصلها إلا المطهرون ، وهم أهل البيت عليهم السلام كما هو مقتضى جملة وافرة من الروايات .

أهل البيت عليهم السلام وعلمهم بالغيب

ذكرنا أنّ المراد بعلم الغيب هو علم خاص بالله تعالى بالأصالة والاستقلال ، ولا مانع من إفاضته على غيره من عباده فيعلمون الغيب بإرادته ومشئته تعالى ، وهنالك روايات عديدة تشهد على أنّ أهل البيت أخبروا ببعض المغيّبات .

فلنا إن الغلو هو مجاوزة الحدّ الذي حدّد الله تعالى ورسوله ، وعلى هذا الأساس فلا يمكن إطلاق الغلو على من يعتقد أن النبي صلى الله عليه وآله وأهل البيت يعلمون الغيب بإذن الله تعالى وتبعا لإرادته ؛ لأنّه لا يعدّ تجاوزاً لحدود الله تعالى ، بل موافقاً لها طبقاً للآيات والروايات .

هل التعظيم للرسول صلى الله عليه وآله وأهل بيته غلو ؟

اتضح أن تعظيم الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام ليس من الغلو ؛ لأن احترام وتعظيم رسول الله وأهل بيته عليهم السلام لا يعدّ تجاوزاً لحدود الله تعالى أبداً ؛ وذلك لأنّه تعالى هو الذي أمرنا بتعظيم رسوله صلى الله عليه وآله وأهل بيته بنص القرآن الكريم والسنة الشريفة .

أمّا فلسفة هذا التعظيم ، فهو أنّ الاحترام والتعظيم يعدّ من الأدب مع هذه الثلة الطاهرة ، وتركه مع أمر الله به يوجب الكفر ، كما هو الحال بالنسبة لإبليس حيث أذى به استكباره ، وعدم تعظيمه لنبي الله آدم عليه السلام . بعد الأمر الله بتعظيمه والسجود له . إلى حبط أعماله وخروجه من رتبة الإيمان بالله تعالى .

هذا وقد واجه أهل البيت عليهم السلام ظاهرة الغلو بشدّة وقوّة وعبّأوا جهدهم من أجل تقويض أركانه ، معتبرين الغلو أحد أقسام الكفر الذي يجب محاربتة ، وفي هذا المقام يوجد عدد وافر من الروايات الواردة عنهم عليهم السلام في التشديد والإنكار لهذه الظاهرة .

(١) الواقعة : ٧٧ . ٧٩ .

ووقف علماء الشيعة موقفاً صارماً من الغلاة ، مستمدين ذلك من توجيهات أهل البيت ﷺ في محاربة هذه الظاهرة .

ميزان قبول الأعمال

الشبهة :

الأعمال لا تُقبل إلا بولاية أهل البيت ﷺ .

الجواب :

تمهيد :

من المعالم البارزة في العقيدة الوهابية اتحام الكثير من الطوائف والمذاهب الإسلامية بالشرك والكفر ، وهذا أشهر من نار على علم .

وصاحب الشبهة يريد أن يتهم المذهب الشيعي بذلك الداء العضال الذي ابتلى به المذهب الوهابي ، فيقول : إن الشيعة يحكمون بكفر وهلاك جميع المسلمين ؛ لعدم قبول أعمالهم .

مع أنّ كتب علماء الشيعة قد صرّحت بإسلام مَنْ تشهد الشهادتين ، ولم يحكموا إلاّ بهلاك المبغض لقربى النبي ﷺ وهم أهل البيت ﷺ تبعاً للآيات ، والروايات ؛ كما هو مفاد آية المودة : (قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى) .

الولاية في نظر أعلام السنّة

لقد حكم أكثر مفسّري أهل السنّة بأن المودّة الواجبة هي عدم البغض مع درجة من درجات الحب ولو أدنى درجاتها ، ومع فقدانها يكون الشخص مجاهراً بالرد على الله ورسوله ، وهذا أيضاً ما يؤكّده حديث الثقلين المتواتر ، ولذا فإنّ جميع المسلمين هم من المحبّين لأهل البيت ﷺ ، وهذه هي أدنى درجات الولاية ، التي تحفظ للمسلم هويّته الإسلامية ، وترفع عنه حتمية الهلاك ، بخلاف المبغض الذي نصّت الروايات الكثيرة على هلاكه .

قبول الأعمال بالولاية

أما الحَقَائِيَّة والمقبولية التامة للأعمال بالولاية ، فهو حالة طبيعية ومنهجية يستدعيها نفس تعدد المذاهب ، وكون هذا المذهب في قِبال مذهب آخر ، وهذا ما يقرّه علم المناهج قديماً وحديثاً ، فصاحب كل منهج وعقيدة يرى أن النتائج الصحيحة والمقبولة لا بد أن تكون ضمن بوتقة المنهج العقيدي والرؤية الكونية التي يرى أنّها هي الحق ، فالمنظومة الاعتقادية الصحيحة هي التي تحتوي على أسس وضروريات الاعتقاد ، وهي الكلم الطيب الذي يرتفع بالعمل وتكون الأعمال مقبولة بسببه ، وإلا فما هو سبب تعدد المذاهب الاعتقادية ؟ !! .

وهذا هو مضمون ما جاء متواتراً عن النبي ﷺ من افتراق أُمَّته على ثلاث وسبعين فرقة واحدة منها هي المحقّة ^(١) ، وقد جاء في صحيح مسلم :

(١) تفسير ابن كثير ، ابن كثير : ج ١ ص ٣٥٤ وج ٢ ص ١٤٨ و ٤٨٢ ؛ راجع تفسير القرطبي ، القرطبي : ج ٢ ص ٩ ، ج ٤ ص ١٦٠ ، ج ٧ ص ١٤١ ، ج ١٢ ص ١٢٩ ؛ المستدرك ، الحاكم النيسابوري : ج ١ ص ٦ و ١٢٨ ؛ المستدرك على الصحيحين : ج ١ ص ١٢٨ ، وج ٥ ص ٨٣٢ قال : هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ، وسنن الدارمي : ج ٢ ص ٣١٤ ، ج ٨ ص ٢٥١ ، وكتاب الأحاديث المختارة : ج ٧ ص ٩٠ ح ٢٤٩٩ و ٢٥٠٠ وعبر عن الأول بأن إسناده صحيح ، وعن الثاني أنّ إسناده حسن ، ومجمع الزوائد : ج ١ ص ١٨٩ وقال : إن رواه رواة الصحيح إلا واحد وقد وثقه ؛ مصباح الزجاجة : ج ٤ ص ١٨٠ ، وسنن البيهقي ج ١٠ ص ٢٠٨ ، وسنن أبي داود ج ٢ ص ٣٩٠ ح ٤٥٩٦ و ٤٥٩٧ باب شرح السنّة ؛ مسند أحمد : ج ٤ ص ١٠٢ ، ومسند أبي يعلى ، أبو يعلى الموصلي : ج ١٠ ص ٣١٧ و ٥٠٢ ، ومسند الشاميين ، الطبراني : ج ٢ ص ١٠٨ ؛ افتراق الأمة ، محمد بن إسماعيل الصنعاني : ص ٤٨ ؛ المعجم الكبير ، ج ٨ ص ٢٧٣ وج ١٨ ص ٥١ و ٧٠ ؛ سنن الترمذي ، الترمذي : ج ٤ ص ١٣٤ - ١٣٥ ح ٢٧٧٨ ح ٢٧٧٩ باب افتراق هذه الأمة .

(عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله ﷺ : يكون في أمّتي فرقتان فيخرج من بينهما مارقة يلي قتلهم أولاهم بالحق) (١) .

ونحن نعتقد أنّ الولاية الكاملة والحقّة ، التي أمر الله تعالى ورسوله بها ، من حب وطاعة وتسليم وانقياد ، هي ميزان قبول الأعمال بنحو الاستحقاق .

والولاية في أدنى درجاتها وهي المحبّة فقط ، وعدم البغض موجودة عند جميع المسلمين ، وأمّا من كان مبغضاً لأهل البيت عليه السلام فلا يمكن الحكم بإسلامه لرفضه وردّه لصريح القرآن ، وتلك الولاية مقبولة بمقدار أن تحفظ للشخص إسلامه وتنجيه من حتمية الهلاك في النار ، ولا بد أن لا يرتجى منها أن ترتقي إلى مستوى المقبولية التامة الناتجة عن الولاية الكاملة والصحيحة التي هي جزء من الأصول الاعتقادية بحسب اعتقادنا .

وهذا هو معنى ما جاء في بعض الروايات كما في الخصال ، عن أبي عبد الله عليه السلام عن جده عن علي عليه السلام قال : (إن للجنة ثمانية أبواب باب يدخل منه النبيون والصدّيقون ، وباب يدخل منه الشهداء والصالحون ، وخمسة أبواب يدخل منها شيعةنا ومحّبونا ، فلا أزال واقفاً على الصراط أدعو وأقول : رب سلّم شيعتي ومحبي وأنصاري ومن تولّاني في دار الدنيا ، فإذا النداء من بطنان العرش ، قد أجيبت دعوتك وشفّعت في شيعتك ، ويشفع كل رجل من شيعتي ومن تولّاني ونصرني وحارب من حاربي بفعل أو

(١) صحيح مسلم ، النيسابوري : ج ٣ ص ١١٣ .

قول في سبعين ألفاً من جيرانه وأقربائه ، وباب يدخل منه سائر المسلمين ممّن شهد أن لا إله إلا الله ، ولم يكن في قلبه مقدار ذرّ من بغضنا أهل البيت ^(١) .

إذن ، كما للولاية مراتب ودرجات أدناها الحب وعدم البغض ، كذلك قبول الأعمال له مراتب مختلفة بحسب اختلاف درجات الولاية ، فعامة المسلمين الذين يحبّون أهل البيت عليهم السلام بمقتضى صريح آية المودة ولا يبغضونهم ، لهم درجة من الولاية ودرجة من المقبولية ، وأدنى درجات المقبولية كونهم مسلمين وغير محكوم عليهم بحتمية الهلاك الأبدي في النار بخلاف المبغض والمحارب الذي جازمت الروايات بخروجه عن رتبة الإسلام ، وهلاكه الأبدي .

روايات الولاية في الكتب السنّية

وقد جاء ذلك أيضاً في مجامع أحاديث أهل السنّة :

١ . أخرج الحاكم في المستدرك ، وابن حبان في صحيحه : عن عطية عن أبي سعيد قال : قتل قتيل بالمدينة على عهد النبي صلّى الله عليه وآله وصعد المنبر خطيباً ، وقال : (والذي نفس محمد بيده لا يبغضنا أهل البيت أحد إلا أكبه الله عز وجل بالنار على وجهه ، رواه جماعة عن إسحاق) ^(٢) ، قال الحاكم هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبي في التلخيص .

(١) الخصال : الشيخ الصدوق : ص ٤٠٨ .

(٢) المستدرك ، الحاكم النيسابوري : ج ٤ ص ٣٥٢ ؛ ونحوه صحيح بن حبان ، ابن حبان : ج ١٥ ص ٤٣٥ ؛ شواهد التنزيل ، الحاكم الحسكاني : ج ١ ص ٥٤٩ و ٥٥٠ ، ونحوه ترجمة أمير المؤمنين عليه السلام من تاريخ دمشق ، ابن عساكر : ج ١ ص ١٤٩ ح ١٨٣ . ط ٢ وقد نقل روايات كثيرة بذلك المضمون فراجع .

٢ . وأخرج الحاكم الحسكاني وغيره : عن أبي الزبير عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : (يا علي لو أن أمتي صاموا حتى صاروا كالأوتاد وصلّوا حتى صاروا كالحنايا ، ثم أبغضوك لأكبّهم الله على مناخرهم في النار) . رواه جماعة من أصحابنا عن عثمان^(١) .

٣ . وأيضاً عن جابر بن عبد الله وأنس بن مالك قالا : قال رسول الله ﷺ : (يا علي لو أن أمتي أبغضوك لأكبّهم الله على مناخرهم في النار)^(٢) .

٤ . وأيضاً عن أبي أمامة الباهلي ، قال : قال رسول الله ﷺ : (إن الله خلق الأنبياء من شجر شتى وخلقتني وعليّ من شجرة واحدة ، فأنا أصلها ، وعليّ فرعها ، والحسن والحسين ثمارها ، وأشياعنا أوراقها ، فمن تعلّق بغصن من أغصانها نجا ، ومن زاغ هوى ، ولو أنّ عابداً عبد الله ألف عام ، ثم ألف عام ، ثم ألف عام ، ثم لم يدرك محبتنا أهل البيت أكبّه الله على منخريه في النار ، ثم تلا (قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى)^(٣) .

وهذه الروايات من طرقنا صحيحة ومتواترة ونؤمن بمضمونها ، هذا بالنسبة للمبغض .

(١) شواهد التنزيل ، الحاكم الحسكاني : ج ١ ص ٥٥٠ ؛ ونحوه ترجمة الإمام علي من تاريخ مدينة دمشق ، ابن عساکر : ج ١ ص ١٥٠ ح ١٨٤ .

(٢) شواهد التنزيل ، الحاكم الحسكاني : ج ١ ص ٥٥١ .

(٣) المصدر نفسه : ج ١ ص ٥٥٤ ، والآية ٢٣ من سورة الشورى .

رأي علماء الشيعة في قبول الأعمال

أمّا الحب غير المبغض لأهل البيت عليه السلام ، فله درجة من المقبولية ، لكنّها لا تصل إلى حد ودرجة مقبولية الشيعي المتولي الناصر لأهل البيت عليه السلام ؛ وهذا هو مقتضى اعتقادنا بحقانية مذهبنا ، وأنّ الولاية فيه معنى التولي والنصرة والطاعة والاتباع والتسليم لهم عليه السلام ، وعلى طبق ذلك حكم محدّثونا وفقهاؤنا ومتكلّمونا .

قال المجلسي رحمته الله في البحار : (وأمّا غير الشيعة الإمامية من المخالفين وسائر فرق الشيعة ممّن لم ينكر شيئاً من ضروريات دين الإسلام ، فهم فرقتان : إحداهما المتعصّبون المعاندون منهم ممّن قد تمّت عليهم الحجّة ، فهم في النار خالدون ، والأخرى المستضعفون منهم وهم الضعفاء العقول مثل النساء العاجزات ، والبُله وأمثالهم ومن لم يتمّ عليه الحجّة ممّن يموت في زمان الفترة ، أو كان في موضع لم يأت إليه خبر الحجّة فهم المرجحون لأمر الله ، إمّا يعذبهم وإمّا يتوب عليهم ، فيرجى لهم النجاة من النار)^(١) وليس هذا إلا لدرجة من المقبولية لعدم البغض والعناد .

وذكر مراجعنا في كتبهم الفقهية : أن الإسلام هو الإقرار بوحدانية الله تعالى ونبيّه محمد وبما جاء به من عند الله تعالى ، فالكافر هو الذي لا يتدين بذلك ، إمّا لعدم اعتقاده بدين أصلاً أو لتدينه بدين غير الإسلام بالمعنى المذكور ، وأنّ إنكار الضروري من الدين إن رجع إلى عدم الإقرار به بعد العلم بإنزاله من قبل الله تعالى أو إلى تكذيب النبي صلّى الله عليه وآله في

(١) بحار الأنوار ، المجلسي : ج ٨ ص ٣٦٣ .

تبليغه به بعد العلم بتبليغه له كان موجباً للكفر ، وإن رجع إلى عدم العلم بثبوتيه في الدين أو تبليغ النبي ﷺ لم يوجب الكفر ، كما إذا نشأ من الجهل بتحريمه ، أو من شبهة اعتقد معها عدم التحريم^(١) .

وقال الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء : فَمَنْ اعتقد بالإمامة بالمعنى الذي ذكرناه فهو عندهم مؤمن بالمعنى الأخص وإذا اقتصر على ترك الأركان الأربعة فهو مسلم ، ومؤمن بالمعنى الأعم وتترتب عليه جميع أحكام الإسلام من حرمة دمه وماله وعرضه ووجوب حفظه وحرمة غيبته ، وغير ذلك ، لا أنه بعدم الاعتقاد يخرج عن كونه مسلماً . معاذ الله . نعم يظهر أثر التدين في منازل القرب والكرامة يوم القيامة ، أما في الدنيا فالمسلمون بأجمعهم سواء ، وبعضهم لبعض أكفاء ، وأما في الآخرة فلا شك أن المسلمين تنفاوت درجاتهم ومنازلهم ، حسب نياتهم وأعمالهم ، وأمر ذلك وعلمه إلى الله سبحانه ، ولا مسوغ للبت به لأحد من الخلق^(٢) .

والحاصل : هو تفاوت الولاية ودرجاتها وتفاوت المقبولية ودرجاتها إلا المبغضين المعاندين فهم لا خلاق لهم ، ولا يقام لهم يوم القيامة وزن ، وفي النار هم خالدون .

ولا تعجب من ذلك فإن هذا مقتضى تعلل المذاهب واعتقاد الحقانية في واحد منها ؛ ولذا حكم البعض بكفر الشيعة الاثني عشرية ؛ لأنهم لا يقدمون الشيخين ، فضلاً عما يغضهما ، كما جاء ذلك في صحيح سنن

(١) راجع كتبنا الفقهية في هذا المجال .

(٢) انظر : أصل الشيعة وأصولها ، الشيخ كاشف الغطاء : ص ٩٩ .

أبي داود بتعليق الألباني (عن سفيان قال : مَنْ زعم أن عليّاً كان أحق بالولاية منهما فقد خطأ أبا بكر وعمر والمهاجرين والأنصار ، ولا أراه يرتفع له مع هذا عمل إلى السماء) ، وقد صحّحه الألباني ^(١) .
فالمذهب الحق له الدرجات العالية من المقبولية ، والمذاهب الباطلة بحسب اعتقادنا على فرقتين كما ذكر المجلسي ، منهم مَنْ هو إلى جهنّم وبئس المصير ، ومنهم مَنْ يرجى لهم النجاة من النار ، وهذه درجة من المقبولية ، كما أسلفنا ، وهذا شيء وحقّانية المذهب شيء آخر .
فالشيعية إذن يقولون بإسلام جميع الطوائف إلا النواصب مع أن الوهابية كفّروا الشيعة لكونهم شيعة !!

الخلاصة

- ١ . اعتمادا على القرآن وروايات نبينا ﷺ ، يتبيّن أنّ الولاية لأهل البيت ﷺ واجبة على الجميع ، وأدنى درجاتها هي المحبة .
- ٢ . صرّحت الروايات المتواترة عن النبي ﷺ بأن مبغض أهل البيت ﷺ من المالكين ، ويكبّه الله على وجهه في نار جهنّم .
- ٣ . أمّا الذي ليس في قلبه ذرّ من بغض أهل البيت ﷺ ، وكان في قلبه درجة من درجات الولاية والمحبة لأهل البيت ﷺ ، ولم يكن على المذهب الحق فهو المرجى لأمر الله تعالى .

(١) سنن أبي داود ، أبي داود : ج ٣ ص ١٢٦ .

الفهرست

مقدمة الكتاب	٣
منهج البحث	٧
خطة البحث	٧
الفصل الأول : هل الإمامة جعل إلهي ؟	١١
الشبهة :	١١
الجواب :	١١
الإمامة جعل وعهد إلهي :	١٢
الإمامة غير النبوة :	١٣
أهمية الإمامة واستمرارها :	١٤
عصمة الإمام	١٦
دور الإمام في الأمة :	١٧
أقوال علماء السنة في حق أهل البيت عليهم السلام	٢٠
الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام	٢٠
الإمام الحسن والإمام الحسين عليهما السلام	٢٠
الإمام زين العابدين عليه السلام :	٢٢
الإمام الباقر عليه السلام :	٢٤
الإمام الصادق عليه السلام :	٢٧
الإمام الكاظم عليه السلام :	٣٠
الإمام الرضا عليه السلام :	٣٢
الإمام الجواد عليه السلام :	٣٣
الإمام الهادي عليه السلام :	٣٤
الإمام العسكري عليه السلام :	٣٧
تراث زاخر	٤٠
الخلاصة	٤١

الإمامة في القرآن	٤٣
الشبهة :	٤٣
الجواب :	٤٣
أولا : القرآن ينص على الإمامة	٤٥
ثانيا : السنّة النبويّة تنص على الإمامة	٤٩
الخلاصة	٥٠
آية الولاية لا تختص بعلي عليه السلام	٥١
الشبهة :	٥١
الجواب :	٥١
أولا : كثرة استعمال الجمع وإرادة المفرد في القرآن	٥١
ثانيا : استعمال الجمع وإرادة المفرد سائغ في لغة العرب	٥٣
ثالثا : الاعتراض المذكور يتنافى مع الروايات المتواترة	٥٣
رابعا : الاعتراض غريب لهم يعهد من الصحابة ولا من التابعين	٥٨
خامسا : جواب الزمخشري	٥٨
الخلاصة	٥٩
آية الولاية لا تعني الأولى بالتصير "	٦٠
الشبهة :	٦٠
الجواب :	٦٠
الاستدلال على المستوى اللغوي :	٦٠
الاستدلال على المستوى القرآني :	٦١
الاستدلال على المستوى الروائي :	٦٣
كيف تستدل الشيعة بشأن النزول ؟	٦٧
الشبهة :	٦٧
الجواب :	٦٧
الخلاصة	٦٨

المعروف أن عليًا فقير فكيف يتصدق ؟	٦٨
الشبهة :	٦٨
الجواب :	٦٨
الخلاصة ..	٧٠
آية البلاغ تدل على أنه ﷺ لم يبلغ سابقا ..	٧٠
الشبهة :	٧٠
الجواب :	٧٠
الخلاصة ..	٧٤
لا وجود لاسم علي في القرآن ..	٧٥
الشبهة :	٧٥
تمهيد:	٧٦
الوُلى : القرآن تبيان لكل شيء ..	٧٦
الثانية : يجب اتباع ما أمر به الله ورسوله ﷺ ..	٧٧
الجواب :	٨٠
أولا : عدم ذكر الاسم لحكمة إلهية ..	٨٠
ثالثا : ذكر الوصف أبلغ في التأثير من ذكر الاسم ..	٨١
رابعا : ذكر علي في القرآن يدعو البعض لانتحال اسمه ..	٨٢
خامسا : لو ذكر اسم علي لحذفه المنافقون ..	٨٢
سادسا : ذكر الاسم لا يعني حسم النزاع ..	٨٣
سابعا : ذكر الاسم في القرآن داعية لاتهام الشيعة ..	٨٣
ثامنا : لا ينبغي التشكيك في إمامة علي عليه السلام ..	٨٤
الخلاصة ..	٨٤
آية التطهير لا تختص بأئمة الشيعة ..	٨٦
الشبهة :	٨٦
الجواب :	٨٦

الخلاصة.....	٩٦
الفصل الثاني: حديث الخلفاء الاثني عشر في كتب أهل السنة.....	٩٧
مدخل.....	٩٧
حديث الخلفاء الاثني عشر في كتب أهل السنة.....	٩٩
الشبهة المطروحة حول الحديث.....	٩٩
وفي مقام الجواب عن هذه الشبهة نقول :.....	٩٩
حديث الاثني عشر في كتب أهل السنة :.....	١٠٠
مَن هم الخلفاء الاثنا عشر ؟.....	١٠٤
محاولات أهل السنة في تفسير حديث الخلفاء.....	١٠٥
المحاولة الأولى : لابن العربي.....	١٠٥
المحاولة الثانية : لابن المهلب.....	١٠٦
المحاولة الثالثة : للسيوطي.....	١٠٦
المحاولة الرابعة : لأبي الحسين ابن المنادي.....	١٠٧
المحاولة الخامسة : للقاضي عياض.....	١٠٧
المحاولة السادسة : لابن الجوزي.....	١٠٧
المحاولة السابعة : للبيهقي.....	١٠٨
التفسير الواقعي لحديث الاثني عشر.....	١٠٩
جملة من الشواهد على المراد الواقعي.....	١١٠
الأئمة لم تجتمع على أهل البيت عليهم السلام	١٣١
الخلاصة.....	١٣٢
الفصل الثالث: غيبة الإمام المهدي (عجل الله تعالى فرجه الشريف).....	١٣٤
الشبهة :.....	١٣٤
الجواب :.....	١٣٤
تمهيد :.....	١٣٤
هوية الغيبة.....	١٤١

دوام الإمامة واستمرارها لطف إلهي	١٤١
لو لا الحجّة لساخت الأرض بأهلها	١٤٣
الغيبة لطف إلهي	١٤٥
حقيقة الغيبة : خفاء الهوية والعنوان لإخفاء الشخصية	١٤٦
ما الفائدة من الإمام الغائب ؟	١٤٨
إدارة الإمام (عجل الله تعالى فرجه الشريف) في زمن الغيبة	١٤٩
وجه التشابه بين الخضر عليه السلام والإمام المهدي (عجل الله تعالى فرجه الشريف)	١٥٢
قصة الخضر	١٥٣
خصائص الحكم الإلهي	١٥٦
دور الإمام (عجل الله تعالى فرجه الشريف) في درء الفساد	١٦١
خلفيات وفوائد أخرى للغيبة	١٦٤
أولا : حفظ شخصية الإمام (عجل الله تعالى فرجه الشريف)	١٦٤
ثانيا : التمحيص	١٦٨
ثالثا : انكشاف عجز وبطلان الأطروحات الأخرى	١٧٥
رابعا : تحلّي مفهوم الانتظار في أحضان الغيبة	١٧٦
خامسا : عدم انقطاع سلسلة حجج الله في الأرض	١٧٩
سادسا : لكي لا تكون في عنقه بيعة لظالم	١٨٠
سابعا : الغيبة سرٌّ إلهي	١٨٣
دعوى المهدوية والسفارة	١٨٦
مدّعي المهدوية والسفارة في التاريخ الإسلامي	١٨٦
الدليل على بطلان دعوى المهدوية والسفارة في عصر الغيبة الكبرى	١٨٨
الفهم الصحيح لعلامات الظهور	١٩٠
الخلاصة	١٩١
الفصل الرابع: بطلان دعوى النص على خلافة أبي بكر	١٩٣

الشبهة :	١٩٣
الجواب :	١٩٣
أولاً : الروايات الصحيحة وأقوال الصحابة الصريحة الدالة على عدم النص على أبي بكر :	١٩٣
ثانيا : إنكار علماء السنّة وجود نص دال على خلافة أبي بكر منها :	١٩٥
ثالثا : الشواهد القطعية على عدم النص على أبي بكر ، منها :	١٩٨
رابعا : معالم تحرك الحزب القرشي :	٢٠٤
خامسا : سياسات السلطة الحاكمة يكشف عن عدم الشرعية	٢١٦
الخلاصة	٢٢١
الفصل الخامس: عصيان الصحابة	٢٢٤
الشبهة :	٢٢٤
الجواب :	٢٢٤
خلفيات عدول بعض الصحابة عن وصيّة رسول الله ﷺ	٢٢٧
أولاً : الحرص على كرسي الزعامة	٢٢٧
ثانيا : دور المنافقين والذين في قلوبهم مرض	٢٢٨
ثالثا : التنافس والنزاع بين القبائل	٢٢٨
رابعا : التناحر والتحاسد بين المهاجرين والأنصار	٢٣٢
خامسا : سياسة الإرهاب في السقيفة	٢٣٣
سادسا : مخالفات الصحابة لرسول الله ﷺ	٢٣٤
١ . عصيان أوامر النبي ﷺ	٢٣٤
٢ . الفرار في معركة أحد	٢٣٦
٣ . الفرار في يوم حنين	٢٣٦
٤ . اعتراض الأصحاب على الرسول ﷺ في الحديبية	٢٣٧
٥ . الإشفاق من التصقّد	٢٣٨
٦ . عدم إنفاذ جيش أسامة	٢٣٩
٧ . الارتداد والانقلاب على الأعقاب	٢٣٩

الخلاصة.....	٢٤٣
الفصل السادس: العصمة والغلو.....	٢٤٥
الشبهة :	٢٤٥
الجواب :	٢٤٥
منشأ العصمة :	٢٤٦
الدليل العقلي على عصمة أهل البيت عليهم السلام	٢٥٠
الأدلة القرآنية على عصمة الأئمة عليهم السلام	٢٥١
بيان الاستدلال :.....	٢٥١
والجواب عن ذلك بالبيان التالي :	٢٥٢
الأدلة الروائية.....	٢٥٧
أولاً : حديث الثقلين	٢٥٧
دلالة الحديث على عصمة أهل البيت عليهم السلام	٢٥٨
ثانياً : النص على العصمة والطهارة.....	٢٥٨
ثالثاً : طاعتهم طاعة لله ولرسوله صلوات الله وسلامه عليه	٢٥٩
الخلاصة.....	٢٦٠
منشأ العصمة	٢٦٠
الدليل العقلي على عصمة أهل البيت عليهم السلام	٢٦١
الأدلة القرآنية على عصمة الأئمة عليهم السلام	٢٦١
الأدلة الروائية على عصمة أهل البيت عليهم السلام	٢٦١
مقام الوصي	٢٦٢
الشبهة :	٢٦٢
الجواب :	٢٦٢
أقوال علماء الشيعة.....	٢٦٤
الوحي انقطع بموت النبي صلوات الله وسلامه عليه	٢٦٦
أقسام الوحي.....	٢٦٧

الخلاصة.....	٢٧٠
تأليه الإمام عند الشيعة.....	٢٧١
الشبهة :	٢٧١
الجواب :	٢٧١
مواقف علمائنا من الغلاة.....	٢٧٣
الخلاصة.....	٢٧٩
الولاية عند الشيعة أهم من التوحيد.....	٢٨١
الشبهة :	٢٨١
الجواب :	٢٨١
أولاً : التوحيد أساس الدين.....	٢٨١
ثانياً : ترابط أصول الدين.....	٢٨٣
ثالثاً : الولاية فرع التوحيد.....	٢٨٤
الخلاصة.....	٢٨٥
علم أهل البيت عليهم السلام بالغيب غلو.....	٢٨٦
الشبهة :	٢٨٦
تمهيد :	٢٨٦
علم النبي صلى الله عليه وآله وسلم	٢٨٦
والسؤال هو : ما هي حقيقة وجوه علم النبي صلى الله عليه وآله وسلم ؟.....	٢٨٧
أفضلية نبينا صلى الله عليه وآله وسلم على سائر الأنبياء.....	٢٨٨
الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أعلم الأنبياء على الإطلاق.....	٢٩١
الأنبياء يعلمون الغيب.....	٢٩٢
شواهد من علم الأنبياء بالغيب.....	٢٩٣
إخبار نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم بالغيب.....	٢٩٤
علم أهل البيت عليهم السلام	٢٩٥
الدليل العقلي على علم الإمام.....	٢٩٦

الأدلة القرآنية على علم الإمام	٢٩٨
دعوة النبي إبراهيم لذريته	٢٩٨
الإمامة في الذرية سنّة قرآنية	٣٠٠
ما هو الاصطفاء ؟	٣٠١
الاصطفاء والعدالة الإلهية	٣٠٢
الذرية الصالحة للأنبياء عناية إلهية	٣٠٣
تقبّلهم في الأرحام المطهّرة	٣٠٤
أبعاد أخرى	٣٠٤
أوّلاً : البعد التاريخي	٣٠٥
ثانياً : البعد الرسالي	٣٠٥
ما هي حقيقة وراثة الأنبياء ؟	٣٠٦
أهل البيت عليهم السلام وراثة الأنبياء	٣٠٧
١ . الإمام علي وذريته عليهم السلام وارثو رسول الله	٣٠٧
٢ . الأنبياء يقرّون بولاية علي وذريته عليهم السلام	٣٠٩
٣ . أهل البيت عليهم السلام وراثة الكتاب	٣٠٩
أعلميّة أهل البيت في القرآن الكريم	٣١١
حقيقة علم الكتاب	٣١٢
حدود علم الكتاب	٣١٣
مَن الذي عنده علم الكتاب ؟	٣١٤
الإمام علي عليه السلام أحصى علم كل شيء	٣١٤
اختصاص أهل البيت عليهم السلام بعلم الكتاب	٣١٦
مَن هم المطهّرون ؟	٣١٩
الروايات الخاصة في علم أهل البيت عليهم السلام	٣٢٢
١ . علم الأنبياء عند أهل البيت عليهم السلام :	٣٢٢
٢ . علم الكتاب كلّهُ عند أهل البيت عليهم السلام :	٣٢٢

هل أن أهل البيت عليه السلام يعلمون الغيب ؟	٣٢٤
وجه المغالطة	٣٢٤
وحاصل ما تقلم :	٣٢٧
أهل البيت عليه السلام يعلمون الغيب	٣٢٧
هل الاعتقاد بعلم النبي وأهل بيته بالغيب غلو ؟	٣٢٩
تعظيم أهل البيت عليه السلام جذره قرآني	٣٣٣
فلسفة هذا التعظيم	٣٣٦
أهل البيت عليه السلام وظاهرة الغلو	٣٣٧
موقف علماء الشيعة من الغلاة	٣٣٨
الخلاصة	٣٣٩
أهل البيت عليه السلام وعلمهم بالغيب	٣٤٣
هل التعظيم للرسول ﷺ وأهل بيته غلو ؟	٣٤٣
ميزان قبول الأعمال	٣٤٤
الشبهة :	٣٤٤
الجواب :	٣٤٤
الولاية في نظر أعلام السنّة	٣٤٤
قبول الأعمال بالولاية	٣٤٥
روايات الولاية في الكتب السنّية	٣٤٧
رأي علماء الشيعة في قبول الأعمال	٣٤٩
الخلاصة	٣٥١